

مغامرات مع لورَنس في جزيرة العرب

للرّحالة الكاتب الأميركي: لويل توماس

ترجمة: د. أحمد إيبش



روّاد المشرق العربي

مغامرات مع لورَنس في جزيرة العرب

أثناء الثّورة العربيّة الكبرى 1916-1918

للكاتب الرّحّالة الأميركي

لويل توماس

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش



فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

D568. 4. L45 T5312 2013
Thomas, Lowell, 1892-1981
مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب: قصة الثورة العربية الكبرى 1918-1916/ للكاتب الرحالة الأميركي: لويل توماس؛ ترجمة وتعليق: أحمد إيبش. ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.
ص.؛ سم. - (رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب: With Lawrence in Arabia
تدمك: 7 - 173 - 17 - 9948 - 978
1. Lawrence, T. E. (Thomas Edward), 1888-1935
2. الثورة العربية الكبرى، 1920-1916. 3. العالم العربي -- تاريخ -- العصر العثماني، 1924-1916. 4. العالم العربي -- العلاقات الخارجية -- بريطانيا. 5. بريطانيا -- العلاقات الخارجية -- العالم العربي. أ. إيبش، أحمد. ب. السلسلة. ج. العنوان.





الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabdhabi.ae
www.tcaabdhabi.ae

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّـياحة والثّقافـة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيـرة العرب بوجه الخصوص، كتابـاً جديداً من هذه السّلسـلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنـوان: «روّاد المشـرق العربـي». وهـي مـن خلالهـا تعكـس اهتمامها بتـراث الآباء والأجـداد، كمصـدر فخـر لشـعب الإمـارات وإلهامهـم وعنـوان أصالتهـم وهويّتهم الوطنيّـة، وذلك من خـلال الحرص على جمع كافّـة المصادر المتعلّقـة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا اسـتعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشـر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعـه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشـرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشـر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسـعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شـتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسـفة والفكر الإنساني، الفنون، وسـائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسـة ورياضيّـات وصيدلـة وكيمياء. ومنها أيضـاً الأدب الجغرافـي العربي وأدب الرّحلات.

ومـا دُمنـا بصدد ذكـر تُراثنا الجغرافي، فلا بُـدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيّـاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة

المؤلف والكتاب

قد يكون توماس إدوارد لورَنس Lawrence of Arabia أشـهر من أن يُعرّف، لكن محاولـة تعريفـه تصطـدم بحقيقة أنّ العشـرات من الكتّـاب والباحثين انقسـموا حول شـخصية (لورَنس العرب)، فمنهم من يراه جاسوسـاً ذكياً اندسّ بين العرب لأغراض استعمارية، ومنهم من اعتبره أسطورة إنكليزية، وبين هؤلاء وأولئك، وقف فريقٌ ثالث يحـاول التوفيـق بين الرّأيين. لقد حازت شـخصية لورَنس على تألّـق فريد نتيجةً لثورة الجـدل التـي قامت حولـه ولا تزال، وعلى حجم مشـاركته وأهميتها فـي ثورة العرب الكبرى التي فجّرها الأشراف الهاشميّون أثناء الحرب العالمية الاولى. والذين تناولوا شـخصية «لورَنس» من الغربيين اعتبروه أسـطورة، وأوصلوه الـى الذّروة، حتى وقف مع «ناپوليون» و«نلسـون» و«تشرشل» و«برنارد شو» وغيرهـم، كما اعتبروه ثروة قومية قام بكسـر شـوكة الأعداء من الأتراك والألمان، ممّا أدّى إلى تقسـيم المنطقة العربية، وتقديمها لقمة سائغة للغرب.

أمّـا الشّـرقيـون الذيـن كتبـوا عنـه، فقـد حملـوا فـي أذهانهـم صـورة المسـتعمر والجاسـوس البريطانـي ومقسّـم الأمّـة ومحطّـم دولـة الخلافـة الاسـلامية وفاتـح الشـرق أمام المسـتعمرين البريطانيين والفرنسـيين، فهو لا أكثر من شـكل من أشكال المستعمرين، وإن كان قد قدّم نفسه بذكاء ودهاء إلى أن وصل إلى صانعي القرار وفعل فعلته وانسلّ.

وهنالـك صـورة رسـمها لورنس لنفسـه مـن خلال مـا كتبه فـي مذكراتـه وكتابيه،

والوثائق التي أفرجت عنها وزارة الخارجية البريطانية. غير أنّ بداية ظهور أسطورة هذا الرّجل الغامض كانت في محاضرة ألقاها في كوفِنت غاردن بلندن الكاتب والمغامر الأميركي لويل توماس بدءاً من 14 أغسطس من عام 1919، وبكتاب نشره عام 1924 في كلّ من لندن ونيويورك بعنوان: *With Lawrence in Arabia* «مع لورَنس في جزيرة العرب»، وها هو ذا نقدّمه لقرّائنا الكرام في هذه السّلسلة، وإن كنّا قد غيّرنا في عنوانه قليلاً ليلائم الذّائقة الأدبيّة العربيّة بشك أفضل.

أمّا مؤلّف الكتاب لويل توماس Lowell Thomas فهو كاتب وصحافي ومذيع ومؤلف أميركي شهير، ولد في وودينغتون بولاية أوهايو عام 1892 ومنذ كان في العشرينات من عمره عمل مراسلاً حربياً في أوروبا والشّرق الأوسط، إبّان الحرب العالميّة الأولى وحروبها الطّاحنة. يعود إليه السّبق في خلق أسطورة توماس إدوارد لورَنس كبطل جماهيري، باعتماد المبالغة والرّوايات الخياليّة والحبكات الدّراميّة التي يخالط الكثير منها بُعدٌ شاعري. ويرى الكثيرون من مثقفينا العرب أنّ ذلك كان ينطوي على مبالغة كبيرة وإغفال لدور العرب أنفسهم في خوض الحرب وإدارتها، ونسب فضلها الأكبر للورَنس وزملائه من الضّبّاط.

وبعد ذلك اشتهر لويل توماس بأحاديثه الإذاعيّة على راديو CBS وبرامجه التلفزيونيّة التي بدأت منذ عام 1930 ودامت لجيلين كاملين منذ بداية عصر التلفزيون، وعدا ذلك صدر له أكثر من 50 كتاباً حول رحلاته ومغامراته القيّمة. ومنها هذا الكتاب الذي صدرت منه عشرات الطبعات وبيعت منه أعداد قياسيّة فاقت المألوف في ذلك العصر.

* * *

بعدما كنا نشرنا في هذه السّلسلة كتاب لورَنس «ثورة في الصّحراء»، يسرّنا أن نردفه بهذا الكتاب الشّائق والممتع، الذي لم يطّلع عليه قرّاء العربيّة حتى الآن. وقد اعتمدتُ على الطّبعة الأولى التي صدرت بلندن عام 1924 وكذلك على طبعة أخرى مماثلة

صـدرت في نيويـورك بالعام ذاته، بالإضافة إلى الطبعة العشـرين التي صدرت عن دار هَتشينسون بلندن حوالي عام 1930 وتمتاز بزيادة كبيرة في الصّور.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 20 يناير 2012

د. أحمد إيبش

توماس إدوارد لورَنس
بين الواقع والأسطورة

عند استعادة تاريخ الكولونيل توماس لورَنس، نلاحظ أنه جُسّد كشيء يفوق قدرات البشر: شخصية لا يمكن رسم ملامحها وسجاياها بيُسر. ومع أنّ المؤلفات الكثيرة المختصّة بسيرته الذاتية والرّوايات الشّعبية حوله، تغرينا بأن نرسم ملامح وسجايا شخصيته، بشيء من التّبسيط، فإن الحقيقة تؤكد، على أننا ها هنا، إزاء رغبة عصيّة على التّحقيق. من ناحية أخرى، جسّدت شخصية لورَنس، بنحو نادر المثال، التحوّل من البطل إلى نقيضه، والذي ترك بصماته على أدب القرن العشرين بلا أدنى شك.

إلّا أن توماس إدوارد لورَنس، لم يكن من صنع الخيال الأدبي. فلقد عاشت هذه الشّخصية وعانت حقاً وحقيقةً. وبما أن لورَنس كان قد غدا أسطورة في أيام حياته، ولما كان قد حجب شؤونه الخاصة عن تطفّل الصّحافة، لم يُحِط الرّأي العام علماً، بروحه المتشكّكة، وبمدى ما تعاني هذه الرّوح من عذاب. وعلى خلفية هذه الصّورة، التي رسمتها له وسائل الإعلام، وهي صورة دأبت على جعله من عالم غير عالم بني الإنسان، استبقت شخصيته الزّمن، وراحت تشير بإصبعها إلى المستقبل، محذّرة منذرة ممّا يضمره عصرنا.

ومهما كانت الحال، فإنّ مطاردة الصّحافة له، عكّرت عليه مباهج الحياة، وأضاعت عليه مرتين فرصة العمل، التي هويها من القلب، نعني عمله في القوى الجوية. ولمرّات كثيرة، وحتى قبل فترة وجيزة من وفاته، تعيّن على لورَنس أن يهرب من ملاحقة الصّحفيين له، حتى توفي إثر تعرّضه في عام 1935، أي في السّادسة والأربعين من

العمر، لحادث مرور، كان سببه يعود إلى سقوطه من دراجته النّارية، التي كان يقودها بسرعة كبيرة، ليس هروباً من ملاحقة الصّحفيين له، إنما هروباً من روحه وذاته.

وإذا كان قد خلّف ميراثاً معيّناً، فإنّ تأثيره السّياسي في الشّرق الوسط - في البداية، بصفته ضابطاً بريطانياً كلفته بلاده بالاتصال بالقوات العربية المتمرّدة على الحكم التركي، ومن ثم، بصفته دبلوماسياً شارك في مؤتمرات، كانت ترمي، إلى إعادة رسم خريطة الشّرق الوسط، بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية - لم يبق منه إلا القليل، أو، وبتعبير أصحّ، لم يبق منه أيّ شيء في الواقع. ومن وجهة نظر اليوم الرّاهن، يمكن القول، إنّ ميراثه أصبح ذا طبيعة معنوية صرفة. إنه ميراث إنسان دأب، بكل إصرار، على رفض الاتجاه العام، دأب على رفض ما ينتظره منه المجتمع، إنه ميراث إنسان ناضل، تحت وطأة عذابات بيّنة، ملموسة، من أجل تحقيق القيم التي آمن بها، والأهداف التي كان ينشدها، والمثال العليا التي كان يهتدي بها، محاولاً، بموهبة يتميز بها العباقرة، تحقيق ما كان يناضل من أجله، في العديد من مناطق العالم. وفضّل لورَنس، الإنسان الذي كان قادراً بيسر أن يكون وفير الثّروة المالية، أن يكسب قوت العيش من خلال ترجمة إلياذة هوميروس إلى الإنكليزية نقلاً عن نصّها الإغريقي الأصلي.

هذه التّرجمة، لا تزال جديرة بالقراءة، باعتراف الكثير من أهل الخبرة. وكان لورَنس قد آثر العمل الميداني في موقع أثري سوري، لسنوات عديدة، وفي ظلّ ظروف قاسية، على ممارسة العمل الأكاديمي في مدينة أوكسفورد، كمحاضر في علم الآثار. وأدرك، في وقت مبكر، ما تقدّمه الصّور الفوتوغرافية، من فرص كثيرة ومهمّة، فكلّف أصحاب الشّأن بتصنيع آلة تصوير تناسب متطلباته، معروضة الآن في متحف العلوم في مدينة أوكسفورد كأثر يحظى باهتمام الزّائرين وإعجابهم. وبهذه الكاميرا، استطاع لورَنس أن يوثق ما قام به من عمليات تنقيب وما اكتشف من تحف أثرية. وكانت قيادته للثّورة العربية على الحكم العثماني، في الحرب العالمية الأولى، قد مكّنته من توثيق هذه الثّورة، والمناظر الطّبيعية في جزيرة العرب، من خلال صور فوتوغرافية مثيرة للدّهشة.

وبإعجابه الشّديد بالاكتشافات والابتكارات التكنولوجية الجديدة، كان لورَنس

ابـن عصـره فعـلاً، كان ابن عصره ليـس بمعنى أنـه كان يهرول وراء هذه الاكتشـافات والابتـكارات، وليـس بمعنى أنه كان يحـاول تقليدها، بل بمعنى أنه كان يسـبق عصره دائمـاً وأبداً، ولو بخطوة واحدة. وإذا كان الشّـاعر الفرنسـي رَمبو قد كتب عام 1870: «على الإنسان أن يكون عصرياً بلا قيد أو شرط»، فإن الأمر الذي لا شكّ فيه، أن لورَنس كان عصرياً بكل المعنى وأنّ زمالته لأنصار العلوم لم تكن بمحض الصّدفة قط.

إن التحرّك بسـرعة فائقة، حظي بإعجاب لورَنس على مدى حقب طوية من حياته، وأنهـى هذه الحيـاة أيضاً. فهو دأب على قيادة أحدث وأفضـل الدّراجات النّارية، التي كانـت تنتجها المصانع الشّـهيرة التابعة للشـركة الإنكليزيـة Brough - علماً بأن قيادة الدّراجـات النّاريـة هـي الهواية الوحيدة، التي كان لورَنس يمتع نفسـه بهـا، والتي كان يوظّف شـهرته مـن أجلها، حينما لا يكفي مـا لديه من مال لاقتناء أحـدث طراز. ولما كانـت الرّحلة بالباخرة من إنكلترا إلى القاهرة تسـتغرق زمنـاً طويلاً، ولا تلبّي طموحه للتحرّك بسـرعة فائقة، فقد اسـتقل لورَنس، برغم المخاطر، طائرة تقادم عهدها ما قبل الحرب العالمية الأولى.

وإثـر هبـوط الطّائرة بنحـو اضطـراري، انتهت هذه الرّحلـة بتحطم الطّائـرة ومقتل القبطانيـن وتعرّض لورَنس لكسـر فـي التّرقوة. وانضمّ لورَنس، فـي الزّمن التّالي، إلى وحـدة مـن وحدات سـلاح الجو، كانـت مكلّفة بتطويـر واختبار قوارب سـريعة، كان المراد منها انتشـال الطّيارين، الذين تسـقط طائراتهم في البحار. وكان انضمام لورَنس إلى هذه الوحدة قد اسـترعى انتباه صحيفة «صنداي كرونيكل» *Sunday Chronicle*. إذ نشـرت هذه الصّحيفة في الثّامن والعشرين من أغسـطس عام 1932 تحقيقاً صحفياً بعنـوان: «الكولونيـل لورَنـس: الرّجل الـذي يقف وراء مـا لدى بريطانيـا العظمى من طيّـارات وسـيارات وقوارب سـريعة». ومع أن الجزء الأعظم مـن التحقيق الصّحفي، كان من محض الخيال، إلا أنه مع هذا أزاح السّتار عن واحدة من سجايا لورَنس.

كان الولـع بالكتب واحداً مـن الأمور التي ما كان هذا المتقشّـف، غريب الأطوار، قادراً على مقاومتها. وعلى خلفية هذا الولع الجموح، كان لورَنس يتمنّى، طوال حياته،

أن يغدو ناشـراً، متخصّصاً بنشر الكتب بطبعات فاخرة. من هنا، لا عجب أن نراه ينشر مؤلفه الرّئيسـي «أعمدة الحكمة السّـبعة» *Seven Pillars of Wisdom*، كاملاً، أي بلا حذف أو اختصار، وبطبعة فاخرة، مكلفة مالياً، وغنية بالصّور الملونة، ويعجز عن دفع ثمنهـا القارئ العادي. غير أنّ لورَنس قد أجاز نشـر طبعة عادية، في السّـوق الأميركية فقـط، ودرّت عليـه هـذه الطّبعـة الكثير من المال. ويعود تردّد لورَنس في مسـألة نشـر مؤلفه الرّئيسي، إلى إعلائه من قيمة التأليف الأدبي.

وإذا أخذنا بالاعتبار، أن لورَنس قد أضاع حقيبته الصّغيرة، الحاوية على مخطوطة، كادت أن تكـون نسـخة كاملة من مؤلفه «أعمدة الحكمة السّـبعة»، فـي صالة الانتظار الكائنـة في محطة قطار تابعة لقرية صغيرة، وأنـه لم يعثر على هذه الحقيبة ومحتوياتها قـطّ، تبـدو لنـا هـذه الواقعة كما لـو كانت واحدة مـن زلّات اللّسـان، التي أشـار إليها سـيغموند فرويد، كما لو كانت زلّة لسـان، اقترفها أديب بلا وعي ومع الإصرار، أديب دأب علـى تأجيـل الانتهاء من كتابة ونشـر مؤلفه الرّئيسـي، المرّة تلـو الأخرى. إلا أن ذاكـرة لورَنس القوية، وهمّته العالية، وحماسـته المتميّزة، انتصرت في نهاية المطاف: فقد كتب، من جديد، كل ما سبق له أن كتبه في المخطوطة الضّائعة.

وتنطوي ممارسـة توماس إدوارد لورَنس لعمليـة التأليف على معنى أخر. فلورَنس خطّـط لكتابة مؤلَّف بعنوانه «أعمدة الحكمة السّـبعة»، فـي وقت مبكر، أيام عمل منقّباً أثرياً في سوريا. وكان قد استقى العنوان من العهد القديم، من أمثال سليمان، الإصحاح التاسـع، الفقرة 1، إذ يـرد هناك: «الحكمة بَنَـتْ بيتها. نحتت أعمدتها السّـبعة». وكان لورَنس ينوي تأليف كتاب يصف رحلة إلى بلاد الشّـرق، يتحدث فيه لورَنس عن كافة المدن التي تعرف عليها بالعيان باسـتثناء بغداد: القسـطنطينية، القاهرة، سميرنا (إزمير حاليـاً)، حلـب، القدس، دمشـق، بغداد. وحين صـدر هذا الكتاب، فـي وقت لاحق، (عام 1926 بطبعته الفاخرة، وعام 1927 في الولايات المتحدة الأميركية بطبعة شـعبية مختصرة، وفي عام 1935 كطبعة عادية كاملة) بنفس العنوان ولكن بمحتوى مختلف، بمحتـوى يتنـاول وقائع الحرب، كان لورَنس قد غدا شـخصية شـهيرة، ذائعة الصّيت،

وكان الكتاب قد بات، خلافاً لمعايير لورَنس الأدبية، مذكرات تسرد الوقائع الحربية، مثلها في ذلك مثل مؤلفات أخرى كثيرة، تناول فيها مؤلفوها الوقائع الحربية بمستويات أدبية متباينة، وأغرقت بها دور النّشر المختلفة الأسواق بعد نهاية الحرب العالمية.

أضف إلى هذا، أنّ مؤلّف لورَنس كان قد جسّد، أيضاً، نوعاً من أنواع أدب السّيرة الذاتية، وجسّد أيضاً السّيرة الذاتية لشخصية ذائعة الصّيت – وبالتالي فإنه، ما كان أدباً رفيعاً، يتناول سيرة مستوحاة من وحي الخيال، بل كان مؤلفاً يستعرض عن كثب وقائع تاريخ معاصر، ويرسم صوراً لشخوص حقيقيين معروفين، كان لورَنس محقاً فعلاً حين خشي أن تؤدّي الصّور، التي يرسمها لهم، إلى توريطه في خوض نزاعات معهم (أو لنقل: إنها ورطته فعلاً في خوض نزاعات معهم).

إلا أنّ ثمّة جانباً آخر أكثر إشكالية: فعلى نحوٍ لا مفرّ منه، تعيّن على المذكرات المتناولة للوقائع الحربية بأسلوب أدبي رفيع، والمكتوبة بقلم بطل خاض غمار الحرب وذاع صيته في كل الآفاق، أن تكتسب الشّهرة من شهرة بطولات مؤلفها وأن تزيد من شهرة هذه البطولات أيضاً.

إلا أن هذه الحقيقة، لا تغيّر شيئاً، في الإشكالية التي تنطوي عليها «أعمدة الحكمة السّبعة»، أعني كونها مذكراتٍ، تتناول وقائع حربية تارة، ومؤلفاً أدبياً، رفيع المستوى والأسلوب، تارة أخرى. بيد أن هذا الكتاب أكثر من سيرة ذاتية، ومؤلف أدبي: فمن بين السّطور، يلمس القارئ، دفاعاً سياسياً عن حقّ العرب بالاستقلال، ويستنتج إدانة قوية، للاستعمار البريطاني، ويعيش أجواء هيام واضح بالتّضاريس الطّبيعية في شبه الجزيرة العربية، ويسمع تغنياً صادقاً بأسلوب الحياة البدوية، ويكتسب صورة لا محلّ فيها لأية ضغينة دينية، أو لأي عداء للإسلام. هذا التّنوّع هو الأمر الذي يجعل من «أعمدة الحكمة السّبعة»، مؤلفاً يستحقّ القراءة، في يومنا الحاضر أيضاً، من غير أن يرى المرء فيه قمّة من القمم الأدبية بالضّرورة. ومهما كانت الحال، فبمؤلّفه هذا، جعل لورَنس من نفسه، سواء عن قصد أو بلا قصد منه، أسطورة ترنو إليها الأبصار. وعلى ما يظهر، كان الأمر قد بدا له مختلفاً اختلافاً كلياً: فإن لم يكن لورَنس قد أراد تفنيد

التّصوّرات، بشأن خصائصه الأسطورية، تفنيداً تماماً، فإنه أراد وضع هذه التصوّرات في نصابها على أقلّ تقدير.

وفي الأصل، كانت نشأت التصوّرات المتحدثة عن خصائص لورَنس الأسطورية، جزءاً من الدّعاية، التي اعتمدتها أبواق الدّعاية الرّسمية، إبان الحرب. ويجري التنويه بهذه القصة في الفيلم السّينمائي الشّهير العائد إلى عام 1962 (إخراج: داڤيد لين)، والذي لعب فيه الممثل البريطاني الكبير پيتر أوتول شخصية لورَنس.

* * *

ومن أجل كسب تأييد الجمهور الأمريكي – علماً بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد شاركت في الحرب عام 1917 – للقضية التي يحارب الحلفاء من أجلها، أرسلت وزارة الحربية البريطانية فريقاً صحفياً إلى القاهرة، مكلفاً بتوثيق الصّراع، الدّائر من أجل تحرير القدس، والأراضي المقدسة، من قبضة العثمانيين، المتحالفين مع ألمانيا. فالحرب الدّائرة رحاها في هذا الميدان، كانت تفصح عن منظور أكثر إيجابية، مقارنةً بالخسائر المادّية الفادحة، التي رافقت الحرب الدّائرة رحاها في الجبهة الغربية. وكانت القيادة العسكرية في القاهرة، قد اهتدت إلى فكرة إرسال مصوّر ومراسل صحفي، إلى جزيرة العرب، ليرافقا الجيوش العربية المتمرّدة والضّابط توماس ادوارد لورَنس، الذي كان مكلّفاً بالتنسيق مع هذه الجيوش.

وكان الصّحفي لويل توماس والمصور المرافق له هاري تشايس، قد أدركا في الحال ما تنطوي عليه عمليات لورَنس من قيمة إعلامية (كما يشهد على هذه الطّرفة الفيلم السّينمائي أيضاً، الفيلم المعروف باسم لورَنس العرب). على صعيد أخر، كان لورَنس قد غدا شخصية يتردّد اسمها كثيراً في الصّحافة الأوروپية بعد عام 1918، أي بعد استيلاء الجنرال البريطاني آلِنْبي على القدس. فمنذ هذا الحين، كان لورَنس قد تحوّل حقاً إلى بطل محارب، إلا أنه ما كان بعدُ الرّجل الأسطوري والنّجم السّاطع في وسائل الإعلام. إنه غدا هذا كله، إثر النّشاطات التي مارسها لويل توماس، بعد انتهاء الحرب.

فبما كان لديه من صور، كان لويل توماس يتوافر على المادّة الضّرورية، لتلبية تنامي رغبة الجمهور بعد انتهاء الحرب - التي كبّدت خسائر فادحة في الأرواح والأموال - لرؤية معنى إيجابي في هذه الحرب ولمشاهدة بطل من طراز أبطال العصور القديمة. وبهذا المعنى، فإن أسطورة لورَنس لم تنشأ جرّاء أداء عسكري يفوق العادة (نقول هذا حتى وإن كان البعض يسعى جاهداً لإظهار هذا الأداء بهذا المظهر)، بل كانت حصيلة وسيلة إعلامية جديدة، كان لورَنس، نفسه، قد أولع بها أشد الولع: التّصوير الفوتوغرافي.

وعلى خلفية الصّور التي جمعها من رحلته في الشّرق الأوسط، راح توماس يلقي محاضرات توثقها أحدث وسائل عرض الصّور. وكانت سلسلة المحاضرات قد بدأت في الرّابع عشر من أغسطس عام 1919، في دار الأوبرا الملكيّة المسماة Covent Garden. وفي الثّاني من أكتوبر عام 1919، كتبت الدّايلي تلغراف: «من خلال الصّور التي عرضها على الجمهور، أسبغ مستر لويل توماس على لورَنس، صفة الإنسان المتميّز، بكل تأكيد». وهكذا، نشأت من الآن فصاعداً أسطورة لورَنس.

وفي غضون أربعة أشهر، زار هذه المحاضرات في لندن أكثر من مليون من البشر، بما في ذلك أفرادٌ من العائلة المالكة وقادة سياسيون كثيرون. وفي السّنين التالية، استمع إلى هذه المحاضرات، ما يقرب من أربعة مليون فرد! وبحسب ما كتبه مؤلف سيرة لورَنس، جيريمي ولسون: «رأى المرء في حملة فلسطين آخر حملة صليبية. وتأسيساً على هذا المنظور، رأى لورَنس أنه قد بات يُدفع، دفعاً لا قوة له على مقاومته، للعب دور البطل القومي».

وبالنسبة إلى لويل توماس، كانت هذه المحاضرات، ينبوعاً مالياً لا ينضب. ونأى لورَنس بنفسه عن الضّجّة الدّائرة من حوله، إلى أقصى حدّ ممكن. وفي العاشر من يناير من عام 1920، كتب إلى واحد من معارفه اسمه مَري قائلا: «إن هذه المحاضرات قد بلغت أقصى درجات البشاعة والمَقت، وباتت تعكّر عليَّ صفو الحياة، وذلك لأني لا أمتلك المال الكافي، ولا تساورني الرّغبة الضّرورية لمواصلة لعب الدّور الذي

صوّرني به، أعني دور الدّجال. وكان (يقصد لويل توماس) قد ناشدني أن أراجع مخطوطاته، إلا أن رجاءه هذا كان بالنّسبة لي أمراً مستحيلاً، وذلك لأني ما كنت سأوافق ولا حتى على عشرة بالمئة، ممّا جاء في المخطوطات. فالمراجع ما كان يعلم أين يبدأ في تصويب المعلومات الزّائفة».

وكانت المحاضرات قد تعزّز صداها، بفعل مؤثرات أخرى، مؤثرات حقاً ما كان لورَنس دور مباشر في نشأتها، إلا أنه ساعد على نشأتها بنحو غير مباشر، وبلا قصد منه. فعزوفه عن التّحدث إلى الصّحافة ترك الألسن تتداول الإشاعات بلا انقطاع. فلورَنس كان قد رفض حتى طلب الصّحيفة المرموقة التّايمز لإجراء حديث صحفي معه، وذلك بتبرير جاء فيه: «إنّي أعتذر عن إجراء اللقاء الصّحفي. فأنا لا أهتم أبداً بما يزعم النّاس بشأني أو بما يقولونه عني، إني أتفادى تماماً مساعدتهم في هذه المناحي، ولن أدلي برأيي في هذا كله أبداً. إنه لأمرٌ محرج فعلاً، أن يقرأ المرء اسمه على صفحات الجرائد – ومع أن لويل توماس يعرضني على الجمهور بأسلوب مؤدّب ينم عن لطف ومجاملة، فإني أتمنّى من القلب أن يتركني خارج عروضه المسرحية».

وكيفما اتفق، فالأمر البيّن هو أنّ فضول الصّحافة قد ازداد كثافة، بفعل تكتّمه على ما ينوي عمله مستقبلاً. واستناداً إلى موافقة القيادة العسكرية، عاد لورَنس عام 1922 إلى العمل في صفوف القوات المسلحة باسم مستعار «شو» Shaw وبصفته جندياً بسيطاً في السّلاح الجوي (علماً بأنه كان برتبة كولونيل إبّان الحرب). وحين تعرّف النّاس على حقيقة الشّخص المتخفي خلف الاسم المستعار، تصاعدت كثافة الشّائعات وتعيّن في صيف عام 1928 نقل لورَنس إلى وزيرستان في الهند التّابعة للتّاج البريطاني، أي نُقِلَ إلى المنطقة الحدودية المجاورة لأفغانستان. وعندما تسرّب الخبر إلى وسائل الإعلام، كان بوسع الجمهور أن يقرأ في صحيفة إيفنينغ نيوز *Evening News* الصّادرة في السّادس والعشرين من سبتمبر عام 1928 خبراً مفاده: «لورَنس العرب في مهمّة سرية. يكافح ضد النّاشطين الحمر في البَنجاب. ويتقمّص هيئة رجل دين يرقي ويُشفي المرضى».

وحين اندلعت الثّورة في أفغانستان فعلاً، بعد أسابيع وجيزة من وصول لورَنس إلى الهند، تصاعدت كثافة الشّائعات إلى حدّ دفع البريطانيين لأن يسحبوا لورَنس من المنطقة الحدودية. وفي الحقيقة، فإن لورَنس لم يكن في أفغانستان قط، بل راح، من ثكنته النّائية يترجم إلياذة هوميروس من جديد، ونقلاً عن اللغة اليونانية القديمة - وبهذا المعنى، فقد عرّت الحقيقة زيف هذه الشّائعات بنحو نادر الوقوع فعلاً.

وحين عاد لورَنس إلى بريطانيا، كان في انتظاره في الميناء حشدٌ من الصّحفيين. على صعيد آخر، أثارت مشاركته التالية في تطوير قوارب الإنقاذ السّريعة، بتكليف من السّلاح الجوي، التكهّنات والإشاعات ثانية، كما هو بيّنٌ من محتوى التقرير الصّحفي المنشور حول «العقيد لورَنس، الخبير العامل باسم الحكومة في مجال السّرعة الفائقة». وربما انطوى الأمر على معنى خبيث، إلا أنّ الحقيقة البيّنة، تشهد على أن وفاة لورَنس المبكرة، إثر تعرّضه لحادث مرور أودى بحياته في العام 1935، قد أحاط شخصيته، أكثر فأكثر، بالغموض والمأساوية. وحضر مراسيم دفنه رموز الحياة السّياسية والاجتماعية في بريطانيا، بما في ذلك ونستون تشرشل.

ومع نهاية الحرب العالمية الثّانية - وما تلا هذه النّهاية من إعادة رسم خريطة الشّرق الأوسط، هذه الخريطة ألتي أنهت تماماً أخر ما مارس لورَنس من جهود عملية في سياق حملته في بلاد العرب - ومع ظهور أبطال جدد في السّاحة، وولادة وسائل إعلام ذات تأثير واسع، كان ممكناً أن تفقد أسطورة لورَنس، الكثير من بريقها. إلا أن الحقيقة تبيّن أنّ وسيلة إعلامية مختلفة قد تكفّلت بأن تواصل الأسطورة وجودها: الفيلم السّينمائي، أو لنقل الفيلم السّينمائي التاريخي، الذي أنتجته هوليود بأسلوب فنّي رفيع المستوى، بأسلوب يكاد أن لا يكون له مثيل في اليوم الرّاهن، وبأشهر ممثلي ذلك العصر، بممثلين كانوا قد غدوا هم أنفسهم أساطيرَ: أليك غينيس، بيتر أوتول، عُمر الشّريف، وأنطوني كوين.

* * *

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1- بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسبانيّة فأتركه: دي.

2- الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التّركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چِستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż والچيكيّة ž.

3- أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلف. ومن مظاهر التشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن بقلم المُسنَد الحِميَري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللسانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللّهويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گ. وفي التركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشّجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غِڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يْلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسپان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبيّة، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرتُجال،

بلجاريا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّي البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

4- ثمّة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أوGervais ، ونظراً لانعدام وجود الكسرة الممالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرڤيه. والأسماء الإسپانيّة: خوسيه، پيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مَدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسپاني Condé كوندِه، أو Enrique إنريكِه، والألماني Porsche پورشِه، أو Pritzke پريتسكِه، والهولندي Goeje خوْيِّه، والپولوني Tyskie تيسكِه، والإيطالي Simone سيمونِه، أو Michele ميكيلِه.

5- نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصح بالألمانيّة: مدينة لايپتسيك وليس

لايبزغ، زولنغِن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، ڤِلهِلم وليس وليَم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميركا وليس أمْريكا، ڤارشاڤا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس پكين. وفي البرتغاليّة الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جُواو. ولكن ثمّة أسماءً رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتاليّة: دون كيخوتِه)، باريز أو باريس (وصوابه بالفرنسيّة: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دى لوزينيان)، وليَم الصُّوري (غِيّوم)، برج إيڤِل (وصوابه: آيفِل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرّون على لفظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسي فيه غُنّة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسيّ، علماً أنّ ثمّة شيئاً في التركيّة يسمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطريّة، تلفظ كمَدّة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آآچ.

6- حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينيّة: الإيطاليّة والإسپانيّة والبرتغاليّة والفرنسيّة والرّومانش والرّومانيّة، ما خلا حالة في البرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيقرأ ياءً، مثل: Covilhã كوڤيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أُنري، وهو بالإيطاليّة إنريكو، والإسپانيّة إنريكِه. وأيضاً ڤيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7- وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربيّة التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظيّة مختلفة دون انتباه لأصولها العربيّة، كالاسم التُّركي ميرڤَت Mervet الذي ترنّمت به الأسماع دون إدراك أنّ أصله: مَروَة. أو اسم فتاة الشاشة التّركيّة Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربيّة «توبا» على أنّه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبَى.

وثمّة كنية عريقة في لبنان: جانْبَيْه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: -Jean Béy بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتّركيّة: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نّفْس. وكذلك اسم قَبَلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتّركيّة: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلّينيّة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سمّيت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أن حرف الشين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش

WITH LAWRENCE IN ARABIA

By

LOWELL THOMAS

With Frontispiece and 64 other Illustrations.

TWENTIETH IMPRESSION

LONDON:
HUTCHINSON & CO. (Publishers), LTD.
PATERNOSTER ROW

نموذج عنوان الطبعة العشرين للكتاب

صدرت بلندن عن دار هتشينسون حوالي عام 1930-1928

مقدّمة المؤلف

لويل توماس

أقـدّمُ للقـراء اليـوم كتابـاً أدين فيـه بالفضـل للآخرين، وإننـي جدّ متلهّـف لاغتنام الفرصة لأبدي جزيل شـكري لهم. أعود بالزّمـان إلى الوراء، حيث رافقني في رحلتي زميلي المصوّر مسـتر هاري أ. تشايس Harry A. Chase ومساعدان آخران وغادرت أميـركا لأجمع معلومات وسـجلاً مصـوراً حول الأطوار المختلفة للصّـراع القائم من بحر الشّمال نزولاً إلى جزيرة العرب.

انطلقنـا في بدايـة عام 1917 وتوقعنا العودة بعد نحو عام لنسـهم فـي تحفيز الهمم لنصرة قضية الحلفاء. كان الرّاحل مسـتر فرانكليـن ك. لاين، وزير الدّاخلية، قد اقترح علي أن أسـتقيل من جامعة پرنسـتون حتى أتمكن من القيام بذلك. وإنني أدين للوزير ليـن ووزير البحرية دانيلـز ووزير الدّفاع بايكر بإتاحتهم لي الفرصة لأكون على اتصال وثيق بجيوش الحلفاء مما مكنني من الحصول على مادة كتابي هذا. وبناء على اقتراح الوزير لين قام ثمانية عشر شخصاً بتمويل المشروع.

أتممتُ ومسـتر تشـايس مدّة ثلاث سـنوات نطـوف حول العالم، سـجلت خلالها مصـوراً حياً ورويـت لملايين النّـاس قصة احتـلال آلِنْبي للأرض المقدَّسـة، والقصة غيـر المعروفـة عـن لورَنـس والحرب فـي أرض ألف ليلـة وليلـة. لقد غمرنـا هؤلاء الرّجال الثّمانية عشـر بكرمهم ولطفهم، ولولاهم ما تمكنت من إنجاز أيّ شـيء. ينظر الأوروپيـون إلـى الأميـركان بأنهم عُبّـاد للمال، لكن هـؤلاء المموّلين هـم من رجال الأعمال، وإذا قدّر لهذا الكتاب أن يسـهم في تصوير أغرب حملة في التّاريخ فسيرجع

الفضل إلى هؤلاء الرّجال الكرماء المجهولين من سكان شيكاغو، ولولاهم لما رويت قصة إنجازات الكولونيل لورَنس في جزيرة العرب، ولما انتشرت وعرفت حتى في بلده نفسه.

وإنني أدين بالفضل كذلك للكولونيل جون بوشان، الذي كان يعمل آنذاك في وزارة الاستخبارات، الذي سمح لي بالذهاب إلى فلسطين حين لم يكن يُسمح بذلك لأحد، وحيث كان آلِنْبي، قلب الأسد البريطاني الحديث، يقود جيشه في أروع حملة للفرسان على الإطلاق. كما أنني ممتن كثيراً للقائد الأعلى نفسه ورئيس دائرة استخباراته سير غلبرت كلايتون، وإليهما يرجع الفضل في كوننا الشّاهدين الوحيدين داخل قوات الأشراف في جزيرة العرب المقدَّسة.

أثناء الوقت الذي أمضيته مع مستر تشايس في الجزيرة وجدت أنه من المستحيل استخلاص معلومات من الكولونيل لورَنس حول إنجازاته الخاصة، وكان يعزو الفضل كله إلى الأمير فيصل والقادة العرب الآخرين، وإلى أصدقائه المغامرين من أمثال الكولونيل وِلسون ونيوكومب وجويس وداوني وباسيت وڤيكري وكورنواليس وهوغارث وسترلينغ وغيرهم ممن كان لهم دور رائع في جزيرة العرب. لذلك أنا مدين لهم بإنجاز هذا العمل وكذلك لكل الأفراد الرّائعين الذين عملوا مع الجنرال كلايتون في الفيلق السّرّي في الشّرق الأدنى.

إنني ممتنّ أيضاً للورد ريدل المحترم ولمستر لويس د. فروليك محرّر «مجلة آسيا» *Asia Magazine* لتشجيعهما لي على تسجيل ما أعرفه عن تلك الأحداث. وأشكر جزيل الشّكر الآنسة إلسي ويل، المحرّرة السّابقة للمجلة، والكاپتن ألان بوت، وزميلي مستر دايل كارنيغي الكاتب الأميركي، وزوجتي وكل أولئك الذين تعاونوا معي لأنجز هذا الكتاب.

من المؤكد أنّ هناك أناساً مؤهّلين أكثر مني لرواية قصة الثّورة العربيّة أذكر منهم الكولونيل هوغارث الذي لعب دوراً باهراً كمستشار، وإنني آمل ألا تمنعه أعماله وواجباته في متحف أشموليان بأوكسفورد عن تدوين تاريخ رسمي نهائي، لكننا لا بدّ

أن نرجع إلى لورَنس نفسه في رواية الأحداث الدّاخلية للحرب.

بالرّغم من غيرية هذا الرّجل وتواضعه الكبير فهناك أناس يحيكون حوله الكثير من الافتراءات، منها أن لورَنس نال الكثير من الشّهرة من خلالي وهذا يتنافى مع الأخلاق العسكرية. لا أعتقد أن ذلك صحيح، وإن كان فيه شيء من الصّحّة فاللّوم يقع علي وحدي.

كان مديحي له يحرجه بشكل كبير، ولو أنه كان يدرك بأنني سأخبر العالم يوماً ما عن مناقبه لكان ربما وضع تحتي أحد ألغامه بدلاً من وضعه تحت قطار تركي.

لم يكن ليخطر في بال لورَنس أبداً أن أقوم بذلك في يوم من الأيام. وكان المتآمرون المسؤولون عن مجيئي إلى إنكلترا هم السّير ويليام جوري والميجور إيڤلين رِنش وبشكل خاص مستر پيرسي بُرتون بالاشتراك مع السّير هنري إيرڤنغ والسّير جونستون فوربز روبرتسون. جاء مستر بُرتون إليّ في نيويورك وأغراني بقبول المهمّة وتأليف كتاب «مع آلِنْبي في فلسطين ولورَنس في جزيرة العرب».

هناك شائعة غريبة تقول بأن الكولونيل لورَنس قد ترك الدّين المسيحي واعتنق الإسلام، والواقع أن الذي اخترع هذه الإشاعة قد اعتمد على الخيال لأني أعتقد اعتقاداً جازماً بعد كل ما رأيته من لورَنس في أثناء معاشرتي الطّويلة له بأنه مسيحيّ صميم، وقد كتب في مقدّمة الطّبعة الجديدة لكتاب داوتي "Arabia Deserta" يصف فيها المؤلف: «كان رجلاً علامة هادئاً بسيطاً في معيشته يثق بكل النّاس، وكان أول رجل إنكليزي يقابله العرب، وقد مهّد الطّريق لمن تلاه لأنهم وجدوا فيه الرّجل المحترم، وهو بذلك قد مهد الطّريق لديانته. يقولون إنه كان فخوراً بدينه ومع ذلك فهو لم يعارض ديانتهم». إن الثّناء الذي أداه لداوتي يمكن أن ينطبق عليه نفسه.

لويل توماس

* * *

الفصل الأول

فارس عربيّ معاصر

ذات يـوم، بعـد أن احتلّ اللورد آلِنبي القدس، حدث أن تواجدتُ أمام أحد أكشـاك البيع في الحي المسـيحي، أعترض على محاولة بائع تركي بدين مسـنّ بأن يسـتخلص مني عشـرين قرشـاً لقاء حفنة من التّمـر. وفجأة لفت انتباهي جماعـة من العرب البدو يتّجهـون نحو بوابة دمشـق. لم تكن حقيقة أنهم من البـدو هي التي جعلتني أتخلّى عن جدالي بسـبب الثّمن المرتفع للتّمر، إذ أن فلسطين، كما يعرف الجميع، يزيد فيها عدد السّكان العرب كثيـراً عن اليهود. لكن الـذي أثار فضولي هو منظر بـدوي واحد يبرز بشـكل أنيق مـن بين كل رفقائه. كان يرتـدي عقالاً وكوفيّة وعباءة، وهـو اللّباس الذي يرتديه ملوك الشّـرق الأدنى. أمّا في حزامه فقـد وضع الخنجر القصير المعقوف الذي يتقلّده أمراء مكّة، وهي علامة تميّز أحفاد النّبيّ عليه السّلام.

إن الحيّ المسـيحي هو أحد أبهى الشّـوارع في الشّـرق الأدنى وأكثرها تنوعاً. ففيه تـرى اليهـود الـرّوس بجدائلهـم المفتولة، والكهنـة اليونـان بقبعاتهم السّـوداء العالية وأثوابهـم الفضفاضة، وبدو الصّحراء الأشـدّاء بمعاطفهـم المصنوعة من جلد الماعز التي تذكرنا بأيام النّبي إبراهيم، والأتراك في سـراويلهم التي تشـبه البالونات، والتّجار العرب الذين يضفون لمسـة زاهية بعمائمهم وأرديتهم الملونة، تراهم كلهم يتزاحمون في ذلك الزّقاق الضّيق الذي يغصّ بالدّكاكين والمحلات والمقاهي، والذي يؤدي إلى كنيسة القيامة المقدَّسة.

ليسـت القـدس بوتقة تنصهر فيها هـذه العناصر المختلفة؛ إنها مكان التقاء الشّـرق

بالغـرب. هنـا تبرز التّنوعات العرقية المسـيحية واليهودية والإسـلامية، وكأن شـمس الصّحـراء قد رسـمتها بالأبيض والأسـود. ولا يلفـت الرّجل الغريـب الانتباه في تلك المدينة المقدَّسة إلا إذا كان يملك صفات استثنائية جداً. ولكن عندما مرَّ ذلك البدوي الشّاب بأثوابه الملكية، التفتت الحشود الواقفة أمام الدّكاكين لتنظر إليه.

لـم يكن لباسـه أو وقار قامته التي تقارب خمسـة أقدام وثـلاث بوصات هو فقط ما يميّـزه ليبـدو كملك أو خليفـة متخفٍّ قد خرج لتوّه من صفحات ألـف ليلة وليلة. كان الأمـر المثير للدّهشـة أنّ هـذا الأمير المكّي الغامض لم يكن يشـبه أبناء إسـماعيل إلا كما يشـبه الحبشـي واحداً من إسكيمو ستيفانسـون Stefansson ذوي الشّعر الأحمر؛ والبدو، بالرّغم من أصلهم القوقازي، تحرق شـمس الصّحراء القاسـية جلودهم حتى تصبـح بشـرتهم بلون الحمـم البركانية. لكن هذا الشّـاب كان أشـقر كأنه اسـكندنافي تجري في أوردته الدّماء الاسكندنافية وتقاليد الفيوردات والأساطير.

يحتفـظ البدو من أبناء إسـماعيل بلحى طويلة كما كان أجدادهـم يفعلون منذ عهد آدم. أمّا هذا الشّاب ذو الخنجر الذّهبي المعقوف فقد كان حليق الذّقن تماماً. كان يسير بخطى سـريعة ويداه معقودتان على صدره، وعيناه الزّرقاوان ظاهرتان وسـط ما يحيط به، وبدا غارقاً في تأمّل عميق.

كان أول مـا خطر ببالي عندما نظرت إلى وجهه أنه أحد الحواريين الشّـباب قد عاد إلى الحياة. كانت ملامحه هادئة مطمئنة كأنه قدّيس.

التفـتُّ بلهفـة إلـى بائع التّمـر التّركي، الـذي كان يفقه بعـض العبـارات الإنكليزية ويسـتخدمها في مناوراته مع السّياح، وسألته: «من هذا؟» فما كان منه إلا أن اكتفى بهزّ كتفيه.

كنت واثقاً من أنني أستطيع الحصول على معلومات وافية عنه من الجنرال ستورز، حاكم المدينة المقدَّسـة، فتوجَّهت نحو قصره الواقع خلف الجدار القديم بالقرب من مقالع سـليمان. كان الجنرال رونالد سـتورز، الخليفة البريطاني لپونتيوس پيلاطوس،

سكرتيراً شرقياً للمندوب السّامي البريطاني في مصر قبل سقوط القدس، وبقي عدّة سنين على اتصال وثيق بالشّعب الفلسطيني. كان يتكلم العبرية واليونانية واللاتينية والعربيّة بالطّلاقة نفسها التي يتكلم بها الإنكليزية. وكنت على يقين أنه سيخبرني بشيء ما عن ذلك البدوي الأشقر الغامض.

سألت الجنرال: «من هو ذلك الشّخص أزرق العينين أشقر الشّعر الذي رأيته اليوم يتجول في الأسواق متقلداً الخنجر المعقوف الذي يتقلده عادة أمير من ــــ؟»

لم يدعني الجنرال أكمل سؤالي بل فتح باب غرفة مجاورة بهدوء. هناك، وإلى الطّاولة ذاتها التي كان فون فولكنهايم يجلس إليها عندما نفّذ خطته الفاشلة لهزيمة اللورد آلِنْبي، كان الأمير البدوي جالساً وهو مستغرقٌ تماماً بالنّظر إلى مجلد ضخم عن علم الآثار.

قام الجنرال ستورز بالتعريف بقوله: «أعرّفك بالكولونيل لورَنس ملك العرب غير المتوَّج».

صافحني الرّجل وقد ظهر عليه الخجل وشيء من التّحفّظ، وكأن ذهنه كان مشغولاً بالكنوز الدّفينة وليس بشؤون العالم الحالي للحملات والحروب. هكذا تعرّفت إلى شخصية من الشّخصيات الفذّة في عالمنا المعاصر، شخصية سيذيع صيتها على صفحات التّاريخ الخيالية جنباً إلى جنب مع رالي ودرايك وكلايف وغوردون.

اكتظّت السّنوات إبان الحرب العالمية بأحداث ملحمية برزت من خلالها شخصيات مهمّة من أهمّها شخصيتان اثنتان. إن مغامراتهما الحيوية وطُرَف مهنتيهما ستمدّ كتّاب المستقبل بموضوعات ذهبية كما ألهمت قصص أليسوس والملك آرثر وريتشارد قلب الأسد مخيّلة الشّعراء والمنشدين والمؤرّخين في بعض الأزمان. أولى هذه الشّخصيات رجلٌ ضخم البنية عريض الفكين طويل القامة، التي تبلغ ستة أقدام، إنه قائد سلاح الفرسان البريطاني الرّهيب فيلد مارشال ڤايكونت آلِنْبي القائد العام للجيوش الصّليبية في القرن العشرين، والذي اكتسب شهرة عالمية بسبب أعماله

البطوليـة في إجـلاء الأتراك عن الأرض المقدَّسـة محققـاً بذلك أحلامـاً دامت قروناً طويلـة. أمّا الشّـخصية الفـذّة الأخرى فهو شـابٌّ حليـق الذقن صغير الجسـم التقيتُ به أول مرة مستغرقاً في دراسـة فنية للنّقوش المسـمارية المكتشـفة على حجارة بابل القديمة، وكانت اهتماماته الرّئيسية في الحياة الشّعر وعلم الآثار.

لـم تكن المنجـزات الرّائعـة لتومـاس إدوارد لورَنـس، خرّيج جامعة أوكسـفورد، معروفـة بشـكل علني فـي نهاية الحرب العالمية. مـع ذلك، فقد قام بهـدوء، ودون أيّة حركات مسـرحية، بتوحيد القبائل المتفرّقة في جزيرة العرب ضمن حملة موحّدة ضد الأتراك الظالمين، وهو عمل سياسي شاق فشل الخلفاء ورجال الدّول والسّلاطين في تحقيقه على مدى قرون عديدة. وضع لورَنس نفسه على رأس الجيش البدوي لشريف مكّـة، الـذي أصبح فيما بعد ملكاً علـى الحجاز. لقد وحَّد القبائـل البدوية المتنقلة في الصّحراء، وحافظ على الأماكن الإسـلامية المقدَّسة لسلالة النّبي، وأخرج الأتراك من جزيـرة العـرب إلى الأبـد. وإذا كان اللورد آلِنبي قد حرّر فلسـطين، الأرض المقدَّسـة لليهـود والمسـيحيين، فإن لورَنس قد حـرّر جزيرة العرب، الأرض المقدَّسـة لملايين المسلمين.

سمعتُ عن هذا الرّجل الغامض عدة مرات خلال الشّهور التي قضيتُها في فلسطين مع اللورد آلِنبي. كانت أول إشـاعة سـمعتها عنه هي أثناء توجهي من إيطاليا إلى مصر. أسـرَّ إلـيّ ضابط بحرية أسـترالي بأن رجلاً إنكليزياً يقود جيشـاً من البـدو البدائيين في الصّحـراء غير المطروقـة، هناك بعيداً في أراضي عمر وأبي بكر. وعندما وصلت مصر سـمعت روايات رائعة عن أعماله البطولية. كان النّاس يذكرون اسمه بصوت خفيض، وذلـك لأن كل أخبـار المعارك الحربية في أرض ألف ليلة وليلة كانت تُكتم عن النّاس كتماناً تاماً.

حتى ذلك اليوم الذي التقيتُ فيه بلورَنس في قصر حاكم القدس، لم يكن بمقدوري أن أتخيله كشـخص حقيقي. لم يكن بالنّسبة لي سوى أسطورة شرقية جديدة. والواقع أن القاهرة والقدس ودمشق وبغداد وكل مدن الشّرق الأدنى الأخرى مملوءة بالألوان

والقصص الخيالية لدرجة أن مجرّد ذكرها يثير خيال الغربيين العمليين الذين ينساقون فجأة فوق البساط السّحري للذّكريات فيأخذهم إلى مشاهد الطّفولة المألوفة من خلال قصص ألف ليلة وليلة. وهكذا توصلت إلى نتيجة أن لورَنس هو نتاج الخيال الغربي زاد من توهجه احتكاكه الطّويل بالشّرق. لكن تبين لي أنّ هذه الأسطورة ما هي إلا حقيقة.

كان الرّجل الإنكليزي ذو الخمسة أقدام وثلاث بوصات يعتمر كوفية من الحرير الأبيض مطرزة بالذّهب، يثبتها فوق شعره بعقال، وهو عبارة عن حبلين صوفيين أسودين مجدولين بخيوط فضية وذهبية. كانت عباءته السّوداء السّميكة المصنوعة من وبر الجمل تغطّي رداءً من القماش الأبيض النّاصع المثبّت عند الخصر بحزام عريض مزركش بالذّهب يتدلى منه الخنجر المعقوف الذي يتقلّده أمراء مكّة. لقد أضحى هذا الشّاب فعلياً حاكماً لأراضي المسلمين المقدَّسة وقائداً أعلى لعدّة آلاف من البدو الذين يمتطون هجن السّباق والخيول العربيّة السّريعة. لقد أصبح مدعاة للرّعب بالنّسبة للأتراك.

لمّا عرف لورَنس أنني أميل إلى علم الآثار، توطّدت صلتنا في الأيام التّالية التي قضيناها في القدس قبل أن يعود إلى جيشه العربي. كنا نمضي معاً عدّة ساعات، وما كنت لأشك بأن الحظ الحسن قد يحالفني لأنضمّ إليه فيما بعد في الصّحراء. عندما نكون في رفقة بعض الضّبّاط الذين التقينا بهم لتوّنا كان يجلس عادةً في ركن من أركان الغرفة يصغي بانتباه إلى كل ما يقال لكنه لم يكن يشترك في الحديث إلا قليلاً. ثم إذا بقينا وحدنا كان ينهض من كرسيه فيجلس القرفصاء على الطّريقة البدوية. وعندما فعل ذلك للمرة الأولى احمرّ وجهه خجلاً بطريقته الغريبة واعتذر قائلاً بأنه أمضى في الصّحراء مدّة طويلة فأصبح يجد الجلوس على الكرسي أمراً غير مريح.

قمتُ بمحاولات عديدة لإغرائه بإخباري شيئاً ما عن حياته ومغامراته في الصّحراء، حيث لم يجرؤ الكثير من الأوروپيين بالمغامرة قبله سوى ريتشارد بُرتون وتشارلز داوتي. لكنه كان دائماً يحوّل الحديث ببراعة ليتكلم عن علم الآثار والدّين المقارن

والأدب اليوناني والسّياسة في الشّرق الأدنى. كان يأبى أن يذكر لي شيئاً عن علاقته بالجيش العربي، وكان يكتفي بأن يعزو فضل كل ما حدث أثناء حملات الصّحراء إلى القادة العرب أو إلى نيوكومب وجويس وكورنواليس وداوني ومارشال وسترلينغ وهورنبي والزّملاء البريطانيين الآخرين.

من المؤكد أن القدر لم يقم بخدعة أغرب من تلك التي لعبها عندما اختار للدّور الرّئيسي في تحرير جزيرة العرب هذا الرّجل، خريج جامعة أوكسفورد، الذي كان طموحه في الحياة يتلخص في نبش الآثار القديمة وكشف اللّثام عن المدن المندثرة.



الكولونيل توماس إدوارد لورَنس

رجل جزيرة العرب الغامض



«ملك العرب غير المتوّج»
على شُرفة الحاكم في القُدس

الفصل الثّاني

البحث عن حضارة مفقودة

عندمـا التقينا لأول مرة في القدس، ثم في وحشـة الصّحراء، لم أسـتطع اسـتدراج لورَنـس للعـودة إلى فترة حياته الأولـى. لذلك، بعد انتهاء الحـرب وفي طريق عودتي إلى أميركا، قمت بزيارة إنكلترا أملاً في معرفة شيء عن حياته المهنية قبل عام 1914، ممـا يمكن أن يلقي بعض الضّوء على فتـرة الإعداد التي اختارها له القدر ليلعب دوره المهمّ. كانت الحرب قد بعثرت عائلته وأصدقاء شـبابه بحيث لـم أتمكن من الحصول إلا على معلومات ضئيلة عن طفولته.

يعـود لورَنس في أصله إلى مقاطعة غالواي الواقعة على السّـاحل الغربي لإيرلندا. ربما يفسـر ذلك بشـكل جزئي قوته البدنية غير العادية، فسـكان هذه المقاطعة هم من أقوى الأقوياء. ويجري في عروق لورَنس أيضاً الدّم الاسكتلندي والويلزي والإنكليزي والإسـباني. من بين جدوده المشـهورين السّـير روبرت لورَنس الذي صحب ريتشارد قلب الأسد إلى الأرض المقدَّسة منذ أكثر من 730 سنة وبرز في ذلك الحين عند حصار عكا، تماماً كما صحب لورَنس الشّـاب آلِنْبي إلى الأرض المقدَّسـة وبرزت شـخصيته أثناء تحريرها تحريراً نهائياً. كما اشـتهر من بين أجداده الحديثين الأخوان السّير هنري والسّير جون لورَنس اللذان كانا من الرّواد في الإمبراطورية البريطانية في الهند.

أما والده، توماس لورَنس، فقد كان ذات يوم من كبار أصحاب الأراضي والعقارات فـي أيرلنـدا وكان رجلاً رياضياً فـذاً. وعندما فقد معظم ممتلكاته في زمن غلادسـتون بسـبب انخفاض أثمـان الأراضي كثيراً، انتقـل بعائلته عبر البحـر الإيرلندي إلى ويلز،

وُلد توماس إدوارد لورَنس في مقاطعة كارنارڤون القريبة من مسقط رأس مستر لويد جورج، الذي يُعدّ اليوم من أقرب أصدقائه والمعجبين به، والذي قال لي مرةً إنه هو أيضاً يَعدّ لورَنس من بين أهم الشّخصيات وأروعها في التّاريخ الحديث.

قضى الطّفل لورَنس الخمس سنوات الأولى من حياته في جزيرة من جزر تشانل في مقاطعة جرزي. وعندما بلغ العاشرة هاجرت عائلته إلى شمال اسكتلندا وبقيت هناك ثلاث سنوات. انتقلت بعد ذلك إلى فرنسا حيث التحق الفتى لورَنس بالكلية اليسوعية مع أن جميع أفراد عائلته ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية في إنكلترا. من هناك انتقلوا إلى أوكسفورد، وكان لهذا المركز الثّقافي الإنكليزي، الذي اتخذوه سكناً دائماً لهم، كان له أثر على لورَنس لا يمكن محوه أبداً. كان أصدقاء شبابه يدعونه نِد، وقد درس في مدرسة أوكسفورد الثّانوية ثم تحت الإشراف تمهيداً لدخول للجامعة. يقول أحد زملائه إنه، وإن لم يكن نجماً رياضياً، فقد كان يملك روحاً جريئة وكان ممتلئاً حبّاً بالمغامرة.

حدّثنا هذا الزّميل بأنه «كان هناك جدولٌ يجري تحت مدينة أوكسفورد، وكان مسقوفاً بالقرميد ويدعى Trill Mill Stream. كان نِد لورَنس وصبي آخر كثيراً ما يحملان مصباحاً ويشقان طريقهما داخل القناة ليبحرا على طول الممرّ المائي الواقع تحت الأرض.

«تُعدّ أوكسفورد مركزاً مهمّاً لركوب الزّوارق، وكانت كل الجداول التي ترتبط بنهر الثّايمز قد استكشفت وتم ارتيادها حتى بأصغر المراكب حجماً. أمّا نهر تشِروِل Cherwell الواقع فوق إسليپ Islip، فتقول الكتب السّياحية إنه غير قابل للملاحة. كان ذلك كافياً لإثارة روح التّحدي لدى صبي مثل نِد لورَنس ليثبت خطأ هذه المقولة، وهذا ما قام به هو وصبي آخر. لقد أبحرا بقاربهما إلى بانبُري Banbury ووصلا تماماً تحت الجزء من النّهر الذي أشيع أنه لا يمكن الإبحار فيه».

كان مغرماً بتسلّق الأشجار والصّعود فوق سطوح الأبنية حيث لم يكن أحد من رفاقه يتجرأ على اللحاق به. أخبرني أحد إخوته «بأنه قد وقع ذات يوم فكُسرت ساقه».

و يعزو أقرباؤه قصر قامته لهذه الحادثة. ويبدو أن جسمه لم ينمُ بعد ذلك أبداً.

كان لورَنس غير عـاديّ في كل أطوار حياته، تماماً مثل رجـال القبائل البدائيين في الصّحراء العربيّة. على الرّغم من أنه قد أنهى السّنوات الأربع لنيل درجة البكالوريوس في ثلاث سنوات، فهو، بحسب علمي، لم يحضر محاضرة واحدة في أوكسفورد. كان يتلقّى علومه أحياناً على يد الأساتذة الخصوصيين، لكنه كان يمضي جلّ وقته في التّجوّل على قدميه في أنحاء إنكلترا، أو في قراءة أدب العصور الوسطى. ولكي يبقى وحده، كان كثيراً ما ينام أثناء النّهار ثم يمضي الليل بأكمله في المطالعة.

كان معارضاً لأيّ نظام علمي محدّد ومقيد. على سبيل المثال عندما وبّخ أستاذ مسن صموئيل جونسون، الطّالب في أوكسفورد، بقوله «أيها الشّاب، استخدم كتابك بعمق الآن لتكتسب رصيداً من المعرفة» وهذا الأمر غير مقبول للشّاب لورَنس. لم يكن ليُسرّ بفكرة نيل ثقافة جامعية من أجل احتلال منصب لائق. كان شعاره في شبابه كشعار لويس ستيڤنسون وهو «الاستمتاع بملذات الحياة ومسرّاتها أكثر فائدة للإنسان من قيامه بالواجبات، فهي ليست مرهقة لكنها تحمل الكثير من البركة».

من خلال مطالعاته المبكرة عكف لورَنس على دراسة مفصّلة للمؤلفات التي تبحث في الشّؤون الحربية بدءاً من حروب سنحريب وتحتمس ورعمسيس إلى نابوليون وولِنغتون وستونوول جاكسون وفون مولتكِه. لقد قام بذلك تطوعاً وليس كجزء من أيّ عمل مفروض عليه. ومن بين الكتب المفضلة لديه كتاب مبادئ الحرب للمارشال فوش؛ لكنه أبدى ملاحظة ذات مرة في جزيرة العرب أن دراسته لقيصر وكسينوفون قد أفادته في حملاته الصّحراوية بشكل أكبر لأنه اضطرّ في الحروب غير النّظامية التي قادها ضد الأتراك إلى استخدام أساليب مغايرة تماماً لتلك التي يؤيّدها الخبير الحربي الفرنسي.

اختار لورَنس الهندسة العسكرية للحروب الصّليبية موضوعاً لرسالته في أوكسفورد، وقد استحوذ عليه العمل لدرجة أن ألحّ على والديه بأن يسمحا له بزيارة الشّرق الأدنى ليكتسب معرفة مباشرة بالجهود الهندسية للفرسان المسيحيين الأوائل.

شجّعه على هذه الزّيارة أحد علماء أوكسفورد والخبير في جزيرة العرب، وهو الدّكتور داڤيد جورج هوغارث القيّم على «متحف أشموليان»، والذي كان ولا يزال له أعظم الأثر على حياة لورَنس، وقد جاء خصيصاً إلى مصر في أثناء الحرب ليقدّم له المشورة والنّصح في أثناء الحملة العربيّة.

كانت والدة لورَنس تمانع في مغادرة ابنها للوطن، ولكنها أمام إلحاحه الشّديد طوال عدة أسابيع، قبلت بأن يزور سوريا كسائح في شركة كوك وقدّمت له مئتي جنيه إنكليزي من أجل الرّحلة. كانت عائلته على يقين بأنه سيعود إلى وطنه بعد بضعة أسابيع ليستقرّ بقية أيام حياته وينسى الحرارة المرتفعة والرّوائح النّفّاذة ومشقّات الحياة في الشّرق.

لكنه ما كاد يصل الشّرق الأدنى حتى ازدرى أسباب الرّفاهية والطّرق الممهّدة للسّياح. لقد دخل سوريا عبر بيروت، وبعد فترة قصيرة لبس الثّياب الوطنية وانطلق نحو الدّاخل حافي القدمين. وبدلاً من السّفر كسائح، أخذ يتجوّل وحده على طول حدود الصّحراء العربيّة الكبرى، وكان يسلّي نفسه بدراسة أخلاق وعادات الخليط البشري الموجود في المناطق القديمة الواقعة بين بلاد الرّافدين ووادي النّيل. وبعد عامين اثنين، عندما عاد أخيراً إلى أوكسفورد ليسلّم رسالته ويحصل على شهادته، كان لا يزال بحوزته مئة جنيه.

هناك خمسة صبية في عائلة لورَنس، وكان توماس إدوارد قبل الأخير سناً. الأكبر سناً هو الميجور مونتِغيو لورَنس Montague Lawrence، وكان برتبة رائد في الجيش النّظامي R.A.M.C والثّاني، وليَم، مدير مدرسة في دلهي في الهند، والثّالث، فرانك، الذي أنهى دراسته في أوكسفورد وتجول في الشّرق الأدنى مع شقيقه توماس، أمّا أرنولد الأصغر سناً فهو نجم رياضي في ألعاب القوى في أوكسفورد، ويهتم أيضاً بعلم الآثار، وسبق أن حلّ محل أخيه في بلاد الرّافدين لفترة من الزّمن. ولقد قضى وليَم وفرانك نحبهما في ساحات القتال في فرنسا.

منذ أيام الحرب التحق الميجور مونتِغيو بإرسالية طبّية في الصّين في مكان بعيد

عنـد حدود التّيبِت؛ وقد ذهبت أمّهم أيضاً إلى هذه المنطقة النّائية من آسيا الوسـطى، بينمـا أخذ ابنهـا الأصغر يتجوّل بيـن متاحف العالم ضمن بعثة من أوكسـفورد يدرس نقوش الفنّ الإغريقي في فترة الانحطاط.

قبل اندلاع الحرب بعدة سـنوات قامت بعثة من أوكسـفورد يترأسـها هوغارث، صديق لورَنس والخبير بالكتب النّادرة والآثار، بأعمال التّنقيب في وادي الفُرات أملاً في الكشف عـن آثار عرق قديـم لقوم لم يُعرف عنهم الكثير هم الحثّيون. ولمـا كان لورَنس ملمّاً تماماً بلغـة الحثّيـن ولديه معرفة وتفهـم عميق لعاداتهم، فقـد عُهدت إليه مهمّة الإشـراف على بعـض عمال الحفريات صعبي المراس من الأكـراد والتّركمان والأرمن والعرب. نجحت هذه البعثة في النّهاية في الكشف عن آثار كركميش العاصمة القديمة للإمبراطورية الحثّية. هناك تجد لورَنس في وسط أطلال تلك المدينة المندثرة يسلّي نفسه بدراسة نقوش الأواني الخزفية محاولاً إيجاد الرّابط بين الأطوار المختلفة للحضارة الحثّية.

اسـتطاع لورَنـس، بالاشـتراك مـع صديقه ليونـارد وولي رئيـس البعثة، أن يكشـفا اللثـام عن الخرائب التـي ثبت أنها الحلقة المفقودة بين حضارتـي نينوى وبابل وبداية الحضارة الإغريقية في جزر البحر الأبيض المتوسـط، والتي يعود تاريخها إلى خمسة آلاف سـنة. ويضم متحف أشموليان في أوكسـفورد معروضات عديدة قدَّمها توماس إدوارد لورَنس قبل أن يبلغ العشرين من عمره.

حدث أن قام رحالة أميركي، وهو رئيس البعثات في الشّرق الأدنى، بزيارة لمعسكر هذين المستكشفين الوحيدين، وقدَّم لنا صورة حيّة لزيارته وعرض كيف تلقى لورَنس التّدريب الذي خوله كسـب تلك السّيطرة المذهلة على قبائل الصّحراء عندما فاجأته الحرب الكبرى.

يقـول مسـتر لوثـر ر. فول: «حدث في سـنة 1913 فـي إجازة عيد الفصـح في كلية عنتـاب الأميركيـة أن واتتنا الفرصة للقيـام برحلة ثلاثة أيام في العربـة إلى أورفه، وكنا قـد زرنـا حَرّان Haraun التي تبعـد بضعة أميال نحو الجنوب، والتـي هاجر إليها النّبي إبراهيم من مدينة أور الكلدانية.

«كانت عودتنا إلى عنتاب عبر طريق أبعد قليلاً إلى جهة الجنوب قادنا إلى نهر الفُرات في منطقة جرابلس حيث كان الألمان يشيّدون جسرهم الحديدي الضّخم، وهو صلة وصل رئيسية يحلم الألمان بتحقيقها في الطّريق من برلين إلى بغداد. على الضّفة الغربية، وعلى بعد عدة مئات من الياردات عن الجسر، تقع كركميش حيث وجدنا العالم البريطاني الهادئ الذي تحوَّل، بسبب ضغوط الحرب، من عمله في التّنقيب ضمن المناطق المجاورة لنهر الفُرات إلى شريف مكّة وقائد لحشود كبيرة من البدو في حرب ناجحة هدفها التّخلص من نير العثمانيين.

«كان مستر وولي، عالم الآثار المسؤول عن أعمال التّنقيب في كركميش، قد عاد لتوّه من موقع الحفريات مرتدياً ثياب العمل التي هي عبارة عن قميص من الفانيلا رمادي اللون وبنطال غولف. أمّا صديقه الشّاب لورَنس، فكان عائداً من العمل أيضاً يسير بخفّة فوق أكوام التّراب وقد لبس ما ندعوه نحن الأميركان بالبزّة الرّياضية، وتمنطق بحزام عربي مزخرف تتدلّى في مقدّمته مجموعة شرّابات تدلّ على أن الشّاب لا يزال عزباً. لكنه اختفى كلمح البصر، وعندما تجمعنا لتناول طعام العشاء عاد الشّاب وقد اغتسل ولبس بدلة أوكسفورد الرّياضية البيضاء الخفيفة ذات الشّرائط الحمراء، وهو لا يزال متمنطقاً بحزامه العربي، ثم اندمج في الحديث عن القصة الرّائعة للتّنقيبات وعلاقتها بالأكراد والعرب، وعن رحلاته الفردية بين قراهم بحثاً عن البُسط والأشياء الأثرية النّادرة، مما هيّأه للتقرّب منهم والتّعاطف معهم، وكان هذا بالتّالي القاعدة لخدماته الجليلة عندما دعت الحاجة.

«كانت الوجبة لذيذة قدّمها لنا عربي داكن اللون قوي البنية يرتدي ثياباً محلّية أنيقة، وقد زيّن حزامه بخناجر ومسدسات تكفي لتعبئة متحف. ثم لم يلبث أن أحضر القهوة اللذيذة التي لا يضاهيها إلا القهوة التّركية الطّازجة. أمّا أصدقاؤنا البريطانيون، الذين كانوا بالكاد يستمتعون بالأواني الرّومانية التي يعود تاريخها إلى ألفي عام تقريباً، والتي علينا إزاحتها قبل الوصول إلى أطلال الحثيين، فقد أشاروا بفخر إلى أن فناجين القهوة التي نستعملها والمصنوعة من الطّين هي أدوات حثّية لا شك، وربما يبلغ عمرها أربعة آلاف عام على الأقل.

«لا يمكنني قول أبنية، أو حتى بناء، ولكن غرفة، فقد علمنا أن الحكومة البريطانية، بالاتفاق مع السّلطات التّركية، قد سمحت ببناء غرفة واحدة. وبالتالي فقد شيد وولي ولورَنس غرفة ذات جدارين متوازيين تفصلهما مسافة عشرة أقدام، يمتدان لخمسين قدماً بجهة الجنوب وخمسة وثلاثين قدماً بجهة الغرب ثم خمسين قدماً أيضاً بجهة الشّمال. شكّل حرف U الضّخم المغلق من الجهتين غرفة، وقد قبلت الحكومة التّركية بالأمر رغم اندهاشها. بالطّبع لم يعترض ضابط التّفتيش المبجّل على وضع حواجز تفصل بين المكان المخصص للنّوم وغرفة الطّعام والمكتب، وكان من الملائم فتح الأبواب من جهات مختلفة للبناء لتطل على الباحة.

«وهكذا، عندما رأيناها للمرة الأولى، كان على يمينها صفٌّ من الغرف المعدة لتخزين الأشياء الأثرية ولأعمال التّصوير، أمّا على اليسار فتقع غرف نوم المنقّبين وضيوفهم، وفي الوسط تقع غرفة الجلوس المبهجة بمدفئتها الجميلة ورفوفها الممتلئة بمجلدات تاريخية بالية مغلفة بالجلد والتي يحيط العالم البريطاني نفسه بها عادةً، ثم هناك المنضدة الطّويلة المغطاة بالأوراق البريطانية بالإضافة إلى مجلات عن الآثار في العالم.

«حول المدفأة علمنا الكثير عن الصّلة والصّداقة التي تربط هذين الرّجلين الإنكليزيين الوحيدين بالنّاس المحلّيين من حولهما. لقد أكّدا أنهما يشعران بالأمان على ضفاف نهر الفُرات أكثر مما لو كانا في شارع پيكاديلّي. كان رئيسا أشدّ العصابات رهبة من الأكراد والعرب عاملين وفيين لدى المنقبين، يقوم أحدهما بالحراسة الليلية ويحتلّ الآخر منصباً مماثلاً من حيث الثّقة.

«بالطبع ليس هناك خوف من خطر السّرقة. ألم يأكل هؤلاء الرّجال من ملح الرّجلين الإنكليزيين؟ علاوة على أنّ عدالة الرّجلين معروفة ولهما احترامهما كشخصين قدِما ليكونا حكمين في مختلف أنواع القضايا بين القرى المتنازعة، أو في حالات الخصومة الفردية. لم يحاولا أبداً انتهاك الحقوق، وكانت قراراتهما لا تحتمل النّقاش. لقد ذهب لورَنس منذ فترة قصيرة إلى إحدى القرى ليحلّ مشكلة أثارها اختطاف رجل لفتاة أراد

الـزّواج بهـا لكنه لم يتمكن من التّغلب على معارضـة والدها. هل هناك تدريب أفضل للـدّور الـذي توجب على لورَنس القيام به أثناء الصّحوة العربيّة من هذه الخبرات التي اكتسبها في تعامله مع الأناس المحليين؟

«رأينـا فـي غرفة الجلوس صندوقاً خشـبياً قديمـاً كان يضمّ في جنباتـه يوماً ما مهر عروس بدوية، لكنه يستخدم الآن كخزينة للمال. كان حجمه أكبر من خزانة الملابس، تـراه هنـاك في الغرفة بـلا قفل أو حراسـة. كان ممتلئاً بقطـع النّقود الفضّيـة التي تُدفع كأجـور للمئتي رجل العاملين فـي الحفريات. هكذا كان قانـون الجماعة غير المدوّن الـذي يتجلّى في محبّـة العاملين لرؤسـائهم ومعرفتهم التّامة بالعقـاب الأكيد العاجل الذي سيلقونه من جماعتهم إن فكّر واحد منهم في خيانة تلك الثّقة، ولن تكون النّقود في مأمن أكبر لو أنها وجدت في أقبية البنك البريطاني نفسه.

«هنـاك تناقـض حادّ بيـن هذه الحالة والأسـاليب التـي يتّبعها المهندسـون الألمان على بعد نصف ميل فقط وهم يشيّدون جسر سكة حديد بغداد عبر الفُرات. يبدو أنهم وعمالهم يتبادلون مشـاعر الكره وانعدام الثّقة. لا يحتمـل الجرمانيون فكرة عدم تقبّل العـرب لأنظمتهم وعقوباتهم. كان الألمان بحاجـة دائمة إلى المزيد من العمّال، بينما كان الرّجلان الإنكليزيان، على بعد عدة مئات من الياردات، محاطين بأعداد كبيرة من العمـال. وفي إحـدى المرات، عندما اضطرا إلى تقليل العدد، حاولا بشـتى الوسـائل فصل خمسين رجلاً. لكن الأكراد والعرب كانوا يبتسمون ويستمرّون في عملهم. كانا يخبرانهـم أنهم لن يتقاضوا أجوراً، فكانوا يبتسـمون ويسـتمرّون فـي عملهم. لم يكن الأجر هو ما يدفعهم للعمل بل حبّهم للعمل ولرئيسيهم.

«يجـدّ هؤلاء الرّجال البسـطاء لـذّة في التّنقيب عـن الآثار وكانوا ممتلئين حماسـة إذ علّمهم رئيسـاهم أن يشـركوا العمل بالبهجة، فلم تكن أعمـال الحفر جهداً لا معنى له وسـعياً وراء كسـب المال، بل كانت تحمل في طيّاتها شـعوراً سـارّاً بالاشـتراك في التّنقيب عن الآثار.

«ذهبنا للنّوم وقد امتلأت أذهاننا بقصص الشّـرق، حيث امتزج المسـيحي والوثني

والحثي واليوناني والرّوماني والماضي الباهر والحاضر البائس لتلك المناطق، بخلفية من جهود الألمان النّشيطين والإنجازات الهادئة لرجلين بريطانيين متواضعين. نمنا نوماً عميقاً طويلاً على الأسرّة القابلة للطّيّ داخل غرفتنا النّظيفة ذات الجدران الطّينية. لم تزعج نومنا الأغطية التي كنا نتدثّر بها، وهي لُحف yorgans دمشقية من القماش الذّهبي يظهر في خلفيتها زخرفة عربيّة باللون الأحمر الباهت مما يأخذ العين في رحلات بلا نهاية. كانت هذه الأغطية بعضاً من كنوز لورَنس التي أحضرها معه من رحلاته إلى القرى العربيّة حيث قضى أسابيع عدة.

«أثناء تلك الرّحلات كان لورَنس في حلته المحلية يشارك في أحاديث كبار القوم في القرية في ظلّ خيمة، أو يجلس أمام النّار المشتعلة يستمع لأقوال العرب ويبدي إعجابه بهم ويحاول فهمهم وتوطيد صلته بهم. كان يجلس على الأرض مصالباً ساقيه بينما تُحضر القهوة وتُشرب بصمت لا يقطعه سوى كلام بعض الرّجال. بينما كان المهندسون الألمان يبنون جسرهم ليتمكنوا من إخضاع هؤلاء الأقوام إذا رفضوا الانصياع لهم، كان هذا الرّجل الإنكليزي المنفتح اللطيف يتهيأ دون سابق تخطيط ليكون قائداً لهم في وقت اشتداد الأزمات، لا ليبدّد حلم الجرمانيين بالغزو فحسب، بل ليكسر قيود العبودية السّياسية للأتراك على مدى قرون عديدة.

«بعد تناول طعام الإفطار أخذنا نتفحّص الأرض المزيّنة بالفسيفساء في غرفة الطّعام، وهي قطعة رومانية أخذها الرّجلان بشكل كامل بدلاً من تخريبها في بحثهما عن الأشياء الحثية القديمة المخبأة تحتها. وفجأة صدر من موقع الحفريات هتاف حماسي. هرعنا إلى هناك لنجد العرب والأكراد متجمعين حول قطعة أثرية كبيرة الحجم. كان رئيس العمال اليوناني يزيل التّراب المغرق في القدم العالق بحجر داكن تبلغ مساحته بضعة أقدام مربعة، وفي الوقت الذي وصل فيه مستر وولي كان قد حدّد الوجه الحقيقي للكتلة الحجرية. بيد مدرَّبة بدأ مستر وولي بإزالة الطّبقة الأخيرة من التّراب التي كانت تغطي الكنز المخبوء. لم يكن بمقدور أحد أن يأمر أولئك الفلاحين بالرّجوع إلى عملهم إذ من حق الجميع قطف ثمار الاكتشاف، بدءاً بالرّجلين

الإنكليزيين وانتهاءً بالصّبي الذي يجلب الماء والذي ترك حماره يشق طريقه إلى الفُرات بنفسه بينما أسرع لينضم إلى المجموعة اللاهثة للنّاس الذين تسمرّت أعينهم على مطواة وولي وهي تؤدّي عملها ببراعة.

«انطلقت موجة من التّصفيق والهتاف لدى وضوح المعالم الأولية للصّخرة القاسية. إنها يد! لا بل زاوية من بناء! أسد! جمل! انهالت التّخمينات والافتراضات لتلقى التّأييد أو السّخرية، يتبعها على الفور صمتٌ عميق بينما تقوم المطواة بعملها. بعد فترة قصيرة تبين لعَين وولي الخبيرة أن القطعة هي لحيوان ضخم محفوظ في حالة ممتازة، وكان يعمل على إزالة التّراب عن رأسه. تظاهر بأنه سيبدأ بالعمل في النّهاية الأخرى من الشّكل فقابله عماله بصيحات التّذمّر والاحتجاج إذ لم يتأكدوا بعد من ماهية الشّكل. عبَّرت ابتسامة وولي السّريعة عن سروره بمزحته الصّغيرة وعاد يعمل في البقعة التي أزال عنها التّراب.

«أخذت المعالم تتّضح، رأس، صدر، أقدام، جسم، وانطلقت الأقوال المتضاربة والنّظريات المختلفة من أفواه المتجمعين، بقرة، حصان، خروف، إلى أن عادت يد وولي المدربة إلى رأس الحيوان وبضربات سريعة أزاح التّراب الذي يغطي الأثر العظيم لقرني وعل أحياهما الفن من أربعة قرون، ليقف أمامنا ظبي رائع الجمال. كان هذا الاكتشاف يستحق احتفالاً بدأه الجميع بشكل فطري. فما إن هزّ المستكشف رأسه ردّاً على سؤال هامس لرئيس العمال اليوناني، ثم أعطى الإشارة المنتظرة، حتى أفرغ مئتان من العمال، من عمر الخامسة عشرة إلى الخامسة والثّلاثين، مخازن مسدساتهم في الهواء.

«أتساءل عمّا ظنه الألمان لمّا سمعوا وابل الرّصاص من على جسرهم؛ إذ اكتشفت بعد عدة أسابيع، عندما عدوت بفرسي لزيارتهم برفقة الرّجل الإنكليزي، أن الطّلقات في المعسكر الألماني تعني أمراً مختلفاً تماماً. اليوم، وبعد الحماس المفرط الذي تلا اكتشاف الظّبي الحثّي من قبل العمال، جلس العرب يضحكون ويدخنون السّجائر التي بها انتهى الاحتفال، بينما بدأ صبي الماء يبحث عن حماره بضراوة، تتبعه النّعوت

المفعمة بالحيوية من أصدقائه الظّمآنين الذين يعتقدون أن الطّعم الأكمل للسّيجارة لا يتأتى إلا مع جرعة من الماء البارد.

«أقبل وقت الظّهيرة بسرعة، وكان يوم الخميس، يوم دفع الأجور. كان الجمعة هو يوم العطلة للمسلمين، وكان الرّجلان المسيحيان لبقين مع عمّالهما المسلمين بحيث لن يطلبوا منهم العمل في يومهم هذا. كانت رحلتنا إلى عنتاب قصيرة، لذلك ماطلنا قليلاً في دفع الأجور للرّجال، ولورَنس يؤكد أن ذلك سيكون ممتعاً.

«تم وضع طاولة في الفناء الخارجي للغرفة، وقام وولي بتسليم القطع النّقدية لصفّ العمال. كان الأمر بسيطاً لكن الرّجال تعلموا كيف يظهرون اكتشافاتهم في أيام دفع الأجور، وبهذا تلقّوا جوائز نقدية عن كل شيء استخرجوه. هم طبعاً يحرصون على عدم فقدان أو كسر أيّة قطعة أثناء عملهم، وكانت الاكتشافات النّادرة ترسل من كل الأنحاء في يوم دفع الأجور. يقوم المستكشفان بإلقاء نظرة سريعة على القطعة المقدّمة، وقد يتلقّى رجلٌ واحد جائزة عشرة قروش لقاء ما أحضره، وربما يتلقى أكثر من ذلك تشجيعاً له أكثر من كون القطعة بالغة القيمة، وقد تعاد قطعة فخار مع ابتسامة من الخبير إلى رجل آخر وسط سخرية زملائه منه لمحاولته تمرير جزء من جرّة ماء حديثة تحت يدي وُولي النّبيه.

«لم يكن الرّجل الإنكليزي ليقول أبداً: لن أدفع شيئاً لقاء هذه القطعة لكنني سأحتفظ بها على أية حال، بل كان إما أن يدفع أو يعيدها إلى صاحبها. أحياناً تكون قطعة ذهبية لامعة كعيني العربي جائزة لرجل محظوظ، لكن سواء أحصل على الذّهب أم لا، فإنّ قرار سيّده وصديقه لا يناقش أبداً.

«على أنغام الأجراس المعلقة في أعناق الخيول، والتي كان إيقاعها يتردّد في أنحاء السّهل، تناولنا طعامنا لنفكر ملياً فيما رأيناه. إذا كان لبريطانيا أن تحكم جزءاً كبيراً من العالم، فسيكون ذلك بفضل مزايا وقدرات ورجاحة عقل أبنائها في كل مكان. ولقد تعمّقت انطباعاتنا عن تلك الزّيارة لكركميش بإقامتنا في القسطنطينية أثناء الحرب العالمية، حيث شهدنا كيف لعب الألمان دورهم لنيل الحصة الأكبر، والتي لم يكن

جسر الفُرات سوى مثال على ذلك. لكن الألماني خسر بسبب الطّريقة التي تعامل بها مع الأمور.

«أما توماس لورَنس فقد عمل بطريقة أخرى، وكان إنجازه الرّائع فوق كل تصوّر. لم يكن في ذلك أية معجزة، إنما هو استغلال موهبة الذكاء والخيال والعطف والشّخصية.

«في كتابه «اعتذارٌ للخاملين» يرثي روبرت لويس ستيڤنسون حال أولئك الذين درسوا الكتب بعمق وجمعوا كماً لا بأس به من المعرفة عن جانب أو آخر، ثم يخرجون من دراستهم بسلوك يشبه طريقة البومة في التّرديد الأصمّ لما تعلموه ويثبتون خواءهم في أفضل مناحي الحياة وأكثرها إشراقاً بالرّغم من تخمتهم بالمعلومات. أمّا بالنّسبة للورَنس فلا بدّ أن ستيڤنسون سيجد لديه روح العشيرة. وعلى الرّغم من أنه عالم ومفكر، فهو لم يكن أبداً رجل كتب أو مردّداً أصمّاً لما قرأه. أثناء الفترة الأولى للثّورة العربيّة، كان الكاپتن لويد، الذي هو الآن السّير جورج لويد حاكم بومباي، كان برفقته في الصّحراء لفترة من الزّمن. وقد قال لي مرة: «من الصّعوبة بمكان وصف السّرور بالتعامل اللّصيق مع رجل كهذا. إنه شاعر وفيلسوف، لكنه يملك روح دعابة لا تخبو».

«إن في وصف مستر لوثر فول للغرفة ذات شكل U في كركميش تصويراً لروح الدّعابة تلك التي جعلت لورَنس ذا طبيعة إنسانية وأنقذت حياته في أكثر من مناسبة. وقد قام الميجور يونغ من دائرة الاستخبارات السّرّية في الشّرق الأدنى، والذي سبق وتعرّف على لورَنس في بلاد الرّافدين قبل الحرب، قام برواية حادثة أخرى. اجتمع ممثلون عن إنكلترا وألمانيا وفرنسا وروسيا وتركية عام 1912 واتفقوا على منح ألمانيا السّيطرة على ميناء إسكندرون ذي الطّبيعة الإستراتيجية المهمّة، والسّماح لهم أيضاً بالاستمرار ببناء السّكة الحديدية التي طالما حلموا بمدها من برلين إلى بغداد بهدف فتح طريق مباشر لأرض الكنوز المتمثلة بهندُستان والصّين.

«رأى لورَنس المتعمق في التّاريخ أن هذا المشروع يُعد تهديداً پروسياً جريئاً للنّفوذ البريطاني في آسيا. وفور سماعه بالاتفاقية هرع إلى القاهرة وطلب الاجتماع باللورد كتشنر وسأله عن سبب السّماح لألمانيا بالسّيطرة على ميناء إسكندرون، وهو ميناء

حيوي عناه دزرائيلي بقوله إنّ سلام العالم سيتوقف ذات يوم على السّيطرة على هذه البقعة من ساحل آسيا الصّغرى وهي التي تشير إليها الإصبع الممتدّة من أرض قبرص. أجاب كتشنر: «لقد حذّرتُ لندن مراتٍ عدّة، لكن وزارة الخارجية لم تُعِر الأمر أدنى اهتمام. وخلال عامين ستحدث حرب عالمية. لسوء الحظ أيها الشّاب، لن نستطيع أنا وأنت أن نوقفها، لذا امضِ في سبيلك وقم ببيع مقالاتك».

مع أن الغمّ قد استولى على لورَنس لأن بريطانيا، الغارقة في غفوة، سمحت لألمانيا ببسط نفوذها من بحر البلطيق إلى الخليج العربي، فقد قرّر أن يسلّي نفسه بمضايقة المهندسين الألمان الذين يعملون بسرعة شديدة على إنجاز السّكّة الحديدية بين برلين وبغداد. قام بتحميل قطع من أنابيب الصّرف الصّحي على ظهور البغال، ونقلها من كركميش إلى الهضاب التي تطل على المعبر الذي يؤدي إلى سكة الحديد الجديدة، وهناك رفعها بحذر على تلال من الرّمل. رصدها الألمان بمناظيرهم وظنّوا، كما كان لورَنس يأمل، أن هذه الأنابيب البريئة غير المؤذية هي مدافع بريطانية. وما كان منهم إلا أن أبرقوا بجنون إلى القسطنطينية وبرلين يعلنون أن البريطانيين يحصِّنون كل المواقع القيادية. في تلك الأثناء كان لورَنس وولي يضحكان في سرّهما بسبب تلك المزحة.

كان الألمان يعملون على إنشاء جسر عظيم على نهر الفُرات عند جرابلس الواقعة شمال شرقي حلب. وكما هي طريقة الألمان فقد وضعوا أرقاماً على معاطف عمّالهم المحليين كوسيلة للتعرّف عليهم، ولم يحاولوا أن يجهدوا أنفسهم في تعلّم أسمائهم. بل إنهم ارتكبوا حماقة بسماحهم لذوي الثّارات بالعمل بعضهم مع بعض، وبدلاً من حفر الحُفر من أجل دعامات الجسر أخذوا يتطاحنون فيما بينهم. استمرّ هذا الحال لفترة من الزّمن ثم انقلب العمال الأكراد السّبعمئة على رؤسائهم الألمان وقاموا بالهجوم عليهم. ساند ثلاثمئة من الفرقة العاملة في حفريات كركميش أقرباءهم وشنّوا هجوماً مباغتاً من الخلف، ولحسن الحظ فقد وصل لورَنس وولي في الوقت المناسب لإيقاف نشوء مذبحة. ونتيجة لبطولة عالمَي الآثار فقد صدر أمر من السّلطان

بمكافأة مالية لهما. كان ذلك في عام 1914 قبل أن تباغت الحرب لورَنس.

كانت أولى حملاته في الشّرق الأدنى لصالح تمويل الاستكشاف الفلسطيني. حاول لورَنس ووولي تتبع خطى بني إسرائيل في البراري. بالإضافة إلى اكتشافات عدة، وجدا ما يمكن أن يكون قادِش Kadesh Barnea المذكورة في التّوراة، وهو المكان التّاريخي حيث ضرب موسى الصّخرة فتفجرت منها المياه. قاما أولاً بتحديد موقع في شبه جزيرة سيناء يدعوه البدو بعين قادس حيث يوجد بئر مهمّ وحيد، وربما يكون هو المكان الذي بدأ فيه بنو إسرائيل الشّكوى إلى موسى بسبب شحّ المياه.

علّق لورَنس بقوله: «إن كان هذا هو المكان حقاً، فلا بدّ من لوم بني إسرائيل على شكواهم».

بعد قطع مسافة خمسة أميال عثر عالما الآثار على عدة ينابيع صافية في وادٍ صغير يقال له غُدرات Gudurat، وأيقنا أن هذا المكان هو الذي نجح فيه موسى في استرجاع ثقة بني إسرائيل بإرواء ظمأهم بالماء المتلألئ لهذه الينابيع. بعد فترة من الزّمن ألّف وولي ولورَنس كتيباً يتناول هذه البعثة بعنوان «برّية الخطيئة» وذكرا فيه أمر العثور على آثار حضارة يرجع تاريخها إلى عام 2500 قبل الميلاد، وهي أقدم آثار بشرية اكتشفت في شبه جزيرة سيناء.

ألّف وولي Wooley كتاباً ممتعاً نشرته مطبعة أوكسفورد الجامعية بعنوان «مدن ميتة ورجال أحياء»، وصف فيه الأعمال الأثرية التي قام بها مع صديقه لورَنس قبل الحرب. هناك قصة تظهر بجلاء الفرق الكبير بين طريقة هذين الرّجلين في التّعامل مع السّكّان المحليين وبين أساليب الألمان العاملين في مد الخط الحديدي بين بغداد وبرلين:

يكتب وولي: «ذات يوم كان خادمنا أحمد عائداً ببعض الأشياء التي ابتاعها من القرية، ومرّ بجماعة من العمال المحلّيين الذين يعملون في السّكة الحديدية، وكان رئيسهم مديناً لأحمد ببعض المال. ولما طالبه أحمد بسداد الدّين رفض ونشبت بينهما

مشـادة كلامية. رأى أحد المهندسـين الألمان وهو يقوم بجولته أن دخيلاً يعيق العمل، وبدلاً من أن يطلب منه الانصراف استدعى جنديي الحراسة فأمسكا بالمسكين أحمد، ودون أن يسـأل أيّ سـؤال عن سـبب الجدال أمرهما بضربه بالسّياط ضرباً مبرحاً. عاد أحمد إلينا يتألم بشدة، وبما أنني كنت متغيّباً، فقد ذهب لورَنس إلى المعسكر الألماني طلباً للمصالحة.

«وجد هناك كونتزن Contzen، وأخبره أن أحد مهندسيه قد اعتدى على خادمنا ولا بدّ له من الاعتذار منه. استخفّ كونتزن بالأمر، لكنه عندما لاحظ جدّية لورَنس، وافق على إجراء تحقيق وأرسل في طلب المهندس لسؤاله. وبعد أن تحدّث معه التفت إلى لورَنـس غاضبـاً وقال: «ألم أقل لـك إن الأمر كله مجرّد كذبة؟ إن الهِرّ «س» لم يشـتم الرّجل بل جَلده بالسّوط فقط».

سأله لورَنس: «ألا تعدُّ ذلك تعدياً؟»

أجاب الألماني: «بالطبع لا. ليس بمقدورك اسـتخدام هؤلاء العمال دون جَلدهم. إننا نضرب بعضهم يومياً. هذه هي الطّريقة الوحيدة للتّعامل معهم».

رد لورَنـس قائـلاً: «جئنا قبلكم إلـى هذا المكان ولـم نضرب أحداً مـن رجالنا أبداً، ولن أسـمح لك أن تبدأ أنت بهذا. وعلى مهندسـك أن يأتي معي إلى القرية ويعتذر من أحمد على الملأ».

ضحك كونتزن وأدار ظهره وهو يقول: «هذا هراء! انتهت القضية».

أجـاب لورَنس: «بل هي لـم تنتهِ بعد، وإذا لـم تفعل ما قلته لك فسـأتخذ الإجراءات اللازمة بنفسي».

التفت كونتزن قائلاً: «وماذا يعني ذلك؟».

«أعني أنني سآخذ مهندسك إلى القرية وأجلده بالسّوط!».

صرخ الألماني مغتاظاً: «إنك لن تجرؤ على فعل ذلك».

لكن لورَنس أكّد له بالبرهان السّاطع أن ليس هناك ما يمنعه من ذلك، وانتهى الأمر باعتذار المهندس أمام أهل القرية وسط استمتاع القرويين جميعهم.

أمضى لورَنس سبع سنين وهو يتجوّل في أنحاء الصّحراء يرافقه وولي في كثير من الأحيان، وفي أحيان أخرى كان يبقى وحيداً في ثيابه المحلية. أرسله المتحف البريطاني في إحدى المرات في بعثة استكشافية قصيرة إلى داخل جزيرة سومطرة حيث فرَّ من قاطعي الرّؤوس ولاقى من الإثارة ما يعادل مغامراته في جزيرة العرب. لكننا لم نستطع إقناعه بالكلام عن ذلك، وربما يحدّثنا عنه ذات يوم في بعض من مذكراته.

لطالما تساءلتُ لمَ اختار جزيرة العرب مسرحاً لعمله في البحث عن الآثار بدلاً من مصر التي تعادل مكّة والمدينة بالنّسبة لمحبي التّنقيب عن الأشياء الأثرية؟ كان جوابه مناسباً لشخصيته إذ قال:

«لم تغرِني مصرُ أبداً. فإنّ معظم العمل قد تم إنجازه هناك؛ كما أنّ معظم علماء المصريات اليوم منكبّون على محاولة اكتشاف متى تم رسم الشّعرة الثّالثة لخنفساء!».





صحارى شمال جزيرة العرب

«العربيّة الصّحراويّة»



عالم الآثار والشّاعر الذي غدا محارباً

الفصل الثّالث

عالم آثار يتحوّل إلى جندي

كان لورَنس على يقين من اقتراب حدوث صدام، وذلك بفضل نصائح اللورد كتشنر وملاحظاته الشّخصية. وعندما حدث ذلك فعلاً حاول على الفور الانضمام إلى «حشود كتشنر». لكن أفراد اللجنة الطّبية الحربية نظروا إلى الشّاب الهزيل قصير القامة أشقر الشّعر، ثم غمز أحدهم الآخر وطلبوا منه أن يلحق بأمه وينتظر الحرب المقبلة. بعد أربع سنوات فقط من رفضه بسبب عدم ملاءمته للمنصب جسدياً، دخل خريج أوكسفورد، صغير الجسم المثقف الخجول، دخل دمشق على رأس جيشه العربي المنتصر. وليتصوّر القارئ ما كان يمكن أن يقوله أحد أفراد اللجنة الطّبية لو قال أحد ما في عام 1914 إنه بعد ثلاث أو أربع سنوات سيرفض هذا الشّاب نفسه لقب «سير» Sir ورتبة الجنرال، بل وسيرفض حتى قبول شارة ڤيكتوريا والأوسمة الأخرى التي يتطلّع النّاس للحصول عليها.

بعد أن رفض لورَنس كل ذلك، عاد إلى آثاره القديمة وعكف بسرور على دراسة النّقوش التي تخفي وراءها أسرار حضارات كانت في يوم ما مزدهرة ثم تهدّمت وسُويّت بالتراب منذ آلاف السّنين. حدث بعد ذلك أن طلب منه السّير غلبرت ف. كلايتون الحضور إلى مركز القيادة العامة في القاهرة هو وبعض العلماء والمفكرين والشّبان ذوي القدرات المتميّزة من أمثال مارك سايكس وأوبري هربرت وكورنواليس ونيوكومب وغيرهم. على الرّغم من أن لورَنس كان في ذلك الحين في السّادسة والعشرين من عمره، فكان قد زار تركية وسوريا وفلسطين وجزيرة العرب وبلاد الرّافدين وفارس. لقد عاش وسط رجال القبائل البدائيين في الدّاخل، كما عاشر سكان

المـدن الكبرى كحلب والموصل وبغداد وبيروت والقدس ودمشـق. وفي الواقع فقد كانـت خبرته ببعض أجزاء الشّـرق الأدنى فريدة من نوعها. لـم يكن يجيد التّكلم بعدّة لغات فحسب بل وقف على عادات كلّ الجنسيات المتباينة ودرس تطورها التّاريخي.

فـي البداية أُدخل فـي دائرة الخرائط حيث كان الجنرالات يمضون السّـاعات وهم يتأمّلـون جـداول غير دقيقـة ويناقشـون الخطط التـي تمكنهم من إيجـاد نقطة ضعف داخـل القوات التّركيـة. كانوا، بعد وضع مخططهم، يلتفتون فـي كثير من الأحيان إلى ذلـك الموظف ذي المظهر المتواضع ليروا إن كان لديه أيّة مقترحات بناءً على معرفته الشّخصية بالبلاد. كان جوابه غالباً هو التّالي:

«هناك نقاط ممتازة في خطتكم لكنها غير قابلة للتنفيذ ولن تؤدي سوى إلى إضاعة الوقت في إنشاء طرقات لنقل المعدّات والمدفعيات، وإزهاق الأرواح من أجل حماية خطوط الاتصالات عبر أراضي القبائل المحلّية المعادية».

كحلٍّ بديل كان يشير إلى طريق أقصر وأكثر أماناً يعرفها بدقة، لأنه سبق وأن تجول على قدميه في كل بوصة منها بحثاً عن الآثار المفقودة للجيوش الغازية من الآشوريين والإغريق والرّومان والصّليبيين، وأصبح أشـدّ ضبّاط الجيش المسـنّين وقـاراً يضعون ثقتهم في هذا الملازم هادئ الصّوت، وبعد فترة قصيرة رسّخ لنفسه سمعة جيدة لدى القيادة العامة.

ومن ثم كان لورَنس في كثير من الأحيان في جزيرة العرب يتفوّق دهاءً على الأتراك بسـبب تفوقه فـي المعرفة بطبوغرافيا البـلاد. كان يعرف العديد مـن الأجزاء المترامية للإمبراطورية التّركية أكثر من الأتراك أنفسهم.

نُقل بعد ذلك من دائرة رسـم الخرائط إلى فرع آخر لدائرة الاستخبارات التي كانت تتعامل بشـكل رئيسـي مع شـؤون المناطق داخل صفوف العدو. كانت مهمّته، كأحد رؤسـاء الفيالق السّـرّية، تبليـغ القائد العـام بتحرّكات وحـدات الجيـش التّركي. وقد أخبرني السّـير أرتشيبولد مَري، قائد القوات البريطانية في الشّرق الأدنى، أنه كان يقدّر المعلومات التي يرسـلها له أيما تقدير، هذا الشّـاب الذي خضع له العملاء المحلّيون

السّريون الذين كانوا يدخلون إلى صفوف الأتراك ويخرجون منها.

حدث في صيف سنة 1915 أن ثار عرب الحجاز في وجه أسيادهم الأتراك في ذلك الجزء من شبه جزيرة العرب الممتدّ من مكّة المكرمة إلى الجزء الجنوبي من البحر الميت، وهي الأراضي المعروفة بجزيرة العرب المقدَّسة.

ولكي نفهم الأسباب التي أدت إلى اندلاع الثّورة ولنقدّر المشكلات المعقدة التي كان على لورَنس أن يواجهها إثر وصوله إلى جزيرة العرب بعد أن أحرز العرب انتصارات أولية وقابلهم احتمال انهيار ثورتهم، دعونا نخرج عن الموضوع للحظات لنلقي نظرة سريعة على الماضي عبر صفحات تاريخ جزيرة العرب وللنعش ذكرياتنا بقصص تاريخ البلاد وشعبها الرّائع.

تذكر الأساطير أن جزيرة العرب كانت موطن جدّينا الأولين آدم وحواء، وموطن ملكة سبأ وأبطال قصص ألف ليلة وليلة. هي بلد سكنها أناس عاشوا فيها وكانت لهم آمال ومشاعر حتى قبل أن يسكن الهنود شمال أميركا أو يبني الدّرويد معابدهم الحجرية في بريطانيا. تقول المرويّات إنّ سكان هذه البلاد قد أسّسوا الإمبراطوريات العظيمة قبل أن يخرج موسى ببني إسرائيل من مصر، وربما قبل أن يبني خوفو هرمه الأكبر. ويقول علماء الآثار، الذين خاطروا بحياتهم لكشف غموض جزيرة العرب، إنّ مدناً عظيمة قد ازدهرت ثم خبت قبل عهد توت عنخ آمون بفترة طويلة، وأن الملك العظيم حمورابي قد صاغ قانونه العادل في بقعة نائية من البلاد قبل أن ينشر بوذا تعاليمه على ضفاف نهر الغانج وقبل أن يتفوه كونفوشيوس بمبدأ القاعدة الذّهبية.

إن شبه جزيرة العرب أكبر في مساحتها من إنكلترا وويلز واسكتلندا وإيرلندا وهولندا وبلجيكا وفرنسا وإسپانيا مجتمعة. هي البلاد التي جاءها اليونان والرّومان للتجارة أو القتال أو الدّراسة، وقسموها إلى ثلاثة أجزاء جغرافية هي: العربيّة الصّخريّة *Arabia Petraea* في الشّمال والعربيّة الصّحراويّة *Arabia Deserta* في الشّرق والعربيّة السّعيدة *Arabia Felix* في الغرب.

مع أن بعض العلماء يعتقدون إنها موطن الجنس البشـري الأصلي، فلا توجد لدينا خرائط دقيقة، وربما تكون خرائط القطب الشّمالي وكوكب المريخ أدقّ من تلك التي تصـف بعض أجزاء مـن جزيرة العرب التي ينحدر منها العديـد من الرّجال المحاربين في جيش لورَنس.

وإنّ المسـافة بين مدينة حلب الواقعة في الشّـمال ومدينة مكّـة الواقعة في منتصف المسافة على السّاحل الغربي لجزيرة العرب، لا تقلّ عن المسافة التي بين لندن وروما. ومـع هذا فقد سـافر لورَنـس ورجاله من مكّة إلـى حلب على ظهور الجمـال في بلاد قاحلة تكاد لا تختلف عن الجبال على سطح القمر.

وحتـى لا يرتبك القارئ بشـأن الأسـماء العربيّة الغريبة، فمن الأفضـل أن يبقي في ذهنه أن الحملات العربيّة قد بدأت من مكّة ثم انتقلت إلى الشّمال باتجاه العَقَبة، ومنها إلى دمشق وحلب في سوريا. إنّ كلّ حدث يوصف في هذه الرّواية يبعد عن الذي قبله إلـى جهة الشّـمال. على الرّغم مـن أن بعض الجهات تقدّر عدد سـكان جزيرة العرب بعشـرين مليون نسـمة، فقد بقـي الكثير منهم مـع بعضهم خلال قـرون بفضل صلات القرابة ليس إلا، كتلك التي وُجدت بين قبائل الهنود الحمر في أميركا منذ مئات السّنين.

لقد قُسـمت شـعوب جزيـرة العرب منذ زمان سـحيق إلـى طبقتين: سـكان القرى والمدن، وأولئك الذين يتنقلون من مكان إلى آخر يحملون متاعهم الدّنيوي في حقائب جمالهم. يدعى الصّنفان كلاهما بالعرب، لكن الفئة المتنقلة تدعى بالبدو للتّمييز بينهم وبيـن إخوانهم الذين يقطنون الأراضي الزّراعية. والبدوي الصّميم لا يعرف شـيئاً عن زراعـة الأرض، ومواشـيه هي الإبل والخيـول. يُعدّ البدو الفئـة المتميّزة، وهم العرب الذين حافظوا على حبّهم للحرّية والفضائل القديمة التي تميز أخلاقهم الرّجولية.

كان أول الرّحاليـن إلـى جزيرة العرب رجل إنكليزي هو تشـارلز م. داوتي الشّـاعر والفيلسـوف ومؤلـف الكتـاب الرّائـع "Arabia Deserta" «رحـلات فـي العربيّـة الصّحراويّـة» المكتوب بأسـلوب إليزابيثي أصيل. وهو، باسـتثناء الكولونيل لورَنس، الأوروبي الوحيد الذي أمضى وقتاً طويلاً يتنقل في الأنحاء الدّاخلية من جزيرة العرب

المقدَّسة دون أن يتظاهر بأنه مسلم. لقد توصل داوتي إلى النّتيجة نفسها التي توصّل إليها كل من عرف البدو بأنهم قوم دمثون يكرمون من يحلّ ضيفاً عليهم.

لكنهم، تبعاً لقانونهم غير المكتوب، لا يعدّون الغريب الذي يقع بين أيديهم في الصّحراء ضيفاً، وبالتالي فإنّه يجدهم غلاظاً لا رحمة في قلوبهم. وفي حالات قاسية قد يقطع عرب شمّر رأسه. هناك مثل شائع في الصّحراء يقول إن الرّجل قد يذبح أخاه من أجل نعل حذاء قديم. ومع ذلك، فإن حُسن ضيافتهم رائعة حتى أنها أصبحت مضرب المثل في كل أنحاء العالم. يقول البدوي: «ألسنا كلنا ضيوفاً على الله؟» ثم يضيف داوتي: «وبعد أن يأكل الضّيف الخبز والملح تنشأ علاقة سلام تستمرّ بينه وبين مضيفه لفترة من الزّمان (تقدر بليلتين ويوم، في الأغلب المدّة التي يبقى فيها الطّعام في جوفه).

أما كلمة «عرب» فقد اشتُقّت من كلمة «عَرَبه» وهو اسم إقليم صغير في مقاطعة قديمة جنوبي الحجاز يقال إنهم سمّوها بهذا الاسم نسبة إلى يعرب بن قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح أول ناطق بالعربيّة «لغة الملائكة» كما يقولون. والعرب من الشّعوب السّاميّة، العرق نفسه الذي ينحدر منه اليهود.

والعالم مَدين بالشّيء الكثير للعرب، فهم لم يخترعوا فقط العديد من ألعابنا الصّبيانية، كالبلبل الذي يدور بسحب الخيط، بل خطوا خطوات واسعة في مجال الطّب، وكانت طرق علاجهم قريبة جداً من الطّرق الحديثة. كان جرّاحوهم المهرة يجرون عمليات ضخمة باستخدام التّخدير عندما كانت أوروبا معتمدة بشكل كلي على الشّفاء بالمعجزات الذي يطبقه رجال الدّين. أمّا في الكيمياء فللعرب الفضل في اكتشاف الكحول والپوتاس ونترات الفضة وظاهرتي التّصعّد والتّآكل وحامض الكبريت وحامض النّتريك. ولقد قاموا بعدة تجارب زراعية هامة وعُنوا بالرّيّ واستخدام السّماد، وأشياء أخرى كتطعيم الفاكهة والزّهور. واشتهر العرب في العالم كله بدبغ الجلود وصبغ الأقمشة وصناعة الزّجاج والأواني الفخارية والمنسوجات والورق، وأتقنوا العمل بالذّهب والفضة والنّحاس والبرونز والحديد والفولاذ.

وأما أغنى بقعة من جزيرة العرب، باستثناء بلاد الرّافدين، فقد كانت وما تزال

مقاطعة اليمن الواقعة في أقصى الزّاوية الجنوبية الغربية، وهي منطقة جبلية تقع شمالي عَدَن. اشتهرت على مدى آلاف من السّنين بكنوزها الثّمينة ومناخها البهيج، وخصوبة أوديتها وبكونها موطن البنّ الذي تُصنع منه القهوة لذيذة المذاق. يخبرنا سترابو، الجغرافي اليوناني، أن الإسكندر الأكبر كان قد قرّر، قبل موته بفترة قصيرة، العودة من الهند وتأسيس عاصمته الإمبراطورية هناك. ويعتقد بعض العلماء أن هذا الإقليم هو أقدم موطن سكنه الإنسان وأنه الموطن الذي جاء منه قدماء المصريين. كما قامت فيه منذ عام 1000 قبل الميلاد ممالك مزدهرة كالمناذرة والسّبئيين والحِميريين.

بعد تدمير القدس على يد تيطوس، فرّ كثير من اليهود إلى اليمن وما يزال أحفادهم الأصليون يعيشون فيه. لكن لمّا اكتشف البطالمة الطّريق البحري إلى الهند أصبح اليمن أقل أهمية، وغدت منطقة الحجاز أشهر إقليم في جزيرة العرب لقرون طويلة. يقع الحجاز على البحر الأحمر شمالي اليمن ويحدّه من الشّرق المنطقة الوسطى من الجزيرة المعروفة بإقليم نَجد، ويحده من الشّمال الشّرقي ومن الشّمال سوريا والبحر الميت وفلسطين وشبه جزيرة سيناء.

وكلمة «حجاز» تعني «حاجز». يشتهر إقليم الحجاز، الذي يفتقر إلى المياه، بمدينتيه الرّئيسيتين: مكّة، موضع ولادة النّبيّ محمّد والتي كانت تدعى في الأزمنة الغابرة Macoraba، والمدينة، التي كانت تدعى يثرب، حيث أمضى النّبيّ آخر عشر سنوات من حياته ودُفن فيها. ويجب على كل المسلمين المستطيعين الحجّ إلى هاتين المدينتين، كما كان على النّاس القدوم إليها في العصر الجاهلي قبل الإسلام.

قبل ألف عام من اكتشاف كولومبوس لأميركا، ولد صبي في مكّة. كان مقدراً لهذا الصّبي أن يغير وجه التّاريخ في العالم بأسره. كان في شبابه يرعى الغنم والماعز فوق الهضاب المحيطة بمكّة، ثم عمل بالتجارة بأموال أرملة ثرية من سيدات مكّة. كان يقود قوافل جمالها إلى سوريا للمتاجرة مع التّجار الأغنياء هناك.

وفي سوريا تعرّف بشكل جيد على الدّيانتين اليهودية والمسيحية، وتيقّن من أن قومه العرب، الذين كانوا يعبدون الأصنام، لم يكونوا يدينون بديانة صحيحة. لذلك

أخذ الشّاب ما يوافقه من عقيدة النّصارى وبعضاً من تعاليم اليهودية وبقايا من فلسفة الفرس عبدة النّار ومجموعة من التّقاليد العربيّة، وأضاف إليها شيئاً من أفكاره ثم أسّس ديانة جديدة[1]. كان يحث أتباعه على الاعتقاد بأن آدم وإبراهيم وموسى وعيسى هم أنبياء الإسلام. أمّا اليوم فيُنظر إليهم على أنهم أقلّ أهمية من محمّد نفسه، الذي تُعدّ تعاليمه الوحي الأخير من الله. في جزيرة العرب تجد في كل عائلة تقريباً ابناً اسمه «محمّد»، وربما يكون عدد الرّجال في العالم الذين يحملون هذا الاسم أكبر من عدد الذين يحملون اسم «جون» أو «وِليَم».

هل من الغريب بعد ذلك أن تكون الصّحراء موطناً لأعظم ثلاثة أديان في العالم: اليهودية والمسيحية والإسلام؟ يطلق العرب على الصّحراء اسم جنّة الله ويقولون إن الصّحراء خالية من أيّ كائن سوى الله. هناك في صحراء جزيرة العرب، ربما أكثر من أيّ مكان آخر في العالم، «تعلن قبّة السّماء تمجيدها للخالق ولبديع صنعه. يوماً بعد يوم تسمع فيها المواعظ، وليلة بعد ليلة تكتسب المعرفة». لا يوجد في الصّحراء تكالبٌ على جمع المال لأجل المال، ولا سباق جنوني ليسبق الإنسان فلاناً من البشر. وإنه من لعنات مدنيتنا الحديثة أنها لا تترك للإنسان الفرصة الكافية للتفكير والتّأمل. بينما توفر الصّحراء المكان المناسب ليتفكر المرء بالقدر ويتأمل بالأمور التي لا تستطيع الحشرات أو الصّدأ إفسادها، كما لا يتمكن اللصوص من الاقتحام وسرقتها.

كان محمّد أول رجل استطاع أن يجمع شمل النّاس في جزيرة العرب. لقد جاء في الزّمان الذي كانت فيه البلاد بحاجة إلى زعيم عظيم يطرد منها السّيطرة الأجنبية. وقد استطاع توحيد العرب بفضل نشر التّعاليم الرّائعة لرسالته. كان يفوق كل القادة العظماء بأنه يملك فكراً قيادياً وقدرة على القيادة وهبة من الله مثل نابوليون في سيطرته على قلوب الرّجال وتشكيلها وتجميعها وصهرها وتثبيتها لتصبح كقلب رجل واحد».

بعد وفاة النّبيّ محمّد قامت الشّعوب العربيّة، بدافع الحماسة الدّينية، بالخروج

(1) هذا كلام المؤلف الذي لا يؤمن بنبوّة سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، ولا نحتاج هنا للرّدّ عليه في هذا الكتاب، فحسبُنا إيماننا واعتقادنا بديننا ونبيّنا الكريم.

من الصّحراء وبسطت سلطانها على مناطق مترامية الأطراف من العالم وأسّست الإمبراطورية الإسلامية الضّخمة التي تُعدّ أعظم من الإمبراطورية الرّومانية. في تلك الأيام المزدهرة للإسلام، زوّد العرب البلاد التي فتحوها بالقادة الدّينيين والسّياسيين والعسكريين، وبدا أنه لا يمكن الوقوف في وجههم أبداً.

يكتب الطّبري، المؤرخ الإسلامي، «كان العرب يأكلون الجراد والعسل البرّي، وبعد أن تذوقوا طعم الحضارة في سوريا ورفلوا في قصور كسرى الفخمة، قالوا: لو لم نكن نقاتل من أجل الله، لما تمنينا إلا الحصول على كل ذلك والاستمتاع به، تاركين الشّقاء والجوع للآخرين. وخلال قرن من وفاة النّبيّ محمّد، كان عرب الحجاز قد أسّسوا إمبراطورية أكبر من إمبراطورية الإسكندر أو إمبراطورية روما؛ لقد اكتسح الإسلام العالم كالإعصار».

بلغت هذه الإمبراطورية ممتدّة الأطراف ذُروة مجدها في القرن السّابع من هذه الحقبة، وبدأ الوهن يتطرّق إليها بعد معركة تور Tours عام 732 للميلاد عندما هُزم العرب في فرنسا أمام المسيحيين تحت قيادة شارل مارتِل.

بقي كثير من العرب في البلاد التي فتحوها. حملوا، تجاراً ومبشرين، تعاليم عقيدة محمّد من جزيرة العرب إلى جبل طارق وأفريقيا الوسطى ووسط الصّين وجزر البحار الجنوبية. وهم يصدحون بعقيدتهم من فوق المآذن في كل بقعة يوجدون فيها: «لا إله إلا الله، الله أكبر».

وحتى اليوم، نجد آلافاً من المسلمين يحتلون مناصب مهمّة في مناطق بعيدة كهونغ كونغ وسنغافورة وإندونيسيا وإسپانيا. بينما عاد الآخرون إلى موطنهم الأصلي في الصّحراء العربيّة. وعادت جزيرة العرب إلى عزلتها من جديد بفعل سلاسل الجبال التي تحدّ سواحلها، وبفعل طرقاتها غير المأهولة المليئة بالرّمال المتنقلة. وفي القرن الثّاني عشر قام أحفاد صلاح الدّين، الذي كان نصف كردي، بالاستيلاء على أطراف الصّحراء. وبعد مرور ثلاثة قرون جاءت قبيلة من مجاهل هضاب آسيا الوسطى. كانوا من قبيلة عثمان، أجداد الأتراك المعاصرين، وحاولوا حكم العرب وكأنهم من جنس أدنى من جنسهم.

ادّعـى الأتـراك ملكيتهم لجزيرة العرب نحواً من أربعمئة سـنة، فقط لأنهم يملكون بعـض الحاميـات على طول السّـاحل. نجحت بعـض تلك الحاميـات بالصّمود حتى نهايـة الحرب، لكنهم أُجبروا أخيراً على الاستسـلام والانسـحاب مـن جزيرة العرب وتركوا أهلها يتمتعون بالحرية.

لـم تعتـرف قبائل الحجاز في وقت من الأوقات بسـيادة أحد من الحكام الأجانب. واحتفـظ الحجازيـون علـى مـرّ السّـنين، وهم يضعـون حريتهـم الشّـخصية فوق كل الاعتبـارات. وكثيـراً مـا أُرسـلت الجيـوش الجـرارة لفتح الحجـاز ولكن لـم يتمكن الآشوريون أو المجوس أو الفُرس أو الإغريق أو الرّومان من السّيطرة على بلادهم.

منـذ انهيـار الإمبراطورية العربيّة، قبل أكثر من ألف عام، ما برح القواد والسّـلاطين والخلفاء يحاولون توحيد العرب، وخصوصاً في منطقة الحجاز، لأنها تضمّ المدينتين المكرّمتيـن لدى المسـلمين. لم ينجـح أحدهم في فعل ذلك، ثم قُـدّر لتوماس إدوارد لورَنس أن ينجح بما فشـل فيه الآخرون. لقد دخل هذا الشّـاب عالـم الآثار البريطاني جزيـرة العرب وقاد العرب من خـلال تلك الحملة الرّائعة التي سـاعدت اللورد آلِنبي علـى قصم ظهر الإمبراطوريـة التّركية والقضاء على حلم الألمان ببسـط نفوذهم على العالـم. أمّـا الطّريقة التي اسـتطاع بهـا لورَنس طرد الأتـراك من بلاد العرب المقدّسـة وتكويـن المملكـة العربيّة المتجانسـة المعروفة بمملكـة الحجاز، فهـي قصّة ما كنت لأصدّقهـا أبداً لو لـم أقم بزيـارة جزيرة العرب والالتقاء شـخصياً بلورَنس ورفاقه أثناء حملتهم.

وإنّ العامـل الذي لعب دوراً مهمّاً في تسـهيل مهمّـة لورَنس في جزيرة العرب لعله يكون سـلالة النّسـب النّبوي في أبنـاء الصّحراء. ويجب علينا أن نعرف شـيئاً عن هذه الصّلة وقادتها الحاليين لنفهم دبلوماسية وإستراتيجية الكولونيل لورَنس التي سنتابعها من خلال حرب الصّحراء.



لورَنس في مقرّ القيادة العامّة بالقاهرة



مؤذّن ينادي المؤمنين للصّلاة

الفصل الرّابع
سلالة أشراف البيت النّبوي

خلال تلك القرون من الحكم التّركي غير المستقرّ، بقيت في المدن المقدَّسة من الحجاز سلالة من البيت النّبوي المنحدرين من آل النّبيّ محمّد. كان بقية العرب يدعون هؤلاء الأشخاص بالأشراف، الذين كانوا يكرهون الأتراك ويعدونهم من الدّخلاء. كانت هذه الصّلة قويّة بحيث لم تتمكّن الدّولة العثمانية من القضاء عليها.

مع ذلك، عندما كان الأشراف القاطنون بالقرب من المواقع التّركية المحصّنة على طول حدود الصّحراء، يحتجّون علانية على ظلم العثمانيين، كان السّلطان يدعوهم للقدوم والإقامة قريباً منه في القسطنطينية. وهناك لا يكونون بحكم السّجناء، بل يُبعدون عن الطّريق بهدوء.

كان السّلطان عبد الحميد، آخر السّلاطين العثمانيين البارزين، فقد برع في اتباع هذه السّياسة الخاصة لمن سبقوه، ولعل من أبرز العرب الذين وجد من الأفضل أن يبقيه قريباً من الباب العالي هو الشّريف حسين، شريف مكّة. كان أكبر أحفاد النّبي الموجودين سناً، ولذلك كان الكثيرون يرجحون أنه الأولى بالخلافة، أي القيادة الرّوحية والدّنيوية للمسلمين. كان لقب الخليفة يعطى أساساً لمن هو منحدر من سلالة النّبي مباشرة، لكن الأتراك اغتصبوه فيما بعد.

ليس من شعب يفتخر بأجداده كالشّعب العربي. وإن تواريخ كل العائلات الأميرية الحاكمة مدونة في مكّة عند المسجد المبني حول الحجر الأسود، الذي يعده ملايين من النّاس أكثر الأماكن قداسة في العالم. هناك، على لفافة ورقية، كُتب اسم الحسين

بن علي، الحفيد المباشر للنّبي محمّد من ابنته فاطمة، وكذلك ابنها الأكبر الحسن.

كانت للملك حسين في شبابه روحٌ منطلقة، وبدلاً من العيش مع عائلته بهدوء في مكّة، أخذ يجوب الصّحراء مع البدو وشارك في كل غزواتهم وحروبهم القبلية. كانت أمه شركسية الأصل وقد ورث منها حيويته الزّائدة. تلقى عبد الحميد، السّلطان الأحمر، عدداً من التّقارير المقلقة تتناول الحياة البرّية التي يعيشها هذا الرّجل المستقل الذي كان يخشاه ولا يثق به. كان أمامه أحد حلّين، الأول أن يقيّده ويضعه في كيس ثم يرمي به في البوسفور، والثّاني أن يبقيه في القسطنطينية تحت المراقبة الشّخصية اللّصيقة. على الرّغم من خشيته من احتمال تآمر حسين ضده، فإن حقيقة كونه من سلالة النّبي جعلت من الصّعب على السّلطان أن يقذفه في البوسفور. فما كان منه إلا أن أعطاه راتباً ومنزلاً صغيراً يقع على القرن الذّهبي حيث أُجبر على العيش مع عائلته لمدة ثمانية عشر عاماً. كان عبد الحميد يطلق عليه كلمة «ضيف»، مع ابتسامة قاتلة.

أثناء سنوات المنفى الثّمانية عشرة، استخدم السّلطان العجوز الدّبلوماسي المكّار كل الأساليب التي تبقي حسيناً راضياً. ومن بين العطايا قدّم إليه سيارة رولز رويس فخمة ذات هيكل من الألمنيوم. شكر حسين السّلطان على ذلك لكنه أبدى للجميع أنه يفضّل بغاله عليها.

عندما حدثت ثورة الشّبان الأتراك في سنة 1912، وأطيح بعبد الحميد من على عرشه، أُطلق سراح كل المسجونين السّياسيين من القسطنطينية واعتقد الحسين ومن معه من زعماء العرب أنهم يشهدون فجر عهد جديد من الحرية والاستقلال. لقد ساعدوا الحركة الجديدة على إزالة النّظام القديم، لكن سرعان ما تبدّدت آمالهم فإن جمعية الاتحاد والتّرقي قد اندفعت بسرعة تخطط إلى تتريك كل الشّعوب ذات الأعراق المتعدّدة التي كانت تكوّن الإمبراطورية التّركية. بل ذهبوا إلى أبعد ذلك بأن أصرّوا على تخلي العرب عن لغتهم الجميلة، لغة الملائكة، واستبدالها برطانة اللغة التّركية. ولم يطل الزّمان بحسين ليكتشف أن جمعية الاتحاد والتّرقي، التي يرأسها أنور وطلعت وجمال، أكثر استبداداً من عبد الحميد في أشد أوقاته توحشاً ودموية.

إنهم ينظرون الآن إلى الشّرير عبد الحميد على أنه رجل لطيف عجوز غير مؤذٍ، مقارنة مع من خلفوه. اقترحت الجمعية الفتاة أيضاً أن يتم استبدال الأنبياء القدامى في القرآن بالأبطال الأتراك. كما تم محو الكلمات ذات الأصل العربي من قاموس المفردات التّركية.

ذاعت في مكّة قصص مبالغ فيها عن ارتداد الأتراك إلى وثنية آل عثمان القديمة، وأنهم يأمرون الجنود في القسطنطينية أن يصلّوا للذّئب الأشهب، وهو إله من آلهة العهد البربري قبل أن تترك العشائر العثمانية موطنها القديم في براري آسيا الوسطى.

على الرّغم من أن القادة العرب قد يئسوا من رؤية وطنهم يرفل في السّعادة من جديد، فقد استطاع الشّريف حسين وأولاده أن يكتموا كراهيتهم للحكومة الثّلاثية المستبدة وحزب الأتراك الشّبان برمته. وبسبب المساعدة التي قدّمها للحكومة الثّلاثية قبل أن يكتشف خداعها، فقد مُنح لقب حامي الأماكن الإسلامية المقدَّسة، أو أمير مكّة السّادس والسّتون في العهد العثماني.

أعلنت مِس غرترود بِل، وهي المرأة الوحيدة التي تسلّمت منصباً عسكرياً مهمّاً في الجيش البريطاني وكان لها نفوذها في الشّؤون الشّرق أوسطية، أعلنت في رسالة إلى التّايمز اللندنية أن حركة القوميين العرب قد انتعشت بسبب جمعية تركية الفتاة، تلك الجمعية التي ما كادت تصل إلى السّلطة حتى تبدّل موقفها تماماً.

كتبت مِس بِل «إنّ الحرية والمساواة كلمتان خطيرتان في إمبراطورية مؤلفة من جنسيات متشعبة، ومنها العرب سريعو البديهة القابلون للتكيّف، الذين أحيوا بفخر تقاليد ماضيهم العريق كمؤسّسين للإسلام ومؤيّدين لحكم الخلافة على مدى سبعمئة عام، فكانوا أول من طالب بترجمة الوعود إلى حيز التّنفيذ، وفي الفجر المشرق للفترة التّأسيسية توقعت النّخبة المثقفة من العرب أن تلبّى مطالبهم. لو استجاب الأتراك العرب في محاولة جادّة بالسّماح بتطور الثّقافة العربيّة تحت حمايتهم، لربّما اتّخذت الإمبراطورية العثمانية حياة جديدة لها، لكن عقليتهم المتحجّرة منعتهم من اغتنام تلك الفرصة الذّهبية.

«بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الرّوح العسكرية البروسيّة شكّلت بالنّسبة إليهم إغراءً قوياً خطيراً في مرحلة تأسيس إمبراطوريتهم. لقد قُدّر لجمعية الاتحاد والتّرقي أن تشقّ طريقها بين حساسيات الأعراق المختلفة وهي غير راضية بهذه المهمّة، وبتجاهل أساليب عبد الحميد الدّبلوماسية الحذرة وجدت نفسها متورطة في صراع مأساوي واهن مع الدّول المجاورة لها في أوروبا.

«قبل اندلاع حرب عام 1914، كانت المناطق العربيّة ممتلئة بالحقد والرّغبة في الانتقام....».

في جو من رفاهية العاصمة العثمانية نشأ أولاد الحسين الأربعة كشبّان أتراك أكثر منهم شباباً عرباً. لقد أمضوا معظم أوقاتهم في التّجديف في البوسفور وحضور الحفلات الرّاقصة في البلاط الإمبراطوري. وقد عمل الأمير فيصل لمدة ست سنوات كسكرتير خاصّ للسّلطان عبد الحميد. وعندما عاد الشّريف حسين إلى مكّة ألقى خطبة على أولاده الأربعة وأخبرهم بأنهم أضعف من أن يساندوه بعد أن تعودوا على الحياة النّاعمة في اسطنبول: «إنّ القسطنطينية وحياتها المرفهة اللعينة وراءكم الآن، الحمد لله، وعليكم من هناك أن تتّخذوا وطناً لكم تحت قبّة السّماء مع إخوتكم في الخيام السّوداء لكي نستعيد مجد عائلتنا التي لحق بها الخزي والعار. الله أكبر». بعد قول ذلك قام الملك بأمر أولاده بحراسة طرقات الحجيج.

لم تكن طرقات الحج تلك سوى مسالك تصلح لعبور الجمال خلال الرّمال الحارقة وتصل ساحل البحر الأحمر بمكّة المكرمة والطّائف التي تعدّ العاصمة الصّيفية، وبين المدينة ومكّة. وقد أرسل مع كل ابن من أبنائه فئة من أفضل رجاله المقاتلين. لم يسمح لهم باستعمال الخيام بل أجبرهم على النّوم في عباءاتهم. كانوا يمضون أيامهم في مطاردة اللصوص. وكان من أسوأ لصوص الصّحراء رجال قبيلة الحارث ويبلغون مئة من الخارجين على القانون، أغلبهم من الأفراد المنفيين من عائلات الأشراف. اتخذ رجال الحارث هؤلاء مقراً لهم قرية محصّنة طبيعياً تبعد خمسين ميلاً بجهة الشّمال الشّرقي عن مكّة. وقد كان لهذه الحملات على اللصوص وقطاع الطّرق أكبر أثر على

أبناء الحسين فخلقت منهم رجالاً معتمدين على أنفسهم وقادة متميّزين. وإن كون الأمير فيصل شخصية بارزة في الشّرق الأدنى اليوم ليس بسبب دمه الملكي بشكل أساسي، ولكن لأنه بارع بأساليب القيادة في الصّحراء العربيّة. وهي ليست حصيلة لعب القمار أو الاستجمام تحت أشعة الشّمس.

أمّا علي، الابن الأكبر لحسين، فهو أمير قصير القامة نحيل أنيق يمتاز بأخلاقه الحسنة وسحر شخصي هائل، وهو دبلوماسي متمرّس. إنه رجل متديّن سخيّ لأقصى درجة ومتشدّد في المحافظة على كل ما يتعلّق بالفضيلة. وكبقية أفراد عائلته، هو بعيد النّظر، لديه طموحات لخير بلده. لكن طموحاته الشّخصية لم تتجاوز أن يكون أميراً لمكّة، المنصب الذي تولّاه وراثياً بعد تنحّي أبيه الطّاعن في السّن. أمّا عبد الله، الابن الثّاني، فهو رجل طموح ممتلئ نشاطاً وحيوية، لكنه لا يرقى لأن يكون مثالياً. أصبح في نهايات الحرب حاكماً للأردن واتخذ مستشاراً له الرّحالة الإنكليزي الشّهير السّير هاري سنت جون فيلبي.

وزيد هو أصغر أفراد العائلة، وهو نصف تركي. ليس فيه الكثير من روح الشّرق، وعندما تأجّجت الثّورة لم تكن لديه جدّية إخوته. لقد تخلّى هذا الشّاب الفتي عن أشكال الحماس القوي كالقومية العربيّة لباقي أفراد العائلة وكرّس نفسه لخوض غمار الحياة وملذّاتها كما هو متوقع من أيّ أمير في بداية العشرين من عمره. مع ذلك ففطرته سليمة ويهوى الصّيد وركوب الخيل والرّقص. بعد أن استولى العرب والجيوش الأسترالية على دمشق رقص زيد على أنغام الجاز في المدينة كلها إلى أن أقنعه فيصل بأن سلوكه ينبغي أن يكون لائقاً محترماً. لكنه رجل ذو سحر خاص، وإذا تحقق أمله بالذّهاب إلى أوكسفورد فسيكون أفضل من في أسرته اللامعة للقيام بذلك.

أما فيصل، ثالث أبناء حسين الأربعة وأكثرهم شهرة، فهو شخص مثالي. وهو، على الرّغم من تواضعه وتحفظه، ذو شخصية مرموقة. يولد كل عربي دبلوماسياً، وفيصل قد فاق أقرانه كثيراً.

يملك أطفال الصّحراء القليل من الألعاب ولا يعرفون كيف يلعبون مثلما يفعل الأطفال في الغرب. إن الحياة قاسية وهادئة منذ أن يفتح الطّفل عينيه ليجد نفسه بجانب أمّه في

الخيمة السّوداء. وما إن يبدأ بالحبو حتى يأتي إلى مجلس الشّورى القبلي. مدرسته الوحيدة هي موقد القهوة، وثقافته الوحيدة هي كيفية التّعامل مع الرّجال والجِمال.

بدأ الأمير فيصل حياته كصبيّ صغير بسيط يرعى الأغنام. كانت أمّه فتاة عربيّة من مكّة وهي ابنة عم والده. وعندما كان فيصل ولداً صغيراً أرسله الشّريف حسين إلى الصّحراء ليعيش في قبيلة بدوية، إذ كان من المعتقد أنه خير للولد أن يشبّ في الصّحراء من أن يعيش في المدن والقرى. أصيب فيصل أثناء إقامته في القسطنطينية بالسّل لكن الصّحراء أعادت له قواه. مع ذلك هو ما يزال نحيلاً ويبلغ محيط خصره إحدى وعشرين بوصة. وهو يدخن السّجائر ليل نهار ولا يأكل إلا القليل. وله شهرة بين القبائل بأنه رامٍ ماهر وبأنه يركب الخيول والجمال بشكل ممتاز.

وفيصل رجل مثقف وعصري في وجهات نظره، ويقول الكولونيل لورَنس، الذي يعرفه أكثر من أيّ رجل آخر، إنه صادق كضوء النّهار. يتبعه شعبه لا خوفاً منه، بل لأنهم يعجبون به ويحبونه كثيراً. هو لطيف جداً ومتحرّر الفكر ولن يحكم بالطّريقة المستبدّة التي كان أصحاب المدرسة القديمة يتّبعونها. ولو أتيحت له الفرصة لاستطاع أن يقوم بأعمال تفيد شعبه فائدة جلية.

يختار كبار السّاسة عادةً القصص البوليسية يقرؤونها في أوقات فراغهم، أمّا فيصل فكان يقضي أوقات الهدنة بين الحملة والأخرى في قراءة الشّعر العربي. كان من بين الشّعراء المفضّلين لديه امرؤ القيس، وهو شاعر مشهور بين الشّعراء الجاهليين العرب، وكانت أشعاره تدور حول الجِمال والصّحراء والحبّ. من الشّعراء الآخرين المفضلين لدى فيصل أيضاً ابن هشام وزهير وطرفة والحارث والمتنبي، وهم كتّاب عظماء في العصور الوسطى عندما دخلت الثّقافة العربيّة أقصى بقاع أوروبا. كان فيصل معجباً أشد الإعجاب بالبيت التّالي للمتنبي:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني ... والسّيف والرّمحُ والقرطاسُ والقلمُ

وقد رأيته في كثير من الأحايين يقرأ أعمال عنترة الشّاعر المشهور الذي كُتبت عن حياته الخاصة ملحمة ضخمة تملؤها أخبار الغارات وكلمات الحب. وقد ألهبت

حرب التّحرير الحالية مشاعر العديد من الشّعراء ليحثّوا الشّعب بأناشيدهم الوطنية. وحتى أصغر الجمّالين أخذ يرتجل الأغاني حول لورَنس وفيصل وذلك المحارب المشهور عودة أبو تايِه Auda Abu Tayi.

والشّعر والغناء والأمثال كلها تطري فضيلة الكرم بين العرب. والعربي، بدءاً بالحسين إلى أصغر أتباعه، مستعدّ لأن يعرّض حياته للخطر من أجل ألا يقع يلحق الضّيف أيّ أذى، حتى ولو كان هذا الضّيف أعدى أعدائه. قبل اندلاع نيران الثّورة العربيّة بشهور عديدة، كان الشّريف حسين وأولاده يستعدّون سرّاً للقتال بينما كانوا يجعلون الأتراك يعتقدون بأنهم يتأهبون للتحرّك ضد الحلفاء.

حدث أن كان الأمير فيصل في دمشق في تلك الأثناء كضيف على جمال باشا الحاكم التّركي لسوريا وفلسطين. أرسل والده كلمة إليه بأنه قد نجح في جمع عدد كبير من رجال القبائل للهجوم على الحامية التّركية في المدينة، فاعتذر فيصل بأنه مضطرّ للعودة إلى الجنوب. رجاه جمال باشا أن يؤجّل السّفر أياماً قليلة قائلاً إنه وأنور باشا يرغبان في مرافقته إلى المدينة. وعندما وصل الثّلاثة إلى المدينة شاهدوا أكثر من خمسة آلاف بدوي يركبون خيولهم وجمالهم ويطلقون رصاص بنادقهم في الهواء. سُرّ جمال وأنور لهذا العرض الحربي وقالوا الفيصل إنّ رجاله سيقدّمون مساعدة كبرى للسّلطان، وحليفه المسلم اللامع القيصر وِلهلم پاشا، في حربه ضد الكفّار.

في تلك الليلة، أثناء الوليمة المعتادة، تسلّل علي بن حسين، وهو من أفراد قبيلة الحارث التي اشتهرت باللّصوصية، برفقة عدد من الأشراف والشّيوخ حتى وصل إلى فيصل وهمس في أذنه:

«إننا نحيط بالقصر من جميع جوانبه وسنقتل هذين المارقين التّركيين».

ولما رأى فيصل أن أتباعه جدّيون بشأن القتل أشار إليهم ليتنحّوا جانباً والتفت إلى جمال وأنور قائلاً: «والآن أيها السّادة، تبعاً لعاداتنا بعد الانتهاء من وليمة كهذه، يتوجّب عليكم قضاء هذه الليلة في منزلي».

ترك فيصل ضيفيه ينامان في غرفته، ونام تلك الليلة خارج الباب. لم يتركهما لحظة واحـدة ثم أخذهما في صبـاح اليوم التّالي إلى محطة القطار ورافقهما في رحلة الثّلاثة أيام إلى دمشق. تطلّب هذا الأمر شجاعة كبيرة، إذ لو شك جمال وأنور وجود أيّ خلل فـي المدينـة وأن العرب لا ينوون الاشـتراك مع الأتـراك والألمان فـي الحرب، فربما يقتلان فيصل أو يأخذانه كرهينة ليضمنا التّصرف الحسن من قبل والده.

إن الولائم العربيّة، كتلك التي أقامها فيصل لأنور وجمال، هي من الأمور التي لا تُنسى. وبعد الحرب أعدّ الملك حسين وليمة في دار البلدية بجدّة إكراماً للپرنس المصري جورج لطف الله. مُدت صفوف من الموائد الصّغيرة وصُفت بعضها إلى جانب بعض ثم فُرشـت عليهـا أصناف الطّعام حتـى كادت تنوء بحملها. جلس إلى الموائـد نحو من ثمانين مدعواً وكان النّادلون يتمشّـون قرب الموائد فإذا لم يكن طبقك ممتلئاً تراهم يقطعون لك شـريحة مـن لحـم الغنـم أو الماعز ثـم ينتقلون إلى الضّيـف الآخر وهكـذا. وبعد أن مـلأ الثّمانون بطونهم، تقدّمت دفعة جديدة من ثمانين آخرين ليأكلوا بالطّريقة ذاتها.





لورَنس على متن هجينه السّريع



الأمير فيصل

وهو الآن ملك العراق

الفصل الخامس

سقوط جدّة ومكّة

عندما اندلعت الحرب العالمية وأحدثت اضطراباً هائلاً في تُركية، مع معاداة بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا وإيطاليا لها، سنحت الفرصة المواتية للجزيرة العربيّة. لم يتمكن الشّريف حسين من الحصول على المال والذخيرة الكافيين، لذلك اضطر إلى قضاء عدة شهور دون أن يعلن عن نيته. ثم وصلت أنباء تعلن سقوط كوت العمارة التي كانت تحت يد الجنرال تاونزند. كانت تلك نكسة خطيرة للحلفاء ونصراً مهمّاً للأتراك. لم يعد حسين قادراً على كبح جماح أتباعه، فأرسل كتاباً إلى الحكومة البريطانية يقول فيه إنه لم يعد قادراً على السّكوت والرّضى بأن يبقى قومه خاضعين للأتراك. طلب المساعدة ولكن قبل أن يتسلم الرّد، انقض عرب الحجاز على الأتراك، ولم يعد في وسعهم كتمان الكراهية والغضب ضد خمسة قرون من الاضطهاد والذّلّ. لقد جاء أبناء إسماعيل النّحيلون داكنو البشرة لينتقموا ويحرّروا أنفسهم أخيراً.

كان حسين وأولاده الأربعة قد أحكموا تدبير تفاصيل خطتهم للثّورة، لكنهم كتموا هذه التّدابير إلى أسابيع قليلة قبل إشعال الفتيل. ولم يجرؤوا على الثّقة بأقرب أصدقائهم، لأن المؤامرات كانت تُكتشف في الأراضي التّركية قبل أن تنضج، ولم يكن في مقدور الإنسان أن يعرف بمن يثق. لم يكن هناك جواسيس فحسب، بل كان هناك أيضاً عددٌ لا يحصى من الجواسيس على هؤلاء الجواسيس.

في أوائل عام 1916، بينما كان الضّابط لورَنس يعمل في الفيلق السّرّي في القاهرة، أرسل الشّريف حسين أمراً إلى كل القبائل في جزيرة العرب يطلب منهم أن يكونوا

على أهبة الاستعداد للقتال. وفي التّاسع من شهر يونيو أعطى إشارة البدء. في اللحظة نفسها قام رسمياً بشجب أنور وطلعت وجمال وجمعيتهم المُريبة، جمعية الاتحاد والتّرقي. وفي الوقت نفسه شُنّت هجمات ثلاث على مكّة وجدّة، ميناء المدينة المكرَّمة، والمدينة، وهي من أهم المدن في العالم وأقلها شهرة. قبل أن نتابع الحديث عن الثّورة العربيّة التي برز فيها لورَنس، دعونا نتوقف لنرى تلك المراكز الحياتية في الحجاز التي منها جاء العديد من أصحاب لورَنس.

* * *

عندما يصل الإنسان إلى جدّة لا يسعه إلا أن يفرك عينيه ويقرص جلده ليرى إن كان مستيقظاً أم لا. إنّ القرآن الكريم يحرِّم تناول المشروبات المُسكرة، ولكن إما أن يكون المهندسون الذين صمّموا المدينة من غير المسلمين أو أن معظم الأبنية قد شُيّد قبل أن يُدخل النّبي محمّد تحريم الخمور إلى جزيرة العرب. فشوارع جدّة أشبه بمتاهة مربكة من الوديان المتعرّجة بين المنازل المرتفعة المائلة التي تبدو وكأن موجات متلاحقة من الزّلازل قد هزّت أركانها. ومعظم المنازل في جدّة مؤلفة من خمس أو ست طبقات ولا يسكنها إلا الحجّاج الذين يمرّون بجدّة في طريقهم إلى مكّة في شهر رمضان، وهو الموسم الذي يتزايد فيه عدد سكان المدينة من عشرين ألفاً إلى أكثر من مئة ألف. لا يمكنني إيجاد طريقة أصف بها هذه الميناء العربي الغريب أفضل من أن أقول إنها تشبه أية مدينة شرقية عادية بالنّسبة إلى رجل يعاني من نوبات هذيان. ولو نُقل برج بيزا المائل إلى جدّة لكان وضعه ملائماً تماماً.

يبدو أن التّناظر غير معروف في هذا الجزء من الشّرق الأدنى، ويقال إن النّجار العربي لا يستطيع أن يرسم زاوية قائمة، وإن النّادل العربي لا يستطيع أن يمدّ ملاءة طاولة مربعة الشّكل. إن الحرم المقدَّس الموجود في مكّة، والمعروف باسم الكعبة أي «المكعب»، ليس فيه جوانب أو زوايا متساوية. ونادراً ما ترى الشّوارع العربيّة متوازية، حتى الشّارع المدعو بالشّارع المستقيم في دمشق، فهو ليس مستقيماً أبداً. وإن جدّة، بمبانيها المترنّحة وشرفاتها الهشّة الواهنة ومآذنها المائلة وتجارها الجالسين متصالبي

الأرجل فوق طاولاتهم أمام دكاكين تعمّها الفوضى، وأسواقها المقبّبة الرّائعة المغطاة بسقوف مرقعة مجموعة إلى بعضها كأشرعة سفينة صينية، هي أقرب ما تكون إلى الجنّة المستقبلية لأية مدينة في العالم.

إن جزيرة العرب لهي حقاً بلاد مقلوبة رأساً على عقب. وبينما نكيل معظم سوائلنا ونزن معظم أجسامنا الصّلبة، فهم يزنون هناك سوائلهم ويكيلون أجسامهم الصّلبة. بينما نستعمل السّكاكين والشّوك والملاعق، يستخدمون هم أيديهم. بينما نستعمل الطّاولات والكراسي، يقومون بالاستلقاء على الأرض. نحن نمتطي الخيول من جهة الشّمال وهم يمتطون جمالهم وخيولهم من جهة اليمين. نحن نقرأ من الشّمال إلى اليمين وهم يقرؤون من اليمين إلى الشّمال. يغطي ساكن الصّحراء رأسه صيفاً وشتاءً على حدّ سواء، بينما يترك أقدامه عادة عارية. وبينما نخلع قبعاتنا عندما ندخل دار صديق، يقومون هم بخلع أحذيتهم.

يقطن جدّة، فضلاً عن سكانها العرب، أحفاد حجّاج آلاف من رحلات الحجّ، الذين كانوا يملكون المال الكافي لبلوغ مكّة لكنهم لا يملكون ما يمكّنهم من مغادرة الجزيرة بعد أداء مناسكهم. يبقى العديد من هؤلاء في غاية الفقر ويجدون بالكاد ما يسدّ رمقهم بقيامهم بأي عمل يستطيعونه في الموسم القصير للحجّ كل عام. منهم الجاويون والفليبينيون والملاويون، ومنهم الهنود والأكراد والأتراك والمصريون والسّودانيون والأحباش والسّنغاليون وبدو الصّحراء وسكان زنجبار واليمن والصّومال، وأجناس أخرى لا حصر لها.

اصطحبتُ في عصر أحد الأيام الميجور غولدي، ضابط في البعثة البريطانية التي كان لها مركز هناك، فركبنا جوادينا وخرجنا من بوابة مكّة لنصل إلى الحي الذي يسكنه الأحباش. كانت مساكن هؤلاء القوم البدائيين أكواخاً دائرية ذات أسطح مخروطية من القش، تحيط بها أسوار مرتفعة مصنوعة من علب الطّعام والبنزين الصّدئة. أوقفنا خيولنا أمام كوخ فيه امرأة حبشية منهمكة في دبغ جلد حيوان. وما إن وقع نظرها علينا حتى بدأت تصيح:

«لماذا جئتم لتهديم منزلي؟ لماذا ستأخذون ولدي؟ ماذا فعلت حتى تريدون إطلاق الرّصاص علي؟».

مع أن الجنرال غولدي بذل كل جهده ليهدّئ من روعها، فقد ظلت تولول حتى ركبنا مبتعدين فلم نعد نسمع صوتها.

على بعد أميال قليلة من جانبي جدّة كليهما هناك مرافئ صغيرة يتحاشى الأجانب زيارتها. إنهم لا يرحبون بالسّائحين لأن تلك القرى كانت مراكز لتجارة العبيد. يهرِّبون الزّنوج ويأتون بهم من السّواحل الإفريقية ثم يبيعونهم هنا للأغنياء من العرب. كانت الحكومة التّركية تغضّ الطّرف عن هذه التّجارة الفاسدة، لكن الشّريف حسيناً وأولاده حاولوا القضاء عليها. وكان من جراء منعهم للنّخاسة أن ارتفع ثمن العبد الشّاب القوي من خمسين إلى ثلاثمئة جنيه، وبلغ في بعض الأحيان خمسمئة جنيه. على الرّغم من أن التّجارة ستستمر سراً لبعض الوقت، فإن الملك الجديد، الأمير علي، يعارضها بشدة ويعمل جاهداً على إلغائها.

أخذني الميجور غولدي وراء البوابة الشّمالية لجدار جدّة إلى مكان يعتقد المسلمون أنه ضريح أبي البشرية جمعاء. كما تشير بعض الرّوايات القديمة إلى مكان بالقرب من جدّة حيث رست سفينة نوح بعد الطّوفان العظيم. وتقول إحدى الرّوايات إن نوحاً، وأولاده الثّلاثة سام وحام ويافث كانوا يسيرون على الشّاطئ بعد فترة قصيرة من انحسار المياه، فوصلوا إلى منخفض في الرّمال يبدو وكأنه شكل إنسان بطول ثلاثمئة قدم. سأل حام والده عن ذلك، فأجابه النّبيّ الموقر: «يا بني، إنّ هذا مقام أم البشر حواء».

بالطبع هناك العديد من المسلمين المثقفين الذين يضحكون لدى سماعهم هذه الأسطورة، مع ذلك فقد بُني جدار بطول ثلاثمئة قدم حول المنخفض وفي داخله مسجد تأتي إليه آلاف من النّساء للعبادة كل عام. كانوا يعتقدون أن طول السّيدة حواء كان ثلاثمئة قدم. فكّر كيف تراجع أجدادنا ونحن من بعدهم! على كل حال فإن المدينة، «جدّة»، قد أخذت اسمها من هذا الضّريح.

منذ أيام محمّد، لا يُسمح لليهود أو المسيحيين أو أتباع زردشت وغيرهم ممن ينتسبون إلى ديانات أخرى بالدّخول إلى أيّ جزءٍ من الحجاز ما عدا السّاحل. ولا يسمح إلا للمسلمين بعبور البوّابة الشّرقية لجدار جدّة، التي تؤدّي إلى الطّريق المتجه إلى مكّة. وكان الضّبّاط البريطانيون المتمركزون في جدّة منذ اندلاع الثّورة حتى انتهاء الحرب، يراعون هذا القانون غير المكتوب مراعاة دقيقة. وفي أثناء الحملة لم يقدّم أيّ أجنبي ممن يمثلون الدّول المتحالفة على زيارة عاصمة ملك الحجاز، بل ذهب الملك حسين إلى أبعد من هذا فطلب من السّلطات البريطانية أن تعطي التّعليمات الدّقيقة للطّيارين بألا يدنّسوا هواء مكّة أو المدينة بالطّيران فوقها مهما كانت الظّروف.

لغاية اليوم يوجه ملايين المسلمين وجوههم شطر مكّة خمس مرات في اليوم معلنين أن «لا إله إلا الله، وأن محمّداً رسول الله».

إن مكّة والمدينة هما من أكثر مدن العالم غموضاً. وإن من يقول أو يلمّح بأن المسيح هو ابن الله، يقطّع إرباً إرباً.

منذ أيام محمّد لم يدخل مكّة والمدينة غير المسلمين. وفي الواقع فإن المسلمين سيقضون على كل دخيل يظنون أنه من الكفار. لذلك كانت المؤتمرات التي تعقد بين الملك حسين وممثلي الحكومتين البريطانية والفرنسية تقام في مدينة جدّة.

لدينا تقرير عن حوالي اثني عشر مسيحياً زاروا مكّة في الألف سنة الماضية، ولا يزال بعضهم حياً ليروي لنا القصة. من أشهر هؤلاء بلا ريب السّير ريتشارد بُرتون. أمّا عدد من زاروا المدينة فهو أقل من ذلك. في نهاية القرن الثّامن عشر حكمت الحجاز ومكّة طائفة من المتدينين المتشدّدين جاؤوا من وسط جزيرة العرب ويدعون بالوهابيين. وكان الجيش المصري بقيادة محمّد علي قد أخرجهم من مصر وبين ليلة وضحاها أصبح أحدهم حاكماً للمدينة وحامياً لقبر النّبي.

إن كل المسلمين عندما يصلّون يولّون وجوههم شطر مكّة لأنها مسقط رأس النّبي، بل إن العديد منهم يبنون منازلهم بجهة مكّة، وعندما يدفنون توضع وجوههم تجاه مكّة.

أمـر النّبـيّ محمّـد أتباعـه بالحـجّ إلى مكّـة، وقد أيّـد هذا الأمـر أبناء قبائـل جزيرة العرب، الذين كانوا يفعلون ذلك لقرون من الزّمان. ليست مكّة على شيء من الأهمية الاقتصادية، لكن الحجّاج الذين يقصدونها في شـهر ذي الحجة هم مصدر دخل كبير لسكانها الذين يبلغ عددهم مئة وخمسين ألف نسمة.

يزور مكّة في كل عام عشرات ألوف الحجّاج على الرّغم من أن القادمين من البلاد النّائية يمضون سنتين لإنهاء الرّحلة.

يأتي البعض عبر أفريقيا الوسـطى من وادي السّنغال والكونغو والبعض يمرّون من قلب آسـيا، ولقد كنت في سـنغافورة عندما مرت سـفن الحجّاج من مضيق ملقة وهي محتشـدة بـآلاف من الحجّاج على سـطحها. وبعد أداء الطّقـوس الدّينية في مكّة يعود الحجّاج إلى أوطانهم فيصبغون لحاهم ويُعرفون بعد ذلك بالحاج. بينما يعطون تذكرة في مكّة تضمن لهم دخول الجنة[1].

يُطلب ممن يقصدون جزيرة العرب المقدَّسة بحراً خلع ثيابهم العاديّة قبل مغادرتهم السّـفينة ولف أجسـامهم بلبـاس الإحرام، وهـو رداء يتألف من قطعتيـن من القماش، تلفّ الأولى حول الخصر وتلقى الثّانية على الأكتاف. وفي الغالب تسـتعمل منشـفتان عاديتـان تركيتان لهـذا الغرض. أمّا من يقومون بالحج براً فهم يبدؤون بدخول الأرض المقدّسة على بعد خمسة وثلاثين ميلاً من مكّة، حيث يخلعون أغطية الرّأس والأحذية ويكملون الرّحلة حاسري الرّأس حفاة. يقومون بالاستحمام والحلاقة وقص أظافرهم ولا يلبسـون شـيئاً سـوى ملابس الإحرام. ولا يُسـمح لهم بالاسـتحمام أو الحلاقة أو قـصّ الأظافـر مرة ثانية إلـى أن ينتهوا من أداء المناسـك في مكّة وزيـارة جبل عرفات بالقرب من مكّة ورمي الجمرات.

ليس هناك أجمل من منظر هذا السّـيل من البشـر على ظهور الجمال أو مشـاة على الأقدام عُراة الرّؤوس من جدّة إلى مكّة لا يسـترون أجسـامهم بغير المناشـف التّركية.

---

(1) هذه فرية غير صحيحة من بنات أفكار الكاتب.

وبالطبـع فإن النّسـاء اللواتـي يذهبن إلى الحج يرتدين شـيئاً آخر. يتألـف رداؤهن من قطعـة طويلة مـن القماش الكتاني الذي يغطّي بدنها كله ويخفي رأسـها. ويضعن على وجوههـن قناعـاً من القشّ له فتحات ضيقة يسـتطعن الرّؤية من خلالها. تركب العديد من النّساء والمسنّون من الرّجال الهوادج، وهي بيوت خشبية غريبة تُحمل على ظهور الجمال.

تعـدّ المنطقـة المحيطـة بمكّة مقدَّسـة، ولا يجـوز للحجّـاج التّعـرّض للحيوانات البرّيـة أو قطع الأعشـاب الصّحراويـة. تقع مكّة فـي منخفض تحيط بـه التّلال ويتّحد عنـده شِـعبان. وهناك ترى ثلاثة حصون تكشّـر عـن أنيابها وهي تشـرف على مكّة من المرتفعات، وكانت الفرق التّركية تسكنها قبل أن يطردها أتباع الملك حسين.

في وسـط مكّة يقع المسـجد الكبير الذي بُني للعبادة قبل مولد النّبي محمّد بقرون. يُعرف باسـم مسـجد الكعبة أو المسـجد الحـرام، وفي باحتـه بناء مكعب الشّـكل هو الكعبة الشّـهيرة. وهي مغطاة بسـتار رائع من الحرير الأسـود مع حواف عريضة باللون الذّهبي فيها آيات من القرآن. والسّقف مدعم بدعامات خشبية، وحول الحافة ثمّة قناة من الذّهب تصرف مياه الأمطار.

وفـي داخـل أحـد الجـدران يوجد أكثر الأشـياء قداسـة لمـا يزيد عن مئتـي مليون شـخص. إنه الحجر الأسـود نيزكي الأصل الـذي يعتقد المسـلمون أن الملك جبريل قـد رماه من السّـماء إلى أبينا إبراهيم. يقولون إنـه كان آنذاك أكثر بياضاً من الحليب ثم تحوّل إلى اللون الأسـود بسبب آثام النّاس الذين قاموا بتقبيله. يقول آخرون إنه استمدّ لونه من دموع النّبي آدم. وكان قد تفتّت إلى سبع قطع فجُمعت أجزاؤه بواسطة الملاط وشريط فضّي مثبّت بمسامير فضّية.

يعتقد المسلمون أن البناء مكعب الشّكل يقع تحت عرش الله تماماً. يقولون إنه قد أُنزل من السّماء بناءً على طلب آدم، وإنه نسخة مطابقة للبيت المعمور الذي أبصره في الجنّة قبل إخراجه منها، والذي تطوف حوله الملائكة. لم يدخل الكعبة سـوى القليل من الأشـخاص، وهؤلاء يبقون أنظارهم إلى الأسـفل من بـاب التّوقير والخضوع لله.

وإذا دخل حاج شامي الكعبة، لا يمشي حافي القدمين بقيّة حياته لأنه يعتقد أن جلده قد مسَّ أرضاً طاهرة ولا ينبغي أن يمسَّ أرضاً مدنّسة بعد ذلك أبداً.

يُبدّل ستار الكعبة في كل عام بآخر جديد. في السّابق كان هناك ستاران يُقدّم أحدهما سلطان تركية من دمشق بينما يُصنع الثّاني في القاهرة ويقدّمه سلطان مصر إلى المسجد.

تقول تعاليم الإسلام، منذ بداية الخلق حتى يوم القيامة، إنه يجب على كل حاج أن يطوف حول الكعبة سبع مرات. لكن، وفي كل عشرين سنة، يأتي طوفان عظيم فيملأ شوارع مكّة والمسجد، وعند حدوث ذلك يتم استئجار بعض الرّجال ليسبحوا حول الكعبة ليل نهار حتى لا تتوقف هذه الشّعيرة أبداً.

يقبّل الحجّاج الحجر الأسود ويطوفون حول الكعبة ويشربون من نبع مقدَّس يدعى زمزم ثم يقبّلون الحجر ثانية. قال السّير ريتشارد بُرتون إنه لمّا حاول تقبيل الحجر الأسود وجد حوله حشداً طاحناً من المتديّنين وكان كل واحد منهم يحاول حشر نفسه بين الجموع لتلمس شفتاه أكثر الأشياء قداسة في العالم. قال إن هؤلاء المتحمّسين كانوا يتلون أدعيتهم بأصوات عالية، وبين كل جملة وأخرى يتوقفون ليتمتموا بشتائم في حقّ الرّجل الذي يدفعهم بمرفقه بعيداً عن الحجر الأسود.

يُعدّ نبع زمزم في باحة المسجد من أهم الينابيع في مكّة. مياهه مالحة قليلاً لكن يقال بأنه يصبح لذيذ الطّعم عندما يعتاد المرء عليه. النّبع عميق ويبلغ قطره ثمانية أقدام. تقول إحدى تقاليد المسلمين إنّ الطّريق المباشر إلى الجنة يمرّ بهذا النّبع. وإن الحجّاج القادمين من الهند، والذين يطبقون الخرافات بحذافيرها، يرمون بأنفسهم في البئر مما يجعل ماءه غير قابل للشّرب لعدة أيام. في الحقيقة حاول العديد من الأشخاص عبور هذا الطّريق القصير إلى الجنة فغدا من الضّروري مدّ شبكة فوق القاع لتمنع وقوع النّاس فيه.

هناك اعتقادٌ قديم لدى المسلمين بأن اقتراب يوم القيامة يحدّده شروق الشّمس من

جهة الغرب، وظهور دابّة على ظهر الأرض في باحة المسجد الحرام. يبلغ ارتفاع هذه الدّابـة حوالي ثلاثين متراً، أي ضعفي ارتفاع السّـفينة التي أمـر الله النّبي نوح بصنعها. وهـي خليط من حيوانات عـدة، فلها رأس ثور وعينا خنزير وأذنا فيل وقرنا ظبي ورقبة زرافة وصدر أسـد وجلد نمر وظهر هرّة وذيل كبش وأقدام جمل وصوت حمار. تأتي معها بعصا موسى وخاتم سليمان. إنها سريعة جداً بحيث لن يفلت منها أحد. وستمسّ بعصا موسـى المؤمنين على وجناتهم فتعلّمهم بعلامة تبين أنهم من المخلصين، بينما تقوم بدمغ الكفار بخاتم سليمان.

كمـا يُعتقد بأن هـذه الدّابّة الغريبة تتكلّـم اللغة العربيّة. وبعد ظهورها سيُطلب من كل الأموات الذين سـبق لهم أن سـكنوا الأرض بأن يعبروا وادياً فوق خط رفيع حيث يسـقط الآثم في نار جهنم بينما يعبر نقي القلـب بأمان إلى الجنة. هناك روايات أخرى لهذا الاعتقاد يؤمن بها أتباع ديانات أخرى قبل زمان محمّد بفترة طويلة.

ومـن العلامـات الأخـرى التـي يعتقد البعـض أنها تـدلّ على اقتـراب يـوم القيامة نشـوب حرب مع الأتـراك، ووصول اللئام إلى السّـلطة، وظهور المسـيح الدّجال من خراسـان وهـو يركب حماراً ويتبعه سـبعون ألـف يهوي، وعودة المسـيح الذي يعتقد بعض المسلمين أنه سيعتنق دين الإسلام ويتخذ زوجة ويذبح الدّجال ويحكم الأرض بسـلام وأمان، ومنـح القدرة على الـكلام للحيوانـات والطّيور والسّـمك والزّواحف والجمادات.

حتـى فتـرة قريبـة كان فـي مكّة أكثـر النّاس شـراً كمـا يقول المثـل العربـي «أطهر أرض...»[1]. وعلى بعد مسـافة من الكعبة كان سوق النّخاسة الذي قام حسين بإغلاقه منذ فترة ليست بالبعيدة. وهناك في مكّة نساء يتم الزّواج منهن وتطليقهن شهرياً أو كل شـهرين. يمكن للحـاج الذي يأتي إلى مكّـة، قبل قيام نظام حسـين التّطهيري، الزّواج رسـمياً خـلال فتـرة إقامته في مكّة لأداء شـعائره الدّينيـة. بعد ذلك يمكنـه حلّ زواجه قانونياً عندما يحين موعد مغادرته للمدينة.

(1) مثل فيه تهجّم أفضّل عدم ذكره، والتعميم إجمالاً خطأ فادح في أي أمر كان.

لا يتحلّى سكان مكّة بتلك الفضائل الرّفيعة البدائية وبساطة الذوق التي يشتهر بها البدو. ومنذ عصور بعيدة يتميّز هؤلاء عن باقي العرب بثلاثة ندوب على وجناتهم، وهي علامات مكر كما يقول من يزورون مكّة. والكلام الذي يتفوّه به أهل مكّة هو من أقبح الكلام الذي يمكن وجوده في الشّرق ولديهم من الممارسات والأمراض ما لا يمكن وصفه.

* * *

ولنعد الآن إلى قصة الاستيلاء على هاتين المدينتين المقدَّستين.

أشرف حسين على الهجوم على مكّة، بينما تولّى فيصل وعلي قيادة القوات الموجهة إلى المدينة. نجح الشّريف في مكّة. كانت الحصون الواقعة على التّلال الثّلاثة المشرفة على المدينة المقدَّسة محروسة من قبل أخلص رجال السّلطان من المرتزقة الشّراكسة وبعض الفرق التّركية. في يوم الهجوم اجتاح العرب البوابات واستولوا على السّوق الرّئيسي والجزء السّكني والأبنية الإدارية والمسجد الحرام الذي يضم الكعبة. احتدمت المعارك لمدّة أسبوعين حول الحصنين الأصغرين، ثم تمّ الاستيلاء عليهما في النّهاية. أثناء القتال بقي حسين المسنّ في قصره يوجّه العمليات على الرّغم من القذائف التّركية التي اخترقت مسكنه.

كان بمقدور الأتراك الصّمود لعدة أشهر لولا حماقتهم. يبدو أن العثمانيين مسلمون نظرياً فقط، يؤدون شعائرهم أحياناً وقليلاً ما يلتزمون بأحكام القرآن. لم يبالوا بالمشاعر الدّينية لخصومهم وإخوانهم في الدّين، بل أخذوا يقصفون المسجد الحرام، أهمّ الأماكن المقدَّسة للمسلمين. وقد أصابت إحدى القذائف الحجر الأسود وأحرقت ثقباً في ستار الكعبة وقتلت تسعة من المصلّين العرب. غضب أتباع حسين لهذا الفعل المُشين فتسلقوا جدران الحصن الكبير واستولوا عليه بعد أن يئسوا من القتال القريب بالسّيوف والخناجر.

تمّ الاستيلاء على مكّة وميناء جدّة القريب منها في الشّهر الأول من بدء القتال.

أخـذت جدّة في غضون خمسـة أيام بفضل التّعاون مع خمسـة من التّجـار البريطانيين بقيادة الكابتن بويل، وهو رجل إيرلندي جسـور أحمر الشّـعر، كان نائباً للسّير روسلين ويميس Sir Rosslyn Wemyss، ثم أدميرالاً لأسطول الشّرق الأدنى.

أُسر مـا يزيد عن ألف رجـل تركي وألماني في جـدّة. وقد أدّى قصـف هذا الميناء الذي يعدّ مدخلاً إلى مكّة إلى ما يكاد يكون ثورة في الهند التي تحوي نحواً من ثمانين مليوناً من المسـلمين المتشـدّدين في أمور دينهم وغيرتهم على الإسـلام. وألقوا على البريطانييـن تهمة قصـف أحد الأماكن المقدَّسـة لديهم. في الواقع لا تعـدّ جدّة مدينة مقدَّسة للعرب أنفسهم، وهي من مدن الحجاز التي تقبل دخول غير المسلمين إليها.

أمّـا في المدينة، فلم يلاقِ البدو بقيادة فيصل وعلي نجاحاً كبيراً. كان رجال القبائل في الحجاز الشّـمالي، الذين احتشـدوا حول راية الأشـراف، قد جـاؤوا من الصّحراء فـي الصّبـاح الباكر مـن نفس اليوم من شـهر يونيـو الـذي كان فيه الهجوم علـى مكّة. قاموا باحتلال بسـاتين النّخيل الممتدة لأميال حـول الضّواحي، وأخرجوا الأتراك من مراكزهـم فـي حدائق قصـور المدينة المشـهورة بينابيعها المتلألئة وحقول المشـمش والموز والرّمان. تراجعت الفرق العسـكرية إلى داخل أسوار المدينة، إذ كانوا يعرفون أن الحماية الإضافية سـتؤمَّن لهم بوجود قبر النّبي محمّد، القبر الذي أهَّل المدينة لأن تكـون ثاني أقدس مدينة في الإسـلام. ومـع أنه كان في مقدور فيصـل وعلي أن يجلبا المدافع من جدّة ويسـتوليا على المدينة عَنوة بعد قصفها بالمدافع، فقد رفض حسـين السّماح بذلك خشية تدمير قبر النّبي، فتكون هذه الكارثة سبباً في ثورة مئتين وخمسين مليون مسلم في العالم.

والمدينة المنوّرة هي المكان الذي هاجر إليه النّبي محمّد خارجاً من مكّة في شـهر يوليو من عام 622، هرباً من سيوف من يتربّصون به ممّن استأجرهم أعداؤه في الدّين. يبدأ التّأريخ لدى المسلمين من يوم الهجرة وليس من ميلاد المسيح. دُفن النّبي محمّد في المدينة وترقد إلى جانبه ابنته الأثيرة لديه فاطمة، وعلى الجانب الآخر ثاني الخلفاء الرّاشـدين عُمر. لكـن هناك فراغاً بين قبري النّبي وعُمر يقول المسـلمون إن المسـيح

سيُدفن إلى جانب النّبي بعد ظهوره الثّاني وموته. لذلك تُعدّ المدينة، بالإضافة إلى كونها مركزاً تجارياً مهمّاً، مكاناً عظيماً يؤمّه الحجّاج.

بعد ابتداء الحرب بفترة قصيرة قام الأتراك بإنشاء خط سكة حديدية يربط المدينة بدمشق، وذلك ليسهّلوا حركة قوات قمع الانتفاضة في جزيرة العرب، وظاهرياً ليسهلوا للحجّاج الوصول إلى المدينة من جهة الشّمال. كان أوّل عمل قامت به حشود البدو المهاجمين عند اقترابهم من المدينة هو اقتلاع عدة أميال من السّكك بأيديهم حتى يفصلوا الحامية ويجعلونها في عزلة. وبعد أن أحاط العرب بالمدينة جلسوا ينتظرون استسلامها، لكن الأتراك انسلّوا من البوابات قبل بزوغ الفجر وباغتوا عدداً من العرب الذين كانوا يعسكرون في ضاحية العوالي Awali وأشعلوا النّيران في جميع الدّور. كما أطلقوا الرّصاص على عدد كبير من النّساء والأطفال وأحرقوا الكثير أحياء في منازلهم.

أغضب هذا العمل البدو وآلاف سكان المدن العرب الذين خرجوا من المدينة لينضموا إلى فيصل وعلي، فهاجموا على الفور الحصن التّركي الكبير الواقع خارج أسوار المدينة. لكن الأتراك فتحوا نيران مدفعيتهم الثّقيلة وحصدوا أعداداً كبيرة من الحشود العربيّة المهتاجة. لم تكن هذه الحشود قد واجهت المدفعيات من قبل فانقلبت إلى حالة من الذّعر وفرّت الجماهير للاحتماء بتلّ قريب. لدى رؤية ذلك، أرسل القائد التّركي قوّة من خيرة رجاله ليمزقوهم شر ممزّق.

رأى الشّريف فيصل المحنة التي يلاقيها رجاله، فاندفع على حصانه غير مبالٍ بالشّظايا والمدافع المنطلقة من الحصن التي كانت تنسف الأرض المكشوفة. كان البدو الذين أتى بهم ليساعدوه في نجدة القوات المهزومة المذعورة التي قامت بالهجوم الأول على الحصن، قد تراجعت أيضاً وتردّدت في مواجهة نيران العدو التي شكلت حاجزاً مميتاً بينهم وبين رفاقهم. لكن فيصلاً ضحك وركب حصانه وحده غير آبه للمخاطر. ولكي يمنح الثّقة لأتباعه جعل حصانه يسير في المنطقة المكشوفة.

لم يرغب أفراد فرقة الإنقاذ في خذلان قائدهم الجسور، فما كان منهم إلا أن

صاحوا صيحة صحراوية قويّة وانقضوا دون هوادة وكلمة باسم الله تنطلق من شفتي كل محارب. انضمّت القوتان إلى بعضهما وقامتا بمحاولة ثانية لاقتحام الحصن. كادت ذخيرتهم تنفد، وهبط ظلام الليل فجأة كستارة أطفأت ضوء الشّمس في الوقت المناسب لينقذهم من الفناء.

في الصّباح دعا فيصل وعليّ كل شيوخ القبائل إلى الاجتماع في خيمتهما، واتفقوا أن الاستمرار في الهجوم أمر عقيم في الوقت الحاضر، لذلك تراجعوا إلى التّلال التي تبعد خمسين ميلاً إلى الجنوب وخيّموا على جانبي طريق الحجّاج ليمنعوا أيّة قوة تركية من محاولة إعادة الاستيلاء على مكّة. على الفور قام الأتراك بإصلاح السّكة الحديدية التي تربطهم بدمشق، وساقوا ثلاثين ألفاً من المدنيين العرب من سكان المدينة إلى الصّحراء وجلبوا تعزيزات من سوريا وحصّنوا المدينة لصدّ أيّ هجوم في المستقبل. وبعد أن انتهت الحرب كان اللاجئون من المدينة قد انتشروا في أنحاء الإمبراطورية التّركية، في القدس، وقونية ودمشق وحلب والقسطنطينية.

مع ذلك، بقيت مكّة في أيدي العرب، وباستثناء الاستيلاء على القدس ثم دمشق وبيروت وحلب على يد جيش آلنّبي والعرب، فإن سقوط مكّة يعد دون ريب أعظم نكبة حدثت في تاريخ الإمبراطورية العثمانية كله. وإنّ سيطرة تُركية على مكّة هو الذي كان مكّنها من امتلاك الزّعامة على الشّعوب الإسلامية في العالم.

وتأتي هنا فترة من السّكون إذ لم يستطع العرب الاستمرار في ثورتهم بسبب نفاد ذخيرتهم. طلب الشّريف حسين العون من الحلفاء مجدّداً فاستجاب البريطانيون لطلبه.

وفي هذه السّاعة الحرجة ظهر الشّاب لورَنس على مسرح الأحداث العربي.

* * *



الشّريف حُسين الأول، «قائد المؤمنين»
ومؤسّس سلالة ملكيّة جديدة



المثوى الأخير لأمّ البشر حوّاء

الفصل السّادس

جمع قبائل الصّحراء

كان لورَنس مغتاظاً من روتين القوانين العسكرية وبدأت بعض الخلافات تنشأ بينه وبين الرّؤساء في مركز القيادة العامة. ووجد في الثّورة العربيّة وسيلة للفرار من الأسر الذي يعانيه في القاهرة. وذهب رونالد ستورز، الذي كان يشغل في ذلك الحين وظيفة سكرتير أول للمفوض السّامي الإنكليزي في مصر، في رحلة إلى جدّة عبر البحر الأحمر يحمل بعض الرّسائل إلى الأمير حسين، المحرّض على الثّورة في مكّة. على الرّغم من أنه لم يلعب دوراً في بدء ثورة الحجاز، فقد أدرك لورَنس كيف يمكن للعرب المساعدة في القضاء على سياسة القيصر الاستعمارية، لهذا طلب نيل إجازة أسبوعين، ومنذ ذلك الحين ذهب ولم يعد!

شعر بعض رؤساء لورَنس، المقيمين في فندق سافوي في القاهرة، بالسّرور للتخلص من هذا الملازم الحليق المشاكس المغرور، وتمّت تلبية طلبه بسرعة. وعلى عكس المحاربين المنهكين من الحرب عند نيل إجازاتهم، لم يبحر لورَنس في نهر النّيل للوصول إلى الإسكندرية أو يذهب إلى الأقصُر ليمضي عطلته في القصر الشّتوي. بل بدلاً من ذلك اصطحب رونالد ستورز في رحلته عبر البحر الأحمر.

فور وصوله إلى جدّة طلب لورَنس من الشّريف حسين السّماح له بالقيام برحلة داخلية على ظهر الجمل لزيارة معسكر الأمير فيصل، الابن الثّالث للشّريف حسين، الذي كان يحاول إبقاء نيران الثّورة مشتعلة. كانت القضية العربيّة في ساعاتها العصيبة، فلم يكن لدى الجيش رصاص كافٍ لصيد الظّباء التي يقتاتون بها وعادت الفرق إلى

الطّعام الصّحراوي التّعيس الذي اقتات به قبلهم يوحنا المعمدان، وهو الجراد والعسل البري.

وبعد تبادل عبارات المجاملة الشّرقية المعتادة أثناء شرب القهوة العربيّة الفاخرة، كان أول سؤال وجهه لورَنس إلى فيصل هو: «متى يصل جيشك إلى دمشق؟».

ارتبك فيصل عندما فاجأه لورَنس بهذا السّؤال وأخذ يعبر باب الخيمة إلى بقايا جيش والده ثم قال وهو يمسّد لحيته: «إن شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. عسى أن ينظر الله إلى قضيتنا بعين العطف والرّحمة. ولكني أخشى أن تكون أبواب دمشق في الوقت الحاضر أبعد منالاً من أبواب الجنّة. بإذن الله ستكون خطوتنا القادمة هي الهجوم على الحصن التّركي في المدينة، ولنا أمل كبير في تخليص قبر النّبي من أيدي أعدائنا».

بعد قضاء أيام قليلة مع الأمير فيصل اقتنع لورَنس بإمكانية إعادة تنظيم الجيش البدوي وتكوين قوة غير نظامية قد تساعد الجيش البريطاني في مصر وسيناء. اهتمّ لورَنس كثيراً بتحقيق هذا الأمر لدرجة أنه لمّا انتهت فترة إجازته بقي في جزيرة العرب ولم يرسل حتى كلمة اعتذار إلى القاهرة. ومنذ ذلك الحين أصبح لورَنس قلب الثّورة العربيّة النّابض وروحها المحرّكة.

عند وصول الملازم لورَنس إلى جدّة كانت الحالة حرجة خطيرة، كان الأتراك قد جلبوا فيالق من سوريا لدعم الحامية التّركية في المدينة، وأرسلوا البغال والجمال ليستخدموها في النّقل، وكذلك السّيارات المسلحة والطّائرات والخيّالة والمدافع لقمع الثّورة وإخمادها. كانت هناك حملة عسكرية قد سارت بالفعل من المدينة إلى الجنوب لتسترجع مكّة ولتشنق الزّعماء المتمرّدين بأعلى مما شُنق «هامان». كان على هذا الجيش التّأديبي أن يقطع مئتين وخمسين ميلاً في الصّحراء، وكان بمقدورهم قطعها لو لم تحدث حوادث غريبة تجبرهم على تغيير خططهم بسرعة. يذكر المؤرخون العرب أن «العثمانيين، مغتصبي الخلافة كانوا يتقدّمون بجرأة. لكن الله لم يكن معهم؛ تعالى الله الذي يحمي كل من يؤمن به».

لـم يكن لـدى لورَنس خطـة محدّدة لكنـه كان يفكر في اسـتنباط طريقة لاسـتفزاز الأتراك ولفت انتباه جزء من القوّات العثمانية المعسكرة التي كانت تقاوم الإنكليز في الشّـمال عند سـيناء. لقد فاجأ فيصل عندما أكّد له أنّ جيوشـه ستدخل دمشق لا محالة في أقل من سـنتين. ابتسـم فيصل ابتسـامة شكّ قائلاً: «إن شـاء الله»، وعاد إلى تمسيد لحيته والتّحديق بالجيش المهلهل المسـترخي في ظلال أشـجار النّخيل. لكن شيئاً ما في أسلوب لورَنس الهادئ أوحى إليه بالثّقة فقبل بالتّعاون الذي يعرضه عليه.

بالنسـبة إلـى عالم آثار شـاب تحـول إلى جنـدي، كانت فكرة المشـاركة في حرب صحراوية تستهويه. ورأى أن الفرصة سانحة هنا لهزيمة الألمان، بالإضافة إلى إمكانية تطبيق نظريات الخبراء الحربيين العظماء الذين طالما سحروه بكتبهم القيّمة.

مـا إن قـرّر لورَنـس مسـاعدة العـرب حتـى تحـوّل من طالـب يدرس الحـرب من النّاحيتيـن الغيبية والفلسـفية، إلى طالب يخـوض غمار حرب حقيقية بنفسـه. فكّر أن الحملـة التّركية، للوصول إلى مكّة، سـتحاول إزاحة قوات فيصل خارج التّلال بهدف الاسـتيلاء علـى رابغ، وهـو ميناء صغير علـى البحر الأحمر يقع على بعـد مئة ميل من جـدّة، لكنه ذو موقع إسـتراتيجي مهـمّ. ووراء الحيد المرجاني، تحـت حقل رائع من أشجار النّخيل، كانت هناك آبار ممتازة.

كانـت خطة لورَنس الأولـى أن يزوّد البدو غير النّظامييـن، المتمركزين بين المدينة ورابغ، ببنادق حديثة الطّراز، وكمّيات وفيرة من الذخيرة على أمل إيقاف زحف الأتراك فـي الممـرّات الضّيقـة إلى حين تنظيـم جيش العربي من سـكان المدن يسـهل انقياده للنّظام. بعد ذلك قرّر جعل البدو يسـتقرّون خارج رابغ حيث يتمكنون من التّعاون مع الأسطول البريطاني ومحاربة العدو عندما يجتاز منطقة التّلال.

أفسـد الأتـراك هذه الخطة بسـرعة. فقـد اندفعوا إلى التّلال بأسـرع ممـا هو متوقع ودون سـابق إنـذار، وكأن الجيـش البدوي غيـر النّظامي لا وجود لـه. وأصبح الوضع أشـد اضطراباً مما كان عليـه عند قدوم لورَنس. وبدا للعـرب أن الله يقود الأعداء إلى مصيرهم.

في هذه المرحلة قرّر لورَنس تجاهل رأي فوش الحربي الذي يقول بأن الغرض من الحرب الحديثة إنما هو تحديد موقع جيش العدو والهجوم عليه واستئصاله. ورأى أن خير وسيلة للتغلّب على الأتراك أو أيّ جيش مدرب آخر في الصّحراء، هي أن يقلد أساليب حنيبعل[1] (هانيبال) وغيره من القادة الحربيين الذين عاشوا قبل الحروب النّابوليونية. لقد أدرك أن القتال وجهاً لوجه ضد الأتراك المنظمين سيؤدي إلى هزيمة العرب لا محالة. من ناحية أخرى، إذا تمسّك أتباع حسين بطريقة الغارات السّريعة المتّبعة في حرب العصابات، التي اعتادوا عليها، سيسعى الأتراك للانتقام. ففتح فشل خطة لورَنس الأولى عينيه على أن الوضع الآن لا بدّ أن يحدّد بالشّكل التّالي:

لقد استولى أتباع الشّريف حسين على مكّة، وهي أهم مدينة في الحجاز. كما استولوا على الطّائف وجدّة وأخرجوا الأتراك من بلادهم باستثناء المدينة والمواقع المحصّنة المخصّصة لحماية سكة الحديد الحجازية التي تربط المدينة بدمشق. بعبارة أخرى، استحوذ العرب على كل أراضيهم ما عدا جزء صغير منها.

علاوة على ذلك، فإنّ الحاميات التّركية في المدينة وعلى طول سكة الحجاز الحديدية لا تستطيع التّحرّك من قاعدتها بسهولة دون موافقة العرب، لأنهم كانوا محاطين بذلك الشّيء الغامض الذي لم يعتادوا عليه من قبل، ألا وهو الصّحراء المجهولة التي يتعذّر فهمها. وإن فيلقاً من جيش المشاة التّركي سيكون عاجزاً في الصّحراء كما لو ألقي في وسط البحر.

من جهة أخرى، فإن العرب يعيشون في موطنهم بين الكثبان الرّملية المتنقلة. وعندما تبدأ قبيلة بدوية بشن غارة يصبح كل رجل مع جمله وحدة منفصلة، ويصبح كل محارب صحراوي مستقلاً كالسّفينة الحربية في البحر؛ ولا يوجد بينهم أيّ شكل من الاتصال. وعندما يركب البدوي جمله يتمكن من التّجول عبر رمال الصّحراء لأسابيع عدة دون الرّجوع إلى القاعدة للتزوّد بالمؤن. إن قانون الخبير البدوي يختلف تماماً عن قانون الماريشال فوش. لا تتلخّص نظريته باصطياد عدوه وقتاله حتى النّهاية،

---

(1) هكذا يُكتب اسم بطل قرطاج (قرت حداش) بالكنعانيّة، وليس هانيبال ولا هنيبعل.

ولكـن بمطاردة غريمه كما يطارد الصّياد فريسـته. وفي لحظـة غفلة ينقضّ عليه وينهي مهمّتـه وقبل أن يتمكن الغريم من اسـتجماع أفكاره يكون قـد اختفى كما لو أنّ الرّمال قامت بابتلاعه. هذه هي اللّعبة التي قرّر لورَنس لعبها.

عندما اتّخذ لورَنس هذا القرار كان مستلقياً في خيمته ومصاباً بالحمى بحمّى شديدة، بينمـا كانت الحملة التّركية تتقدّم بسـرعة لاحتلال رابغ. وبدلاً من تدعيم الميناء بحفر الخنـادق وانتظـار العدو، بدأ مع فيصـل بالهجوم على القوات التي في الشّـمال وتركا لزيـد، الابن الأصغر للحسـين، مجموعة صغيرة من البدو لمناوشـة الأعداء. وبمعنى آخـر تركا جـدّة ومكّة بدون حمايـة فأصبح في مقـدور الجيش التّركـي أن يتوغّل كما يشاء.

فما هو يا ترى المخطّط التي وضعه لورَنس؟

كان الأتـراك يحتفظـون بمينائيـن صغيريـن في الشّـمال همـا ينبُع والوجـه، وذلك لحمايـة الخـط الحديدي الحجـازي، بينما توجّه أفراد الحامية فـي المدينة مع الجيش التّركـي بجهة الجنوب إلى مكّة. كانت خطة لورَنس احتـلال هذين الميناءين المهمّين لتهديد الخط الحجازي ولإجبار الحملة العسـكرية التّركية على العودة إلى المدينة أو التّعرّض للعزلة في الصّحراء بعد قطع الموارد عنها.

كلما فكّر لورَنس في هذا المشروع أكثر كلما ازداد اقتناعاً بأنه إذا حدث وتراجعت الحملة التّركية إلى المدينة فإن العرب لا بدّ أن ينتصروا على الأتراك ويحرّروا الحجاز. كان قد قدر مساحة تلك الأراضي بنحو مئة وخمسين ألف ميل مربع، وإذا كان الأتراك يرغبـون في إخضاعها وقمع الثّورات، فلا بـدّ أن يتوفر لديهم نصف مليون من الجنود علـى أقـل تقدير. ولما كان الجيش التّركي في ذلك الحين لا يزيد عن مئة ألف، توصّل لورَنـس إلى فكرة أنه إذا تمكن من جمع سـكان الصّحـراء المبعثرين في جيش واحد، ففي مقدوره أن يخرج الأتراك من الأراضي المقدّسة بل وأن يغزو سوريا أيضاً.

من أجل ذلك لا بدّ له من إقناع العرب بأن يتخلّوا عن تمزيق رقاب بعضهم البعض

بسـبب نزاعات قديمة. بدلاً من ذلك عليهم التّضحية بأرواحهم من أجل حرّية بلادهم وأن يرحبوا بالموت من أجل تحرير جزيرتهم من اضطهاد العثمانيين.

لـم تبدِ السّـلطات العامة في القاهـرة أدنى اعتراض على بقاء لورَنـس في جزيرة العرب عندمـا لـم يفلح في العـودة في نهايـة إجازتـه. كان الجنرال غلبـرت كلايتـون، مدير دائرة الاسـتخبارات، يعلم أن لورَنس يتقن العربيّة، وأنه يفهم نفسية العرب، بل كان يقول عنه إن فـي داخله بدوياً صميماً. بل كان الإنكليز يأملون في أن يسـاعد البـدو على إبقاء نار الثّورة مشـتعلة. لقـد منحوه سـلطة واسـعة، وطلبوا إليه أن ينتهـز أيّة فرصة سـانحة. كان ذلك في شـهر أكتوبر من عام 1916، وبحلول شـهر أكتوبر سنة 1918 قاد هذا الشّاب، الذي لم يبلغ الثّلاثين من عمره، جيشاً غير نظامي رائعاً بشكل خيالي ودخل به عبر بوابات دمشق.

بهذه الطّريقة المتنامية أسّـس لورَنس وفيصل جيشهما. خرج لورَنس إلى الصّحراء مـع مرافقيـن اثنين فقط. كان يتوقف عند كل مخيَّم بدوي فيجتمع بالشّـيخ ويشـرح له مهمّته باللغة العربيّة. وكان يزورهم تحت اسم سيدي فيصل، وهو أحبّ أبناء الشّريف حسـين إلـى قلوبهـم، ممّا أمّن له الحماية مـن أيّ أذى قد يلحق به، علـى الرّغم من أنه مسيحي يطأ بقدميه أرضاً مقدَّسة.

كان يجلس كل ليلة، بعد أداء الصّلاة، عند نيران المخيَّم مقابل الخيام السّوداء يتناقش مع مضيفيه البدويين ماضي جزيرة العرب العريق وحاضرها الخاضع للاسـتعباد، إلى أن يتحمّس كلّ فرد في القبيلة إلى درجة جنونية. وأثناء تناول الماعز المشوي المذبوح إكراماً للورَنس وبينما كانت فناجين الشّـاي المحلّى تدار على الحاضرين كان لورَنس يشـرح لهم، بعبارات أفصح من كلمات شيوخ القبائل أنفسهم، إمكانية إخراج الأتراك مـن البـلاد. لقـد أقنعهـم بأنهم إن تأخـروا أكثر مـن ذلك، فقـد يضيعوا الفرصـة إذ أن عدوهم في هذه اللحظة مشـغول بقتال الإنكليز والفرنسـيين والإيطاليين والرّوس مما يمنح الانتفاضة العربيّة فرصة كبيرة في الصّمود والمقاومة.

وبذلـك نجـح في إقناع البدو بتناسـي أحقاد الدّم وتمكن مـن جعلهم يتّحدون ضد عدوهم المشترك، وفي غضون ستة أشهر وحَّد كل قبائل الحجاز في حلف غير نظامي.

كانـت أول ثـلاث قبائـل اسـتطاع لورَنـس إقناعهـا هي: قبيلـة حرب، التي تسـكن الصّحـراء الواقعـة بيـن المدينة ومكّـة، وقبيلة جهينة، التـي تقطن الأقاليـم الواقعة بين ساحل البحر الأحمر والمدينة، وقبيلة بليّ المتجولة شرقي الوجه. أمّا قبيلة حرب، فلا يقل عدد أفرادها عن مئتي ألف نسمة، وهي من أكبر القبائل في جزيرة العرب.

فـي المرحلة الأولى من حملـة الصّحراء لم تكن القوات البحرية البريطانية تسـاند العرب بشكل فعال. وبينما كان لورَنس ينتقل في الأقاليم الشّمالية ويتوغّل في الدّاخل مشجعاً ومراقباً لتجمع العشائر، ترك فيصل طريق مكّة دون حماية وأخذ معه من صادفه من الرّجال ميمماً شطر السّاحل، ولم يترك لزيد إلا قلة من القنّاصين. وفي الوقت الذي وصل فيصل فيه إلى مسـافة قريبة من ينبُع، الميناء الأول إلى شـمال رابغ، كان لورَنس قد أرسل له عدة آلاف من رجال القبائل لمساندته. أخليت الحامية التّركية قبل وصول العرب، وأجبرتهم مدافع السّفن الحربية البريطانية على التّراجع على أعقابهم.

كان الدّخـول إلـى ينبُع رائعـاً وبربرياً. تقدّم الأميـر فيصل على حصانـه، كقائد للجيش العربـي، مرتديـاً ثياباً بيضاء كبياض ثلوج لبنان. وعلى يمينه كان هناك شـريف آخر في حلّة حمـراء قاتمة، وقد صبغ غطاء رأسـه وسـترته وعباءتـه بالحنّاء. أمّا على يسـار فيصل فكان «الشّريف» لورَنس بملابسه البيضاء يبدو وكأنه يتجسّد شخصية نبي من الزّمن الأول. ومن ورائهم سار بدويون يحملون ثلاث رايات من الحرير الأرجواني ذات رؤوس ذهبية، يتبعهم رجـل ينقر علـى المزهر وثلاثة طباليـن يعزفون لحناً عسـكرياً غريباً. ومـن خلفهم جاءت جمهـرة متلاطمة متقافـزة من آلاف العرب علـى جمالهم، وهم عناصر الحراسـة الخاصة بفيصل ولورَنس. لقد احتشـد الجميع وهم يعبرون الممرّ الضّيق بين أشـجار النّخيل تحت مآذن المسـجد. كان راكبو الجمال يرتدون أثواباً من كل الألوان وتتدلّى من ركابهم سروج مزركشـة بألـوان زاهية. كان عرضاً باهـراً بحق. وكان الجميع ينشـدون بأصواتهم الرّخيمة أبياتاً مرتجلة تتغنّى بفضائل الأمير فيصل ونائبه الوزير أشقر الشّعر.

وتقدّم الجيش من ينبُع شـمالاً محاذياً السّاحل وسار مئتي ميل أخرى نحو ميناء الوجه، الذي كان محمياً بفصائل تركية قوامها ألف جندي. يذكرني اسم هذا الميناء بحملة أخرى.

ففي عام 24 قبل الميلاد، قام أوغستس قيصر بإرسال إيليوس غالوس Aelius Gallus إلى جزيـرة العـرب ومعه أحد عشـر ألفاً من خيرة جنوده في روما. وبعد أن تجوّل الجيش سـتة أشـهر كاملة في الأراضي القاحلة، قطع الأمـل أخيراً من محاولة الوصول إلى أرض اللبان والبخـور، وأبحـر عائـداً إلى مصر من ميناء الوجه ولـم يبق من الأحد عشـر ألفاً إلا شـرذمة قليلـة. لقد تلقّوا درسـاً تعلّمـه لورَنس فيما بعد وهـو أن الجيش الذي يغـزو جزيرة العرب يجب أن يكون قادراً على تحمّل المشقات والصّبر على شظف العيش.

لغايـة الآن جمع فيصل ولورَنس نحواً من عشـرة آلاف عربي وقسـموا هذا الجيش إلى تسع فرق. تجمّعت الفرق كلها عند قرية في منتصف الطّريق يقال لها أملج. وهناك تسلّموا المؤن الطّازجة من السّـفن الحربيّة البريطانية التي حافظت على علاقاتها الطّيبة طوال فترة العمليات السّـاحلية. إلى الشّمال من أملج، كان على الجيش العربي أن يقطع مئة وعشرين ميلاً في أرض قاحلة لا ماء فيها، وهي خالية حتى من الشّوك الذي تقتات به الإبل.

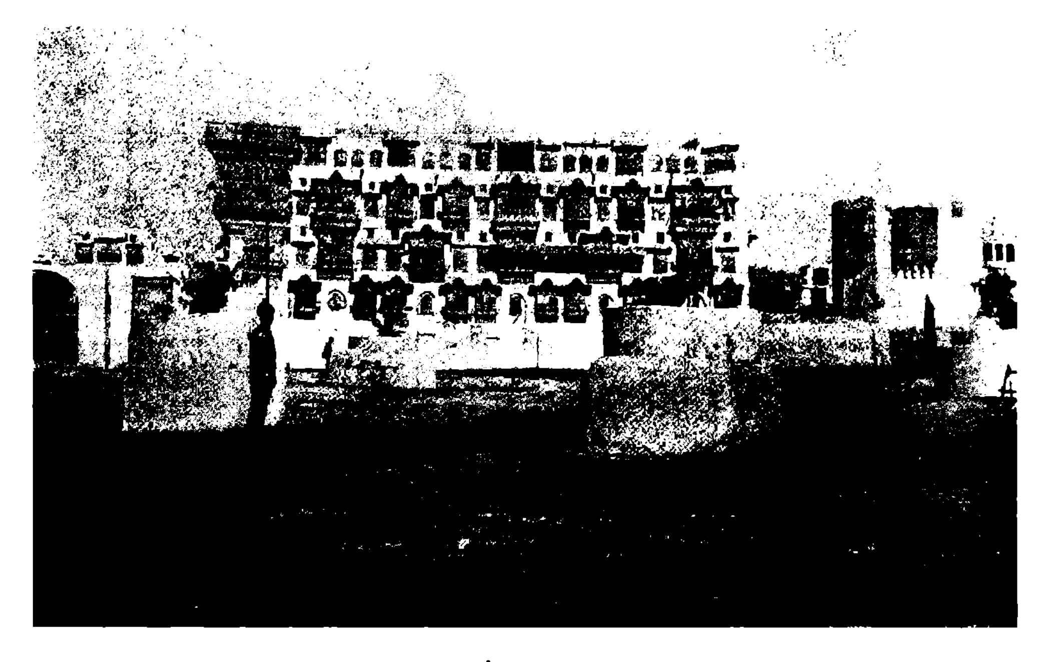
لكن سـفينة تجارية مسـلحة من البحرية التّجارية الهندية سـارت بمحاذاة السّـاحل مغامـرة بتحطيم هيكلها فوق الصّخور المرجانية غيـر الظّاهرة، وقامت بتزويد الجيش بمقدار ضئيل من الماء يكفي للبغال ولـم يبقَ للجمال شيء فمات منها عددٌ كبير عطشاً. لكـن الجيـش وصل إلى التّلال المشـرفة على ميناء الوجه في الخامس والعشـرين من شهر يناير عام 1917 دون أن يفقد رجلاً واحداً بسبب الجوع أو العطش.

يقـع ميناء الوجه على الطّرف الجنوبي الغربي من مرتفعات مرجانية صغيرة ويحدّه غرباً البحر الأحمر وجنوباً وادٍ مُجدب وشـرقاً سـهل داخلي. قامت السّـفن البريطانية الحربية بقصف الأتراك عند حاميتهم الرّئيسية من على بعد أربعة عشر ألف ياردة، مما جعلهـا في مأمن من أن تطولها المدافع التّركية. بعد أن اسـتمر القصف بضع سـاعات نزلت فرقة من العرب كانت قد وصلت عن طريق البحر لهذا الغرض وهاجموا الحامية التّركية المنهزمة. و في الوقت ذاته وصل لورَنس ورجاله عن طريق الصّحراء واشتركوا في القتال وفي النّهب والسّـلب. وتؤكد روايات صحيحة أن بدو لورَنس حملوا كل ما يمكنهم حمله من ميناء الوجه.

وقد أشرف السّير روسلين ويميس Sir Rosslyn *Wemyss* بنفسه على الهجوم البحري. وكما يقول العرب كان الأميرال «أبا الثّورة العربيّة وأمّها» في مراحلها الأولى، وينسب له أكبر الفضل في نجاحها في أول عهدها. وكلما كان لورَنس يرغب في تنظيم عرض سينمائي، كما كان يدعو الأمثلة التي يحاول بواسطتها التّأثير على العرب الذين يميلون دائماً للتّنازع فيما بينهم، كان يذكر ببساطة الأميرال الذي أبحر من السّويس في باخرته الضّخمة أوريالوس *Euryalus* ليشترك في مناورات بمدفعه ذي التّسع بوصات بمحاذاة السّاحل وعلى مرأى من جيش الأشراف.

أرسى الأميرال سفينته في ميناء جدّة في مناسبتين عصيبتين، وذلك ليقدّم تهانيه للشّريف حسين. لا شكّ أن ضخامة حجم سفينة الأميرال هي التي أثرت أبلغ تأثير في اعتقاد العاهل المسن بالقوة العظمى لبريطانيا.

علّق بقوله ذات مرة: «إنه البحر العظيم الذي تسبح فيه سمكة مثلي، وكلما كان البحر أكبر، كلما كانت السّمكة أضخم حجماً».



مبنى بمثابة فندق «والدورف أستوريا» جزيرة العرب



لورَنس يرتدي في العادة
أثواباً ناصعة البياض

الفصل السّابع

معركة آبار أبو اللِّسن[1]

في الوقت الذي كان فيصل يهاجم مينائي ينبُع والوجه، من موانئ البحر الأحمر الصّغيرة، ظهر شقيقه عبد الله في الصّحراء على بعد عدة أميال إلى الشّرق من المدينة. كان معه جماعة من البدو يركبون النّوق السّريعة، فهزموا دوريات للعدو ونسفوا أجزاءً من الخط الحديدي وتركوا رسالة رسمية مثبتة في مكان بارز على إحدى العربات. كانت الرّسالة موجهة إلى القائد العام يصفون بإسهاب ووحشية مصير من يفكر منهم بالتلكؤ في مغادرة جزيرة العرب.

أما القوات التّركية التي كانت تتقدّم في طريقها إلى مكّة فقد وصلتها أنباء سقوط ينبُع والوجه على بعد مئة ميل منهم بجهة الشّمال الغربي، وفي الوقت نفسه غارات الشّريف عبد الله على بعد مئة ميل إلى الشّمال الشّرقي. لقد أصابتهم الدّهشة والحيرة إذ كان الجيش العربي قبل بضعة أيام قابعاً أمامهم في رابغ.

وبفضل مجموعة الأمير زيد من القنّاصة في النّهار وبعض الغارات الليلية، ظن الأتراك أن جيش الحجاز الرّئيسي لا يزال هناك؛ والآن يجدون جيوشاً عربيّة تحيط بهم من كل الجهات. ولم تكن الشّمس بأكثر حنوّاً عليهم إذ كانت ترسل أشعتها الحارقة لتلهب الأرض التي يعسكرون فوقها. لم تزدْ شمس الصّحراء الملتهبة من

(1) على الرّغم من أن عبارة (أبو) من الأسماء الخمسة وينبغي تطبيق القاعدة عليها بحسب مكانها من الجملة، فسنبقي عليها كما هيٍ على اعتبارها تتعلق باسم علم لمكان معروف، ولم تعتد الأسماع على وروده بصيغة: أبي اللّسن.

ظمأهم فحسب، بل حفزت هواجسهم أيضاً فأصبحوا يتوهّمون أنّ كل سراب هو جماعة من الفرسان البدويين.

كان الرّسل يأتون في كل ساعة بأخبار عن غارات في العلا El Ula، ومدائن صالح ومحطات أخرى شمالي المدينة، وأيضاً الاستيلاء على حاميتين أخريين من حامياتهم على البحر الأحمر في ضبا Dhaba ومويلح Moweilah. استولى الفزع على الأتراك بسبب هذه الأنباء عن الانقلاب غير المتوقع وإشاعات عن انتصارات العرب الخيالية التي كان يبثّها عمداً بينهم عملاء لورَنس السّرّيون، فلم يجدوا وسيلة غير الفرار إلى قاعدتهم الحربية في المدينة ليحموا خط السّكة الحديدية الذي كان طريق الاتصال الوحيد بين سوريا وتُركية.

في شمال جزيرة العرب، بالقرب من رأس خليج العَقَبة، للأتراك حامية أخرى أكثر أهمية من كل ما تمّ الاستيلاء عليه من قبل الحملة، باستثناء حاميتي مكّة وجدّة. قبل أن ينجح أتباع الأمير فيصل بإجلاء عدوهم القديم خارج الحجاز، ما عدا المدينة، كان لا بدّ أن يحسبوا ألف حساب لهذا الحصن القوي عند رأس الخليج. وبعد أن استتبّت الأمور، وضع لورَنس خطة جريئة جداً كان يأمل تنفيذها.

من بين الأماكن الحربية الواقعة على السّاحل الغربي لجزيرة العرب شمالي عدن، أهم مكان من وجهة النّظر العسكرية هو ميناء العَقَبة الذي كان في يوم من الأيام القاعدة البحرية الرّئيسية لأسطول الملك سليمان، وكان أيضاً في مقدّمة الأماكن التي زارها النّبي محمّد، وجعلها مركزاً له[1]. إن أيّ جيش يحاول غزو مصر أو مهاجمة قناة السّويس من جهة الشّرق، لا بدّ أن تكون العَقَبة هي الجانب الأيسر، وتكون الجانب الأيمن لأي جيش خارج من مصر لغزو فلسطين أو سوريا. منذ بداية الحرب أنشأ الأتراك حامية كبيرة هناك لأنهم أرادوا انتزاع مصر من البريطانيين، ومن جهة أخرى لأن المكان يشكّل نقطة مهمّة حسّاسة من أجل حماية سكة حديد الحجاز.

---

(1) يورد لويل توماس بعض الأقاويل على غير أساس تاريخي.

كان فـي نيّة لورَنس الاسـتيلاء على العَقَبة وجعلها قاعـدة للجيش العربي من أجل الهجوم على سوريا. وكانت خطة رائعة وطموحة بحق.

في الثّامن عشر من شهر يونيو عام 1917، خرج لورَنس ومعه ثمانمئة رجل من قبيلة التّوايهة ومئتان من قبيلة الشّـرارات وتسـعون من قبيلة الكواكبة (الكواكيب)، خرجوا من ميناء الوجه نحو خليج العَقَبة الذي يبعد ثلاثمئة ميل شـمالاً. وضع على رأس هذه القوة الحربية الشّـريف ناصر، وهو من سـلالة النّبي محمّد، وهو أيضاً من أقدر ضبّاط فيصـل وأمهرهم. وكما هـي العادة، كان لورَنس ناصحاً للقـادة العرب، كان يعمل من خـلال القـادة المحلّيين، ويكمن السّـبب الأكبر فـي نجاحه في أسـلوبه بجعل العرب يظنون أنهم يقودون الحملة بأنفسهم.

كان التّقـدّم باتجاه العَقَبة مثالاً ظهرت فيه مقدرة لورَنس على تسـيير جيوش فيصل وإدارتهـا، بالرّغم من افتقـاره للخبرة والمران الحربي. وحتى يتفـوّق ذكاءً على القائد التّركي في المدينة قاد فرقة سـريعة سـارت على بعد حوالي ألف ميل من ميناء الوجه، لكن بدلاً من السّـير بمحاذاة السّـاحل إلى العَقَبة مباشـرة، اتجه بهـم نحو الدّاخل عبر خط السّـكة الحديدية بالقرب من المدينة حيث نسـفوا عدة أميال منها في طريقهم قبل أن يدخلوا وادي السّـرحان المشـهور بزواحفه السّـامة، وقد قضى بعض رجاله نحبهم بفعـل نهـش الأفاعـي، ومن ثم عبـروا أراضي قبيلة الحويطات شـرقي البحـر الميت، وتابعوا سيرهـم شمالاً حتى وصلوا إلى أرض مؤاب.

لقـد اختـار أيضاً فرقة من خيرة رجاله وقادهم عبر خطوط العدو التّركي ليلاً، حيث وضعوا المتفجرات في قطار قرب عمّان (المدينة التي كانت تُعرف في العهد الإغريقي باسـم فيلادلفيا)، ونسـفوا جسـراً قرب درعا، وهـو أهم نقطة اتصـال للخط الحديدي جنوبي دمشـق، كما وضعوا الألغام في عدة أميال وراء خنادق الصّف الأمامي التّركي بالقرب من حمص، المدينة السّورية الصّناعية.

كان مـن الممكـن للورَنس أن يقود غارات من هذا النّوع بسـبب الحركة المدهشـة لقواتـه. كان بإمكانه، مع فيلقه الذي يركب الجمال، أن يتوغّل في الصّحراء لمدة سـتة

أسـابيع دون الحاجة للرّجوع إلـى القاعدة للتزوّد بالمؤن. طالمـا أن أفراد فرقته داخل الصّحـراء بعيدون عن أنظار المواقع التّركية المحصّنة على حدود فلسـطين وسـوريا، فهـم آمنون وكأنهم يعيشـون على كوكب آخر. وعندما تسـنح الفرصـة لهجوم مفاجئ سـريع يقومون به ثم ينسـحبون إلى الصّحراء حيث لا يجرؤ الأتراك على اللحاق بهم لأنهـم لا يملكـون جمالاً من جهة، ومن جهـة أخرى فهم لا يملكـون المعرفة الكافية بالصّحـراء ولا القـدرة المذهلة علـى التّحمّل التي يمتلكها البـدو. خلال حملة دامت سـتة أسـابيع كان رجال لورَنس لا يأكلون سـوى الخبز الفطير غير المختمر، وكان كل بدوي يحمل كيساً من الدّقيق يزن خمسة وأربعين رطلاً تكفيه لأن يقطع ألفي ميل دون الحصول على مؤن طازجة. وكثيراً ما كان البدو يكتفون بجرعة ماء لا يشـربون غيرها في سـاعات النّهار أثناء المسـير، لكن الآبار كانت موجودة دائماً بمسـافة لا تزيد على مسيرة يومين أو ثلاثة، لذلك كانوا نادراً ما يعانون من العطش.

فـي هذه البعثات التي تمّت في الشّـمال ضمن الأراضي المحتلـة من قبل الأتراك، كان لورَنـس يقسـم رجاله إلى فـرق متعدّدة وذلك لإرباك العـدو وإيقاعه في حيرة من أمـره. بعد المسـير بهم في تلال مؤاب شـرقي أريحا، ثم حول دمشـق ليـوم أو يومين، انسـلّ إلى الجنوب ثانية. كانت العَقَبة تبعد عن خط الحجاز حوالي سـتين ميلاً، وكي لا يحزر الأتراك أن العَقَبة هي وجهته الحقيقية، تظاهر بأنه سيقوم بالهجوم على معان، وهـي أهم بلـدة محصّنة على الخطّ الحديـدي بين المدينة والبحـر الميت. في الوقت نفسـه، وعلى بعد سـبعة عشـر ميلاً إلى الجنـوب الغربي من معان، انقـض على حامية محطة فويلة Fuweilah وهزم من فيها. عندما تلقى الأتراك في معان هذا الخبر أطلقوا فرقـة خيالـة للمطاردة، لكن لمّا وصلت الفرقة إلى المحطة لم تجد فيها سـوى الطّيور الجارحـة؛ وكان لورَنـس ورجاله قـد اختفوا، وكما يقول الأتـراك، إن أرض الصّحراء قد انشـقت وابتلعتهم. وفي مسـاء اليوم التّالي عاودوا الظّهور من الضّباب على مسافة بضعة أميال. قاموا هناك بزرع ألغام أخرى ودمروا ميلاً من الخط الحديدي كما نسفوا قطـاراً كان فـي طريقـه للنّجـدة. كانت الحرارة شـديدة في أيام شـهر يوليـو، وقد ذكر

لورَنس في وصفها أن الأرض الملتهبة كانت تشوي جلود سواعد الرّماة، بينما كان الرّجال والجمال يعرجون بسبب آلامهم المبرحة بالسّير على الحجارة المتقدة.

انضمّ إلى لورَنس والشّريف ناصر أربعة آلاف مقاتل من قبيلة بني عطية، وأيضاً فرع من قبيلة الحويطات هي عشيرة أبو تايِه Abu Tayi التي تضم أفضل المحاربين في جزيرة العرب، يقودهم عودة، وهو نمرٌ بشري حقيقي أصبح مرافقاً دائماً للورَنس منذ ذلك الحين.

قرّرت فرقة المطاردة التّركية قضاء الليل في وادٍ بالقرب من آبار أبو اللِّسن Abu el Lissal على مسافة أربعة عشر ميلاً من معان في المكان الذي خيّمتُ فيه مع لورَنس والأمير فيصل بعد عدة أشهر. في الوقت ذاته غادر لورَنس الفرقة وعدا بفرسه داخل الصّحراء ليرى إن كان بإمكانه تحديد مكان الكتيبة التّركية. وحالما تم له ذلك عاد مسرعاً إلى رجاله وأحضرهم إلى المرتفعات المحيطة بأبو اللِّسن، وبحلول الفجر كان الأتراك محاصَرين بشكل كامل.

ظل العرب يطلقون الرّصاص من مواقعهم في أعالي التّلال المحيطة بالآبار لمدة اثنتي عشرة ساعة وصرعوا بعضاً منهم. كانت قوات السّلطان في موقع حرج لكن لورَنس كان على يقين أنهم لو كانوا بقيادة رجال جريئين أكفياء لاستطاعوا إخراج جنودهم من الصّف الهزيل للبدو. والواقع أن القائد التّركي كان يفتقر إلى الشّجاعة الضّرورية في أحوال كهذه، وهذا ما شجّع عودة أبو تايه لأن يصطحب عند غروب الشّمس خمسين رجلاً من قبيلته ويزحف بهم إلى مكان لا بعيد عن الأتراك غير ثلاثمئة ياردة، وبعد أن استراحوا قليلاً خرجوا من مخبَئِهم ببسالة ودخلوا معسكر الأعداء. بُهت الأتراك لهذه الجرأة لدرجة أن صفوفهم قد تفرقت لمّا اندفع الزّعيم البدوي المسنّ وسطهم لكن بعد أن هشموا منظاره الزّجاجي ومزقوا بيت مسدسه وانتزعوا السّيف الذي كان يمسكه بيده وقتلوا جوادين من تحته. ومع هذا كله كان العربي الكهل سعيداً وقال إنه كان أفضل قتال خاضه منذ شهر رمضان الفائت.

وكان لورَنس يراقبه من أعلى التّلال على الجهة المقابلة للمنخفض، فما كان منه

إلا أن امتطى هجينه وأسرع به فوصل إلى المكان الذي كان فيه الأتراك في حالة ذهول وارتبـاك، يتبعـه أربعمئة بدوي على ظهور الجمال. اختلط الحابـل بالنّابل بين الأتراك والعـرب مـدّة عشـرين دقيقة، وكانـوا كلهم يطلقـون الرّصاص بشـكل جنونـي. أثناء الهجوم اضطرب لورَنس نفسـه وصوّب رصاص مسدسه خطأ إلى رأس هجينه فسقط ميتاً على الفور، وقُذف لورَنس من ركابه فسقط أمام دابته، ووقع بعض رجاله فوقه. لو لم يسقط أمام الدّابة مباشرة لداسته الجمال المسرعة بأقدامها.

تفرّق الأتراك مرتكبين بذلك خطأ فادحاً، تماماً كما خمّن لورَنس، وانتهت المعركة بمذبحة فظيعة. ومع أن العديد منهم فرَّ في الظّلام، فقد قتل العرب وأسروا عدداً يفوق عددهـم الكلّـي بكثير. وفي الصّباح وجـدوا ثلاثمئة قتيل حول البئر. أمّا الأسـرى فقد سـاق لورَنس والشّـريف ناصر معظمهـم، بينما انطلق البدو إلى خيـام الأتراك يقومون بسـلبها كعادتهـم. إن شـهوة الغزو متأَصلة في نفوسـهم لأنهـم لا يعدّونهـا نقيصة بل يعتقدون أنها فضيلة من أهم الفضائل.

لقـد بلـغ حقد البدو مبلغه، فكانوا يريدون قتل الأسـرى انتقاماً منهـم للجرائم التي ارتكبوهـا بحـق نسـائهم وأطفالهـم. كما كانـوا يريـدون الثّأر لمقتـل الشّـيخ الكَرَكي بلقـاوي، زعيمهم الـذي ربطه الأتراك بين أربعة بغال ومزقوه إربـاً إرباً. كان موت هذا الشّيخ المأساوي قمّة مجموعة من الإعدامات بالتعذيب، التي نفذها الأتراك فأغضب العرب لدرجة أن أقسـموا بألا يعاملوا أيّ تركي برأفة أو رحمة. لكن كان لدى لورَنس فكـرة أخـرى. أراد أن يذيع النّبأ بين أفراد الجيش التّركي بأن العرب يعاملون أسـراهم بشـكل جيد، ونجح أخيراً في جعل أتباعه المتعطشـين للثّأر يعيدون النّظر في تعاملهم مع الأسـرى. وكما كان يأمل فقد آتت هذه الطّريقة ثمارها بسرعة، وفي اليوم الذي تلا معركة أبو اللِّسن أخذت المجموعات تتوافد دون انقطاع وهم يحملون أسلحتهم فوق رؤوسهم ويصيحون: «مُسلم، مُسلم» على نمط صيحة الألمان "kamerad".

* * *



أحد شيوخ جزيرة العرب



الكولونيل لورَنس مع المؤلّف

الفصل الثّامن

الاستيلاء على مرفأ الملك سليمان القديم

كان لورَنس قد غادر ميناء الوجه بمؤن تكفي لشهرين، وسار مئات الأميال إلى الجنوب. وبعد أن قدَّم جزءاً من المخزون للأسرى الأتراك، أصبح أمر الطّعام في وضع حرج. مع ذلك تابع الجيش نصف الجائع وقائده الشّاب مسيرهم عبر الجبال الوعرة القاحلة التي تطاول سماء شمال جزيرة العرب. سبقتهم أنباء انتصاراتهم، وعندما وصل لورَنس إلى القويرة Gueirra، وهو ميناء تركي في جبال الملك سليمان ويبعد خمسة وعشرين ميلاً من العَقَبة عند مدخل ممرّ ضيق للغاية يعرف باسم وادي إضم، برزت حامية القويرة Gueirra أمامه واستسلمت دون إطلاق طلقة واحدة. ومن ثم تابع مسيره مع رجاله عبر وادي إضم إلى كثيرة Kethura، وهي مركز آخر لحماية الأرض الوحيدة المفضية إلى العَقَبة. وهناك هجم لورَنس على حامية أخرى وأسر عدة مئات من الرّجال. بعد أن شقّ الجيش طريقه عبر الممرّ الضّيق، وصلوا إلى بئر قديم في خَدرة Khadra حيث أنشئ حوضٌ حجري في الوادي قبل عهد الرّومان بألفي عام، ولا تزال آثاره موجودة إلى الآن. كان الأتراك قد جمعوا مدفعيتهم الثّقيلة وراء البئر المتهدّم، وكانت تمثل موقع الدّفاع الخارجي للعقبة. قبل أن يصل جيش الشّريف أمام هذا الحاجز الأخير، كان بدو قبائل عمران Amran والدّراوشة Darausha والاحيوات Neiwat، الذين كانوا يسكنون الصّحراء قرب العَقَبة، قد سمعوا بالانتصارات العظيمة في فويلة Fuweilah وأبو اللِّسن Abu el Lissal، فأخذوا يركضون عبر الجبال بالمئات لينضمّوا إلى القوات العربيّة المتقدّمة.

كانت الهزيمة المذهلة للكتيبة التّركية في أبو اللِّسن المرحلة الأولى في معركة العَقَبة. وتحققت الثّانية بالعمل الرّائع عندما قام لورَنس بما كان الأتراك يظنّونه مستحيلاً ونجح في قيادة حشد بدوي بدائي غير منظم عبر جبال الملك سليمان شديدة الانحدار، فوق الجدار الرّوماني القديم تحت أنظار رجال المدفعية الأتراك المذهولين، ثم إلى العَقَبة في صباح السّادس من شهر يوليو عام 1917. ومن أجل منع حدوث مذبحة في حامية العَقَبة، كان على لورَنس وناصر التّحدّث مع أتباعهم الشّرسين منذ غروب الشّمس حتى الفجر، ثم نزل ناصر إلى الوادي وجلس على صخرة ليمنع رجاله من إطلاق الرّصاص. تقع العَقَبة عند النّهاية الجنوبية لوادي عربة، وهو من أشدّ الوديان جفافاً ووحشة في العالم ويمتدّ من البحر الميت إلى خليج العَقَبة. في هذا الوادي يُعتقد أن النّبي موسى وبني إسرائيل شقوا طريقهم نحو أرض الميعاد، وفي هذا الوادي سار النّبي محمّد وعلي وأبو بكر وعمر. وهنا ألقى النّبي محمّد العديد من خُطبه الأولى[1].

ووراء نصف دائرة ضيقة من أشجار النّخيل التي تحف الشّاطئ، ترى المياه الزّرقاء للخليج المهجور حيث كانت ترسو في قديم الزّمان أساطيل الملك سليمان والسّفن الإغريقية والسّفن الرّومانية ثلاثية المجاذيف. وراء العَقَبة تبدو جبالٌ بركانية وعرة قاحلة. أمّا البلدة، فهي، كأغلب البلدات في الشّرق الأدنى، مؤلفة من ركام فوضوي من الأكواخ الطّينية. كانت المظلات تغطي الشّوارع الضّيقة، والأكشاك في السّوق مليئة بالأقمشة المزركشة وسجاجيد الصّلاة البالية، وأكواز من سكر القصب المزدحمة بالذباب، وأكوام من التّمور، وأطباق من الأواني النّحاسية اللامعة والنّحاس المطروق.

كانت قوى الأتراك والألمان قد خارت واستولت عليهم الحيرة بسبب الإنجاز غير المتوقّع للعرب بعبور الجبال ثم إلى المعابر التي استسلمت بلا ضجة. بعد دخول لورَنس العَقَبة تقدّم أحد الضّبّاط الألمان وحيّاه. لم يكن هذا الضّابط يتكلم التّركية ولا العربيّة وتبيّن أنه لم يكن قد سمع شيئاً عن الثّورة القائمة.

---

(1) من الواضح أنّ معلومات لويل توماس عن التّاريخ الإسلامي ضحلة للغاية، فهو ينقل عن بعض الصّحفيين والكتّاب أقاويل ومرويات عاميّة لا صحّة لها.

صاح بحماسة: «لمَ كل هذا؟ ومن هم أولئك الرّجال؟».

أجاب لورَنس: «إنهم من جيش الملك حسين، وكان الشّريف حسين قد أعلن نفسه ملكاً آنذاك، وهو في ثورة ضد الأتراك».

سأل الألماني: «ومن هو الملك حسين؟».

جاءه الجواب: «إنه أمير مكّة وحاكم هذا الجزء من جزيرة العرب».

قال الضّابط: «وماذا أكون أنا؟».

«أنت الآن أسير».

«وهل سيأخذونني إلى مكّة؟».

«لا بل إلى مصر».

«وهل السّكّر مرتفع الثّمن هناك؟».

«بل رخيص جداً».

«جيد».

ثم ابتعد وهو سعيد لخروجه من الحرب، ومن جهة أخرى لتوجّهه إلى مكان يستطيع فيه الحصول على الكثير من السّكّر.

هذه المرّة انتقلت خطة المستشار البريطاني الشّاب للأمير فيصل إلى حيز التّطبيق. وأصبح الأتراك من الآن فصاعداً في موقع الدّفاع، وأُجبروا على تقسيم جيشهم إلى جزأين، أبقوا واحداً منهما في المدينة وخصّصوا الآخر للدّفاع عن الخط الحديدي الحجازي. كان في استطاعة لورَنس لو أراد أن ينسف هذا الخط في مواقع عديدة فيعزل الأتراك في المدينة بشكل كامل، كما كان في مقدوره أن يجلب مدافع بحرية خاصّة من خليج العَقَبة فيمحو المدينة عن الخارطة ويجبر الحامية على الاستسلام. لكنه لم يحاول فعل ذلك لسبب وجيه سنعرفه لاحقاً. كان في ذهنه مخططٌ أفضل وأشد طموحاً، ويتطلب تنفيذه بنجاح أن يغري الأتراك فيدفعهم إلى إرسال تعزيزات

أكثر إلى المدينة، كالمدافع والجمال والبغال والسّيارات المصفّحة والطّيارات وغيرها من أدوات الحرب التي يمكنهم أن يجلبوها من جبهات القتال الأخرى. كان يأمل بأن يبقوا على حامية ضخمة هناك حتى نهاية الحرب، مما يعني بقاء القليل من الأتراك المجابهين للجيوش البريطانية في فلسطين وبلاد الرّافدين، وبذلك تصبح قطارات المؤن التي ترسل من سوريا مصدراً دائماً لتزويد الجيش العربي. لو تم الاستيلاء على المدينة وإجلاء الأتراك نحو الشّمال، لحُرم لورَنس من الفرصة الرّائعة بمعيشة جيشه على مؤن الأتراك. وكانت هذه المنفعة أفضل لديه بكثير من احتلال المدينة.

بعد احتلال العَقَبة، عاش لورَنس ورجاله عشرة أيام على البلح غير النّاضج ولحم الجمال التي قُتلت في معركة أبو اللِّسن. ثم أُجبروا على قتل جمالهم الخاصة بمعدل جملين في اليوم لإنقاذ أنفسهم ومئات الأسرى الذين بحوزتهم. ومن أجل الحفاظ على جيشه من المجاعة، ركب لورَنس هجينه السّريع وسار لمدة اثنتين وعشرين ساعة متواصلة عبر الجبال غير المسكونة والوديان القاحلة لشبه جزيرة سيناء. لقد أُنهك تماماً بعد هذه المسيرة القياسية التي جاءت في نهاية شهرين من القتال المستمرّ، وألف ميل من التّجوّل داخل واحدة من أشد الأراضي قحلاً وجدباً في العالم، والعيش على الخبز غير المختمر والتّمر، ودون أن يستحمّ منذ أكثر من شهر، فما كان منه إلا أن أدار جمله إلى واحد من شوارع بور توفيق في السّويس، ومشى مترنّحاً داخل فندق سيناء، ثم طلب الاستحمام. بقي في حوض الاستحمام مدّة ثلاث ساعات والصّبية يحضرون له الشّراب البارد. قال إن ذلك اليوم هو أقرب مثال على فكرة الجنّة التي يسعى إليها المسلمون. ومن السّويس توجه إلى الإسماعيلية، وهي محطة تقع في منتصف القناة.

لم يعلم أحد بوصول لورَنس إلى جزيرة العرب، وكانت القيادة العامّة في القاهرة تجهل حركاته. وكان أول ما سمعته عن أعماله البطولية هذه يوم قابل لورَنس، لأول مرة في الإسماعيلية، الجنرال آلِنْبي الذي كان قد عهد إليه حديثاً بأن يكون القائد العام للحملة المصرية العسكرية.

أما تفاصيل هذه المقابلة فكانت أشبه برواية تمثيلية في بساطتها. كان آلِنْبي قد

أُرسل من لندن ليخلف السّير آرتشيبولد مَري Sir Archibald Murray ويتولّى القيادة العامة مكانه. لم يكن مضى على وصول الجنرال آلِنْبي إلا بضع دقائق وكان يسير على رصيف محطة الإسماعيلية مع الأميرال ويميس Wemmys. كان لورَنس يقف في الجوار بملابسه العربيّة حين رأى الجنرال مع الأميرال. فما كان منه إلا أن همس في أذن أحد رجال الأميرال سائلاً:

«من هذا الرّجل؟»

أجابه الرّجل قائلاً: «آلِنبي».

«وماذا يفعل هنا؟»

«جاء ليحلّ محل مَري».

بعد دقائق عدة تمكن لورَنس من الإدلاء بتقريره للأميرال ويميس، الذي كان يعد الأب الرّوحي للثّورة العربيّة. أخبره بأنه قد استولى على العَقَبة، لكن رجاله كانوا بأشد الحاجة إلى الطّعام. وعد ويميس في الحال بإرسال سفن إغاثة، ثم أخبر آلِنْبي بما قال لورَنس، فأرسل الجنرال في طلبه فوراً. كانت المحطة مزدحمة بضباط الإدارة وحشد من السّكان المحليين الذين جاؤوا للتّرحيب بآلِنبي، عندما ظهر فجأة ذلك الشّاب الأشقر حافي القدمين بثيابه البدوية. سأله آلِنْبي:

«وماذا تحمل لنا من أخبار؟»

فأجاب لورَنس بصوت منخفض ودون أيّ تعبير على وجهه بأن العرب قد احتلّوا الميناء القديم عند رأس خليج العَقَبة. وعزا كلّ الفضل في هذا النّصر للعرب، دون أن يشير أدنى إشارة إلى الدّور الذي لعبه في المهمّة. لقد ترك لديه انطباعاً بأنه كان يقوم بدور الرّسول فقط، مع أن الواقع هو أنّ الفضل في الاستيلاء على العَقَبة يرجع إلى قيادته الفذّة وعبقريته الحربية.

شعر الجنرال بسعادة بالغة لأن العَقَبة أهم مركز حربي بجهة الميمنة، والقاعدة التّركية الأساسية على السّاحل الغربي لشبه جزيرة العرب.

ولما أخذ لورَنس يشرح بالتّفصيل حالة الجيش العربي، وعد الأميرال ويميس Wemmys بإرسال زورق مليء بالطّعام إلى العَقَبة. بل ذهب إلى أبعد من ذلك فقام بأعمال ستخلّد اسمه في تاريخ العرب. كان العرب يخشون عودة الأتراك بقوات جديدة يستردّون بها العَقَبة، لهذا انتقل الأميرال هو ورجاله إلى فندق في الإسماعيلية وجعله مركزاً لإدارته، وأرسل باخرته الخاصّة حول سيناء لتبقى شهراً في العَقَبة ولترفع من معنويات العرب. وسُرَّ البدو برؤية هذه القلعة الضّخمة العائمة واقتنعوا بأنهم لن يقفوا وحدهم في وجه الإمبراطورية التّركية. كانت السّفينة البريطانية هي الدّليل المادي على قوة بريطانيا، والتي لم يشاهد البدو مثلها من قبل.

لم يكتفِ الأميرال ويميس بهذا بل أرسل للورَنس ورجاله عشرين مدفعاً رشاشاً من سفينته وعدداً من الأسلحة البحرية. ولا تزال الأخيرة «في مكان ما» من جزيرة العرب، وربما تكون على سطح المنزل الطّيني لعودة أبو تايه. بعد أن وضعت الحرب أوزارها بعدة شهور تلقى لورَنس رسالة من الأميرالية يطلبون فيها إعادة إحدى بنادقهم بعيدة المدى التي كانت قد أرسلت إلى الشّاطئ من أجل دعم القضية العربيّة. أجاب لورَنس بأنه آسف جداً لأنه «قد أضاعها».

كنتيجة لانتصار لورَنس في العَقَبة وزيارته لمصر، قرّر البريطانيون مساندة العرب في حملتهم لنيل استقلالهم الكامل. وعاد عالم الآثار الشّاب إلى العَقَبة غانماً ظافراً، وبما أنه قد قاد الحملة خلال بضعة أشهر بهذه الطّريقة الرّائعة فقد ترقّت رتبته من ملازم إلى مقدّم، على الرّغم من عدم معرفته الفرق بين «يمين دُر» و«تحيّة السّلاح».

أدرك الألمان والأتراك أنّ هناك قوة غامضة تلهم العرب بما يجب فعله. واكتشفوا بواسطة جواسيسهم أن لورَنس هو القوة المحركة للثّورة العربيّة كلها. لهذا أعلنوا عن جائزة خمسين ألف جنيه لمن يأتيهم به حياً أو ميتاً. لكن البدو لم يكونوا ليخونوا قائدهم مقابل خزائن سليمان.

وكان سقوط العَقَبة بعد احتلال مكّة المكرمة أعظم حادث في الثّورة العربيّة، لأنه

وحّد العرب الذين قام لورَنس بإقناعهم بأمر الثّورة وأعطاهم الشّعور العميق بالثّقة بأنفسهم.

بعد إحراز الانتصار كان هدف لورَنس أن يستغلّ هذه الوحدة. على الرّغم من أن أسلوبه وشجاعته الشّخصية قد لعبا دوراً مهمّاً في نجاح العمليات، فقد كان من الذّكاء بمكان ليعزو الفضل كله للقادة العرب الرّئيسيين الذين يعملون معه من أمثال عودة أبو تايه والشّريف ناصر. وبالطبع فلم يكتم هؤلاء المحاربين الشّجعان فرحهم بذلك، بل وأصبحوا من وقتها الأصدقاء المخلصين للورَنس.

كان لورَنس متلهفاً لنشر هذا النّجاح الأولي، فأرسل رسلاً إلى كل قبائل الصّحراء، على الرّغم من أن أنباء معركة أبو اللِّسن والتّقدّم إلى العَقَبة كانت تطير في أنحاء جزيرة العرب بأسرع مما تذاع الأنباء بواسطة المذياع. كان يدرك الأهمية الكبرى للدّعاية، فقام بإرسال بعض من أذكى رجال العرب إلى داخل صفوف العدو لينشر خبر سقوط العَقَبة في كل أرجاء الإمبراطورية التّركية.

وبهذا تمكن هذا الشّاب البريطاني، خريج أوكسفورد، من الاستيلاء على ميناء الملك سليمان القديم في منطقة نائية من العالم، وفي معركة لم تكن ربما لتحدث لآلاف من السّنين بل وأكثر، ومن ثم إحراز الانتصار المهمّ الثّاني في أرض ألف ليلة وليلة تمهيداً لغزو سوريا. ومن مجرّد قتال محلي، حوَّل انتصار لورَنس في العَقَبة ثورة الحجاز إلى حملة مهمّة واسعة المدى موجهة إلى قلب الإمبراطورية التّركية. ومنذ ذلك اليوم أصبحت مجموعته من رعاع بدو الصّحراء الجناح الأيمن في جيش آلِنْبي، ومنذ تلك اللحظة راح الضّابط البسيط يلعب دور عميد في الجيش.

* * *



الشّريف لورَنس خارج خيمته



أثر التّوليب (اللغم) على جسر تركي

الفصل التّاسع

عبر البحر الأحمر للانضمام إلى لورَنس وفيصل

وكان الأمير فيصل قد وصل هو والكولونيل لورَنس إلى العَقَبة مع الحملة عندما قدمنا من فلسطين مزوّدين بمجموعة من آلات التّصوير. لم يكن من السّهل أبداً الوصول إلى معسكر القاعدة العربيّة، وربما تكون مغامراتنا في فعل ذلك هي خروج عن موضوع لورَنس ورفاقه وذلك من أجل توضيح البُعد الذي كانت فيه الحملة عن المكان الذي تجري فيه بقية الحرب العالمية.

بعد فترة قصيرة من لقائي بلورَنس في القدس، وأثناء تناول طعام الغداء مع الجنرال آلِنْبي ودوق كونّوت Connaught، جاء في الحديث ذكر اسم عالم الآثار الذي أصبح جندياً. دفعني حب الاستطلاع والفضول إلى سؤال القائد العام عن السّبب في إبقاء أخبار الثّورة العربيّة وأعمال لورَنس البطولية أمراً سرّياً. أجابني بأنه من الأفضل ألا نكثر من التّحدّث في الموضوع، لأنهم يأملون بأن عدداً كبيراً من العرب الذين جُنّدوا إلزامياً في الجيش التّركي سيهجرونه وينضمّون إلى جيش الشّريف حسين لتنال جزيرة العرب استقلالها. إنهم يخافون أن يأخذ عرب سوريا وفلسطين وبلاد الرّافدين المجنّدين في الجيش التّركي فكرة خاطئة بأن الحلفاء هم وراء الثّورة في الحجاز، وبالتالي يمكن أن يعتقدوا بأنها ليست ثورة وطنية. لهذا السّبب حرص الحلفاء على أن تبدو الحملة بصورتها الحقيقية كحركة عربيّة مستقلّة. ولكن بعد نجاح جهود لورَنس قال آلِنْبي إنه لم يبقَ من حاجه لكتم الأخبار كتماناً تاماً، وأضاف أنني إن كنتُ مهتمّاً بما يحدث في جزيرة العرب فسيكون من دواعي سروره أن يضمّني إلى جيش الشّريف

حسين حتى أتمكّن فيما بعد من إخبار العالم عمّا فعله العرب للمساعدة في كسب الحرب الكبرى.

كان ذلك متوافقاً مع ما كنتُ أفكر فيه كثيراً، أي طلب الإذن بالانضمام إلى الجيش، لكن تم تحذيري بإمكانية رفض القائد الأعلى للأمر بسبب السّرّية التي أحيطت بها الحملة. لهذا لم أُضع الفرصة واغتنمتها للذّهاب إلى المكان الذي سأحصل فيه على مغامرة العمر بكل تأكيد. أخبرونا أنه من المستحيل القيام بالرّحلة من فلسطين إلى جزيرة العرب برّاً، وفي أصعب الحالات يمكن فعل ذلك بالمرور ضمن الأراضي التّركية متنكرين. لم يكن لدينا الوقت ولا الميل ولا المعلومات الضّرورية عن البلاد واللّغة للتّفكير في هذه المحاولة، لهذا اصطحبتُ مستر تشايس Mr. Chase زميلي الفنان، وعدت إلى مصر لاستشارة رؤساء المؤسسات العربيّة في القاهرة. وهناك أخبرونا بما يلي:

«بإمكانكم الوصول إلى العَقَبة بواسطة مركب نقل البضائع، لكن المكان، باستثناء تمبكتو، هو من أبعد الأماكن في العالم. لن تجدوا حمالين للفنادق على الرّصيف لاستقبالكم، ويجب أن تقنعوا بقطعة من المرجان كوسادة وبشجرة نخيل كمأوى».

في فترة ما قبل الحرب كان من الممكن لسفينة شراعية عائدة من بورنيو أو جزر سليمان بحمولة من جوز الهند، أن تضل طريقها في العاصفة فتقترب من خليج العَقَبة، وفيما عدا ذلك من المناسبات النّادرة، لم يقم أحد بزيارة المكان منذ ألف عام.

«لن تجدوا ما تأكلونه سوى الخبز غير المختمر والتّمر وربما بعض الجراد المجفّف». كانت تلك الملاحظة التي أبداها أحد الجنرالات، وبناءً عليه قمنا بشراء شيء من سلع الرّفاهية من بينها خمسين لوحاً من شوكولاتة الحليب. كما حذرني كولونيل قائلاً بجزل: «إذا كانت حياتكم تهمّكم فخذوا معكم الكثير من السّجائر للبدو». لذلك عبّأ كل فجوة من معداتنا بالسّجائر الرّخيصة التي تساوي ثقلها ذهباً عند الضّرورة. في اليوم الذي وصلنا فيه إلى جزيرة العرب سجّل ميزان الحرارة درجة تفوق درجة ذوبان الشّوكولاتة، وعندما فتحت حقيبة معدّاتي وجدت كتلة شبه سائلة

من الرّصاص وأعواد الثّقاب والسّجائر والأقلام والدّفاتر والشّوكولاتة.

في طريقنا إلى جزيرة العرب سلكنا طريقاً ملتوياً وأبحرنا مسافة ألف وخمسمئة ميل في النّيل إلى قلب أفريقيا ثم إلى الخرطوم، وعبرنا صحراء النّوبة لمسافة خمسمئة ميل ووصلنا إلى بورسودان على البحر الأحمر حيث أملنا بأن نعثر على مكان لنا في أيّة سفينة شحن.

كانت محطّتنا الأولى هي الأقصُر حيث استقبلونا استقبالاً حافلاً لم يحظَ بمثله تيدي روزفلت يوم مرَّ بالأقصر في عودته من رحلة الصّيد في شرق أفريقيا. احتشد حولنا عددٌ لا يحصى من المُرشدين الضّامرين الذين ترقبوا لسنين طويلة وصول السّياح الأميركان. كان استقبالنا أشبه بالمعركة، ثم نجح المبعوثون من فندق الأقصُر بسحبنا إلى عربة مصرية من الطّراز القديم، وانطلقنا نتمايل عبر الشّوارع التي كان على جانبيها دكاكين للسّياح مهجورة، بينما كان بقية الحشد يصيحون ويدورون حولنا بما يشبه رقص الدّراويش.

لم يفسد رحلتنا في اليوم التّالي إلى طيبة Thebes ذات المئة بوابة ومعبد الكرنك Karnak وأضرحة الملوك، سوى قصة بائسة قصّها علينا دليلنا قائلاً: «لم يعد السّياح الأميركان يأتون إلى هنا، ونحن الأدلاء نكاد نموت من الجوع». وأخذ العربي المسّن ينوح بحزن قائلاً: «إنني أعمل دليلاً منذ خمسة وثلاثين عاماً، ليساعدني الله، وإن الأميركان هم وحدهم السّياح الحقيقيون أمّا الإنكليز والألمان والفرنسيون فإنهم يقضون وقتهم في عدّ قروشهم. إذا رأى الأميركي شيئاً يريده يسأل بكم هذا؟ فتخبره عن الثّمن، والحمد لله مهما يكن الثّمن مرتفعاً يقول: «حسناً، لُفّه». ثم قال متباهياً: «نحن كبار الأدلاء متخصّصون بالأميركان. وقد كنت قبل الحرب لا أرضى بخدمة أيّ سائح غير أميركي كما يفعل الصّياد الذي لا يكترث للأفيال الصّغيرة عندما يجد الكبيرة متوفرة». ثم يضيف بصوت متضرع: «لماذا لا يوقف الرّئيس ويلسون الحرب؟ ولماذا ترسلون، أيها الأميركان، الأموال والطّعام للأرمن لكنكم لا ترسلون شيئاً للأدلّاء المصريين الفقراء الذين يتضورون جوعاً؟»

في أول أمسية لنا بعد وصولنا إلى الخرطوم، كنا نتعشّى مع رئيس قسم المخابرات المركزية الإفريقية (في مطعم رأس فرس النّهر) عندما لاحظتُ فجأة أن وجهه قد شحب لونه. ولما ألقيت نظرة على السّماء بجهة الشّرق عرفت السّبب. كان هناك جدارٌ أسود ضخم يتجه نحو الخرطوم وكأنه سلسلة جبال تتحرّك نحونا. إنها الهبوب المفزعة، وهي عاصفة رملية أفريقية هائلة. انفضّ حفل العشاء بغتةً، وأسرع الضّيوف إلى منازلهم. وما كان مني إلا أن قفزت على حمار كان بانتظاري واندفعي مسرعاً إلى فندق تشارلز غوردون الذي يبعد نصف ميل.

كانت ليلة رائعة يضيئها القمر مع نجوم متلألئة بجهة الشّمال والغرب والجنوب، أمّا بجهة الشّرق فكنت أرى جبل الرّمل يتحرّك نحوي بعنف. بدا وكأن يوم القيامة يقترب. وبعد فترة قصيرة أصبح على مسافة بضعة ياردات، ثم ما لبث أن انقضّ فوقنا.

أخذ الرّمل الطّائر يلسع وجهي كالإبر ويعمي عيني. انحنيت فوق رقبة دابتي الصّغيرة علّي أتمكن من مقاومة العاصفة قدر الإمكان، لكن ذلك كان كل ما استطعنا القيام به لنشقّ طريقنا عبر كتلة الرّمل الدّوارة لنصل إلى الفندق. كانت الحرارة في الدّاخل لا تطاق، فحاول الجميع النّوم والنّوافذ مفتوحة، فكنا مهدّدين بأن نُدفن مع أسرّتنا تحت الرّمال. وعندما أغلقت النّوافذ أصبح الجو خانقاً واستمر الرّمل بالاندفاع عبر الشّقوق. ثارت الرّياح لمدة ساعات، ولم يبقَ منزلٌ في الخرطوم لم تخترقه الرّمال. لقد شهدتُ الزّوابع وسيل المطر والعاصف الثّلجية القطبية والرّياح العاتية في المحيط الجنوبي والرّياح الموسمية والأعاصير، لكنها كلها لا تعدل رياح الهبوب هذه. في ألاسكا، عندما يمكث القادم الجديد، أو چيچاكو cheechacko، في أقصى الشّمال خلال فترة الشّتاء القاسي يصبح كالخميرة ويُقبَل في رابطة الأخوة لرواد القطب الشّمالي. في السّودان هناك قول مشابه أن من ينجو من الهبوب يصبح پوكو أفريكان Pucko African. لكن الحرارة التي تبلغ سبعين تحت الصّفر في كندا أفضل من حرارة مئة أثناء هبوب السّودان.

بعد ظهر يوم من الأيام اصطحبني ممثّل من مكتب المخابرات البريطانية، بعيداً

عن الخرطوم بمسافة بضعة أميال، لزيارة «أرفع النّاس مكانة في السّودان». لقد أصبح النّاس أغنياء بعد الحرب لدرجة أنهم رفضوا بيع محصولهم من الحبوب، والذي كان الجيش في فلسطين وجزيرة العرب بأمسّ الحاجة إليه. أبديتُ رغبتي في زيارة هذا الشّخص رفيع المقام، إذ خطر للسّلطات أنّ زيارة رجل أجنبي له قد تسعده وتغير قراره بشأن بيع مخزون الحبوب، مما يدفع السّكان المحلّيين الآخرين لأن يحذوا حذوه.

انطلقنا في عربة الحاكم، وهي مركبة مكشوفة رائعة تجرها خيولٌ بيضاء جريئة. كان سائقنا رجلاً مضطرباً تبدو في عينيه نظرة الذّعر، وكان يحمل مكنسة من الشّعر المجعد مليئة بشحم الخروف ولها أسياخ خشبية تبرز من كل زواياها. انطلقنا نعدو عبر الصّحراء إلى قرية برّي، حيث وجدنا الشّريف يوسف الهندي، الرّجل الجليل، ينتظرنا عند بوابة قصره الطّيني. كان الشّريف رجلاً عربياً متميّزاً طويل القامة نحيل الوجه ذا عينين منوّمتين، يلبس صندلاً وثوباً من الحرير الأخضر والأبيض وعمامة خضراء. قادنا إلى حديقته ودعانا لنستعرض أغرب مجموعة من المشروبات رأيتها في حياتي. كان هناك أنواع تتدرّج من عصير الرّمان إلى شراب البرقوق، ومن ماء الورد إلى عنق الحصان horse’s neck. كانت متدرّجة الألوان من البنفسجي إلى الرّمادي الدّاكن. كانت تقدّم في أوعية متنوعة من الأقداح الزّجاجية إلى الكؤوس الفضية. لحسن الحظ، تقتضي العادات أن نتناول رشفة صغيرة من كل نوع، وإلا لكانت النّتيجة مأساوية إذ كان للعديد منها طعم لاذع.

أذكر في تلك الزّيارة سلسلة من المفاجآت كانت أولاها جمال الحديقة داخل الجدران الطّينية البشعة لقصر الشّريف. أمّا الثّانية فكانت السّوائل المنعشة الموضوعة أمامنا. لا بدّ أن لدى الشّريف يوسف الهندي في قصره جنّياً من قصص ألف ليلة وليلة يمزج له المشروبات. حتى في شبابي، عندما أوكل إلي تغطية مؤتمر الإخاء الجامعي الوطني، لم يُطلب مني أن أخوض تجربة شراب كالتي صادفتها في واحة الشّريف يوسف الهندي. وجاءت المفاجأة الثّالثة عندما ذهلت برؤية منزله من الدّاخل ونحن

نعبره إلى شرفة مغربية قريبة من السّطح حيث وجدنا مجموعة أخرى من المشروبات. لكن ذروة المفاجآت كانت لمّا اكتشفتُ أن مضيفي لم يكن طبيباً وساحراً أفريقياً، بل رجل علم ذا معرفة واسعة. كانت مكتبته تحتوي على التّرجمات العربيّة لمحاضرات مستر لويد جورج ولورد بَلفور وتيودور روزڤلت ووُدرو ويلسون. في الحقيقة وجدت أن هذا الرّجل السّوداني الجليل يعرف عن بلادي أكثر ممّا أعرف.

* * *

تحدّثنا في أمور الدّين، وتأثرتُ لروح التّسامح لديه. قال لي: «أعتقد، كما يعتقد كل المسلمين المثقفين، أنّ المبادئ الأساسية لكل الدّيانات العظيمة في العالم، اليهودية والمسيحية والبوذيّة والإسلام، هي نفسها؛ أي لا إله إلا الله وأنه هو العليّ؛ وأن علينا أن نتقبّل آراء الآخرين؛ وأنّ على كل النّاس أن يعيشوا معاً كإخوة وأن نتعامل مع الآخرين كما نحبّ أن يعاملنا الآخرون».

لم يكن من الصّعب فهم لم يُعدّ الشّريف يوسف الهندي رجلاً ذا مكانة رفيعة بين أبناء بلده الجهلة أنصاف المتعلمين. كانت تصرّفاته الملكية ووقاره وهيبته وصوته الموسيقي وعيناه اللامعتان المنوّمتان وحكمته، كل ذلك كان من شأنه أن يميّزه في أيّ بلد. إنه ليس حبشياً بل هو من قبيلة قريش التي ينتمي إليها النّبي محمّد.

إنه عملٌ مُربح حقاً أن تكون رجلاً جليلاً في السّودان. يمضي الشّريف يوسف الهندي معظم وقته وهو يطلق أسماء للمولودين. عندما يولد الطّفل يأتي والده راكضاً إلى الشّريف فيلقي بنفسه عند قدميه ويقول:

«أيها الشّريف، ما هو الاسم الذي يجب أن أسمي ابنتي به؟»

فيجيب الرّجل الجليل:

«انهض أيها الرّجل المؤمن. اذهب الآن وعُد إلي في الغد».

وعندما يعود الأب في اليوم التّالي يقول الشّريف:

«الحمد لله. رأيت النّبي محمّداً في المنام وقال لي إنه سيكافئك على إيمانك وسيمنح ابنتك المباركة اسم ابنته، فاطمة. جُنيه من فضلك!».

من الخرطوم عبرنا صحراء النّوبة إلى پورسودان على البحر الأحمر. وهنا وجدنا ما كنا نتمناه؛ سفينة بخارية متّجهة إلى ساحل جزيرة العرب. كانت قارباً متهدماً لتحميل البضائع، تم نقلها من الخدمة السّاحلية البريطانية الهندية إلى البحر الأبيض المتوسط، حيث نجت خلال السّنوات الأولى من الحرب من أحداث عصيبة، وكانت هدفاً لغواصات القيصر. كان على متنها، بالإضافة إلينا، مئتان وستة وعشرون خروفاً سودانياً، ومئة وخمسون حصاناً وبغلاً من أميركا وأستراليا، وسبعة وستون حماراً من الحبشة، وثمانية وتسعون فارّاً من الجيش التّركي، واثنان وثمانون عاملاً من فلاحي مصر، وأربعة وثلاثون اسكتلندياً، وستة ضبّاط بريطانيين، وطائرتان باليتان. وكان الطّاقم مؤلفاً من الهندوس والجاويين والصّوماليين والبربر والهمج. أمّا الرّبان فكان رجلاً اسكتلندياً بديناً مرحاً اسمه روز. أشك كثيراً لو كان للكاپتن كيد Captain Kidd، في أبهج أيام القرصنة في الكاريبي، أن يبحر بمثل هذا الخليط من البضائع والأشخاص.

عزل ذوو الجنسيات المختلفة أنفسهم في مستعمرات عرقية صغيرة، وكانوا يعدّون طعامهم الخاص في أماكن مختلفة من ظهر السّفينة. من المستحيل تخيّل الحالة، وكذلك الرّائحة، التي أصبحت عليها السّفينة أوزاردا *Ozarda* بعد عدة أيام من إبحارها. كان هناك بعض السّودانيين من صحراء النّوبة، حيث كان من الصّعب عندهم الحصول على الماء الكافي للشّرب ناهيك عن ماء الاستحمام؛ فكان بعضهم ممّن لم يحصلوا على حمّام حقيقي طوال حياتهم. لكن كان هناك واحد منهم أطلق عليه الاسكتلنديون لقب بُرت المستحم Bathing Bert؛ فقد كان يصرّ على الاستحمام بواسطة الدّلو خمس مرات في اليوم.

أمّا العمّال المصريون، فقد كانوا يسلّوننا طوال الوقت برقصاتهم الرّائعة. لم يكن هناك مكان يتّسع لرقص الجميع معاً، فكانوا يتناوبون في ذلك، وكان بعضهم يرقصون حتى يخرّوا على سطح السّفينة من الإنهاك.

لـم يكـن هناك مـكان لنوم الـرّكاب، لذلـك اضطررنا للنّـوم على ظهـر الباخرة مع الحميـر والبغال. كنت أنـام بجانب بغلة بلون الفئران من هانيبـال، في ولاية ميزوري، بلـد مـارك تواين. يبدو أنها كانت كثيرة التّشـاؤم، إذ كانت تجيش فـي مخيّلتها الأفكار السّـوداء التي أقضّت مضجعهـا وحرمتها وحرمتني معها لذيذ النّـوم، ولو قضى مارك تواين ليلة بجوارها، لفقد روح الفكاهة لديه[1].

كان علـى متن السّـفينة ضابط بريطاني متجـه إلى الخليج العربـي. كان يقصّ علينا رواية حتى يصيبنا الملل لدرجة الموت. سأروي لكم إحدى قصصه ليس لأنني أظنها مضحكـة بـل لأنني أعلـم أنها غير مضحكـة ولأنني أريـد أن أطلعكم على شـيء ممّا كنـا مجبرين على تحمّله. قال إنه كان خارجاً لصيد الأسـود في أفريقيا الوسـطى، ولم يشـكّ أحدنا بذلك إذ كان قد سـافر في أنحاء العالم من كامشـاتكا Kamschatka إلى الكاميـرون. في أحد الأيام قفز نحوه أسـد من شـجيرة لكنه اسـتطاع تفاديه في الوقت المناسـب وجعله يبعد عن رأسـه بجهة اليمين. مرّت بضع دقائق، ولما فشل الأسد في العودة نحوه زحف على بطنه ليستكشف الأمر. وعندما وصل إلى مكان مكشوف نظر بحذر من خلال الأعشـاب الطّويلة فرأى الأسـد نفسـه يتدرّب على القفز المنخفض. خطـر فـي بالنا مـرّة أن نقدّم السّـجائر للفارّين مـن الجيـش التّركي، الذين لـم يكونوا يفهمون سـوى بضع كلمات مـن اللغة الإنكليزية، مقابل الاسـتماع إلى قصصه. كانوا يضحكون عندما يضحك مما سرّه كثيراً وبالتأكيد أزيح عن عاتقنا حملٌ ثقيل.

عندمـا وصلنـا أخيـراً إلى مينـاء الملك سـليمان عنـد رأس خليج العَقَبـة، وهو من الموانئ القديمة المهجورة منذ عصور طويلة، رست سفينتنا على بعد ميل من الشّاطئ. نزلنا من السّـفينة وقفزنا نحو حدود أشـجار النّخيل في سفح جبال الملك سليمان، ثم أنزلنا الحمير والبغال. حدث أنّ بغلاً غاضباً رفس حماراً من على ظهر السّفينة. ظهرت في الحال سـمكتا قرش وشـرعتا فـي الهجوم عليه. أمسـكت واحدة بقائمتـه الأمامية وأمسـكت الأخرى بعجز الحمار المسـكين وشـقتاه إلى نصفين. أخبرنا ربان السّـفينة

(1) نشرنا في هذه السّلسلة كتابه الممتع *Innocents Abroad* «أبرار في الغربة».

بأنّ أسماك القرش في البحر الأحمر أكثر منها في أيّ بحر آخر على ظهر الأرض.

استقبلَنا على الشّاطئ المرجاني آلافٌ من البدو الذين حيّونا بإطلاق الرّصاص من بنادقهم ومسدّساتهم. بدأ إطلاق الرّصاص ونحن ما نزال بعيدين عنهم، فاعتقدتُ ومستر تشايس Mr. Chase أننا وصلنا أثناء حدوث معركة ما. إن منظر الشّاطئ المرجاني الذي تحفّه أشجار النّخيل لهو منظر جميل مليء بالألوان، وكذلك منظر البدو وقد أطلقوا لحاهم وارتدوا الثّياب الأخاذة وغطاء الرّأس الغريب، وحملوا الأسلحة من مختلف الأشكال والأنواع، الحديثة منها والقديمة، فبدا المشهد وكأنه موكب شرقي غريب. نعم إنه لمشهد غريب، وكان هؤلاء بعضاً من الفرسان العرب العصريين للكولونيل لورَنس.

لقد تحوّل ميناء الملك سليمان، الذي كان مهجوراً، إلى معسكر عظيم، وتكدّست أكوام ضخمة من المعدات فوق الرّمال تحت أشجار النّخيل. استقبلنا بعض الضّبّاط البريطانيين، الذين أوكلت إليهم مهمّة استقبال المؤن في العَقَبة، وساروا بنا إلى خيمة قريبة حيث روينا ظمأنا، وبعد ساعات قلائل وصل لورَنس إلى وادي إضم عائداً من إحدى حملاته الغامضة.

لن تجد في حياة لورَنس أثناء إقامته في الصّحراء يومين متماثلين، لذلك من الصّعب وصف يومه الاعتيادي. لكن الرّوتين في معسكر القيادة للجيش العربي، عندما لا يكون هناك غزو ghazu، يتبع برنامجاً كهذا. ينهض الجنود من نومهم في السّاعة الخامسة صباحاً عندما تسقط أول خيوط الفجر على القمم المسننة لجبل سيناء، فيصعد إمام الجيش إلى كثيب رمل مرتفع ويؤذّن لصلاة الفجر. كان شاباً ذا صوت قوي يوقظ كل إنسان أو حيوان في العَقَبة. وحالما ينتهي يقف إمامٌ خاص بالأمير فيصل أمام باب خيمته فيؤذّن للفجر بصوته العذب: «تبارك الله الذي يولج الليل في النّهار».

كانت الرّحالة المشهورة في سوريا مِس غِرترود بِل، التي عملت في دائرة الاستخبارات في الشّرق الأدنى إبان الحرب العالمية بالرّغم من كونها امرأة، قد كتبت وصفاً حياً للشّعور الرّائع عندما ينهض المرء مبكراً في الصّحراء إذ قالت: «أن تستيقظ

عند الفجر في الصّحراء هو أشبه بالاستيقاظ في قلب حجر الأوپال. شاهد الصّحراء في صباح صافٍ ثم مُت إن شئت». يمكن حقاً تأليف كتاب ممتع من المغامرات والرّومانسية عن تجربة مِس بِل أثناء الحرب في صحراء بلاد الرّافدين[1].

بعد الانتهاء من الصّلاة ببضع دقائق يجيئني فنجان من القهوة الحلوة يحمله إليَّ أحد خدم فيصل. كان الأمير يحتفظ لنفسه بخمسة من الشّبان الأحباش الأقوياء، عبيد يعدّون قمّة في الوفاء لأن الأمير لم يكن يعاملهم كعبيد. وعندما يرغب أيّ واحد منهم في بعض المال يأمره فيصل بأن يأخذ ما يلزمه من كيس الذّهب. لم يكن يعترض مهما أخذوا، وبهذا لا تحدّثهم أنفسهم بالسّرقة أبداً.

في السّاعة السّادسة اعتاد لورَنس تناول طعام الفطور مع فيصل في خيمة الأمير، وكانا يفترشان سجّادة عجمية على الطّريقة البدوية. كان طعام الفطور في الأيام المحظوظة مؤلفاً من خبز عجين كثير الطّبقات وقد أكثروا فيه التّوابل والبهارات ويطلقون عليه اسم «كعك مكّة»، وذُرة مطبوخة، وبالطبع هناك التّمر الذي لا يمكن الاستغناء عنه. وبعد الفطور تُقدّم أكواب زجاجية فيها شاي محلّى. يمضي لورَنس وقته إلى السّاعة الثّامنة في مناقشة الأحداث التي يحتمل وقوعها أثناء النّهار إما مع الضّبّاط البريطانيين أو مع القادة العرب البارزين. وفي الوقت نفسه يجتمع فيصل بسكرتيره الخاص، وفي بعض الأحايين يجلس مع لورَنس في خيمته يتحدّثان في أمور خاصة. في السّاعة الثّامنة يعقد فيصل ديواناً يلتقي فيه بأفراد قومه. كان من عادة الأمير أن يجلس في طرف الخيمة على سجادة كبيرة مبسوطة على منصّة. ويجلس أصحاب الشّكاوى وذوو الحاجات أمام الخيمة فيكوّنون نصف دائرة حتى ينادى عليهم. وكانت كل القضايا تسوّى بسرعة ولا يُترك أيٌّ منها.

أذكر أني كنت ذات يوم في الخيمة مع لورَنس أحضر جلسة من هذه الجلسات، فرأيتُ شاباً بدوياً قد سُحب داخل الخيمة بتهمة أن له عيناً صائبة. لم يكن فيصل موجوداً فترأس لورَنس الجلسة وأمر المجرم بالجلوس في الطّرف المقابل من الخيمة

(1) ولقد نشرنا في هذه السّلسلة كتابها الممتع *The Desert and the Sown* «العامر والغامر».

والنّظر إليـه، ثم أخذ يحـدّق في عينيه مدّة عشـر دقائق وبدا وكأنه عينيـه الزّرقاوين قد أحدثتـا ثقبـاً في روح المتهـم. وفي النّهاية صـرفَ البدوي وقال إنّ الرّوح الشّـريرة قد طُردت منه بفضل الله.

فـي يوم آخـر جاء أحد حراس لورَنس إليه شـاكياً بـأن واحداً من رفاقـه يملك عيناً شرّيرة وقال: «يا بحر العدالة، نظر ذاك الرّجل إلى جملي فأصبح أعرج من فوره». حلّ لورَنس المسألة بأن أعطى الرّجل المتهم بالعين الشّريرة الجمل الأعرج وأعطى جمل المتّهم لصاحب التّهمة.

يخشـى البدو العيون الزّرقاء. وكانت عينا لورَنس أشـد زرقة من مياه البحر الأبيض المتوسـط، لذلك كان البدو يعتقدون أنه رجل غير عادي. أمّا عيون البدو فكلها تقريباً كالمخمل الأسود.

عندما يكون فيصل موجوداً، كان لورَنس يتنحّى ويمتنع عن فضّ النّزاعات. فهو لم يكن يطمح إلى أن يصبح حاكماً لجزيرة العرب، وكان يعلم أنه من الأفضل للمستقبل حسـم المنازعات والفصل في قضايا العرب عن طريـق واحد منهم. في الواقع لم يقم لورَنس بأيّ عمل يستطيع فيه تفويض رجل عربي قادر على تولّي الأمر بنجاح.

فـي السّـاعة الحادية عشـرة والنّصـف كان فيصـل ينهض عـادة ويعود إلـى خيمته حيـث يتناول طعام الغـداء. أمّا لورَنس فـكان يقضي حوالي نصف سـاعة يطالع كتب الفلسـفة أو الشّعر الإنكليزي. كان يحمل معه ثلاثة كتب هي «كتاب أوكسفورد للشّعر الإنكليـزي»، و«مـوت آرثـر» لمالوري Malory، وكتب أريسـتوفانِس التـي تدلّ على ذوقه للكاثوليكية.

كان طعامه خفيفاً عند الظّهر، وهو مؤلف من الحبوب المطبوخة والعدس والفطير المخبـوز علـى الرّمـل (الملّـة)، والأرز أو حلوى العسـل. كنتُ الوحيد الـذي أتناول الطّعـام بالملعقـة أمّـا لورَنـس فكان يجـاري العرب فـي الأكل بالأصابع. بعـد الغداء كانت هناك فترة من الحديث العام يختتم ساعة الغداء، ثم تقدّم لنا القهوة المرّة الدّاكنة

والشّـاي المحلى. عند شـرب الشّـاي والقهوة يصدر البدوي أصواتاً قدر المسـتطاع، وهي الطّريقة المهذّبة لتظهر أنك مسـتمتع بشـرابك. ثم يقوم الأمير بإملاء رسائل على كاتب عربي، أو يأخذ قسطاً من الرّاحة، بينما يذهب لورَنس إلى خيمته الخاصة ويتربع على سـجادة صلاة ويغرق في كتابات وُردزوُرث Wordsworth أو شـيلي Shelley. وإذا كانـت هنـاك قضايـا للفصل بها يعقد الشّـريف لورَنس والشّـريف فيصل مجلسـاً آخر في خيمة الاسـتقبال. أمّا بين الخامسـة والسّادسـة بعد الظّهر فكان فيصل يجتمع بالخواص وكان لورَنس يجلس عادة معه، أمّا الحديث فكان يدور حول الاستطلاعات الليلية والعمليات العسكرية القادمة.

فـي تلك الأثنـاء تكون النّـار متقدة في أكوام من الشّـوك وراء خيمـة الخدم، حيث ينحرون خروفاً آخر باسـم الله الرّحمن الرّحيم ويبدؤون بشـيّه. وفي السّـاعة السّادسة تأتي وجبة المساء التي تشابه وجبة الغداء لكن مع قطع أكبر من لحم الضّأن فوق تلال الأرز، يتلو ذلك أكواب من الشّاي حتى يحين موعد النّوم الذي لم يكن له وقت محدّد لـدى لورَنـس. في الليـل كان ينفرد بالقادة العـرب فيتحدّث إليهم طويـلاً، وفي بعض الأحيـان كان فيصل يمتع أصحابه بقصص مغامراته في سـوريا وتركيـة خلال الثّمانية عشـر عاماً التـي أمضتها عائلته في رعاية «الباب العالي» وتحت عين السّـلطان التي لا تنام.

كنـا نحن أيضـاً نقرأ أثناء الليـل. وقبل مغادرتي لمصر كنت قد حصلت على نسـخ مسـتعملة لسـجلات بعض من الرّحالين المشـهورين في جزيرة العـرب كبوركهارت وبُرتـون وداوتي. وباسـتثناء كتاب داوتي الرّائع لم أجد كتاباً في مجموعتي العشـوائية يضاهـي بروعته كتاب «العامر والغامر»[1] للآنسـة غِرترود بِـل. زاد اهتمامي به بفضل القصص التي كان الكولونيل لورَنس يرويها لي عن مغامرات الكاتبة أثناء الحرب. لقد تجولت تلك المرأة البريطانية الرّائعة في الأماكن النّائية من الشّـرق الأدنى لعدة سـنين

---

(1) هكذا سمّينا بالعربيّة كتابها الممتع *The Desert and the Sown* ونشرناه في هذه السّلسلة مؤخراً.

سبقت الحرب. كانت مفكّرة وعالمة وليست مجرّد رحالة تسعى وراء سوء السّمعة. لقد قطعت مئات الأميال، مع مرافق عربي أو اثنين، على طول حدود الصّحراء العربيّة الكبرى، وزارت القبائل البدائية ودرست لغتهم وعاداتهم. كان اطلاعها واسعاً لدرجة أن فرع المخابرات البريطانية طلب منها أن تقبل منصباً إدارياً، ولعبت دوراً لا يستهان به في كسب صداقة بعض رجال القبائل المتعطشين للدّماء الذين يسكنون واديي دجلة والفُرات. وفي كتاب «العامر والغامر» تلقي مِس بِل الكثير من الضّوء على حياة سكان البادية.

«إن حظّ الرّجل العربي متقلب كحظ المقامر في البورصة. يكون في أحد الأيام من أغنى الأغنياء، وقد لا يملك في صباح اليوم التّالي لا ناقة ولا جملاً. إنه يعيش حالة من الحرب، وحتى في حال إبرام المعاهدات مع القبائل المجاورة، فلا يأمن أن تغزوه ليلاً عصابة من مئات الأميال، وأذكر على سبيل المثال قبيلة غير معروفة في سوريا هي قبيلة بني عواجي Awajeh التي سطت منذ عامين على الأراضي الواقعة إلى الجنوب الشّرقي من مدينة حلب بعد أن قطع أفرادها، كل اثنين على جمل واحد، ثلاثمئة ميل في الصّحراء من مقرهم فوق بغداد لينهبوا القطعان ويقتلوا أعداداً كبير من النّاس. لقد دامت هذه الحال على مدى سنين طويلة، ومن يقرأ السّجلات الأولى للصّحراء الدّاخلية يجد أنه أمر مغرق في القدم، ولكن الغريب أنه خلال هذه القرون لم يتّعظ العرب من تجاربهم. العربي لا يشعر بالأمان أبداً، لكنه يتصرّف وكأن الأمن هو خبزه اليومي. يقوم بنصب مخيمه الواهن المؤلف من عشر أو خمس عشرة خيمة فوق أرض واسعة لا يمكنه درء الخطر عن نفسه فيها.

«إنه بعيد جداً عن أصحابه فلا يمكنه طلب النّجدة، بعيد جداً فلا يمكنه جمع الخيّالة للّحاق بالغزاة، الذين ينسحبون ببطء حتماً بعد أن أُثقلوا بالقطعان المسلوبة، وتحقيق النّجاح بمطاردة مفاجئة. وبعد فقدانه لكل ممتلكاته الدّنيوية يتجوّل في الصّحراء شاكياً فيعطيه أحد الرّجال قطعة أو اثنتين من قماش منسوج بشعر الماعز، ويعطيه آخر وعاءً لصنع القهوة، ويهديه ثالث جملاً، ورابع بضع أغنام، إلى أن يجد سقفاً يؤويه

وحيوانـات تكفـي ليرد الجوع عـن عائلته. هناك عـادات جيدة عند العـرب كما يقول نمـرود. فيمكث الرّجل لشـهور، وربما لسـنوات، إلى أن تحيـن الفرصة فيهجم خيّالو قبيلته مع حلفائهم ليسـتعيدوا كل قطعانهم السّـليبة وزيادة، ويدخل العداء طوراً آخر. الحقيقة هي أنّ الغزو هو الصّناعة الوحيدة والرّياضة الوحيدة المعروفة في الصّحراء.

«كصناعـة، تبـدو للعقـل التّجـاري مرتكـزة علـى مفهوم خاطـئ لقوانيـن العرض والطّلـب، أمّـا كرياضة فهناك الكثير مما يقال بهذا الصّـدد. تجد روح المغامرة ضالتها فيها، وبإمكانك تخيل الرّكوب عبر السّهل ليلاً، وسرعة الأفراس عند الهجوم، وفرقعة البنادق الرّائعة، والابتهاج باكتشـاف أنك رجل جيـد عندما تعود إلى مضاربك محمّلاً بالغنائم. إنها أفضل شـكل من أشـكال الفانتازيا، كما يقولون في الصّحراء، مع إضافة نكهـة مـن الخطر إليها. لا يوجـد خطر كبير في القضية، بل يمكـن الحصول على متعة حقيقيـة دون إراقـة الكثير من الدّماء، ونـادراً ما يميل العربي الغازي إلـى القتل. إنه لا يرفـع يـده أبـداً في وجه طفـل أو امـرأة، وإذا حدث وقُتـل رجل ما يكـون ذلك بطريق الخطأ، بما أنه ما من أحد يعلم المصير النّهائي لرصاصة البندقية بعد إطلاقها. هذه هي نظرة العرب إلى الغزو».



حادث تحطّم في الصّحراء



لويل توماس

الفصل العاشر

معركة سيل الحَسا

بينما كانت القوات الحجازية تدفع شمالاً من رأس خليج العَقَبة، انضمّت إليها قبيلتان من أفضل القبائل المحاربة في جزيرة العرب هما قبيلة ابن جازي الحويطات وبنو صخر. وفي الوقت نفسه جاءت قبائل جُهينة وعتيبة وعْنِزَة على ظهور الجمال لتنضم إلى فيصل ولورَنس.

ذهب لورَنس إلى فلسطين مراراً بعد سقوط العَقَبة ليجتمع بآلِنبي. ومنذ ذلك الحين والإنكليز في فلسطين وجيش الملك حسين في تعاون مستمرّ.

قُسم الجيش العربي إلى قسمين مختلفين، يُعرف الأول بالنّظاميين، والآخر بغير النّظاميين. النّظاميون كلهم من المشاة ولا يزيد عددهم على عشرين ألفاً. وكانوا إما من الفارّين من الجيش التّركي أو من العرب الذين كانوا يقاتلون تحت راية السّلطان، ثم تطوعوا للانضمام إلى قوات الملك حسين بعد وقوعهم أسرى في يد الإنكليز في بلاد الرّافدين أو في فلسطين. تم استخدامهم أولاً في حماية المواقع التّركية القديمة التي استولت عليها حشود الشّريف. ثم، بعد أن تدرّبوا بشكل جيد، استخدموا كمجموعات للصّاعقة تهاجم المواقع المحصنة. وكان هؤلاء الجنود تحت قيادة رجل إيرلندي هو الكولونيل P. C. Joyce جويس، الذي لعب دوراً مهمّاً في الحملة العربيّة بعد لورَنس مباشرة بين غير العرب من القواد. أمّا غير النّظاميين، الذين كانوا أكثر عدداً من النّظاميين، فكانوا من البدو ويمتطون الجمال والخيول. وبالإجمال، أصبح لدى لورَنس أكثر من مئتي ألف مقاتل.

تصوّر معركة سيل الحَسَا الطّريقة التي قاد بها قوات الملك حسين. أرسلت تُركية فوجاً عسكرياً بقيادة حامد فخري بك، مؤلفة من مشاة وخيّالة ومدفعية ثقيلة وفرقة مزوّدة بمدافع رشاشة، أرسلتها عبر الخط الحديدي الحجازي من الكَرَك، الواقعة في الجنوب الشّرقي للبحر الميت، لاستعادة الطَّفيلة التي كانت قد سقطت في يد الجيش العربي. كانت هذه الكتيبة التّركية قد شُكّلت على عجل في حوران وعمّان وكانت تنقصها المؤن.

عندما التقى الأتراك بالبدو الذين كانوا يسيرون في الطّليعة عند سيل الحَسَا، قاموا بردّهم على أعقابهم إلى الطَّفيلة. وكان لورَنس قد وضع حامية صغيرة على الضّفة الجنوبية من الوادي الكبير للدّفاع عن القرية، ويتولّى أمرها ليلاً الشّريف زيد، أصغر أبناء الشّريف حسين، مع خمسمئة مقاتل، من النّظاميين وغير النّظاميين. في تلك الأثناء أرسل لورَنس معظم أمتعة جيشه في اتجاه آخر، وظن السّكان المحلّيون أن الجيش العربي كان يفرّ مبتعداً.

قال لي لورَنس: «أعتقد أنهم كانوا يفعلون ذلك». كانت الطَّفيلة في حالة اضطراب وهيجان. أخبرنا الشّيخ دياب العوران عن الاستياء المتزايد بين القرويين والإشاعات التي تدور حول وجود خيانة، لذلك نزل لورَنس من سطح منزله قبل الفجر ودخل الشّوارع المزدحمة ليتلقط الأخبار. كان يرتدي ملابسه الواسعة مما ساعده على إخفاء شخصيته في الظّلام. كان عامة النّاس ينتقدون الملك حسين كثيراً ولم يكونوا على مستوى عالٍ من الاحترام. كان الجميع يصيحون بذعر، وكان في قرية الطَّفيلة حالة من الاضطراب. سرعان ما أخليت البيوت، وكانت البضائع محزومة داخل النّوافذ في الشّوارع المزدحمة. كان هناك عرب يركضون بخيولهم ويطلقون الرّصاص في الهواء وبين أغصان شجر النّخيل. ومع كل بريق يصدر من بندقية، كانت جروف الطَّفيلة تبرز بشكل حاد وواضح في أفق السّماء الملونة.

بدأ رصاص العدو يتطاير عند الفجر، فذهب لورَنس إلى الشّريف زيد وأقنعه بضرورة إرسال أحد ضبّاطه مع رشاشين لمساعدة أهالي الطَّفيلة الذين كانوا يحتلون

القمّة الجنوبية من التّلال. رفع وصول الرّشاشين من معنويات القرويين وهجموا من جديد. كانوا يصيحون باسم نبي الله واستطاعوا دحر الأتراك إلى تلّ آخر وعبر سهل صغير في وادي الحَسَا. استولوا على التّلّ لكنهم وجدوا القسم الرّئيسي من الجيش التّركي، الذي كان بزعامة حامد فخري، متمركزاً وراءه تماماً.

اشتدّ القتال وسقط قتلى كثيرون من الجانبين. كان الإطلاق المستمرّ للمدافع الرّشاشة والقصف القوي قد فتّر من حماسة العرب. تردّد زيد في إرسال احتياطي الذّخيرة لديه، فركب لورَنس باتجاه شمال الطَّفيلة طلباً للتعزيزات. وفي الطّريق التقى بجنود مدفعيته عائدين بعد أن مات خمسة منهم وانفجر مدفع من المدافع ونفدت الذّخيرة. أرسل لورَنس رسائل مستعجلة إلى زيد يحثّه فيها على إرسال مدفع وذخيرة وما أمكن من الرّشاشات، إلى الطّرف الجنوبي من السّهل الصّغير بين الحَسَا ووادي الطَّفيلة.

عاد لورَنس بفرسه إلى الخط الأمامي من التّلّ، ورأى أن الأمور مضطربة. كان التّلّ في حوزة ثلاثين من خيالة ابن جازي الحويطات وجماعة صغيرة من القرويين، وتمكن من رؤية العدو يشق طريقه على طول الحدود الشّرقية لتلال السّهل حيث كان هناك عشرون مدفعاً رشاشاً تركياً يطلق النّار. كانوا يحاولون الالتفاف حول التّلّ الذي كان بيد العرب. كان الضّبّاط الألمان، الذين يوجّهون الأتراك، يصحّحون مسار إطلاق الشّظايا التي كانت تكشط قمّة التّلّ وتنفجر دون إحداث أذى في السّهل الصّحراوي. ولمّا جلس لورَنس هناك بدؤوا يمطرون جوانب التّلّ وقمته بشظايا فولاذية وأخذوا يحصدون نتائج باهرة. عرف لورَنس أنّ فقد السّيطرة على الموقع لن يستغرق سوى بضع دقائق. ظهرت طائرات استطلاع في السّماء وساهمت في تقليل فرص قوات الشّريف بقصفها من الهواء.

أعطى لورَنس الخيّالة كل الطّلقات التي استطاع جمعها، بينما ركض المشاة من العرب عائدين إلى السّهل، وكان معهم. بما أنه قد رجع من الطَّفيلة إلى الجروف مباشرةً، فإنّ دوابه لم تلحق به، انتظر الخيالون خمس عشرة دقيقة أخرى ثم عادوا دون

أن يصيبهم أذى. جمع لورَنس رجاله في جهة معاكسة فوق تلّ يبلغ ارتفاعه ستين قدماً، ويشرف على السّهل تماماً. كان الوقت ظهراً، وكان قد فقد خمسة عشر رجلاً ولم يتبقَ لديه سوى ثمانين. ولكن، بعد بضع دقائق، ظهر مئات من رجال العقيل وبعض رجاله الآخرين، يحملون مدفعاً رشاشاً. كما جاء رجل سوري، هو لطفي العسلي، بمدفعين آخرين، وبقي لورَنس ممسكاً بمدفعه حتى السّاعة الثّالثة عندما جاء الشّريف زيد بمدفعية ثقيلة ومدافع رشاشة وخمسين خيالاً ومئتين من المشاة العرب.

في تلك الأثناء، كان الأتراك قد احتلّوا مواقعه الأمامية القديمة، ولحسن الحظ كان لورَنس يعمل وفق مجال دقيق. لقد زاد من سرعته بينما كان أصحابه ينسحبون بشكل عشوائي إلى الموقع المعاكس. وإثر ذلك وضع مدفعيته على قمّة التّلّ وأرسل الخيالين إلى الميمنة ليدعم الحدود الشّرقية للتل. كان هؤلاء الرّجال محظوظين جداً إذ تقدّموا دون أن يراهم أحد إلى أن التفّوا حول الأتراك وأصبحوا على بعد ألفي ياردة منهم. وهناك ترجّلوا وشنوا هجوماً على العدو، والدّخان الأبيض يتصاعد من فوهات بنادقهم.

في الوقت ذاته، جاء أكثر من مئة عربي من بدو النّعَيمي[1] Aimi وانضمّوا إلى لورَنس، بعد أن رفضوا القتال في اليوم السّابق، إذ لم تعجبهم كمّية الغنائم التي سلبوها. لا يقاوم البدو القتال عند حدوثه، لذلك أرسلهم إلى جهة الميسرة وزحفوا وراء التّلّ الغربي للسّهل إلى أن أصبحوا على بعد مئتي ياردة من خصومهم. كان التّلّ الذي يحتلّه الأتراك صخرياً وعراً، وبهذا أضحى الهجوم عسيراً. كانت شظايا القذائف تصطدم بالصّخور القاسية وترتدّ عنها بشكل مرعب مما سبب خسارة كبيرة في صفوف العدو. أمر لورَنس الرّجال الذين في الميسرة بأن يطلقوا دفعة كبيرة من الطّلقات من مدافعهم الرّشاشة الهوتشكيس Hotchkiss والڤيكرز Vickers، على الأتراك الذين يقومون بتلقيم المدافع. وكانوا من الدّقة بحيث قضوا عليهم كلهم. ثم أمر خياليه بالهجوم على الأتراك المنسحبين في جهة الميمنة، بينما تحرّك هو والمشاة

(1) هكذا تبيّن لي الاسم كما يكتبه لويل توماس، علماً أنه لم يكن يعرف العربيّة مطلقاً.

من الوسـط إلى الأمام والرّايات تخفق بحماسـة. استسـلم الأتراك وأُحبط هجومهم، ومـا كادت الشّـمس تميـل للغروب حتى كان لورَنس قد اسـتولى علـى خطوط العدو وطاردهـم حتى مواقع مدافعهم في وادي الحَسَـا. حلّ الظّـلام عندما تخلى رفاقه عن اللحاق بالأتراك بعد أن أنهكهم قلة النّوم والطّعام. صاح الرّجال المرهقون بعبارة «الله أكبـر» وهـم يخرون على ركبهـم ووجوههم تجاه مكّة، يحمدون اللـه القدير على هذا النّصـر. لقـد دحر لورَنـس كتيبة تركية كاملـة، وكان من بين القتلى حامـد فخري، قائد الكتيبة المهزومة.

***



مجلس حرب في الصّحراء



الشّيخ عودة أبو تايه، روبن هود البدوي
والشيخ محمّد أبو تايه «أبو البلاغة»

الفصل الحادي عشر

لورَنس مدمّر القطارات

لم يلعب القدر دوراً أغرب من ذلك الذي حوّل فيه خريج جامعة أوكسفورد الشّاب مـن عالـم آثار مُجـدّ إلى قائد يقـوم بأكثر من مئـة غزوة ويلهـم الملوك ويقود جيشـاً، والأدهى من ذلك، يحقّ له أن ينال بطولة العالم في فنّ تدمير القطارات.

ذات يـوم كان لورَنـس وفرقتـه يسـيرون في وادي إضـم، ووراءه نحـو ألف بدوي يمتطون أسـرع جمال سـبق أن جُلبت إلى نجد. كانوا يرتجلون أناشـيد حربية يصفون فيها أعمال البطولة التي قام بها الشّـريف الأشـقر الذي كان الجنرال سـتورز قد أطلق عليـه لقـب «ملك العرب غير المتـوَّج». كان لورَنس يترأس الفرقـة ولا يأبه كثيراً بهذه الأهازيـج التـي تضعـه في مصـاف العظمـاء كأبي بكـر. كنا نتناقـش فـي إمكانية كون الحضارة الحثية صلة الوصل بين حضارات بابل ونينوى وكريت القديمة. لكن تفكيره كان منشغلاً بأمور أخرى، وفجأة قطع الحديث وقال:

«أتدري، إنّ أحد أشد المشاهد إثارة التي رأيتها كان حمولة قطار من الجنود الأتراك تتناثر في السّماء إثر انفجار لغم أرضي!».

بعـد ثلاثة أيام انطلقت الفرقة ليلاً باتجاه طريق الحج حيث كان هناك مئتا رجل من قبيلة الحويطات جاؤوا لنجدة لورَنس. وبعد يومين من الرّكوب الشّاق فوق أراضٍ هي أكثر جفافاً من جبال القمر، وعبر وادٍ يذكر بوادي الموت في كاليفورنيا، وصلت الفرقة إلى صف من التّلال بالقرب من مركز سـكة حديد تركي مهمّ يحمي بلدة معان. ترجل الجميع بإشـارة من لورَنس وتركوا جمالهـم ثم صعدوا إلى قمّة أقرب تلّ، ومن خلال

جروف الحجارة الرّملية نظروا أسفل منهم إلى سكة الخط الحديدي.

كان ذلك الخط هو نفسه الذي أنشئ قبل سنوات لتتمكن الحكومة التّركية من المحافظة على هيمنتها على جزيرة العرب عن طريق نقل الفرق العسكرية. كما أنه سهّل سفر الحجّاج إلى المدينة ومكّة. كان في المدينة حامية مؤلفة من أكثر من عشرين ألف تركي وكانت محصّنة بشكل جيد. كان في مقدور لورَنس وأصحابه أن يقتلعوا هذا الخط بأكمله متى يشاؤون، لكنهم اختاروا أن يتبعوا سياسة أكثر دهاءً. لذلك، عندما كانت المؤن تنفد من أيدي لورَنس ورفاقه، كانوا يتسللون خلسة ويفجرون قطاراً أو قطارين ويقومون بسلبهما ثم يختفون بكل ما أرسلته القسطنطينية إلى جنودها. بفضل الخبرة التي اكتسبها لورَنس في هذه الغزوات، أصبحت معرفته بالمتفجرات بقوة معرفته بالآثار، وكان يفخر بقدرته الفريدة على تدمير السّكك الحديدية. وكان البدو، من جهة أخرى، يجهلون طريقة استخدام الدّيناميت ولهذا كان لورَنس يقوم بزرع الألغام وحده ثم يأتي بالبدو ليساهموا في عمليات لنهب والسّلب.

وبلغ من خوف المسافرين في هذه القطارات أنهم كانوا يدفعون في تذكرة العربات الأخيرة ستة أضعاف ثمن تذكرة السّفر في العربات الأمامية، لأنهم كانوا يعلمون أن الأيدي الجهنّمية لم تكن تصل إلا للقاطرة والعربات الأمامية.

لقد قام لورَنس بنسف قطارات كثيرة حتى أنه أصبح على اطلاع بنظام النّقل والدّوريات كالأتراك أنفسهم. في الواقع كان يقوم بنسف القطارات المارّة بالخطّ الحجازي بشكل مستمرّ، لدرجة أن المقاعد الدّمشقية في العربات الخلفية أصبحت تباع بخمسة أو ستة أضعاف ثمنها العادي. كان هذا الازدحام في المقاعد الخلفية من القطار يعود إلى أن لورَنس كان يفجّر زهرات التّوليب، كما كان يدعو ألغامه، تحت المحرك تماماً وبذلك يحدث التّخريب في العربات التي في المقدّمة فقط.

هناك سببان يكمنان وراء عدم تعليم لورَنس العرب كيفية استخدام المتفجّرات الحرارية. الأول هو أنه كان يخشى أن يستمر البدو باللهو بنسف القطارات حتى بعد انتهاء الحرب. كانوا ينظرون إلى الأمر وكأنه نوع من الرّياضة المسلية والمربحة في

آن معاً. السّبب الثّاني هو أنه من الخطورة بمكان ترك آثار أقدام على طول خط السّكة الحديدية، وكان يفضّل ألا يعهد بزرع الألغام لرجال قد يكونون مهملين لهذا الأمر.

ربض أفراد الفرقة خلف كتل من الحجارة الرّملية لمدة ثماني ساعات حتى مرّ عدد من الدّوريات بالقرب منهم. علم لورَنس أنهم يذهبون في فواصل استراحة مدتها ساعتان. في منتصف النّهار، وبينما كان الأتراك ينالون قسطاً من الرّاحة، تسلل لورَنس إلى خط سكة الحديد ومشى حافياً فوق عربات النّوم حتى لا يترك آثاراً على الأرض يمكن أن يراها الأتراك، ثم انتقى المكان الملائم لزرع العبوة. عندما كان يقصد نسف محرك القطار فقط، كان يستخدم رطلاً من الجيلاتين المتفجر، أمّا عندما كان يرغب في نسف القطار بأكمله، فقد كان يستخدم أربعين إلى خمسين رطلاً. في هذه المرة، حتى لا يخيب أمل أحد أبداً، وضع ما يزيد عن خمسين رطلاً بقليل. استغرق الأمر حوالي ساعة من الزّمان لحفر حفرة بين عربات النّوم ودفن المتفجرات فيها ثم توصيل سلك دقيق من أسفل السّكة إلى فوق المرتفع، وصولاً إلى جانب التّل.

إن زرع اللغم عمل طويل ومملّ. قام لورَنس أولاً بإزالة الطّبقة العلوية من حصى السّكة ووضعه في كيس حمله في عباءته. ثم انتزع من التّراب والصّخور ما يكفي لملء صفيحتي نفط بسعة خمسة غالونات، حملها إلى مسافة تبعد عن السّكة بخمسين ياردة تقريباً وبعثرها حتى لا تراها دوريات الأتراك. بعد ملء الحفرة بخمسين رطلاً من الدّيناميت، أعاد الطّبقة السّطحية من الحصى فوقها وسواها بيده. وكاحتياط أخير، أخذ فرشاة من شعر الجمل كنس بها الأرض، وحتى لا يترك آثار أقدامه، مشى إلى الوراء لمسافة عشرين ياردة وأزال بالمكنسة كل أثر له. قام بدفن السّلك مسافة مئتي ياردة فوق منحدر التّلّ ثم جلس بهدوء تحت شجيرة ينتظر بلا مبالاة وكأنه يرعى قطيعاً من الغنم. عندما قدمت القطارات الأولى بحراسها المنتشرين على أسطح العربات وفي المقدّمة وبنادقهم معبأة، لم يروا شيئاً غير استثنائي سوى بدوي يجلس على سفح التّلّ وبيده عصا الرّاعي.

ترك لورَنس العجلات الأمامية لعربة المحرك تمرّ فوق اللغم، وبينما كان أفراد فرقته

مستلقين دون حراك وراء الصّخور، أوصل التيار إلى العبوة النّاسفة. انفجرت بصوت يشبه انهيار بناء مؤلف من ستين طابقاً، وانبعثت إلى الأعلى سحابة من الدّخان والغبار الأسودين. مع صوت فرقعة الحديد ارتفعت عربة المحرك عن السّكة وتحطمت إلى نصفين. انفجر مرجل البخار وتطايرت قطع الحديد والفولاذ إلى مساحة يبلغ قطرها حوالي ثلاثمئة ياردة، وكادت بعض الصّفائح الحديدية تصيب لورَنس لكنها تجاوزته بمقدار بوصات.

بدلاً من المؤن، كان القطار يحمل أربعمئة جندي تركي في طريقهم لنجدة القوات في المدينة. نزل الجنود من العربات واندفعوا نحو لورَنس بطريقة تنذر بالوعيد. كان البدو المختبئين في قمم التّلال ينظرون إلى الأتراك خلسة. كان من الواضح أن الضّابط التّركي يشكّ بأن هذا العربي الوحيد هو الإنكليزي الغامض الذي وضعت من أجل القبض عليه جائزة الخمسين ألف جنيه. صاح بعبارة ما، وبدلاً من إطلاق الرّصاص ركض الجنود نحو لورَنس ينوون أخذه أسيراً، لكن، قبل أن يتقدّموا أكثر من ست خطوات، سحب لورَنس مسدسه الكولت ذا السّبطانة الطّويلة من عباءته وبدأ بإطلاق الرّصاص فدار الجنود على أعقابهم ولاذوا بالفرار. كان يحمل دائماً أحدث سلاح أميركي، ويروي الضّبّاط البريطانيون أنه كان يمضي السّاعات في التّدرب على الهدف مما جعل منه رامياً محترفاً.

فرّ الأتراك إلى خلف المرتفع وأخذوا يطلقون النّار من بين عجلات العربات، لكن لورَنس، الذي توقع ذلك، كان قد وضع مدفعين رشاشين من نوع لويس حول منحنى في السّكة بحيث يغطيان الجهة المقابلة للمرتفع الذي اتخذه الأتراك ملجأ لهم. أطلق طاقم المدفعين الرّصاص، وقبل أن يدرك الأتراك ما حدث، كانت صفوفهم قد تمزّقت وغدا كل رجل وراء المرتفع إما قتيلاً أو جريحاً بينما فرّ البقية مذعورين في كل الاتجاهات. أمّا العرب الذين كانوا يرقبون العملية وراء الصّخور، فقد أخذوا بنادقهم وهجموا على العربات وألقوا كل ما كان بداخلها إلى الخارج. كانت الغنائم مؤلفة من أكياس من العملات التّركية الفضية والأوراق النّقدية، والعديد من أقمشة الجوخ

الشّرقية الجميلة. كوّم الغزاة الأسلاب كلها على المرتفع وبدؤوا، وسط صيحات الفرح، يقتسمونها فيما بينهم، بينما كان لورَنس يوقع نسخاً من بيانات الشّحنة وترك إحداها مع جريح تركي كان ينوي الإبقاء عليه. كانوا أشبه بالأطفال الذين يجتمعون حول شجرة عيد الميلاد. أحياناً ترى رجلين يتنازعان على سجادة كرمانية حريرية، فكان يفصل لورَنس بينهم ويعطي السّجادة لرجل ثالث.

في أوائل شهر سبتمبر غادر لورَنس العَقَبة بصحبة اثنين من شيوخ عقيلات بني عطية من المدوّرة، وسار إلى الأرض ذات الحجارة الملونة التي يدعوها رجال القبائل «وادي رَمّ». وفي أقل من أسبوع كان قد انضم إليه 116 رجلاً من التّوايهة والزّوايدة Zuwida والدّراوشة والدّومانيّة Dhumaniyah والطّقاطقة Togatga والزّلباني Zelebani والحويطات.

كان الموعد المحدّد عند جسر صغير للسّكة الحديدية بالقرب من كيلو 587 جنوبي مدينة دمشق. هناك دفن لورَنس ألغامه بين السّكك ووضع مدافع لويس وستوكس في مواقع إستراتيجية على بعد حوالي ثلاثمئة ياردة. بعد ظهر اليوم التّالي رصدتها دورية تركية، وبعد ساعة انطلق فريق من أربعين خيّالاً تركياً من حصن حالة عَمّار Haret Ammar لمهاجمة فرقة زرع الألغام في الجنوب. تقدّم فريق آخر قوامه أكثر من مئة جندي ليحيط بلورَنس من جهة الشّمال، لكنه قرّر أن يخاطر ويثبت في موقعه.

بعد فترة قصيرة ظهر قطار ذو قاطرتين وعربتين يتحرّك ببطء قادماً من حالة عَمّار وقد برزت المدافع الرّشاشة والبنادق من الأسطح وفتحات الرّمي في العربات والقطار يتابع تقدّمه. ضغط لورَنس على القابس الكهربائي فانفجر لغم تحت القاطرة الثّانية مباشرة. كانت الصّدمة كافية لتخرج القاطرة الأولى عن السّكة وتفجّر المرجل وتحطم مقطورة الماء والوقود في الثّانية وتخرّب العربة الأولى وتخرج الثّانية عن مسارها. وبينما كان العرب يحتشدون لسلب القطار المنسوف أشعل لورَنس صندوقاً من المتفجرات تحت القاطرة الأمامية ليكمل تدميرها. كانت المقطورات مليئة بالأمتعة القيّمة وطار صواب العرب من شدة الفرح. كانت المحصلة قتل سبعين تركياً

وأسر تسعين ونسف ملازم نمساوي وثلاثين رقيباً من النّمساويين والألمان.

فـي قبيلـة الحويطات المحاربة كثير من الشّـيوخ، وبالتالي فإن الشّـيخ الرّئيسـي لا يملك سـلطة واسـعة. كان هؤلاء الرّجـال كثيراً مـا يرافقون لورَنس فـي غزواته. وفي إحـدى الحمـلات إلى خط حديـدي قريب من بيـر الشّـدية Biresh-Shediyah كان عليه أن يحكم في اثنتي عشرة قضية اعتداء مسلح وأربع سرقات جمال وقضيتي عيون شـريرة. لقد فصل في أمور السّحر بعكسـه على المدعى عليه البائس. وكان يفصل في قضايا العيون الشّريرة بإطلاق سراح المتّهم.

في مناسـبة أخرى، خلال الأسـبوع الأول من شـهر أكتوبر، كان لورَنس جالسـاً في الهـواء الطّلـق بالقرب من كيلـو 500، وكان أصحابـه البدويون مختبئيـن وراءه داخل أجمة من القش. ظهر قطار كبير له اثنتا عشـرة عربة. وكانت نتيجة الانفجار أن تهشّـم مرجل القاطرة وانفجر العديد من الأنابيب وقُذفت الأسطوانات في الهواء مزيلة العربة بشـكل كامل ومعها المهندس ورجـل الإطفاء، وأحاط بإطار القاطـرة والتوَت عجلتا القيـادة الخلفيتان وانكسـرت المحـاور. وعندما قدّم لورَنس تقريره الرّسـمي عن هذه الحملـة أضاف ملاحظـة طريفة بأنّ القاطـرة قد أصبحت «غير قابلـة للإصلاح». وقد تحطّمت عربة الماء والوقود والعربة الأمامية أيضاً. كان من بين الأشخاص في القطار نظمي بك، وهو جنرال تركي، قام بإطلاق رصاصتين من مسدسـه الماوزر، ثم ما لبث أن توقـف. وعلـى الرّغـم من أنه بدا مـن الحكمة أن يتجـه لورَنس إلى الجمـال والتّلّ البعيد، فقد انقض وجماعته على القطار واسـتولوا على ثماني عربات وقتلوا عشـرين تركياً وحملوا معهم سبعين طناً من الأغذية دون أن يصابوا بأي خسائر.

كان مرافقه الأوروبي الوحيد في بعض حملاته لتفجير القطارات هو جندي أسترالي جسـور يستخدم المدفع الرّشـاش ويدعى الرّقيب يلز Yells. كان شرهاً للإثارة ونمراً فـي القتال. في إحدى المرات، عندما كان في حملة مع فريق من قبيلة أبو تايه، قتل يلز بين ثلاثين إلى أربعين تركياً بمدفع لويس. وعندما قسمت الغنائم على البدو، أصر يلز، بأسلوبه الأسترالي، على نيل حصّته. أعطاه لورَنس سجادة عجمية وسيفاً تركياً رائعاً.

لعب الشّريف علي والشّريف عبد الله دوراً مهمّاً أيضاً في الحملات على الخط الحجازي وفي الاستيلاء على عدد كبير من قوافل الجمال التّركية قرب المدينة. في عام 1917 قام لورَنس، مع رفاقه وبمساعدة من فيصل وعلي وعبد الله وزيد، بنسف خمسة وعشرين قطاراً تركياً وتحطيم خمسة عشر ألف سكة وتهديم خمسة وسبعين جسراً وقناة. خلال الأشهر الثّمانية عشر التي قاد فيها العرب لغموا تسعة وسبعين قطاراً وجسراً، ومن الملفت للنّظر أن واحدة فقط من الحملات التي شارك فيها لم تأتِ بنتيجة مُرضية. قال الجنرال آلِنْبي في أحد تقاريره إنّ الكولونيل لورَنس قد جعل من تدمير القطارات رياضة وطنية في جزيرة العرب!

في حملة لاحقة في درعا، وهي أهم نقطة تقاطع للسّكة الحديدية جنوبي دمشق، فجّر لورَنس لغماً تحت عجلة قيادة قطار طويل ومسلّح بقوة. تبيّن فيما بعد أن جمال باشا، القائد الأعلى للقوات التّركية، كان على متن القطار مع حوالي ألف من الجنود. هبَّ جمال من مقصورته وقفز داخل خندق يتبعه كل فريق الإدارة.

كان مع لورَنس أقلّ من ستين بدوياً، لكن كانوا جميعاً أفراداً من حرسه الخاص ومقاتلين متميّزين. وعلى الرّغم من عدم التّجانس، تمكن الرّجل الإنكليزي ومرافقوه العرب من خوض معركة حامية قُتل فيها مئة وخمسة وعشرون تركياً وفقد لورَنس ثلث رجاله. والتحقت بقية القوات التّركية بقائدها ولاذ لورَنس وصحبه بالفرار.

في كل محطة من محطات خط الحجّاج الحجازي هناك جرس أو جرسان يقرعهما الموظفون الأتراك لينبّهوا الرّكاب أن القطار جاهز للانطلاق. هذه الأجراس تزيّن الآن منازل أصدقاء لورَنس، ومعها أيضاً دزينة أو أكثر من الأعمدة المحدّدة للمسافات ولوحات أرقام نصف القاطرات التي كانت فيما مضى تجرّ القطارات فوق السّكة من دمشق إلى المدينة. قام لورَنس ورفاقه بالتقاط هذه الأشياء إثباتاً لانتصاراتهم. عندما كنت في جزيرة العرب سمعتُ ملاحظة تحمل روح الفكاهة والجدّية في آن معاً وهي أن لورَنس كان يستولي على موقع تركي لمجرّد إضافة جرس آخر إلى مجموعته؛ وكان من الشّائع أن ترى لورَنس أو أحد ضبّاطه يمشون خلسة على منصة السّكة بين

الدّوريات، بحثاً عن الشّاخصة المعدنية التي تحدّد مسافة 1000 كيلو جنوبي دمشق. وعندما يجدونها يقتلعونها بإصبع من الدّيناميت. وعندما لا يكون لورَنس مشغولاً بحركة كبيرة ضد الأتراك أو بتعبئة البدو، كان يمضي وقته عادة في نسف القطارات وتحطيم السّكك.

أصبح عالم الآثار الشّاب هذا مشهوراً جداً في الشّرق الأدنى كمفجّر للجسور والقطارات لدرجة أنه بعد الهزيمة النّهائية للجيوش التّركية، وعندما وصل الخبر إلى القاهرة بأن لورَنس سيمرّ قريباً من مصر في طريقه إلى باريس، أعلن الجنرال واطسون مازحاً، وهو القائد العام للقوات، أنه ذاهب في مهمّة رسمية لحراسة قصر النّيل، جسر بروكلين في مصر، الذي يعبر النّيل من القاهرة إلى الضّواحي السّكنية في الجزيرة.

سرت إشاعات مفادها أن لورَنس لم يكن راضياً بانتهاء الحملات مع رصيده المفرد من زرع الألغام، الذي بلغ تسعة وسبعين. لذلك ذاعت قصة على طول خط الحليب والعسل بين مصر وفلسطين بأنه قد اقترح جعل الرّقم ثمانين، ونسف مهنته كمفجّر بزرع ألغام وداع تحت قصر النّيل خارج باب مركز الحربية البريطانية.

* * *



لورَنس في ثوب عربي



خطّ السّاحل عند رأس خليج العَقَبة

الفصل الثّاني عشر

شُرّاب حليب الحرب

بينما كان لورَنس يرتحل من شيخ إلى شيخ ومن شريف إلى شريف يرجوهم، باللغة الفصيحة لقائده، للانضمام إلى الحملة ضد الأتراك، كانت أسراب من الطّائرات الألمانية تحتشد قادمة من القسطنطينية في محاولة منهم لإخافة الجيش العربي بطيورهم الشّيطانية الغريبة. لكن العرب رفضوا الخوف، بل أصرّوا على أنه ينبغي على قائدهم البريطاني واسع الحيلة أن يأتي لهم بمثل هذه «السّنونو المقاتلة».

بعد قيام الألمان بشنّ حملتهم الجوية الشّنيعة عل العَقَبة بفترة قصيرة، جاء مبعوث ملكي يعدو بجمله إلى أن وصل إلى خيمة لورَنس. ودون أن ينتظر إناخة الجمل انزلق من فوق سنامه وسلم رسالة كُتب فيها ما يلي:

«أيها المخلص. لدى الحكومة طائرات كالجراد. ولكني، بمشيئة الله، التمس منك أن تطلب من الملك إرسال دزينة منها أو ما يقارب الدّزينة».

(التوقيع) حسين

إن سكان جزيرة العرب منمّقون جداً وشاعريون في التّعبير عن أنفسهم. إنهم يقسمون بروعة الضّياء وسكون الليل، ويلوّنون كلامهم بالتّشبيهات المجازية كألوان سجاجيد الصّلاة التّركمانية لديهم.

هناك مجلة أميركية فاجأت النّاس بما نشرته وهو أن قسماً كبيراً من النّاس يستخدمون الأحرف العربيّة أكثر من الرّومانية أو الصّينية. إنهم فخورون جداً بلغتهم ويسمّونها لغة

الملائكة كما يعتقدون أنها لغة أهل الجنة، وهي من أصعب اللغات في العالم. يختلف العـرب عنا في طريقة التّفكير، فهم يبدؤون الجملة من نهايتها ويكتبون من اليمين إلى اليسـار. ليهـم 450 كلمة بمعنى «خطّ أو صفّ»، و822 كلمـة بمعنى «جمل»، و1037 كلمـة بمعنى «سـيف». لغتهم مليئة بالألوان، ويسـمون المتشـرّد «ابن الشّـارع»، وابن آوى «ابن العواء». سطّر كاتبو الرّسائل العرب رواياتهم بروح أخاذة، على سبيل المثال كتب الأمير عبد الله إلى الكولونيل لورَنس قائلاً: «كان القتال يسـتحق المشاهدة، فقد كانت القاطرات المسلّحة تفرّ بعربات القطار كأفعى ضُربت على رأسها».

تحمّس العرب لدى إحضار لورَنس من مصر سرباً من طائرات عتيقة بعضها مزوّدة بالقنابل وأخرى للاستطلاع، وانتصروا على الأتراك في معركة صحراوية جنوبي البحر الميت. أرسل قائد الجيش العربي رسالة إلى الملك جورج بهذا الصّدد يقول فيها:

«إلـى جلالة ملك إنكلترا. اسـتولت فرقنـا المنتصرة على إحـدى مقاطعات العدو بالقرب من الطَّفيلة. تصلكم الحقائق لاحقاً - فيصل».

كتـب قائد آخر يخبر عن حدوث اشـتباك قائلاً: «تقدّمتُ للأمام مع قومي، شـاربي حليب الحرب، كما تقدّم العدو لملاقاتنا، لكن الله لم يكن حليفهم».

أثنـاء الحـرب، قامـت الحكومة البريطانية بمـدّ خطوط هاتف وبرق مـن جدّة على البحـر الأحمر إلى قصر الملك في مكّة. لم ينفذ هذه الخطوط أشـخاص مسـيحيون، بل مسـلمون من مصر. وبالرّغم من نفور الملك من أية اختراعات عصرية، فقد سـمح بتركيـب الخطوط فقط لأنه يـدرك أهمية البقاء على اتصال مـع الحلفاء. وبما أنه أصرّ على العيش في مكّة، فإنّ الهاتف والبرقيات هي من الضّروريات الحربية، ويوجد الآن حوالي عشـرين خطـاً هاتفياً في جهازه الإداري. في أحد الأيـام اتصل جنرال بريطاني بالملـك مـن جدّة ليناقش معه قضية حربية سياسـية ملحَّة. أثناء الحديث سـمع الملك أصواتـاً أخرى على الخط فصرخ غاضباً عبر الأسـلاك مخاطباً عامل المقسـم: «آمرك أن تقطـع كل الخطـوط في الحجاز لمدة سـاعة! أنا الملك أتكلـم». وهكذا تم إيقاف شـبكة الهاتف في الجزيرة بناءً على أوامر ملكية. إذا صادف أن كنت في جزيرة العرب

وأردت أن تتّصل بملك الحجاز هاتفياً، فما عليك إلا أن تطلب «مكّة رقم واحد».

بعد الاستيلاء على جدّة بوقت قصير، اجتمع لورَنس والكولونيل ويلسون C. E. Wilson، حاكم پورسودان، ومستر رونالد ستورز والأمير عبد الله، وبهدف التّسلية جعلوا الفرقة التّركية، التي أسروها قبل بضعة أيام، تعزف مقطوعة[1] «Deutschland, Deutschland, über Alles»، «ترنيمة الكراهية»، وأغاني ألمانية أخرى. صادف أنّ اتصل الملك أثناء العزف، ولما سمع الخليط المتنافر طلب من المستقبل أن يترك السّماعة، وبقي لنصف ساعة في قصره في مكّة يضحك بجزل بينما الفرقة تؤدّي بأسوأ طريقة.

لم يجبَر الطّيارون القادمون إلى جزيرة العرب على لبس غطاء الرّأس العربي فحسب، بل على الطّيران وفق ارتفاع مناسب خشية اصطيادهم من قبل البدو الذين يملكون رغبة لا تقاوم في إطلاق الرّصاص على أيّ شيء يتحرّك بسرعة. قاموا مرة بإطلاق وابل من الرّصاص على سيارة مصفحة ثم أرسلوا بالغ اعتذارهم. لقد اعترفوا بأنهم كانوا يعلمون أنها آلية صديقة، لكنها كانت تجري بسرعة كبيرة بحيث لم يقاوموا إغراء محاولة إصابتها.

أدخل الكولونيل لورَنس ورفاقه أول سيارات آلية إلى جزيرة العرب، واتخذ الأمير فيصل لنفسه عربة تزن طناً كسيارة ملكية خاصّة. رافقته في إحدى رحلاته من العَقَبة إلى مركز الخط الأمامي في الوهيدة Waheida في الصّحراء شمالي الحصن التّركي في معان على الخط الحديدي الحجازي. خيّمنا ليوم واحد على قمّة تلّ مرتفع وسط أطلال قلعة تركية قديمة. أقام فيصل وليمة غداء على شرفنا، حيث جلسنا على صناديق فارغة بدلاً من الطّريقة العربيّة بالجلوس على الأرض، وارتُجلت طاولة لأجلنا. كان هناك الجنرال نوري پاشا ومولود Malud بك والعجوز عودة أبو تايه. قبل الوجبة قدّموا لنا أكواباً من الشّاي المحلّى، ثم جاء الطّعام وهو طبق كبير من الأرز المجلل بقطع من

---

(1) أنشودة ألمانيّة شهيرة تعني: «ألمانيا فوق الجميع»، غدت لاحقاً في أيام الحزب النّازي شعاراً أثيراً يتغنى به الجميع.

لحـم الضّأن والماعز، ووضع في وسـط الطّاولة. بالإضافة إلـى ذلك كان هنالك طبق آخـر مـن الأرز المخلوط بقطع اللحم. كما أثقل سـطح الطّاولـة بالفاصولياء مع مرق البنـدورة، والعدس والبازلاء، والرّمّـان، والتّمر والتّين المجفّفيـن، ونوع من الحلوى مصنوع من السّمسم والسّكر، يشبه الأسبست النّيئ. وقد تناولنا أجاص كاليفورنيا كان قد أُرسل من مصر كهدية للأمير.

لم يكن العجوز عودة أبو تايه قد رأى مثل هذه الأجاصات شـهيّة المنظر في حياته، ولشـدة الإغـراء من أجـل تذوقها لم يسـتطع المقاومة حتـى نهاية الوجبـة. لقد أهمل الطّعـام الموضوع أمامه كما رمى بالرّسـميات عرض الحائـط، وانقض على الأجاص والتهمه كله قبل أن ينهي أحد منا وجبته الأولية. في نهاية الوجبة، دارت أكواب صغيرة مـن القهـوة المنكّهة بالهال، وهي حبوب هندية لها طعـم النّعناع، كما دار وعاء فيه ماء مـن أجـل إزالـة بقايا الصّلصة التـي قد تكون علقت فـي لحانا. بعد ذلـك أحضر خدم الأمير الأحباش السّـجائر وأخذنا نتمشّـى ونتفرّج بمناظيرنا على المعركة الدّائرة على بعد بضعة أميال في منخفض قريب من معان.

قبـل الغـداء وبعده توافـدت مجموعات مـن العرب إلـى الخيمة لتقبيل يـد الأمير فيصل. لم يكن يسمح لهم بلمس يده بشفاههم بل كان يسحبها قبل أن يقبّلوها، ليظهر لهم أنه يكره أن يعاملوه بطريقة خاصّة من الخضوع والتّذلل.

لقد اكتسب فيصل ولورَنس الكثير من مزاياهما القيادية بفضل معرفتهما بالاستقلال التّقليـدي للقبائـل. إن القبائل الأصيلة التي جابت طول وعـرض جزيرة العرب بحريّة طـوال حياتهـا، وقامت بحـروب صغيرة خاصة بهـا، لا يمكن إصدار الأوامـر إليها أو تجنيدهـا بشـكل إلزامي، بل يجب أن تُعامـل بلباقة لإقناعها بخـوض الحرب الكبرى وجعلها تشعر بأهمّيتها الخاصة.

* * *



الحالم الذي أضحى حلمه حقيقة



من عالم آثار إلى بطل العالم في تدمير القطارات

الفصل الثّالث عشر

عودة أبو تايه، روبن هود البدوي

«باســم الله، أنا عودة أبو تايه، أحذركم بأن ترحلوا عن بلاد العرب قبل نهاية شــهر رمضان. ونحن العرب نريد هذه البلاد لأنفسنا. وإن لم تخرجوا من بلادنا فوحق لحية النّبي نعلن أنكم خارجون عن الشّرع والحماية، ودمكم مهدور لأيّ كان».

كان هــذا هــو إعــلان الحرب الرّســمي والشّــخصي الذي كتبــه عودة أبو تايه شــيخ الحويطــات، وأعظــم بطل عرفــه التّاريــخ الحديث في جزيــرة العرب، وأشــهر مقاتل أنجبتــه الصّحــراء منذ أربعة أجيال. كان ذلك الإعلان موجهاً إلى ســلطان تركية، وإلى جمال باشــا نائب الملك في ســوريا وفلســطين والجزيرة، وإلى متصرّف مدينة الكَرَك وهــو الحاكــم العثماني لمقاطعــة مهمّة في طــرف الصّحراء قرب القســم الجنوبي من البحــر الميت حيث يعيش عودة. اســتنجدت الثّــورة العربيّة بروبن هــود البدوي لأنها زوّدته بحجة رائعة لإعلان الحرب الذاتية ضد الحكومة التّركية.

عندما ســمع عودة بأن الشّــريف حســين قد بدأ ثورته ضد الأتراك، ركب مع أتباعه الشّــجعان مــن قبيلــة الحويطات وعــدوا بخيولهم فوق رمــال الصّحــراء إلى مضارب الأميــر فيصــل وحلفــوا بالقرآن بأن أعداء الشّــريف ســيكونون أعداءهم هــم أيضاً، ثم أقيمت وليمة على شــرفهم. وفجأة تذكّر عودة وهو يتناول الطّعام أنه يســتعمل أســناناً اصطناعية تركية، فنهض من مجلســه وهو يلعن طبيب الأســنان التّركي الذي صنعها له وخــرج من الخيمة وحطم الأســنان علــى إحدى الصّخرات. وبقي مدّة شــهرين يعاني ولا يســتطيع تناول ســوى الحليب والأرز المســلوق. ولما عاد لورَنس من مصر شــكا

إليه عودة ما يعانيه فأرسل لورَنس من فوره إلى طبيب أسنان بريطاني في القاهرة ليأتي ويصنع للعجوز طقماً آخر من الأسنان من إنتاج بلاد حليفة!

كان لولائه وصداقته الأبدية أثرٌ قيّمٌ للشّريف حسين والحلفاء في ثورتهم العربيّة. بالإضافة إلى ذلك، فقد قدّم خبراته الغنية النّادرة في شؤون الحرب المناسبة لبلده. باستثناء لورَنس، كان عودة أعظم غازٍ في جزيرة العرب الحديثة. خلال الأعوام السّبعة عشرة قتل خمسة وسبعين رجلاً في قتال المواجهة، وكانوا كلهم من العرب إذ أنّه لا يحصي الأتراك في سجلاته. لا أظن أنه يدّعي ذلك فقد أصيب باثنين وعشرين جرحاً، ورأى معظم رجاله يصابون في المعارك ومعظم أقربائه يُقتلون. أمّا ذراعه الأيمن فهو متيبّس إلى درجة أنه لا يستطيع ثنيه ليحك ظهره ولهذا كان يستعمل العصا التي يسوق بها جمله. ومع أن أراضي قبيلة الحويطات تقع بالقرب من خليج العَقَبة، فقد قام عودة بغزو أماكن تبعد ستمئة ميل جنوبي مكّة، ووصل إلى شمال حلب، وإلى أماكن تبعد ألف ميل شرقي بغداد والبصرة. وكانت الدّوائر تدور عليه أحياناً، ففي سنة من السّنين شنّ غارة على ابن سعود الذي كان حاكماً على وسط جزيرة العرب، وجاء بعض الدّروز من جبل حوران الواقع جنوبي مدينة دمشق، وسلبوه كل جماله. تحمّل عودة هذه الخسارة بهدوء وبشكل فلسفي، لكن نبأ سوء حظه وصل إلى صديقه نوري الشّعلان أمير الجوف والحاكم على شمال وسط جزيرة العرب. فأرسل نوري الشّعلان فوراً لعودة نصف ما يملك، وفقاً لقوانين الصّحراء غير المكتوبة.

يفتخر عودة بأنه مثالٌ للعربي الأصيل، ولقد بعدت به غزواته النّاجحة التي بلغت المئة بعيداً عن مسكنه قرب البحر الميت إلى كل أنحاء العالم العربي. أمّا الأسلاب فكان ينفقها على كرمه المذهل. إنه يتحدّث مطولاً بصوت جهوريّ عالٍ يشبه سيل الجبل الجارف.

بالرّغم من عودة قد حصل في غزواته على غنائم تفوق ما حصل عليه أيّ زعيم آخر، فإنه فقير نسبياً نتيجة كرمه الزّائد. لقد أمّنت أرباح مئة غزوة ناجحة الكثير من المتعة لأصدقائه. إليكم مثالاً على غناه المؤقت، وهو أنه دعا في يوم من الأيام خمسة

وعشرين رجلاً على قدر نحاسي ضخم تحلّقوا حوله كلهم لتناول وجبتهم. يكون كرم ضيافته غير ملائم ما عدا بالنّسبة للأشخاص الذين يتضوّرون جوعاً. ذات يوم، بينما كان يضع في صحني كمية هائلة من الأرز ولحم الضّأن من القدر النّحاسي، كنت أحدّثه عن الجمال وقلت إننا لا نراها في بلدنا إلا في حديقة الحيوان. لم يستوعب البدوي العجوز الأمر وألح علي أن آخذ 20 ذلولاً إلى أميركا لأبدأ في تجارة الجمال. ولم يقتنع باستحالة هذا المشروع إلا بعد أن بذل لورَنس كل ذكائه وفصاحته في إفهامه صعوبة حمل هذه الهدية والطّواف بها حول نصف الكرة الأرضية.

وفي شهر مايو سنة 1918 أرسل الأتراك عدداً كبيراً من الجمال من سوريا. وُضعت الجمال في زريبة مؤقتة في محطة معان. سمع عودة بذلك فامتطى هجينه وانطلق ببسالة إلى معان على رأس فريق مؤلف من اثني عشر رجلاً من قبيلته. كان هناك آلاف الجنود الأتراك، لكن قبل أن يدركوا ما يحدث كان عودة قد جمع خمسة وعشرين جملاً وساقها أمامه بسرعة خمسة وعشرين ميلاً في السّاعة. كان عنده الكثير من هذه المقالب، وكان يروي مغامراته بعد ذلك بحيوية بالغة.

هناك قصة مشوّقة عن أعمال اللصوصية التي حفلت بها حياة عودة وذلك عندما نهب صديقه المقرّب وأمير البلاد. كان فيصل في طريقه عبر الصّحراء في إحدى الحملات وكان معه أربعة آلاف جنيه ذهبي. لسوء الحظ كان طريقه يمرّ بأراضي عودة، وبطريقة ما علم الأخير بأمر الذّهب، فصمّم على إبقاء فيصل وجماعته ضيوفاً حتى يقدّموا ثلاثة آلاف جنيه من الأربعة آلاف للقرصان العجوز. بالطّبع، لم يستعمل عودة القوة مع فيصل لكنه أعلن صراحة أنّ له حقاً في الذّهب.

عودة أبو تايه زعيم مسنّ أنيق، طويل القامة، قوي البنية، ومع أنه قد بلغ العقد السّادس من العمر فهو لا يزال نشيطاً شديد البأس كالنّمر. يدلّ وجهه الشّاحب الهزيل على أنه بدوي أصيل. جبينه عريض لكنه ضيّق طولاً وله أنف طويل حاد معقوف وعينان بارزتان بلون بنّي زيتوني، ولحية مدبّبة، وشارب مخضّب بالرّمادي. يعني اسم عودة «أبو الطّيران»، مما يذكر باليوم الذي قام فيه بأول رحلة جوية له. طار مرة مع

الكابتـن فيرنس وليامز، وبدلاً من أن يتسـرّب الخوف إلـى قلبه كان يطلب من القبطان التّحليق إلى أعلى ارتفاع ممكن.

إن هـذا البطل العجوز صلب حادّ الطّبع لكنه رحب الصّدر يتقبل النّصح، ويحتمل الانتقاد مع ابتسـامة أخاذة، ولكن ليس من قوة في العالـم تسـتطيع أن تزحزحه عن رأي اقتنـع بـه، أو أن يطيع أمـراً أو يتّبع خطة لا يوافـق عليها. وهو متواضع، بسـيط كطفل، صـادق، رقيـق القلب، حنون يحبه حتى أولئك الذين يقـوم بمضايقتهم، أي أصدقاؤه. إنـه يهوى تلفيـق القصص الظّريفة عن شـخصه، ويتفنّن في روايـة الحكايات الخيالية الطّريفة تتناول حياة مضيفه أو ضيوفه، ويشعر بسعادة بالغة عندما يزعج أصدقاءه.

تسلّل ذات يوم إلى خيمة ابن عمه محمّد وتحدّث بصوت مرتفع لكي يسمع جميع الحاضريـن قبـح الفعل الذي قـام به قريبه فـي الوجه. روى كيف اشـترى محمّد عقداً جميلاً لزوجة من زوجاته، لكنه، للأسف، التقى بامرأة جميلة في ميناء الوجه، وكانت فاتنة كضوء النّجوم. استسـلم لسـحرها فقدَّم إليها العقد. كان عقداً رائعاً بأحجار تلمع كالنّجـوم من بينهـا أحجار زرقـاء تذكر بالبحر، وأخـرى حمراء تذكر بغروب شـمس الصّحـراء. ثـم يتحدّث بإسـهاب عن جمـال المرأة. وفـي الجانب الآخر مـن الخيمة سـمعت زوجـات محمّد قصّـة خيانة سـيدهن. وعلى الرّغـم من كون القصـة مفبركة بشكل واضح، فقد حدث هياج في منزل محمّد وأصبحت حياته جحيماً لا يطاق لعدة أسابيع.

تقـع مضـارب عودة في بقعة طينيـة على بعد ثمانين ميلاً شـرق العَقَبة. وعندما كان يجتمع بلورَنس في الحملات العربيّة كان ينتقي مواضيع مهمّة من أسـلوب الحياة في أوروبـا. كانت عيناه تلتمعان عند سـماع قصص الفنادق والملاهـي والقصور، وفجأة قرّر ترك خيمته مقابل منزل بروعة المنازل التي يعرفها سيدي لورَنس في لندن.

كانـت أول عقبـة واجهته هي مسـألة العمـال، لكنه حلّهـا بغزو حامية تركية وأسـر خمسـين رجـلاً اسـتخدمهم في حفـر الآبار. بعـد أن أنجـزوا العمل وعدهـم بإطلاق سـراحهم إذا شـيّدوا له منزلاً جميلاً. قامـوا ببناء منزل من أربعين غرفـة وأربعة أبراج،

ولكن، بسبب ندرة الخشب في الصّحراء، لم يستطيعوا بناء سقف لهذا البناء الضّخم. لكن سرعان ما وجد عودة الفطن حلاً. قام بجمع محاربيه وسار بهم وسط الرّمال إلى خط الحج الحديدي، حيث هزم دورية الحراسة التّركية واقتلع ثلاثين عموداً من أعمدة التّلغراف، وهي تشكل الآن إطار قصره الصّحراوي.

وأربعون غرفة ليست بكثيرة على عودة، خصوصاً عندما تعلم أنه مغرم بجمع أكبر عدد من النّساء في داره. يُسمح لكل مسلم بالزّواج من أربعة نساء في الوقت ذاته، إن كان قادراً على إعالتهن. لكن عودة العجوز تزوّج ثمانٍ وعشرين مرة، وهو يطمح إلى رفع العدد إلى الخمسين قبل أن يموت. وبالرّغم من زيجاته المتعدّدة، فلم يبقَ له سوى ولد واحد بينما قُتل الآخرون في الغزوات والضّغائن الدّموية. كان ابنه محمّد في الحادية عشرة من عمره عندما رأيته لكن حجمه كان صغيراً جداً بحيث كان أبوه يلتقطه من مؤخرة عنقه ويلقي به فوق سرج جمله بيد واحدة. وعندما كانت القافلة تسير ليلاً ويخشى عودة أن ينام ابنه محمّد فيسقط من فوق الجمل، كان يلتقطه ويحشره في إحدى حقائب سرجه حيث يقضي الليل. لقد رافق هذا الولد النّحيل والده والكولونيل لورَنس في كل الحملات العربيّة.

كان حماس عودة في جعل الأتراك أعدائه اللدودين، ويصبّ ذلك في الكره الدّفين بسبب العداوة الشّخصية، فقد قام بجلب العديد من القبائل إلى قاعدة لورَنس. علّق لورَنس مرة قائلاً إن عودة يشبه القيصر في قدرته على الاحتفاظ بأصدقائه المخلصين من حوله، تحيط بهم دائرة من الأعداء. حتى نوري الشّعلان والكثير من أصدقاء عودة من الزّعماء يبقون في خوف دائم من إغضابه.

كانت قبيلة الحويطات فيما مضى تحت سيطرة ابن رشيد وقبيلته التي جابت شمال الصّحراء العربيّة. ثم خضعت لقيادة ابن جازي حيث تفكّكت القبيلة إلى فئات متضادّة. إن عشيرة أبو تايه هي من صنع عودة المحارب، ومحمّد بن دحيلان Dheilan المفكر. عامل ابن جازي أحد ضيوف عودة من الشّراري معاملة سيئة مما أثار حنق الزّعيم الكريم الأبيّ. وفي السّنوات الخمس عشرة من الحقد التي تلت قُتل عناد، الابن

الأكبر لعودة والأثير لديه. كانت هذه الكراهية بين فرعين من قبيلة الحويطات سبباً في الصّعوبة التي لاقاها الأمير فيصل في عملياته في معان والعَقَبة. أدّى ذلك إلى انضمام حامد العرار، زعيم ابن جازي حالياً، إلى صفوف الأتراك، بينما ذهب سحيمان أبو تايه والبقية إلى الوجه للانضمام إلى لورَنس وفيصل. أقام عودة سلاماً مع أعدائه بناءً على طلب فيصل، وكان ذلك من أشقّ الأمور التي اضطرّ العجوز إلى فعلها. لقد تسبّب مقتل عناد في إطفاء جذوة آماله وطموحاته لقبيلته وملأ حياته بمرارة الفشل. لكن فيصلاً حكم بألا يتبع قومه عادة الثّأر ثانية، ولم يعد هناك أعداء عرب سوى أشياع ابن رشيد في شمال الجزيرة الذين ما زالوا مستمرّين في خوض حروب مريرة مع كل قبائل الصّحراء. إنّ نجاح فيصل في دفن الضّغائن في الحجاز لهو أمر واعدٌ حقاً. وأصبح في أذهان العرب الآن أن الشّريف أعلى من القبائل والرّجال والشّيوخ والأحقاد، وهو يمارس الآن مهمّة إرساء قواعد السّلام والحكم المستقل.



جنود بدو غير نظاميين جاهزون للإغارة على التُّرك



البدو مغرمون على وجه الخصوص بالمسدّسات

وساعات اليد ومناظير الميدان

الفصل الرّابع عشر
فرسان الخيام السّود

بعد عودة يأتي محمّد دحيلان كزعيم لقبيلة أبو تايه. إنه أطول قامة من قريبه وأضخم جثة، عريض الرّأس، وقور، بلغ الرّابعة والخمسين من العمر، روحه مرحة يخفي وراءها قلباً رقيقاً. يترأس المناسبات في القبيلة، وهو ساعد عودة الأيمن وكثيراً ما يتحدّث نيابة عنه. لكنه جشع بالرّغم من أنه أكثر ثراء من عودة، وهو أيضاً أشد مكراً وحرصاً على المال. وهبه الله الفصاحة حتى بات يُعدّ في نظر البدو «ديموستين العرب»، بل إن قومه يدعونه «أبا البلاغة». يعتمد عليه دائماً في المجلس القبلي ليقنع مستمعيه بقبول وجهات نظره. وهو يملك قدرة وبراعة فائقتين في استخدام السّيف، ويلقب بـ «شَرّاب حليب الحرب»، كما يعد الثّاني في الشّجاعة والإقدام بعد عودة.

وزعل بن مُطلق هو ابن أخي عودة. يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، وهو شاب متأنق، ذو أسنان لامعة وشارب مفتول ولحية مدبّبة ومشذّبة بعناية. هو أيضاً جشع وحادّ الذّكاء، لكنه ليس بمستوى عقل محمّد. أمضى عودة سنوات يدرّبه على أن يكون رئيس فرقة الاستكشاف في القبيلة، لذلك يعدّ من أجرأ وأشجع القادة عند الغزو.

نوري الشّعلان، أمير الجوف، ليس شخصية رائعة كصديقه وقريبه عودة فحسب، بل هو أيضاً زعيم قبيلة الرّوَلَة العنزيّة، المؤلفة من مئتي ألف من الرّجال الأشداء، وهي أكبر قبيلة في الصّحراء، تقطن تقريباً كل الأقاليم الواقعة بين دمشق وبغداد. والأمير نوري الشّعلان من خيرة رجال جزيرة العرب وكانت تربطه بحسين ولورَنس صداقة

متينة وقد ساعدهما عند الاستيلاء على درعا ودمشق، ولا بدّ أنه ذو مكانة عالية عند فيصل الآن، إذ نُصب زعيماً لبلاد الرّافدين بعد أن رفض بيع نفسه للفرنسيين في سوريا عام 1919 بعد الحرب.

لم يدع لورَنس الأمير نوري الشّعلان يعلن الحرب على الأتراك إلا في السّاعة الأخيرة، لأنه كان يعرف أن إعلان الحرب يعني إطعام الكثير من الأفواه الجائعة. وكان نوري الشّعلان عدواً لدوداً لابن رشيد الذي كان يساعد الأتراك ويناصرهم ولكنه فقد القسم الذي كان يحكمه من جزيرة العرب وانتقل إلى ابن سعود سلطان نَجد.

ذات مرة احتاج نوري الشّعلان إلى صانع أسلحة، فما كان منه إلا أن أسر ابن باني[1] Bani من حائل، وهو صانع الأسلحة لدى ابن رشيد وأمهر رجل في هذه الصّنعة في الجزيرة. قام بوضعه في السّجن مع حدّاده الخاص ابن[2] Zarih، وأعطى كل واحد منهما فرناً وأدوات وأعلن أنهما سيبقيان في السّجن حتى يتمكن ابن Zarih من صنع السّيوف والخناجر التي لا يمكن تمييزها عن تلك التي يصنعها ابن باني. أخذا يعملان بجد وبقي الفرنان مستعرين حتى السّاعات المتأخرة من الليل، وأخيراً بعد عدة أسابيع، صنع ابن Zarih خنجراً رائعاً بحافة تستطيع شق الرّيح. سُرّ نوري وأطلق سراح سجينيه، وأرسل ابن باني إلى بلاده محملاً بالهدايا النّفيسة.

وكان نوري الشّعلان كهلاً في السّبعين عندما اندلعت الثّورة العربيّة، وكان طموحاً إلى أقصى درجة وعازماً على أن يصبح قائداً. منذ ثلاثين سنة، قتل شقيقيه الاثنين ليكون زعيم القبيلة، وقد حكم أفراد قبيلته بعصا من حديد وربما كان بدو نوري الشّعلان هم وحدهم الذين يعرفون طاعة الأوامر، وإذا لم يفعلوا كان يقطع أعناقهم. لكن بالرّغم من قسوته، فإن كل أفراد قبيلته يحترمونه ويفخرون به. يتكلّم معظم شيوخ العرب كالغربان، أمّا نوري فيبقى صامتاً في المجلس القبلي ويسوّي الأمور بكلمات

---

(1) هو عبد العزيز بن باني، أشهر صانع للخناجر والشّبريّات في شمالي جزيرة العرب بأوائل القرن العشرين.

(2) لم يتّضح لي الاسم كما يكتبه لويل توماس، وأسلفت أنه كان يجهل العربيّة.

قليلة مقتضبة يقرّرها في النّهاية. كان يفضّل، حتى نهاية الحرب، حياة البداوة على القصور بين بغداد والبوسفور، وكان يدير شؤون قبيلته في أكبر خيمة من شعر الماعز في الصّحراء، حيث تذبح الشّياه كل بضع دقائق من أجل سيله الدّائم من الضّيوف. إنه يملك أفضل أراضي القمح في سوريا، وكذلك أفضل الجمال والخيول. وقد بلغ من الثّراء حدّاً لا يستطيع معه إحصاء ما لديه من مال.

أضاف مُطلق بن جميعان[1] Jemiaan، شيخ بني عطيّة في جنوب معان، أربعة آلاف مقاتل إلى قوات الملك حسين. إنه قوي وشجاع كأسد، ولقد ساعد لورَنس في نسف القطارات بالقرب من معان، وكان متواجداً كلما احتدم القتال وحيث كانت هناك محطات للاستيلاء عليها أو أعمال أخرى ذات طبيعة خطرة. أثناء جولة الاستكشاف حول معان، كان اثنان من ضبّاط لورَنس يحاولان العثور على طريق روماني قديم في الصّحراء، وبما أن مُطلق متشوّق دائماً للمغامرة، فقد ذهب معهما. كانت السّيارة تتقدّم بسرعة وتندفع بجنون يميناً ويساراً فوق رمل الصّحراء الكثيف، وفي مكان ما انحرفت بشدة وألقي مطلق خارجها وارتطم رأسه بالأرض. قفز الضّابطان خارج السّيارة وأسرعا إليه للاعتذار منه ظناً منهما بأنه سيكون غاضباً. لكن الشّيخ المسن وقف وهو ينفض الرّمل عن ثيابه وقال بحزن: «أرجو ألا تتضايقا مني، فأنا لم أتعلّم ركوب مثل هذه الأشياء بعد». كان يعتقد أن ركوب السّيارة يحتاج إلى فنّ وتدريب تماماً مثل ركوب الجمال.

أما قبيلة الحارث التي يشتهر أفرادها باللّصوصية، فلم تكن ذات شأن لدى حسين قبل الحرب، لكن شريفهم، علي بن الحسين، وهو شاب في التّاسعة عشرة، جاء بكل قبائل حوران لينضمّوا إلى الثّورة. كان أكثر الرّجال تهوّراً ووقاحة وتملّقاً في الجيش العربي. كان عدّاء متميّزاً، وكان يستطيع اللحاق بجمل جرياً على الأقدام والتّأرجح على السّرج بيد واحدة مع الإمساك ببندقيته باليد الأخرى. عندما ذهب علي للقتال خلع ملابسه كلها عدا السّروال الدّاخلي، وقال إنها أفضل طريقة ليصاب بجراح

---

(1) الواقع أنه شيخ التبوت من بني عطيّة وليس شيخ شمل العشيرة بأسرها.

المعركة. كان محبّاً للفكاهة ويمزح بشـأن الملك في حضوره. كان واحداً من شريفين في الحجاز لم يكونا يهابان الملك حسـين. أمّا الآخر فهو الشّـريف شاكر Shaker ابن عم فيصل وأغنى رجل في الحجاز. كان الشّريف الوحيد الذي يجدل شعره بل ويربي القمل فيه ليظهر احترامه للمثل البدوي الأصيل القائل «إن الرّأس المسكونة هي دلالة علـى العقـل الوافـر». كان مكان سـكناه فـي مكّة لكنـه كان يمضي جلّ وقتـه مع أفراد القبائل البدوية.

هؤلاء هم بعض الزّعماء الذين كانت حماسـة بعضهـم تجاه القومية العربيّة بحاجة إلـى إذكاء، بينمـا تملّـق الآخرون بدافع مـن الخيلاء، لكنهـم كانوا جميعاً مسـتمتعين بخوض غمار الحرب إلى حدّ كبير، إذ كانت اللعبة الوحيدة التي لعبوها منذ طفولتهم. ومنـذ أن أقسـموا يمين الـولاء وهم مخلصـون كالفـولاذ. ولولا وفائهم وشـجاعتهم الفائقـة وعشـقهم للمغامرات الدّموية، لكانـت الثّورة العربيّة حبراً علـى ورق ابتدعها شاب عالم بالآثار.

من خلال تعامل لورَنس مع عودة والزّعماء الآخرين، اكتشف أن روح الدّعابة شيء أساسي عندهم. اجعل العربي يضحك ثم اقنعه بما تريد. اللغة العربيّة لغة وقورة مليئة بالهيبـة والجلال، وكان عالم الآثار البريطاني الشّـاب، الـذي يملك دراية غير اعتيادية باللهجات المتعدّدة المحكيّة في الجزيرة، قد اكتشـف أن التّرجمة المباشـرة من اللغة الإنكليزية العامية إلى العربيّة مع إضافة بعض اللمحات الذكية أمرٌ يبهج مسـتمعيه إلى حدّ كبير. كما أن الكولونيل لورَنس كان يملك سلاحاً فعالاً آخر هو قدرته على التّغلب على الأمور غير المتوقعة بارتجال مُلهَم. كان بين الفينة والأخرى يقع في موقف يائس لا سبيل للخروج منه. وفي بضع ثوانٍ كان عقله اليقظ يستنبط طريقة رائعة للتّعامل مع الحالات الطّارئة.

كمثـال على ذلك أذكر بعض مغامراته في الصّحراء السّـورية. كان في بلدة الأزرق Azrak بيـن الكثبـان الرّملية إلى الجنوب الشّـرقي من دمشـق عندما جاءه رسـول بنبأ وجود بعض الجواسـيس الأتراك في قافلة من التّجار السّـوريين كانت في طريقها إلى

قاعـدة الثّـورة العربيّة في العَقَبة، علـى بعد ثلاثمئة ميل إلى الجنوب. قـرّر فوراً أنه من أجـل كشـف الجواسـيس لا بدّ من الوصول إلـى العَقَبة إما مع القافلـة أو بعد وصولها مباشـرة. تسـتغرق الرّحلـة بيـن الأزرق والعَقَبة اثني عشـر يوماً علـى الجمل، وكانت القافلة السّورية قد انطلقت منذ تسعة أيام.

أدرك لورَنـس أن رفاقـه لن يتحمّلوا السّـرعة التي كان ينوي السّـفر بهـا، فاخذ معه رجلاً واحداً هو حوراني هجين مشهور في شمال الصّحراء العربيّة بقدرته العالية على التّحمّـل. كان الاثنان يتسـابقان فوق التّلال بيـن الأزرق Azrak وباير Bair، على بعد ثمانيـن ميـلاً إلى الجنوب من مخيّمهـم عندما ظهر فجأة اثنا عشـر عربياً فوق حافة تلّ رملـي وعـدوا بجمالهم على المنحـدر ليقطعوا الطّريـق على الغربييـن. صاح العرب بـأن يترجّل لورَنس ورفيقه وأعلنـوا أنهم أصدقاء وأفراد من قبيلـة جازي الحويطات. لقـد ترجّلوا عـن جمالهم قبل أن يصلوا بمسـافة ثلاثين ياردة ليشـجعوا الرّجلين على فعـل ذلك. لكن لورَنـس عرف أنّ هؤلاء العرب من بني صخـر، وهم أحلاف الأتراك وأعـداء لمعظـم القبائل البدويـة التي كانت تحارب مع الملك حسـين والأمير فيصل. كان معروفاً لبني صخر أن الذّهب يمرّ في طريق القوافل وقد خرجوا طمعاً في نهبه.

كانت هذا الجزء هو الطّريق التّجاري الوحيد في زمن الحرب بين سوريا والجزيرة، وكان التّجار يسلكونه منذ أشهر من سوريا إلى العَقَبة لشراء قطن مانشستر. كان لورَنس يستعمل القطن لهدفين، الأول هو نشر المعلومات والثّاني هو الحصول على أكبر كمية ممكنـة مـن الذّهب من سـوريا وتركية[1]. كانـت الإمبراطورية العثمانية بحاجة ماسّـة للقطن ولهذا السّـبب سمحت السّلطات العسـكرية للتجار بالمرور عبر حدودها. عند الوصـول إلى العَقَبة كان لورَنـس والقادة العرب يعرفون النّاس علـى المبادئ الوطنية العربيّة. وفي الوقت نفسـه يجمعون أهم المعلومات فيما يتعلق بالحالة في تركية. كما

---

(1) أكتب دوماً اسم سوريا بالألف الممدودة على اعتباره صيغة هلينيّة لاسم آشور (والمقصود هنا الإقليم الغربي لآشور) وليس اسماً عربياً أو كنعانياً، بدلالة إقلاب الشين إلى سين، فليس في اليونانيّة. أما اسم تُركية فأكتبه بتاء مربوطة على اعتبار أنه يُلفظ بياء ممالة هكذا: Türkiye.

كان للتجّـار فائـدة أخرى هي تهريب المناظير الألمانية إلـى العَقَبة، والتي كان لورَنس يحتاجها ضمن تجهيزات الفرق العسكرية في الصّحراء.

فـي تلك الأثناء كان لصوص بنـي صخر يقفون على الرّمـال وأيديهم على بنادقهم تحسباً، بينمـا يتابعـون إلقاء تحياتهـم الودودة. فجأة ابتسـم لورَنس ابتسـامة واسـعة أربكتهـم ثم قال لقائدهم: «اقترب مني، أريـد أن أهمس كلمات في أذنك»، ثم أضاف وهو ينزل من على سرج جمله «هل تعرف ما هو اسمك؟».

بدا الشّـيخ مندهشـاً وعاجزاً عن الكلام، لكن لورَنس تابع قوله: «أعتقد أن اسـمك هو ... [1]».

كانت هذه أكبر إهانة يمكن لأحد أن يلحقها ببدوي. ذُهل قائد بني صخر واشـتعل غضباً، فهو لم يفهم كيف يمكن لمسافر عادي أن يجرؤ بقول ذلك له في الصّحراء بينما هنـاك عـدد من الأسـلحة مصوب نحوه. وقبل أن يفيق الشّـيخ من دهشـته قال لورَنس بجذل: «السّلام عليكم»، ثـم طلب من الحوراني بهدوء اللّحاق به وانطلق فوق الرّمال.

بقـي رجال بني صخـر مذهولين حتى أصبح الرّجلان على بعـد مئة ياردة. وبعد أن اسـتعادوا وعيهـم أخذوا بإطلاق الرّصـاص لكن أمير مكّة الأشـقر كان قد عدا بجمله فـوق أقرب تـلّ وفرّ هارباً. وبالمناسـبة فـإن الطّلقات لا تسـتطيع الوصـول إلى جمل يركض بسرعة عشرين ميلاً في السّاعة.

كاد لورَنـس والحورانـي يقضيـان على جمليهما فـي هذه الرّحلة، فقـد كانا يركبان بمعـدل اثنتين وعشـرين سـاعة في اليوم. كانا يعبـران الرّمال الحارقة منـذ الفجر حتى غـروب الشّـمس، ولا يتوقّفـان إلا لدقائـق معدودة من أجـل إراحة الجمـال. وعندما وصلا إلى مضارب عودة أبو تايه، شـرقي الطّرف الجنوبي من البحر الميت، اسـتبدلا جمليهما بآخرين نشيطين. لقد قطعا مسافة ثلاثمئة ميل في ثلاثة أيام، وهو رقم قياسي للجمل السّريع يمكن أن يبقى لعدة سنوات.

---

(1) شتيمة فادحة أفضّل عدم ذكرها.

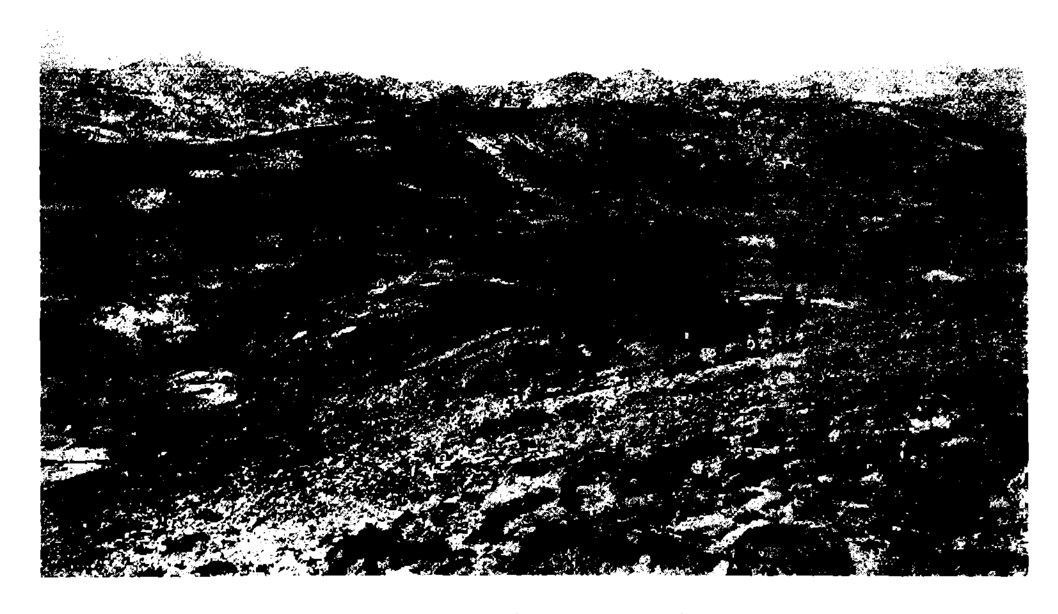
لـم تكن هذه المغامرة الغريبة سـوى واحدة من مئة مغامـرة حصلت للورَنس، وقد سمعت واحدة تفسر سبب احتفاظه الدّائم بمسدس كولت من الطّراز الحديث.

منذ بضع سنين، بينما كان لورَنس يتجوّل في آسيا الصّغرى قرب مَرعَش Marash أصيب بالحمّى فتوجه إلى بيره جِك Birgik، وهي أقرب قرية، وفي الطّريق قابل رجلاً تركمانيـاً. والتّركمانيـون أنصاف بدو ذوو أصول مغولية لهم عيـون مائلة ووجوه تبدو وكأنها قد مُزجت بالزّبد ثم تركت في الشّمس لتجف. لم يكن لورَنس متأكداً من وجهته فسـأل التّركماني أن يدلّه على الطّريق فأجاب قائلاً: «هناك تماماً وراء تلك التّلال التي بجهة اليسـار». وعندمـا انصرف لورَنس عنه وثب على ظهره ونشـب بينهما قتال على الأرض لعدة دقائق. كان لورَنس قد مشـى مسـافة ألف ميل، ناهيك عن الحمّى، وكاد يغمى عليه، وسـرعان ما وجد نفسه في الأسـفل. قال: «لقد جلس فوق بطني وسحب مسدسـي ووضعه على صدغي وسحب الزّناد عدة مرات. لكن قفل الأمان كان مهيئاً. كان التّركماني رجلاً بدائياً لا يعرف سـوى القليل عن آلية عمل المسـدس، فرماه بعيداً بقـرف وعمد إلى ضرب رأسـي بصخرة حتى ملّ ذلك، ثم رحل بعد أن سـلبني كل ما أملـك. ذهبـت إلى القرية وطلبت من أهلها أن يسـاعدوني في مطـاردة الوغد، فلحقنا به وأرغمناه على إعادة الأشـياء التي أخذها مني. ومنذ ذيّاك الحين أنا أحترم مسـدّس الكولت بشدّة ولم أتخلَّ عنه بعد ذلك أبداً.

* * *



حصان عربي أصيل



قافلتنا تقترب من «المدينة المفقودة»

الفصل الخامس عشر

سيّدي الجمل

حاول لورَنس أن يقف على كل ما له علاقة بالصّحراء ومن شـأنه أن يزيد من تأثيره على سـكانها. وكان من الطّبيعي أن يكون أول شـيء يقوم بدراسـته هو ذلك الحيوان الغامض، الجمل، مع العلم أن قلة من النّاس فقط يعرفون خواصه وصفاته بالرّغم من دوره الأساسـي في حياتهم. ولورَنس هو الأوروبي الوحيـد الذي التقيتُ به ووجدت أنـه يمتلك «غريزة الجمل»، أي الصّفة التي تتضمّن معرفة وثيقة بعادات الجمل وقوّته وصفاته العديدة. وكان عودة أبو تايه، روبن هود البدو، يمتلك هذه الغريزة بشكل غير عادي.

هناك ستة أنواع من الجمال في جزيرة العرب الوسطى، ومنها تأتي أفضل السّلالات. يدعو البدو بلادهم بأم الجمال، ومعظم الجمال العربيّة ليس لها سوى سنام واحد، بل إن العرب لم يسـمعوا بالجمل ذي السّـنامين من قبل، وهو الموجود في آسيا الوسطى فقط، إلى الشّـمال الغربي من فارس، وبالذات في صحراء غوبي Gobi. إن الجمل ذا السّـنامين بطيء الحركة ولا يمكن الاستفادة منه سوى للتّحميل. أمّا الجمل ذو السّنام الواحد فهو الهجين، وهي كلمة يونانية تعني الجمل الذي يركض.

والجمل في جزيرة العرب هو الثّروة الرّئيسية، ولا يوصف الإنسان بأنه يملك شققاً أو مطاعـم، بل بعـدد ما يملك من الجمال. ومنذ أيام التّوراة إلى اليوم تجد أن السّـبب الرّئيسـي فـي الحروب إنمـا كان لامتلاك الجمـال. فترى القبيلة تنقـضّ على الأخرى وتسـتولي علـى كل جمالهـا، ثـم ينهض رجـال القبيلـة المنهوبـة ويمتطـون خيولهم

ويتجولون في الصّحراء فلا يعودون إلا وهم يسوقون أمامهم كل جمال قبيلة أخرى. وهكذا تجد الجمل الواحد قد تنقّل بين ست قبائل مختلفة في مدى سنة واحدة. إنّ استمرار الحياة في الصّحراء يعتمد على الجمال. فالعرب لا يستخدمونها للتّحميل فقط بل يشربون حليبها ويصنعون من وبرها ثياباً ويذبحونها ويأكلون لحومها عندما تهرم. يعدّ لحم الجمل في جزيرة العرب كدهن الحوت عند الإسكيمو، لكن معظمنا يفضّل أكل وجبات الدّجاج.

الجمل هو الحيوان الوحيد الذي يستطيع العيش على الغذاء الشّحيح في الصّحراء، وإنّ أسنانه طويلة جداً بحيث تستطيع مضغ الصّبّار دون أن تجرح الأشواك شفاهه أو قبّة حنكه. وعلى الرّغم من أن الجمال تستطيع البقاء فترة طويلة دون ماء، فإنها عندما تشرب تعوّض كل الوقت الذي أمضته دون ماء. يستغرق الجمل نصف ساعة من أجل شرابه، وبإمكانه أن يشرب عشرين غالوناً في المرة الواحدة. عند معاناة العطش في الصّحراء من المزعج جداً أن تستمع إلى صوت اجترار الجمل لاحتياطي الماء داخل جسمه. ويلجأ العرب أحياناً في المواقف الصّعبة إلى ذبح جمل وشرب محتوى معدته من الماء. يكون الماء عندها أخضر اللون وذا طعم رديء، لكن لا يمكن للإنسان أن يكون شديد الحساسية وهو يكاد يموت عطشاً.

عند تفحّص الجمل، هناك أمور كثيرة ينبغي الانتباه إليها، منها طول معدة الجمل، وطريقته في رفع قوائمه، وحمل رأسه، وطول رقبته وقوائمه الأمامية وأكتافه، وحجم سنامه وشكله. ويطلب البدوي في الجمل أن يكون طويل القوائم، محيط خصره صغير، غير بدين ولا نحيل، وأن يكون سنامه قوياً خالياً من الشّحم. يبدو أن الجمل يعيش على سنامه عادة، وإذا أُرهق في العمل يختفي السّنام تدريجياً. والجمل الذي لا سنام له، أو سنامه واطئ أو نحيل أو بدين، يكون أقلّ قيمة من غيره وستتدهور حاله في فترة قصيرة. يحكم البدوي على عمر الجمل من أسنانه كما هو الأمر بالنّسبة للخيول. تعيش الجمال عادة حوالي خمس وعشرين سنة، وتكون في تمام صحتها بين الرّابعة والرّابعة عشرة. فوق الأرض المستوية يستطيع الجمل العربي الجيد أن

يهرول بسـرعة واحد وعشرين ميلاً في السّاعة، ويخبّ بسرعة ثمانية وعشرين ميلاً في السّـاعة، ويعدو بسـرعة تصل إلى اثنتين وثلاثين ميلاً في السّـاعة بحيث تصبح قوائمه كالمكابس الضّخمة.

مـع ذلك فإن أفضل سـرعة لسـفر يـوم كامل هي سـبعة أميال في السّـاعة هرولـةً. وأما السّـرعة العادية فـي الرّحلات الطّويلة التي تسـتغرق أياماً عبر الصّحراء فهـي أربعة أميال ونصف في السّـاعة، وإذا كانت الرّحلة تمتدّ إلـى أكثر من مئة ميل، فيفضّل أن يترك الجمل يسير سيراً طبيعياً. ولقد ذكرنا أن لورَنس قام بعمل بطولي إذ قطع ثلاثمئة ميل في ثلاثة أيام، ممـا جعل البدو يعـدّون هذا الأمر معجزة من المعجزات. والجمل الأصيل لا يحدث أثناء سيره صوتاً على الإطلاق، وهي ميزة تساعد البدوي كثيراً في غزواته الليلية كما أنها تساعد التّجار الذين يخشـون الاعتـداء عليهم. يدرّب العربي دابّته علـى عدم إصدار صوت أنين، وبإمـكان قافلـة كاملة أن تمرّ على بعد عشـرين ياردة من خيمة ما دون أن يسـمع شـاغلوها شـيئاً. كان شتاء عامي 1917 و1918 قاسياً على الجمال. كان جيش لورَنس في الطَّفيلة في شـهر يناير، على ارتفاع خمسـة آلاف قدم، وكان الثّلج متراكماً بارتفاع أربعة أقدام، مما لا يسـمح للجمـال بالعبور إلا إذا ترجّـل راكبوها عنها وحفروا لها ممـرّاً بأيديهم. والواقع أنّ العديد من الرّجال والجمال قضوا نحبهم بسبب شدّة البرد.

أرسل لورَنس للمركز الرّئيسي في القاهرة يطلب ثياباً ثقيلة وأحذية عالية لرجاله، وبدلاً من تسلّم ذلك وصلته برقية يقولون فيها إن جزيرة العرب واقعة في المنطقة المدارية.

ذات صبـاح، اسـتيقظت فرقـة عربيّـة على سـفح التّـلّ لتجـد أن الثّلوج قـد غطّت جمالهـم الجاثمـة علـى الأرض، فقامـوا بإخراجهـا بالمحاميـس الحديديـة التـي يسـتعملونها لتحميص حبّات البن، لكنها كانت قد فارقت الحياة كلها. اضطر لورَنس ورجاله إلى السّـير حُفاة فوق الثّلج لعدة أميال قبل أن يصلوا إلى معسـكر حربي. وفي مـرة أخرى غـادر أربعة وثلاثون بدوياً العَقَبة على جمالهـم قاصدين الطَّفيلة فلم يصل منهـم غيـر بدوي واحـد. ولكن كان لدى الجيـش العربي الكثير مـن الجمال في ذلك الوقت، ويرجع الفضل بشـكل جزئي للأمير زيد. كان الأتراك قد أرسـلوا قبل شـهور

قافلـة ضخمة مزوّدة بالمؤن مـن حائل إلى المدينة، وحائل هي عاصمة ابن رشـيد في جزيـرة العرب الوسـطى. باغت زيد ورجالـه القافلة في الحناكيّـة Hanakieh، وقتلوا ثلاثين تركياً وأسـروا مئتين وخمسـين آخرين، واستولوا على ثلاثة آلاف جمل، وألفي خروف، وأربعة مدافع ثقيلة وبضعة آلاف من البنادق.

يقـول الكولونيل لورَنـس: «إن الجمل حيـوان صعب المراس ويحتـاج إلى مهارة خاصـة فـي التّعامـل معه، لكنـه يعود على الإنسـان بفوائد جمـة. إننا لا نملك وسـيلة للتزوّد بالطّعام، وكل رجل يحمل معه مؤنه الخاصة فيضع في سرج دابّته ما يكفيه لستة أسـابيع منذ انطلاقـه من القاعدة البحرية التي يبدأ الغزو منهـا. وهذه المؤن التي تكفي صاحبها سـتة أسـابيع مكونة من نصف كيس من الطّحين يزن خمساً وأربعين ليبرة، أمّا المرفّهـون فيحملـون معهم بعض الأرز. وكل رجل يقوم بعجن العجين وخبزه بنفسـه وتدفئته على رماد النّار. كما يحمل كل شـخص حوالي نصف لتر من ماء الشّـرب بما أن الجمـال تحتاج إلى الشّـرب مرة كل ثلاثة أيام، ولا داعـي لأن نحمل معنا أكثر ممّا تحملـه جمالنا. لم يشـرب البعض منـا بين البئر والآخر، لكن أولئك هـم الأقوياء، أمّا الآخرون فكانوا يشـربون الكثير عند كل بئر ثم يشربون عند منتصف اليوم الجاف. في الصّيف شـديد الحرارة يمكن للجمال أن تقطع مسافة مئتين وخمسين ميلاً بين الشّربة والأخرى، بما يعادل ثلاثة أيام بلياليها من السّير الجاد.

«ليست الأرض بالجفاف الذي توصف به، بل كان هناك دائماً ماءٌ أكثر ممّا نحتاج. لم تكن الآبار تبعد عن بعضها أكثر من مئة ميل، وإن معدل المسير اليومي يبلغ خمسين ميلاً وفي حالات الطّوارئ يصل إلى مئة وعشرة أميال في اليوم.

«كان طعام السّـتة أسابيع يكفينا لقطع أكثر من ألف ميل بعيداً عن المضارب، وكان أيضاً أكثر مما نحتاج حتى في بلد واسع مثل جزيرة العرب. بالنّسبة لي، وقد كان ركوب الجمل مؤلماً في البداية، أستطيع أن أركب لمسافة ألف وخمسمئة ميل في الشّهر دون أن أتـزوّد بالطّعـام ثانية، ولـم نكن نواجه الخوف من المجاعة أبداً إذ كان كل منا يركب مئتـي ليبرة مـن اللحم الذي يمكـن الحصول عليـه، وبالفعل كنا عندمـا نجوع نتوقف

لنأكل أضعف جمالنا. إن الجمل المنهك لا يقدّم طعاماً وافياً لكن ذبحه أهون من ذبح الجمل البدين، وعلينا أن نتذكر أن قوتنا المستقبلية تعتمد على عدد الجمال القويّة التي استهلكناها. تعيش الجمال على الرّعي أثناء المسير (ولم نقدّم لها الحبوب أو العلف أبداً)، وبعد ستة أسابيع تكون قد نحلت ويتوجّب عندها إرسالها إلى المرعى لترتاح بضعة أشهر بينما نستنجد بقبيلة أخرى لاستبدالها، أو نجد دواب ركوب جديدة».

تقول الرّوايات إنّ منشأ الخيل هو جزيرة العرب، إذ توجد هناك أجمل الخيول وأكثرها تناسقاً. مع ذلك فهي لا تعدّ شديدة التّحمّل، وليست الأسرع على الإطلاق.

يفتخر العرب بخيولهم ويقدرنها كثيراً. إنها حيوانات أليفة حقاً ومن الشّائع أن تراها تشغل الخيمة نفسها التي يسكنها سيدها. يعود أجداد بعض السّلالات إلى القرن الخامس، ونادراً ما تباع الأفراس ذات الأصول الرّفيعة مع أن خيول الاستيلاد تهدى أحياناً للغرباء المتميّزين. يقال إنّ الأنثى، سواء أكانت فرساً أم ناقة، لها قدرة على التّحمّل تفوق الذّكر. يقوم العرب بوضع الزّيت على حوافر خيولهم حتى لا تنزلق على أرض الصّحراء الحارقة، ويطعمونها لحم الماعز المسلوق لتقوى أجسامها. نادراً ما يقدّم لها الماء حسب رغبتها، حتى المهور، يقدّم لها الماء بمقادير قليلة حتى تصبح قادرة على تحمّل العطش فلا تعاني كثيراً عند السّير في الأجزاء القاحلة من الصّحراء العربيّة. يبعد الكثير من حفر الماء عن بعضها البعض بمسافة خمسة أيام من السّير. لا يستطيع الحصان بالطّبع قضاء هذه المدة دون ماء بينما يستطيع الجمل ذلك، فترى الحصان العربي يسير إلى جانب النّاقة ويشرب الحليب الخاص بها، وهكذا يتمكن من الصّمود حتى الوصول من حفرة ماء إلى الأخرى.

لم يكن ما ذكرته سوى معلومات بسيطة عن الحصان والجمل ممّا يبدو بديهياً للبدوي الخبير بهما. أمّا لورَنس، وبعد سنوات من خبرته في الصّحراء العربيّة، فقد اعترف لي بأنه في كثير من الأحيان لا يستطيع التّعامل مع جمله بشكل صحيح تماماً.

* * *



تجوّلنا أيّاماً، لكننا لم نبلغ نهاية الهياكل والأبنية المنحوتة في الصّخر الصّلد



«خزينة فرعون»

الفصل السّادس عشر

عبد الله المجدور وقصة فرّاج وداود

عبـد اللـه المجدور رجل أحمر قصير القامة يحتلّ منصـب قائد الحرّاس الخاصّين بلورَنـس، وبالرّغـم من مظهره النّحيل الهادئ، فهو من أشـجع الخيالة العرب وأفضل من ركب جملاً. يسره كثيراً أن يواجه عشرة رجال بمفرده. علاوة على شجاعته الفائقة، فهو جندي ممتاز يعرف كيف يتعامل مع لأفراد الحرس الخاص صعبي المراس. وبينما كان لورَنـس يحثّ حرسـه على الاستبسـال ويغريهم بالذّهـب والمجوهرات والثّياب الجميلـة إن نجحوا فـي مهمّتهم، كان عبد الله يهدّدهم بالضّرب ويتوعدهم إن فشـلوا في عملهم، ولا شـك أن طريقة البدوي عبد الله التّرهيبية تفوق بتأثيرها طريقة لورَنس التّرغيبية. أمّا عبد الله نفسه فكان أهم ما يفخر به هو أنه قد عمل في خدمة أمراء البادية جميعهم، وقام كل واحد منهم بسجنه.

كان حـرس الكولونيل لورَنس يتألف من ثمانيـن بدوياً انتقاهم بعناية من بين الذين اشـتهروا بالشّـجاعة، وعرفوا بقوة الجلد والصّبر مما يمكنهم من الرّكوب ليل نهار إذا دعـت الضّرورة. كان يطلب منهم التّهيؤ لغزو الأتراك في أية لحظة، والبقاء إلى جانب قائدهـم فـي كل رحلة يقوم بهـا. لم يكن لورَنس يقبل أياً منهم حتـى يختبره بأن يركب الجمل، وهو يهرول، بيد واحدة ممسكاً ببندقيته باليد الأخرى. خلاصة القول كان هذا الحرس الخاص مجموعة اسـتثنائية من الرّجال الشّجعان المرحين ذوي الشّخصيات المتميّزة.

كان أفـراد هذه المجموعة مخلصين لقائدهم الإنكليزي البدوي، ولكن حتى يتأكد

لورَنـس مـن عدم تفكيرهم فـي التّآمر عليه لم ينتقِ من كل قبيلة سـوى رجل واحد أو رجليـن على الأكثـر. وكان كل بدوي يتمنّى أن يرضى عنه لورَنس ويضمّه إلى حرسـه الخـاص لأنـه كان يصطحبهـم فـي كل الغـزوات وحمـلات نسـف الجسـور وتدمير القطـارات، ولأن الرّحلات التي تحوي الكثير من الأسـلاب والإثارة هي المحبّبة إلى قلـوب البدو. بالإضافة إلى أن رواتبهم أعلى من تلك التي تعطى للمتطوّعين الآخرين في الجيش العربي، ناهيك عن الثّياب الغالية التي يحصلون عليها إذ ينفقون كل رواتبهم على الثّياب التي تحتشد على أجسامهم فتحيلها إلى ما يشبه زهرة الحدائق الشّرقية.

هناك قول شـائع بينهم أن يمكن للبدوي أن ينفق ذهبه كله على الثّياب والاسـتمتاع بالحيـاة قبل أن يفارق هذه الدّنيـا. والواقع أن حياتهم كانت معرّضة للأخطار أكثر من غيرهم ضمن جيوش فيصل النّظامية واللانظامية، إذ كان لورَنس كثيراً ما يرسـلهم عبر الصّحراء في مهام خطرة. كان كثيراً ما يرسلهم إلى خطوط الأتراك ليقوموا بالتجسّس، وهـي مهمّة كانوا أصلح النّاس لها ما دام لورَنس قد اختارهم من كل إقليم من الأقاليم الواقعة بين مكّة وحلب. وكان لورَنس يقوم بنفسه، بما يزيد عن حصّته، بهذه المهمّات فائقة الخطورة.

إن مرافقـة لورَنـس وحرّاسـه في إحـدى الحملات لهـي تجربة رائعة بحـق. اعتاد الشّـريف الشّـاب أن يركب في المقدّمة بوجهه الأنكلو سكسـوني، مغطياً رأسه بغطاء أخـاذ ومرتديـاً الثّيـاب الجميلـة. وإذا لـم يكن المسـير سـريعاً، كان يقرأ كتاباً ويبتسـم بيـن الحين والآخر لسـخرية أريسـتوفانِس Aristophanes الأصيلة. ثـم يلحق به بقية الحـرس وأتباعه من البدو في صف طويل غير منتظم، بثيابهم المزركشـة يتمايلون مع مشـية الجمال. وسـواء كانوا يسيرون وسـط الرّمال شـرقي العَقَبة أو المناطق الجبلية لمؤاب وأدوم Edom، فقد كانوا لا ينقطعون لحظة عن الغناء وألوان المزاح المتعدّدة.

كان هناك مقاتل ـ شـاعر يسـير في طليعة الموكب وآخر في المؤخّرة. يبدأ أحدهما بغنـاء مقطـع فيردّده كل رجل في الصّـف الطّويل بدوره، حتى يصـل إلى آخر الصّف. هناك أغانٍ حربية، وأغانٍ تجعل الجمال تخفض من رؤوسها وتسرع في سيرها. تكون

المقاطع في الأغلب تعليقات على شؤون الحبّ لدى بعض الرّجال أو في مدح الأمير فيصل أو سيدي لورَنس.

في ذات يوم غنى رجال الحرس أغنية يطلبون فيها أن يزداد الرّاتب جنيهاً في الشّهر. وفي مرة أخرى أنشدوا قائلين إن غطاء رأس لورَنس لا يليق بمقامه والأفضل أن يشتري آخر ويقدّم لنا العتيق. في الحقيقة يكون غطاء رأس لورَنس من أجمل ما رأت أعينهم لكنهم يريدون سلبه إياه.

يختلف اللحن في الموسيقى العربيّة عن ألحاننا، لذلك تبدو الأغاني العربيّة للغربي غير المعتاد على سماعها نوعاً من المزيج المتنافر. مع ذلك كان العرب يطربون للألحان الغربية وفرحوا جداً بالفونوغراف الذي جلبه لورَنس من القاهرة. شجّع ذلك الأمر رقيباً اسكتلندياً في العَقَبة على إحضار بعض الأدوات وتأليف فرقة موسيقية، وقام بمساعدة العرب على تأليف نشيد وطني خاص بهم وعلّمهم عزف Annie Laurie و Auld Land Syne. كان اللحن الاسكتلندي مقبولاً نوعاً ما بالرّغم من أن كل آلة موسيقية كانت مختلفة في أدائها وقد اختار كل رجل المقام الخاص به؛ وهكذا كلما كان العرب يتدرّبون على نشيدهم الوطني كنا نفضل السّباحة والابتعاد إلى جزيرة نائية في الخليج حيث نغوص تحت أنقاض قلعة صليبية، وحيث استحمّ غودفروا دى بويّون وفرسانه قبل ألف عام.

كانت روح الدّعابة عند أفراد الحرس الخاص البدويين تتجلّى في نكات عملية. إذا حدث ونام أحدهم على سرجه، كان زميله يركض بجمله ليصدمه ويوقعه أرضاً. وكلما سمح لهم سيدهم بزيارة القاهرة أو مركز آلنبي، كان معظمهم يقعون في أسر الأمير فيصل بسبب ما يقومون به من مزاح وحشي وفوضى عامة. في الحقيقة لا يوجد من يستطيع التّعامل مع هؤلاء «الشّياطين»، كما يسمّونهم، سوى لورَنس.

عاد لورَنس مرة من مصر إلى العَقَبة وأراد الانطلاق في مهمّة سرّية دون إبطاء. وكالعادة وجد معظم رجاله الخاصّين في السّجن. من بين السّجناء كان هناك رجلان شجاعان متميّزان اسمهما فرّاج وداود. أرسل لورَنس على الفور إلى الشّيخ يوسف،

وهو الحاكم المدني للعَقَبة، يسأله عمّا حدث. ضحك يوسف وأطلق شتيمة ثم ضحك مرة ثانية.

قال: «كان لدي ناقة بيضاء جميلة، وفي إحدى الليالي شردتْ بعيداً. في الصّباح التّالي سمعتُ جلبة كبيرة في الطّريق، ولما خرجت وجدت الجميع في السّوق يضحكون بشدة على منظر حيوان ذي قوائم زرقاء ورأس أحمر. عرفت في الحال أنها ناقتي، وعثر على فرّاج وداود يغسلان عن ذراعيهما الحنة الحمراء والنّيلة الزّرقاء، مع ذلك أنكرا معرفتهما بناقتي البيضاء الجميلة وتضرعا إلى الله ليسامحني على شكّي بهما».

كان فرّاج وداود معروفين في البادية بملازمتهما لبعضهما في أراضٍ يحتاج المرء بها إلى صديق حميم يحميه. لم يكن داڤيد وجوناثان (داود ويهونَتان) بأكثر قرباً من بعضها من فرّاج وداود، إلى أن جاء ذات يوم هاذم اللذّات، ومات داود بسبب الحمّى في العَقَبة وأصبح فرّاج بائساً جداً إلى أن انتحر في يوم من الأيام بالهجوم ببعيره بين صفوف الأتراك.

كان بعض رجال لورَنس يرافقونه أحياناً إلى القاهرة. وكان الذين يقع عليهم الاختيار يلبسون الثّياب الزّاهية ويصبغون شفاههم بالأحمر ويكتحلون بالكحل الأسود ويشبعون أجسامهم برائحة العطو،ر ثم يحملون أسلحة متنوعة الأشكال ويتركون لورَنس متى وصل إلى القاهرة ليطوفوا في شوارع القاهرة متباهين يطيلون النّظر إلى المصريات المنقّبات ويتردّدون على المخازن الخاصة ببيع الثّياب، فلا يبقون قرشاً في جيوبهم إلا وينفقونه مستمتعين بذلك أيما استمتاع.

وفي ذات يوم أخذ لورَنس معه عبد الله، كبير حراسه، لزيارة الجنرال آلِنْبي في الرّملة. وبينما لورَنس منشغل بالحديث مع القائد العام، أخذ الحارس العربي يتجوّل وحده. وبعد ست ساعات بلغ لورَنس تلفونياً أن عبد الله مقبوض عليه لأن رئيس الشّرطة شك بأن يكون قاتلاً مأجوراً في نيّته قتل الجنرال آلِنْبي. أمّا عبد الله فتحدّث مع المترجم قائلاً: إنه أحد «أبناء» سيدي لورَنس وطلب اعتذاراً رسمياً لأنه أهين بالقبض عليه. وفي تلك الأثناء التهم كل البرتقال في مقر الشّرطة الرّئيسي.

كان عقـاب أفـراد الحرس الخاص على أفعالهم أمراً صعبـاً، لأنه من النّادر التّمكن من أسـر البدوي وهـو على جمله، وهو لا يبالـي أبداً بعبارات التّعنيـف. لكن يبدو أن الضّـرب المبـرح من قبل عبد الله هو الحـل الفعال. أمّا العقاب الشّـائع بين البدو فهو أن يرمى على رأس البدوي خنجر قصير بحيث يخترق الشّـعر وبحدث جرحاً سـطحياً لكنـه مؤلـم جـداً في جلدة الـرّأس. وإن البدوي الـذي يعرف خطأه يجرح رأسه بهذه الطّريقة ثم يأتي، والدّم يسـيل على وجهه، إلى الشّـخص الذي أخطأ بحقه ويطلب منه الغفران.



«ركبنا أباعرنا صوب المسرح الواسع»



الهيكل ذو الطّوابق الثّلاثة

الفصل السّابع عشر

العين بالعين والسّن بالسّن

لا يزال قانون العين بالعين والسّن بالسّن والحياة بالحياة سائداً في جزيرة العرب، ولا تزال الضّغائن مستمرّة منذ قرون عديدة. نادراً ما ينجو القاتل من عقوبة القتل ولا بدّ لأقارب القتيل من العثور على القاتل في مكان ما من الصّحراء والاقتصاص منه عاجلاً أو آجلاً. والسّبيل الوحيد للنّجاة هو أن يترك سكنى الخيام ويقيم في المدن، ولما كان البدوي يعتقد أن الرّجل الذي يقيم في القرى أو المدن أقل منه شأناً فمن النّادر أن تراه يعمد إلى الثّأر من خصمه إذا فرّ إلى المدن.

جرت العادة أن يعاقَب البدوي إذا قتل بدوياً آخر سواء صدفةً أو عمداً، وإذا حدث ذلك يهرب القاتل ويرسل الاعتذارات والإيضاحات اللازمة مع الرّسل. لقد تورط أحد حراس لورَنس الخاصين بقضية من هذا النّوع. ففي إحدى الغزوات دخل بدوي إلى محطة القطار عبر النّافذة وحاول فتح الباب من الدّاخل. في تلك الأثناء كان بعض من رفاقه يحاولون نسف الباب ليفتحوه، فقام أحدهم بإطلاق رصاص بندقيته من خلال أحد الألواح، وعندما فتح الباب أخيراً كان الرّجل الذي دخل من النّافذة مسجّى قتيلاً. ما كان من البدوي الذي أطلق الرّصاص إلا أن أسرع بين الحشود وركب حصانه ثم انطلق يعدو مبتعداً.

لكن يمكن الآن للقاتل أن يتجنّب عقوبة الموت بدفع الأضرار إذا قبل أقارب القتيل بأخذ المال عوضاً عن الحياة. في هذه الحالة قام الحرّاس بجمع مبلغ من المال قدره مئة جنيه أرسلوه إلى الأقارب وتمّت تسوية الأمور. يتراوح معدّل الفدية للقتيل

العـادي بين مئة إلى خمسـمئة جنيه. كان هذا الرّجل سـيئاً، لذلك عـدّ رفاقه مبلغ المئة جنيه أكثر من المقبول. أمّا الشّرفاء (ممّن ينتسبون إلى النّبي محمّد) فتكون قيمة دمهم أعلى من غيرهم من العرب. إذا حدث وأن قتل رجل واحداً منهم فلا بدّ له من أن يدفع ما لا يقل عن ألف جنيه، إلا إذا كان قد عقد صفقة مع عائلة الضّحية قبل تنفيذ العملية.

لـم يصـادف لورَنس أيّة خيانة ضده في القبائل التي أقـام معها صلات ودّ وصداقة، وحتـى مـع القبائـل المعادية لم تحدث سـوى حادثة واحـدة فيها خرق خطيـر لتقاليد حسـن الضّيافة. حدث أن عبر لورَنس وحده خطوط الأتراك ليتفقد الأحوال في مخيّم العـدو، ونزل ضيفاً على شـيخ قبيلـة بني صخر التـي كانت موالية للأتـراك والألمان. سوّلت للشّيخ نفسه الخروج على تقاليد بدو الصّحراء وقوانينهم غير المكتوبة وحاول خيانة ضيفه. أرسـل رسولاً إلى القوات التّركية، التي كانت على بعد عشرة أميال، وفي الوقت نفسه حاول إقناع لورَنس بالبقاء في خيمته. كان في نيته خيانة الضّيف طمعاً في مكافأة الخمسين ألف جنيه. لكن لورَنس شعر فوراً أنّ هناك مؤامرةً تدبر له في الخفاء فترك مضارب بني صخر في الحال. أمّا شيخ القبيلة، فعلى الرّغم من كونه رئيساً لقبيلة معادية للعرب المتعاونين مع لورَنس، فقد عاقبه قومه على خيانته لضيفه بدسّ السّم له في القهوة. لقد أحسّوا بالخزي والعار بسبب فعلة شيخهم.

إن قوانيـن الصّحراء ـ غير المكتوبة ـ لهـا نفوذ القوانين المكتوبة في العالم كله، بل هـي بمثابـة الأمور الدّينية المقدّسـة. إذا كان الرّجل قد أمسـك برجل آخر في مقاطعته وكاد أن يقتلـه، يمكـن للضّحية أن ينقذ نفسـه بقول «دخيلك»، وهـي كلمة عربيّة تعني «لقـد طلبـت منـك الأمـان»، أو «أنا فـي خيمتك وعنـد موقـد قهوتك كضيـف». تُعدّ الحماية بين البدو واجباً مقدّساً، وإنّ معنى هذه الكلمة السّحرية «دخيلك» هي إحدى نقاط الاختلاف بين البدو وسـكان المدن العرب في سوريا. يستعملها السّوريون بدلاً من كلمة «من فضلك» التي يعدها البدو نقيصة في أسلوب اللياقة.

من ضمن المهام الصّعبة التي تحمّلها لورَنس، أنّه لـم يكن مضطراً إلى كسـب تأييد القبائل البدوية فحسـب، بل العرب الذين يقطنون المدن والقرى أيضاً. لقد تمكن من

تحقيق ذلك بأخذ الاختلافات بين الصّنفين بعين الاعتبار، وبالتالي باستخدام طرق مختلفة. البدوي شخص صافي السّلالة ويعيش اليوم بنفس الطّريقة التي كان يعيش بها قبل ألف سنة، عندما كان النّبي إبراهيم والنّبي لوط يتجوّلان في المنطقة يعظان النّاس. أمّا ساكن المدينة فهو مزيج من كل الأجناس في الشّرق ولديه نوع من التّعدّد في سلالته. والبدوي رجل رياضي يحبّ الاستمتاع بالحرّية الشّخصية، وهو شاعر بالفطرة. أمّا القروي فتغلب عليه البلادة والقذارة، قلّما تستطيع الوثوق به، وهو مادّي جداً يسعى دائماً وراء المال. هناك اختلافات حتى في الحياة اليومية، في شكل التّحيّة على سبيل المثال. يظهر أهل المدن احترامهم للشّريف وذوي المكانة العالية بتقبيل أيديهم، أمّا البدو فيعدّون هذا الأمر انتقاصاً للكرامة ولا يفعلونه إلا عندما يرغبون في التّعبير عن عميق احترامهم للشّخص.

على الرّغم من حصول لورَنس على دعم العرب من أهل المدن، فإنّ البدو هم الذين أشعلوا نيران الثّورة العربيّة، وهم الذين كانوا السّبب في نجاحها بمساعدة فيصل ولورَنس. وقد عرف لورَنس كيف يستغل غريزة الغزو والسّلب المتأصّلة في نفوسهم في حملاته ضد الأتراك. والبدوي الصّميم يكتفي بالنّهب ويكره القتل ويشمئزّ من رؤية الدّماء وهو لهذا يسلب الغريب ولكن لا يفكر بقتله. وبينما كان العرب الأصيلون يتمتّعون بحضارة من أرقى الحضارات في البادية مع ما فيها من الفلسفة والأدب، كان سكان الجزر البريطانية يعيشون عيشة الهمج غير المتحضّرين. والعرب من بين الشّعوب القليلة التي عجز الرّومان عن قهرها. أمّا حياتهم البسيطة فتعزى إلى ميلهم للتنقّل من مكان إلى مكان سعياً وراء العشب والماء. هم يتجوّلون على ظهر الأرض ويرتحلون مع جمالهم عبر التّلال الرّملية وينامون تحت قبّة السّماء ويعيشون الحياة التي عاشها أجدادهم في بداية الخليقة.

كان لورَنس يدفع للجنود النّظاميين وغير النّظاميين الرّواتب العالية بانتظام كما يُدفع للفرق الحليفة في أيّ مكان من العالم. وكانت الرّواتب تصله من الحكومة البريطانية بشكل قطع ذهبية. وكان لورَنس يحتفظ بكيس أو كيسين من الذّهب في خيمته، وكلما

جاءه شيخ يطلب مالاً، يدله لورَنس على الكيس فيقبض الشّيخ حفنة من المال شريطة أن يكتفي بقبضة واحدة. وحدث مرة أن جاءه ذات صباح «مارد» من قبيلة الحويطات يزيد طوله على ستة أقدام وكان لورَنس يظن أنه سيكتفي بفنجان من القهوة وسيجارة، لكن هذا الزّعيم استعان بالبلاغة فأخذ يفيض في شرح الخدمات التي قدّمها للملك حسين. فهم لورَنس ما كان يعني من وراء هذا الحديث ودلّه على مكان الكيس في إحدى زوايا الخيمة وطلب منه أن يأخذ حاجته منه. قام الشّيخ وعاد يحمل في يده أكبر مبلغ ممكن أن تحمله يد بشرية من الليرات الذّهبية، نعم عاد يحمل مئة وثلاثة وأربعين جنيهاً في قبضة واحدة.

يُدهش أفراد القبائل البدوية كثيراً لسوء الضّيافة الذي يشهدونه عند سكان المدن، ويحتقرونهم لأنانيتهم. فيما مضى، كما هو الحال اليوم أيضاً، كان البدو يفخرون بأربعة أمور: بشِعرهم وفصاحتهم وفروسيتهم وكرمهم، وهناك قصص عربيّة كثيرة تمجّد وتحيي فضيلة الكرم. تتحدّث إحداها عن ثلاثة رجال كانوا يتجادلون في المسجد الحرام عند الكعبة حول أكرم رجل في مكّة.

أخذ أحدهم يمدح فضائل عبد الله ابن أخي جعفر عم النّبي محمّد. وامتدح الثّاني كرم قيس بن سعيد. وأعلن الثّالث اسم عربة الشّيخ المسنّ كأكثر الرّجال كرماً في مكّة. منعاً للنّزاع وسفك الدّماء، اقترح أحد الموجودين في المكان أن يذهب كل واحد منهم إلى الرّجل الذي زكاه ويطلب منه مساعدة ما ثم يعود إلى المسجد حيث تقيم الأمور ويفصل بها. وافق الثّلاثة ومضوا إلى حيث اتفقوا. ذهب صديق عبد الله إليه فوجده يركب هجينه ليذهب في رحلة بعيدة، فاستوقفه قائلاً: «يا ابن أخي عم رسول الله وأبا الكرم، إنني مسافر وقد أصابتني فاقة شديدة». فما كان من عبد الله إلا أن رجاه بأن يأخذ جمله بكل ما على ظهره. أخذ الرّجل الجمل ووجده محملاً بعباءات حريرية وخمسة آلاف قطعة ذهبية.

ذهب الثّاني إلى قيس بن سعيد فأخبره الخادم بأن سيده نائم وطلب إليه أن يخبره بما يريد. قال الصّديق إنه محتاج وجاء إلى قيس يطلب مساعدته. أجاب الخادم بأنه

يفضّل أن يلبي حاجة الرّجل بنفسه على أن يوقظ سيده، ثم أعطاه كيساً فيه عشرة آلاف قطعة ذهبية، وهو كل المال الذي في الدّار، وطلب منه أن يذهب إلى الخان من أجل أن يأخذ جملاً وعبداً. عندما استيقظ قيس أخبره خادمه بما حدث فسُرّ قيس كثيراً ومنح الخادم حريته، مع ذلك وبّخه لأنه لم يوقظه وقال: «والله، لو أنك ناديتني لأعطيته أكثر من ذلك».

أما الرّجل الثّالث فقد ذهب إلى عربة والتقى بالشّيخ المسنّ خارجاً من منزله في طريقه إلى الكعبة لأداء صلاة الظّهر. كان له عبدان يمسكان به ويساعدانه على السّير، ولما علم بقصة صديقه أفلت العبدين وصفّق بيديه شاكياً حظه السّيئ إذ لم يكن يملك أيّ مال، لكنه عرض على الرّجل أن يعطيه العبدين. رفض الرّجل العرض، لكن عربة أصرّ قائلاً إنه إذا لم يأخذهما سيضطر إلى منحهما حريتهما، ثم تركهما ومشى يستند إلى الحائط. بعد عودة الرّجال من مغامرتهم اتفق الجميع على أن عربة هو أكرم الثّلاثة، وقالوا بحرارة: «جزاه الله خيراً».

من المحتمل أن تكون هذه القصة مستندة إلى الواقع، إذ يرى الإنسان أمثلة عدة لروح الكرم، هذا الكرم الذي يزيد من مقدار الإعجاب بهؤلاء النّاس. كان لورَنس يعلم تماماً مكانة هذه الفضيلة بين العرب، لذلك جعل نفسه يتفوّق فيها بالإضافة طبعاً إلى الشّجاعة وقوة التّحمّل والفطنة، وكل ذلك جعل البدو يقدّرونه أيما تقدير. بعد النّجاح الأول، الذي أهّله لأن يكسب ثقة حكومته، جلب قافلة محمّلة بالهدايا النّفيسة النّادرة، وأذهلهم بكرم يفوق الأساطير الشّعرية التي كانت تُتلى في أرجاء المخيم ممتدحة كرم الخلفاء الأوائل.

إنّ البدو مولعون بشكل خاص بساعات اليد والمسدسات والمناظير، لذلك كان لورَنس يجلب جملين أو ثلاثة محمّلة بهذا النّوع من الهدايا ليوزعها عليهم. وكان يعطي رجاله من خمسين إلى مئة رصاصة في اليوم؛ وكانوا يطلقونها في الهواء بغضّ النّظر عن كونهم يقاتلون أم لا، مع أنه من المعروف في أيّ جيش أنّه إذا أطلق جندي رصاصة واحدة دون إذن القائد يعرّض نفسه للمحاكمة العسكرية. أمّا العرب فكانوا يطلقون الرّصاص

على كل طائر يرونه، وفي أحد الأيام، عندما وصلت إشاعة في العَقَبة أن معان قد سقطت في يد الجنرال نوري بك قائد الأمير فيصل، كادت تُصمّ آذاننا من آلاف الطّلقات التي أطلقها البدو في الهواء تعبيراً عن الفرح. وإذا صادف أن مرّ البدو القادمين إلى القاعدة الرّئيسية عند ساحل البحر الأحمر بأحد الضّبّاط البريطانيين يتمشى وبيده سوط أو عصا، يهزّون رؤوسهم ويربتون على لحاهم قائلين: «ملائكة مجانين! ملائكة مجانين!» أمّا إذا كان الضّابط يتجول ببندقيته مطلقاً الرّصاص على كل صخرة أو طائر يراه، فيعلقون بقولهم: «هؤلاء الحمقى ليسوا بحمير إذن. بل يبدو أنهم عقلاء».

كان البدو يرفضون تنظيف بنادقهم بشحم الخنزير لأن الخنزير حيوان نجس. فكان على لورَنس إما أن ينظف كل بنادق الجيش العربي بنفسه أو أن يجلب للبدو بنادق لا تحتاج إلى تنظيف. ولقد حلّ المشكلة بأن أحضر لهم بنادق ألمانية من النّيكل كان آلِنبي قد سلبها في أثناء هجومه على فلسطين، كان من الممكن أن تبقى هذه البنادق سنة كاملة دون الحاجة إلى تنظيف.

البدوي مستقل بطبيعته لأنه تمتّع بحرية الصّحراء آلاف السّنين. أمّا «النّظام» و«الطّاعة» فكلمتان غير موجودتين في قاموسه. لم يخضع أتباع لورَنس بالطّبع لاختبارات في ساندهرست Sandhurst أو وِست پوينت West Point لكنهم كانوا يعرفون كيف يقاتلون الأتراك ويصدّونهم عن بلادهم، وكانوا يعدّون أنفسهم مساوين في الرّتبة لأيّ جنرال.

هؤلاء إذن هم رجال لورَنس الذين اضطرّ إلى تحويلهم من تجمعات قبلية بدائية إلى جيش ضخم قادر على هزيمة القوات عالية التّدريب المليئة بالضّباط الأفذاذ. كان لا بدّ من تنظيم كل شيء منذ البداية، فلم يكن هناك مركز للتّزويد. وعندما كانت الفرق غير النّظامية تخرج في حملة ما، كان كل رجل يحمل معه كيساً صغيراً مليئاً بالطّحين وبعض البنّ. كانت كل الوجبات متماثلة، وعاش الجيش وقاتل على الخبز المخبوز على الرّماد. لم يكن العرب يأكلون كثيراً في الوجبة الواحدة، لكن لورَنس كان يحمل في عباءته قطعة خبز يقضمها وهو يسير في مقدّمة الصّف.

كان البـدو ينظـرون إلى الطّعام المعلّب كمـادة مريبة، وفي أحد الأيـام، عندما كان الميجـور مينـارد Maynard يرافقهم في رحلة عبر الصّحراء إلى الشّـمال الشّـرقي من العَقَبـة، أعطـى علبة من لحم البقـر المحفوظ لكل رجل منا. تنـاول البدو اللحم بتردّد وبـدا أنهم يشـكّون في أمره. اكتشـفنا بعد ذلـك أن العرب كانوا يرتابـون بعلب اللّحم لأسـباب دينية وليسـت صحّية. كان من عادة العرب عندما يذبحون شـاة أو أيّ حيوان آخـر أن يقولـوا وهـم يدخلون السّـكين «بسـم اللـه الرّحمـن الرّحيم»؛ وعندمـا كانوا يفتحـون العلبة كانـوا يردّدون الكلمات ذاتها خشـية ألا يكون عمال شـيكاغو قد أدّوا الطّقوس وفق الشّريعة الإسلامية.

باسـتثناء هذه الحـوادث القليلة، لا يعدّ البدوي العـادي متعصّباً دينياً. وهو لا يطبق الأركان الأساسـية للإسـلام. فهو لا يصوم ويقول «إننا دائماً لا نجد ما نأكله». وهو لا يستحمّ ويحتج بقوله «لا يوجد لدينا الماء الكافي للشّرب». وهو نادراً ما يصلّي ويقول «إن صلواتنا لا تستجاب، فلم نصلّي؟»

لكن على الرّغم من هذا كله، فالبدوي رجل شريف ذو طبيعة مرحة.



«مدينة سحرية تختبئ في جزيرة العرب»



«أهلي في البيت»

الفصل الثّامن عشر

مدينة ورديّة عمرها من عمر الزّمان

من بين فصول الحرب الرّومانسية التي حدثت في أرض ألف ليلة، كان هناك معركة جرت في مدينة مهجورة، عريقة في القدم، ظلّت نائمة زهاء ألف سنة ثم استفاقت مذعورة على دوي المدافع والاشتباكات بين الأتراك والعرب. وظهر على المسرح من وراء الأطلال، التي ترجع إلى عصور قديمة، لورَنس عالم الآثار والعبقري الحربي. يطلق الرّحالون القلائل، الذين غامروا بالوصول إلى هذه البقعة من الصّحراء العربيّة، اسم «المدينة الوردية التي عمرها بعمر الزّمان»، وهي منحوتة في جبال أدوم الجميلة، وترقد في أحضان البراري بالقرب من جبل هور Hor، حيث يعتقد أن بني إسرائيل قد دفنوا قائدهم العظيم هارون.

حدثت المعركة في الواحد والعشرين من شهر أكتوبر سنة 1917 بعد سقوط العَقَبة بقليل. وقد كان لهذه الموقعة أهمّية حربية، لأنها قرّرت أن قيام بلاد العرب المقدّسة بالثّورة على الأتراك لا بدّ أن تكون نتيجته المحتمة اجتياح سوريا، وهو حدث مهمّ عالمياً قد يغير تاريخ الشّرق الأدنى كله. في هذه المعركة اشتبك لورَنس وأصحابه البدو مع الأتراك فوق القمم الجبلية ذاتها التي قام أمصياه Amaziah، ملك بني إسرائيل، بإلقاء عشرة آلاف نسمة من فوقها إلى الوادي في الأسفل. نجح لورَنس في حماية المدينة وصدّ الأتراك بنفس الطّريقة التي حماها بها الأنباط ضد جيوش الإسكندر الأكبر قبل المسيح بثلاثمئة عام. ولقد أوقع لورَنس الأتراك في ذات المضيق الذي دوت فيه أقدام كتائب تراجانوس Trajan التي هاجمت المدينة قبل ألفي عام.

وإنـي بعد أن أصغيت مشـدوهاً إلى وصـف لورَنس الممتع للقصـور المنحوتة في الصّخور الحية حيث خيّم هو وأصحابه، لم يسـعني إلا أن أسـتأذن سـمو الأمير فيصل ليسـمح لي باستكشـاف جبال أدوم. لم يتلطّف سموّ الأمير بالسّماح فحسب بل ذهب في كرمه ونبله إلى أبعد من هذا، إذ زوّدني بفريق من أقدر رجاله عهد إليهم بحراسـتي مـن شـرّ اللّصـوص ودوريـات العـدو. غادرنا العَقَبة وسـرنا مسـافة تقرب مـن ثمانية وثلاثيـن ميـلاً في وادي إضم حتـى وصلنا القويـرة، إحدى مراكز فيصـل الحربية. أمّا وادي إضـم فهـو معبر ضيق تكتنفه الجبال الصّوّانية المسـننة ذات التّجاويف السّـوداء التي يتراوح اتسـاعها بين عشـرين إلى مئتي قدم، نشـأت عن ثوران البراكين منذ زمان سحيق. ينتهي هذا الوادي إلى سهل موحل يذكرنا بأراضي داكوتا وهضاب بلوشستان الوسـطى. هناك نزلنـا في خيمة مخروطية لعدة أيام قبل أن نتابع مسـيرنا عبر سلاسـل الجبـال المجدبة والمناطق الواسـعة الصّحراويـة الرّملية. صعدنا بعـد ذلك في طريق متعـرّج شـديد الميـلان حيث تعثـرت جمالنا على ركبهـا أكثر من مرة. بعـد أن وصلنا إلـى قمّــة «نجب»، قادنـا الطّريق عبر هضبة عشـبية إلى موقـع المعركة حول آبار «أبو اللِّسن».

وجاء الجنرال نوري باشـا، أحد قـواد جيش فيصل، لمقابلتنـا والتّرحيب بمقدمنا. توقفنـا بضع دقائق لنشـرب وإيـاه القهوة العربيّـة، وعندما غادرنا خيمـة الجنرال رأيته يسـرع وينتـزع السّـجادة العجمية الفاخرة التي كان جالسـاً عليها ويلقـي بها على ظهر جملي بالرّغم من اعتراضي الشّديد، لكنه ألحّ بأن آخذها وأستخدمها كوسادة. ثم قدّم عصـاه وهي مصنوعة من جلد فـرس النّهر، وكان قد أهداها إليه ملك الحبشـة وطلب منـي أن أسـتعملها في قيادة هجيني. وبعـد بضعة أميال من آبار أبو اللِّسـن، فبعث إلينا الأمير فيصل رسـولاً برسالة توصية إلى قائده في بسطة Busta. كان هذا الرّسول داكن اللون يشـبه الكابتن كيد، بعينيه السّـوداوين اللامعتين وشاربيه المفتولين المتوحشين. كان غطاء رأسـه أحمر اللون مطرزاً بزهور صفـراء كبيرة، أمّا ثوبه فكان صارخ الألوان كقميص يوسف، كما علّق في حزامه مسدساً ذا قبضة لؤلؤية وخنجرين يبدوان شرّيري

المظهر. ولشدّ ما كانت دهشتي إذ خاطبني بلهجة نيويوركية وأخبرني أنه قضى أربعة عشر عاماً في أميركا يشتغل في معمل للسّجائر.

أما الرّجل فقد ولد في قرية من قرى جبال لبنان واسمه الحقيقي حسن خليل، وفي نيويورك استبدله باسم تشارلي كيلي. في أثناء الحرب العالمية كان يعمل في شركة توماس كوك وأولاده في إسطنبول وتجنّد فوراً في الجيش التّركي. لكنه في موقعة غزة هجر الجيش التّركي وانضم إلى القوات الأسترالية واشتغل كمترجم، ثم خدم في الجيش البريطاني في مصر، وانتقل أخيراً إلى الجيش الحجازي. لمّا توطدت صلتنا معاً أخبرني تشارلي بأنه ليس مسلماً بل من طائفة الرّوم الكاثوليك، ثم رجاني بألا أكشف سرّه لأي شخص من أفراد القافلة، إذ يخشى أن يقتل من فوره على يد أحد رفاقه المتعصّبين.

أثناء جلوسنا حول نار المخيم، أمتعنا تشارلي برواية القصص البوليسية. كان لديه عدة نسخ مترجمة إلى العربيّة عن قصة «نيك كارتر» وقال إن المصريين يعتقدون بأن نيك كارتر هو مدير مكتب التّحقيقات السّرّية الأميركي، وقصصه هي الأكثر مبيعاً في مصر حيث يعجبون بأعماله البطولية ويعدّونها تاريخاً موثقاً. إذا كان المصري غير قادر على القراءة، يقوم باستئجار من يقرأ له هذه القصص البوليسية. كان بين أفراد القافلة الآخرين رجل مصري كثير الصّمت وكأن وجهه قد قُدّ من الصّخر، ولهذا لقبناه برمسيس لأنه كان أشبه بتماثيل الملوك الضّخمة التي تراها على ضفاف النّيل. أمّا بقية الحرس الخاص فكانوا من بدو لورَنس الذين يكحّلون عيونهم ويصبغون شفاههم وخدودهم بالأحمر. والبدوي في الواقع يحرص أشد الحرص على الاكتحال، ويقول إن هناك شيئين لا يجوز للبدوي أن يعيرهما حتى لشقيقه: زوجته، ومكحلته.

كل صباح كان على تشارلي أن يساعد تشايس، الرّجل القصير، على ركوب جمله. في الواقع كان كل جمل يركبه تشايس يموت على الطّريق قبل نهاية الرّحلة. كان بشكل خاص يجتذب كل أنواع الحشرات الموجودة في الصّحراء، وكنا في كثير من الأحيان نستيقظ صباحاً لنجد العقارب وأنواعاً من الحريش العاض في أغطية تشايس. في إحدى المرات أعطى تشايس لأحد أفراد الحرس علبة من لحم الخنزير ووجّهه

إلـى طريقـة طهيهـا كمـا كان يطهوها في بلـده، لكن انتهى بـه المطاف بأن يعـدّ وجبته بنفسه. حالما فتحت العلبة رماها الطّباخ البدوي بهلع ورجع إلى الوراء إذ كانت أنوف المسـلمين حسّاسـة للحم النّجس. والبدو، ككل المسـلمين، لا يسـتعملون مشتقات الخنزير أبداً، بل يطهون طعامهم بالسّمن المصنوع من حليب الماعز.

مررنـا فـي ذلك اليوم بقطيـع من الخـراف البيضاء السّـمينة كالزّبـدة، وكانت ذات أصـواف مجعّدة كثيفة وقرون صغيرة معقوفة جميلة. كان الرّاعي البدوي جالسـاً على كومة من حجارة البازلت، يعزف على ربابته لحن أغنية حبّ عربيّة قديمة. كانت بعض مرتفعات الحجاز مكسـوة بالشّـعير مشـكلة مراعي جيدة للأغنام، وتسـتقرّ في بعضها الآخر القبائل البدوية حيث ترعى أغنامها وجمالها وخيولها القليلة.

كان هنـاك رجـلٌ داهية من بغـداد، علم بأمر الثّـورة في الحجـاز وأدرك أن الحلفاء سيتسلّمون الأمور إن آجلاً أم عاجلاً وأن القطع النّقدية الذّهبية البريطانية ستحلّ محل النّقود التّركية التي بقيت لفترة طويلة وسيلة التّعامل في أطراف البادية. لذلك قام بطلي قطـع رصاصيـة بالذّهـب وصنع آلاف القطـع البريطانيـة المزيفة، وحالما بـدأ الذّهب يتوافد من مصر إلى الحجاز، وقبل أن يبدأ البدو بالتعرّف عليه ليكتشـفوا الحقيقي من المزيف، تجول في أنحاء البلاد واشـترى كل الأغنام التي استطاع العثور عليها. وبدلاً مـن السّـعر المعتاد وهو جنيه واحد للخروف، أخذ يعـرض جنيهين من قطعه المزيفة. وقبل أن يتسع الوقت لذهاب البدو إلى جدّة وينبُع والوجه لإنفاق ذهبهم في الأسواق، كان البغدادي قد سـاق أغنامه شـمالاً إلى فلسطين وباع الواحدة منها بجنيهين للجيش البريطاني. وعندما اكتُشفت الخدعة كان قد اختفى عن الأنظار تماماً.

لا تقاس المسـافات في جزيرة العرب بالأميـال، ولكن بآبار المياه. بعد ليلة واحدة من حادثة لحم الخنزير البائسـة، وبعد أن أنهينا نصب خيامنا عند «حفرة المياه الثّالثة» المعروفـة ببسـطة Busta، جاءنـا عشـرون من الجيـش النّظامي العربـي يمتطون بغالاً مـن البيرو. كانت البغـال تخاف من الجمال، وحالمـا رأت قافلتنا أخذت تقفز في كل الاتجاهـات، وقد ألقى بعضها براكبيها واختفت في جبـال أدوم. جلس هؤلاء الجنود

القادميـن من مكّة الليل بطوله حول نار المخيم يصيحون ويغنون ويطلقون رصاصات بنادقهم في الظّلام. كانت القوات التّركية على بعد أميال عدة، وكان لديّ شعورٌ داخلي بأن دوريّة تركية ستظهر فجأة وتضع حداً لهذا الصّخب بالقضاء على الكثير منا. لحسن الحـظ لم يحدث شـيء من هذا، وبعد أن سـرنا مسـافة ثمانين ميلاً فـي البلاد دون أيّ اشتباك مع الأتراك، وصلنا إلى قمّة هضبة عالية.

إلـى الشّـمال الغربي أمامنـا كانت هناك تـلال رائعة مـن الحجارة الرّمليـة البيضاء والحمـراء. وعلى مسـافة عشـرين ميلاً إلـى الشّـمال كان وادي البحر الميـت ووراءه تمتدّ الصّحراء العربيّة الوسـطى بألوان ضبابيـة من الأرجواني والرّمادي. بينما امتدّت أمامنا قمم جبال أدوم المقدَّسة. كانت المشكلة هنا هي عبور تلك الكتلة الضّخمة من الصّخـور الرّمليـة. نزلنا من الهضبة المرتفعة إلى الوادي الذي يبلغ اتسـاعه اثني عشـر ميلاً ويضيق إلى اثني عشر قدماً ليصبح مجرّد ممرّ ضيق بين الكتل الجبلية. خلال هذا المعبر، أو السّـيق sik كما يدعوه العرب، أخـذت جمالنا وخيولنا تتعثر فوق الجلاميد وتشق طريقها عبر آلاف شجيرات الدّفلة، بينما كان البدو يبعدون بمسدساتهم السّحالي التي كانت تزحف بين الصّخور. أثناء مرورنا في الممرّ الصّخري ذهلنا لمنظر الجدران الرّائعة المرتفعة مئات الأقدام من فوقنا، وتكاد تبلغ عنان السّماء.

تكوّمت على الجانبين، بشكل عالٍ وضارٍ

جروفٌ ضخمة ذات أحجار هائلة.

أخبرنا حسـن مُرجانـي Hassan Morgani، وهو أحد مرافقينـا البدويين الذي كان يرتـدي سـترة أرجوانية مزركشـة باللـون الأخضر، وحذاء عسـكرياً كان قـد أخذه من ضابط تركي قتيل، أخبرنا بأن الممرّ يدعى وادي موسى. أكّد تشارلي ذلك قائلاً أنه في هذا المكان ضرب النّبي موسى الصّخر فتفجّرت منه المياه الغزيرة. ومن النّادر أن نجد عائلة عربيّة في هذه المنطقة لا تسـمّي أحد أولادها موسـى. خلال الممرّ ظهر جدول صغير يتعرّج بين الجلاميد ونباتات الدّفلى وأشجار التّين، وفي الأعلى كانت الشّمس الدّافئة تصبغ الصّخور الضّئيلة بلون أحمر وردي.

بعد السّير داخل الممرّ لأكثر من ساعة، درنا حول المنعطف الأخير وأذهلنا المنظر الـذي بدا أمامنا. هناك، على بعـد أميال من أيّ المناطق المأهولـة وفي قلب الصّحراء العربيّة، بدا لنا أغرب منظر يمكن أن نشاهده؛ كان هناك معبدٌ كأنه وردة رقيقة منحوت كالحجـر الكريـم داخل الجدران الجبلية. كان أجمل من معبد ثيسيوس Theseus في أثينـا أو الفوروم Forum في روما. قطعنا مسـافة مئة ميل داخـل الصّحراء لنقف وجهاً لوجه أمام الصّرح الذي أخذ بلبّنا. كان أول إشارة تدل على أننا وصلنا إلى مدينة البتراء الغامضة، وهي مدينة مهجورة نسيها التّاريخ لمدة ألف وأربعمئة عام، ولم تكتشف إلا في القرن الأخير على يد المستكشف السّويسري الشّهير بوركهارت.

يكمن جانبٌ من سـرّ جاذبية هذا المعبد إلى موقعه على أحد أكثر المعابر غرابة في العالـم. كانت الأعمدة والواجهات والأفاريز منحوتة بشكل وافر، لكن كان من الصّعب تمييز التّصميمات عن بعضها، وذلك بسـبب تشـوهها بفعل الزّمن وتحطيم المسلمين لتماثيلهـا. في أحد الجوانـب هناك صفّان من الفوهات وهي على ما يبدو آثار سـلالم النّحاتين وهم يشـقون طريقهم إلى الأسفل. كان هؤلاء الفنّانين يستخدمون أداة مدبّبة من شـأنها أن تضفي أكبر تأثير على الطّبقات الملونة التي تشـكل شـرائط جميلة تلتف كأنهـا حرير متموّج يلمع تحت أشـعة شـمس الصّباح. ومع أن المعبـد محفوظ بحالة جيـدة، فـإن تأثير الرّياح الرّملية عبر القرون واضح فيه. وللمدرّج شـكل مكعّب ضلعه أربعون قدماً في كل اتجاه. وتعدّ هندسة المعبد خليطاً من الفن الرّوماني والإغريقي.

نُحت المعبد داخل الصّخور منذ حوالي ألفي سنة في أيام حكم الإمبراطور الرّوماني أدريـان الـذي زار بِترا عام 131 للميلاد. أمّـا العرب الذين كانوا معـي فقالوا إنّه يدعى الخزنة لوجود جرّة كبيرة في أعلى المعبد، ويعتقد البدو أنها مملوءة من ذهب الفراعنة وحليّهم الثّمينة. جرت محاولات عدة لتحطيم الجرة وقد تفتت منها قطع صغيرة بفعل آلاف الرّصاصات التي أطلقوها عليها. حاول حارسي الخاص إطلاق الرّصاص عليها أيضاً لكن كانت لحسن الحظ أعلى من رؤوسهم بمئة قدم. يرى الكولونيل لورَنس أن المعبد قد شُيّد إكراماً للآلهة ايزيس، وهي من آلهة قدماء المصريين كانت محبوبة كثيراً

فـي أيام حكم الإمبراطـور أدريان. كان أحد الرّحالين قد حفر حروف اسـمه بعلو قدم على إحدى دعامات المعبد، لكن لورَنس أمر رجاله بمحوها.

تقـع المدينة على السّـهل في بطن وادٍ بيضوي الشّـكل طوله ميـل ونصف وعرضه نصـف ميل. لا يسـتطيع أحـد التّكهن بعدد السّـكان الذيـن كانوا يقيمـون فيها، ولكن يرجح أن يكون مئة ألف شـخص قد عاشـوا هناك. لم تتداعَ سوى الأجزاء البسيطة من البنـاء، ومـع ذلك فقـد بقيت منها آثار جميلـة. أمّا في الجزء العلوي مـن الوادي فتجد الحصون والقلاع والقصور والقبور والأماكن التي كانوا يتردّدون عليها قديماً للتسـلية وكلهـا منحوتة في الصّخر الصّلب. كان الجزء السّـفلي على ما يبـدو مدرّجاً مائياً كان النّاس يمارسون فيه الرّياضات المائية والمباريات المختلفة. ويمكننا أن نشبّه بِترا هذه بقطعـة منحوتـة هائلة الحجم صنعتهـا قوات الطّبيعـة العجيبة. من فـوق الهضبة ذات التّسـعة آلاف قدم، التي شـاهدنا منها جبال أدوم لأول مرة، نزلنا إلى الأسـفل مسـافة ألف قدم لندخل المدينة الأثرية.

لقـد دُهش كل الرّحالين الذين زاروا بِترا من غرابة ألوان الأحجار الرّملية التي تملأ تلـك الأماكـن الصّخريـة. لقد نُحتت في صخـور ملوّنة يختلف وصفها في السّـاعات المختلفـة مـن النّهار، فهـي تبدو في ضوء شـمس الصّباح أشـبه بأقواس قُـزح عظيمة تشـعّ بالألوان البيضاء والقرمزية والصّفراء الزّعفرانيـة والبرتقالية والوردية والقرنفلية التـي تضافر الزّمان مع قـوى الطّبيعة لتلوين الطّبقات الحجرية المختلفة بها. في بعض الأمكنـة ترى طبقات الصّخر المتعرّجة كالأمواج، وعند الغروب تلمع بإشـعاع غريب قبـل أن تغرق في عتمة الليل. كنا نتسـاءل أحيانـاً فيما لو كنا صاحين أم هي أحلام نُقلنا فيها إلى أرض العجائب فوق بساط سحري مزركش.

نُحتـت الأدراج داخـل الصّخر، ويبلغ طـول بعضها أكثر من ميـل، وهي ترتفع إلى الأعلى لتصل إلى قمم كلّ الجبال المحيطة بالبتراء. صعدنا أدراجاً ضخمة إلى ارتفاع ألف قدم فوق مدينة المعبد، الذي يدعوه العرب بالدّير، وشـاهدنا واجهته المهيبة التي يبلـغ ارتفاعها مئة وخمسـين قدمـاً، تعلوها الجـرّة الضّخمة وتزيّنها رؤوس ميدوسـا.

كانت معظم الدّرجات المنحوتة في الصّخر تؤدّي إلى هياكل لتقديم القرابين حيث كان النّاس يتعبّدون في هذه الأماكن المرتفعة منذ آلاف السّنين.

هناك درجات ضخمة جداً تتعرّج صاعدة في جبل القربان، وهي قمّة منفردة تشرف على الوادي بأكمله، ويوجد في أعلاها مسلّتان وهيكلان. كان أحد الهيكلين مجوّفاً لإشعال النّار داخله، بينما كان الآخر دائرياً فيه بركة معدّة لذبح الضّحية المهداة إلى «ذو شرى» Dhu-Shara و«اللّات» Allat، إله وآلهة بترا القديمة. أصرّ أحد مرافقينا البدو على خلع عباءته والاستحمام بمياه الأمطار المتجمعة داخل البركة. أخبرني لورَنس أن هذه المدينة هي أفضل مثال على وجود مكان للحضارة السّاميّة القديمة. وبالقرب من الهيكلين كان هناك نُصبان ضخمان ارتفاع كل واحد منهما أربعة وعشرون قدماً، كان سكان بترا قد نحتوهما من الصّخر القاسي ليؤدّوا إحدى أقدم أشكال العبادة للذَّكَر. كانت قمّة الجبل تسمح برؤية كل الوديان والجبال المحيطة بالإضافة إلى معظم آثار المدينة، وكان المنظر مهيباً بحق.

كان المنظر يهيج في القلب كل المشاعر التي قادت الإنسان منذ الأزل إلى عبادة خالقه. وعلى قمّة قريبة شاهدنا البقايا المتهدّمة لقلعة صليبية. أبعد قليلاً إلى جهة اليسار كان هناك جبلٌ بركاني أسود، رأينا على قمّته، المتوهجة تحت أشعة الشّمس، قبّة صغيرة بيضاء يشبه لونها بياض الهياكل العظمية التي مررنا بها أثناء عبورنا الصّحراء بين العَقَبة وجبال أدوم. كانت قمّة جبل هور Hor، والقبة هي جزء من المسجد الذي بناه البدو على النّمط التّقليدي لمعبد هارون أخي النّبي موسى وكاهن بني إسرائيل. أمضينا يومنا ونحن نصعد إلى القمّة، وعند وصولنا وجدنا علماً تركياً يرفرف فوق قبر هارون. ككفارة لذلك تسلق عرب الصّحراء جبل هور Hor وبحوزتهم شاة قاموا بذبحها فوق الضّريح. بالرّغم من عدم وصول أخبارها إلى العالم الخارجي في ذاك الوقت، فإن خطوط الحرب العالمية قد بلغت منحدرات جبل هور Hor.

تملك كل أبنية مدينة الأشباح هذه واجهات واسعة، لكنها في الدّاخل بسيطة وخالية من أيّة زخارف. مع ذلك فإن ضخامتها وجمالها تبهران الأنظار، وكم كانت تعني لمحبي

الجمال عندما كانت تنبض بالحياة. تنعكس أشعة الشّمس عل معظم الأحجار بلون وردي جميل، مع تدرجات من اللونين الأزرق والسّماقي. تكثر في الشّوارع المهجورة نباتات الغار والدّفلة التي تبدو ألوانها وكأنها مشتقّة من الصّخور ذاتها. في الحقيقة، إن السّكان الوحيدين لمئات السّنين في هذه المدينة الوردية هم ملايين لا تحصى من الزّهور البرّية الجميلة التي كانت تنمو في شقوق القصور والمعابد المندثرة وتلتف حول الأعمدة شبه المتهدّمة. لقد مضى رجال پترا الأشدّاء ونساؤها الجميلات إلى المكان الذي لا يعود منه أحد، وهذا مشهدٌ يمثّل للمرء معنى الحياة الفانية.

إن الآمال الدّنيوية التي ملأ النّاس قلوبهم بها

قد استحالت رماداً، أم أنها ازدهرت.

وكانت كالثّلج فوق أرض الصّحراء المغبرّة،

أضاءت قليلاً ثم اختفت إلى الأبد.

كان هناك في مركز المدينة مدرّجٌ كبير محاطٌ من جميع جوانبه بالمعابد والقصور والقبور، وقد نُحت داخل الجبل نفسه الذي يفضي إلى المكان المُعدّ للأضاحي. كانت هناك صفوفٌ وصفوف من المقاعد مقابل الشّوارع الجبلية الممتلئة بالقبور. أمّا قطر المنصّة فيبلغ مئة وعشرين قدماً، والمسرح هو الرّمز الوحيد للحياة والمرح في تلك المدينة الغامضة المهجورة. في يوم من الأيام كانت ضحكات وهتافات الآلاف ترنّ هنا عبر مقبرة الآمال والطّموحات. منذ آلاف السّنين كان الممثلون يؤدّون أدوارهم هنا وينالون تصفيق آلاف المعجبين. أين ذهبت تلك الجماهير المرحة التي كانت تحتلّ هذه الصّفوف في الأعياد وتشاهد الألعاب المختلفة؟ أمّا اليوم فلا ترى سوى السّحالي وهي تزحف فوق المقاعد الملونة، وبدلاً من الأصوات التي كانت تملأ المسرح لقرون عديدة تسمع الآن أصوات عواء بنات آوى. لم يكن الأدوميّون Edomites أو الأنباط Nabatseans يتخيّلون أنه يوماً ما سيأتي أناس يدعون بالأميركيين من أرض مجهولة ويتجوّلون بين أنقاض مدينتهم المزهوة.

احتـلّ الأنباط أدوم، وهم قبيلة عربيّـة قديمة، وبحلول عام مئة قبل الميلاد كانوا قد أسّسـوا مملكة قويّة تمتد شـمالاً إلى دمشـق وغرباً إلى غزّة في فلسـطين، وإلى داخل جزيـرة العرب الوسـطى. أخبرني لورَنـس أنّ الأنبـاط كانوا قراصنة مشـهورين جابوا السّـاحل الأفريقـي وشـنّوا غزوات مدمّـرة على أرض السّـودان. وصلـوا إلى مراحل متقدّمـة مـن التّحضر وكانت لديهم صناعة الزّجاج الرّائعة ونسـج الأقمشـة وتشـكيل الأواني الفخارية. كما قاموا بزيارة روما والقسـطنطينية مرّات عديدة. اسـتخدم الملك سـليمان وملكة سبأ الأنباط، الذين نافسـوا أهل تدمُر في تنظيم قوافـل تجارية عظيمة واتّخذوا من بترا مركزاً أساسياً لتجارتهم في جزيرة العرب. زار أنتيغونوس بترا في عام 301 قبل الميلاد ووجد فيها كمّيات هائلة من البخور والمرّ والفضة.

كان الإغريق، الذين أدركوا منعة هذه المدينة المحصّنة بالجبال، هم أول من أسموها بيتـرا، وتعني الصّخـرة. وتقول الرّوايات إنّ الإسـكندر الأكبر قد احتـل كلّ الأراضي المعروفـة آنذاك وأخذ ينتحب لعدم بقـاء أراضٍ أخرى يحتلها. لكن الرّوايات خاطئة، فها هي ذي مدينة فشل الإسكندر الأكبر في احتلالها، ويخبرنا ديودوروس سيكولوس أنّ الإسكندر كان يعلم أهمية بترا بحيث أرسل ديمتريوس على رأس جيش للاستيلاء عليهـا. حاول ديمتريوس شـقّ طريقه داخلها عبر الممرّ الضّيق نفسـه الذي دخلنا منه، لكن السّـكان اعتصموا في جبالهم المنيعة وتمكنوا من صدّ الحصار والهجوم. وعلى الرّغم من أن المدينة وقفت في وجه من جاءها بقوة السّيف، فقد فتحت أبوابها مرحبة بمن جاءها يحمل غصن زيتون.

لمّـا كانت بترا عاصمة للأنباط زهت إلى القمّة فـي القرن الثّاني قبل الميلاد. وكان الجغرافيـون الإغريـق يطلقـون علـى أرض أدوم اسـم: العربيّـة الصّخريّـة «Arabia Petraea». والواقـع أن وجـود الأبنية المبنية علـى الطّراز المصـري الفرعوني القديم والرّمـوز التـي تراها على هذه الأبنيـة تجعلنا نعتقد أن بِترا قد قام على تعميرها شـعبٌ كان علـى اتصال بمن بنوا أبا الهول والأهرامات، وإنك لتسـمع الرّوايات الكثيرة التي تؤيّـد أن بِتـرا كانـت في يوم من الأيـام مرتبطة بمصـر. ويعتقد البدو أنّ هـذه الصّخور

المنحوتة هي من صنع الجان الذين يعملون بأمر من أحد الفراعنة، كما ويؤكّدون أن الجرّة العظيمة على الخزنة تحوي ثروة الفراعنة المصريين العُتاة، بل ويعتقدون أنّ هؤلاء الفراعنة قد أقاموا في پترا، ويطلقون على المعبد المتهدّم في الوادي اسم قصر فرعون. ولكنك لا تجد أحداً يعرف متى شُيّدت پِترا أو من شيّدها. وثمّة رأي يقول إنها بنيت قبل أيام إبراهيم، وإنها كانت مدينة عريقة في القدم عندما هرب بنو إسرائيل من أسر المصريين.

بينما نقف بين آثار هذه المدينة المنسية نتذكر أنّ المنطقة المحيطة بپترا كانت معروفة باسم جبل سعير Seir في أيام النّبي إبراهيم، ويقال بأنّ عيسو وأتباعه جاءوا إلى هذه البلاد بعد أن فقد عيسو حق بكوريّته. والواقع إنك تجد شّيئاً عن پِترا في أسفار العهد القديم ولكنها كانت تُعرف باسم «سَلع»، وهي كلمة عبرانية معناها «الصّخر». ويرجّح أن بني إسرائيل عندما كانوا يتجوّلون في البرّية قد جاءوا پِترا وطلبوا الإذن بالبقاء فيها زمناً قصيراً للرّاحة، لكن سكان پِترا رفضوا، فتنبّأ أنبياء بني إسرائيل بخرابها. اتهمها النبي عوبديا Obadiah بالكبرياء والصّلف قائلاً: «على الرّغم من أنك ترتقين عالياً كالنّسور، وبالرّغم من كون عشك بين النّجوم، يقول الإله إنه سينزلك من فوق عرشك». وكانت في عهد إشعيا Isaiah مدينة مزهوّة مبهجة ثم تنبأ اليهود بدمارها.

في عهد أريتاس (الحارث) الثّالث الملقب بفيللين، أو صديق الإغريق، ضُربت أول عملة ملكية واتخذت پترا الكثير من مظاهر الحضارة الإغريقية. وحتى في العهد الذّهبي لروما، عندما تربع أوغُستوس على عرش القيصر، وصلت شهرة هذه المدينة القصيّة إلى أوروپا. كان السّياح يؤمّونها من كل بقاع الأرض، ولا بدّ أن عدد ساكنيها كان نحواً من عدة مئات من الآلاف. كانت مركزاً للفنّ والعلوم ومن أجلها جُلبت أعمال پراكسيتليز ومايكل أنجيلو وليوناردو دا ڤنشي. كان كرمها مثالاً يحتذى لدى القدماء، وكانت تفتح أبوابها للمسيحيين الأوائل حيث سُمح لهم ببناء دور العبادة الخاصة بهم جنباً إلى جنب مع معابد بعل وأپولو وأفروديت. كانت پترا تمثّل في هذا الجزء من آسيا ما تمثله روما للرّومان وأثينا للإغريق. وفي سنة 105 للميلاد استولى

أحـد قوّاد تراجان على پِتـرا وصبغها بالصّبغة الرّومانية، وظلـت المدينة تزداد ازدهاراً وتتّسـع تجارتهـا وتنمو تحـت رعاية روما. وغـدت پِترا في تلك الأيـام ملتقى خطوط قوافـل عديـدة ومركزاً لتجـارة جزيرة العـرب وبلاد العجـم والهند الذاهبـة إلى مصر وفلسـطين وسوريا. كما كانت پِترا مخزناً للثّروات الضّخمة تحميها الصّخور الغاضبة التي تكشـر في وجه كل من تسـوّل له نفسـه بمدّ يده إليها. وصفها سـترابو وپليني بأنها مدينة عظيمة، ولكن لمّا وهنت قوة الرّومان لـم يستطع الأنباط الرّومانيون الوقوف في وجه القبائل التي تقيم في الصّحراء، واتخذت تجارة القوافل مسارات أخرى ولـم تعد پِترا ذات أهمية كبرى فقلّ شـأنها وهجرت. وفي القرن الثّاني عشر، أرسل الصّليبيون، بقيـادة بولدويـن الأول، حملة إلى المكان وبنوا العديد مـن القلاع، لكن صلاح الدّين قام بطردهم وإجلائهم عن المنطقة.

لا شـك أنّ كثيـراً من الآثار يدل علـى أن پترا كانت إحدى المـدن المبهجة النّابضة بالحيـاة، ولا بـدّ أن أثرياءها قد عاشـوا في رفاهية لم يعرفها الشّـرق لقـرون عدّة. وإنّ پترا بصالاتها الموسـيقية الواسعة، ومدرّجاتها، وبساتينها الغامضة، وكهنتها وكاهناتها وعقائدهـا الدّينيـة، وثروتها من الزّهور، وشمسـها المشـرقة، ومناخهـا الصّحي الذي ينعش الصّدر، كل ذلك كان قد جعل منها باريس وريڤييرا آسيا الصّغرى آنذاك.

منذ أكثر من قرن من الزّمان سـمع الرّحالة السّويسـري جون لويس بوركهارت روايات عن مدينة الصّخور المتربعة على طرف الصّحراء العربيّة، فقام بعبور الفَجّ الصّخري ووجد المدينـة القديمـة الرّائعة التي لـم تكن قـد ذُكرت في أيّ تاريخ أدبي منـذ عام 536 للميلاد. ومن ذلك الوقت، الذي كتب فيه بوركهارت عن اكتشافه لمدينة الصّخور في رسالة أرسلها مـن القاهرة، لم يقم بزيارة پترا سـوى قليل من الرّحاليـن وعلماء الآثار الغربيين. كان خطر القبائل البدوية كبيراً، بحيث لـم تدفع الحماسة كثيراً من النّاس لمحاولة زيارتها. لقد هجرت السّـباع والسّحالي السّاحة التي كان جمشـيد يبتهج فيها ويفرط في الشّراب، إلى أن أحضر لورَنس مقاتليه البدويين إلى المدينة التي لـم يعد فيها سوى القبور والقصور الخاوية.

❋ ❋ ❋



كان لورَنس بين الفترة والأخرى يزور مناطق العدوّ
متخفّياً بزيّ امرأة غجريّة من سوريا



نساء القرى في سوريا لهنّ مواهب بهلوانيّة بالفطرة

الفصل التّاسع عشر
معركة بدويّة في مدينة الأشباح

إنّ احتلال البتراء أمرٌ ضروري قبل الاستيلاء على العَقَبة، التي تعدّ بحقّ أهمّ مركز حربي في السّاحل الغربي من جزيرة العرب، وحيث رَسَت أساطيل الملك سليمان قبل ثلاثة آلاف سنة. ولكن موقعة لورَنس كانت هي الأولى التي حدثت في البتراء خلال السّبعمئة سنة الأخيرة، فلقد كان الصّليبيون آخر من عبروا المضيق برماحهم اللامعة وراياتهم الخفّاقة وملابس نبلائهم وفرسانهم الأوروپيين. ثم ظهر لورَنس قبيل الحرب الكبرى في زيّه العربي وأخذ يطوف تلك الأنحاء دارساً منقّباً فلم يترك شبراً من الأرض إلا ودرسه دراسة كافية. وبعد أن نجح في إجلاء الأتراك عن العَقَبة صمّم على أن يستولي على كلّ السّهول المرتفعة الممتدّة على بعد خمسين ميلاً من رأس خليج العَقَبة وتمرّ بأراضي الجزيرة إلى أن تصل إلى الخليج العربي. وأيقن الأتراك يومئذٍ أنهم بين أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يحاولوا استعادة العَقَبة، وإما أن يعمدوا إلى تعزية أنفسهم بضياع جزيرة العرب المقدَّسة من أيديهم. لذلك جاءوا من سوريا بعشرة آلاف جندي مفعمين بالنّشاط ووضعوهم في المواقع الاستراتيجية العديدة على المرتفعات.

لكن لورَنس كان على يقين بأن الأتراك لن يتمكنوا من استعادة العَقَبة، إذ هناك ممرٌّ وحيد يمكن أن يسلكه الجيش للوصول إلى هذا الميناء القديم الهام، ألا وهو وادي إضم. ولكي يتأكد لورَنس من الأمر سار بجيشه غير النّظامي عبر المضيق نفسه قبل المعركة بأسابيع، فوجد الأتراك في حالة قيلولة وتسلّل إلى العَقَبة قبل أن يدركوا الخطر

المحيق بهم. لم يكن في نيته إعطاء الأتراك فرصة كهذه. كان وادي إضم من أصعب الممرّات اجتيازاً في العالم وهو ليس بالأمر الهيّن على جيش مسلّح، وربما لا يضاهيه صعوبة سوى ممرّ خيبر Khyber الواقع بين الهند وأفغانستان. يخترق المضيق سلسلة جبال بركانية قاحلة تدعى جبال الملك سليمان، تمتدّ على الشّاطئ الشّرقي لخليج العَقَبة، وترتفع فجأة إلى علو خمسة آلاف قدم على جانبي الممرّ الضّيق. والواقع أنّ الجيش المنظم إذا هوجم من قمم هذه الجبال الشّامخة لن يجد مكاناً يحتمي فيه. لا بدّ أنّ لورَنس كان سيُسحق سحقاً لو حاولت القوات التّركية التّقدّم إلى العَقَبة أثناء عبوره لمضيق وادي إضم.

وبقي الأتراك يلزمون الهدوء منذ يوليو حتى منتصف سبتمبر من عام 1917، ثم قاموا باستطلاع الأماكن المجاورة للبتراء يريدون من ذلك إيهام لورَنس والعرب ليحملوهم على الاعتقاد بأن القصد من وراء هذه الاستطلاعات هو الهجوم على البتراء، مع أن قصدهم الحقيقي كان الهجوم على العَقَبة مباشرة. كانت آخر حملة استطلاعية للأتراك تعيسة، إذ قطع لورَنس ورجاله عليهم الطّريق وأزهقوا أرواح مئة منهم.

وهناك على بعد خمسة عشر ميلاً من شمال شرقي البتراء ترى قلعة صليبية أثرية، تطل على الصّحراء بوجهها العابس من أعلى تلّ منحدر من الحجر الكلسي الأبيض، وتسمى قلعة «الشَّوبَك». وكان بالدوين الأول، ملك القدس، قد بنى سوراً حول قمّة هذا الجبل في أيام الصّليبيين. أمّا القلعة والقرية العربيّة الحديثة فهما داخل الأسوار، ولا يمكن الوصول إلى القمّة إلا عن طريق ممرّ منحدر متعرج. كانت «الشَّوبَك» لا تزال في أيدي الأتراك ولكن جواسيس لورَنس جاءوا يؤكدون له أن الحامية الموجودة هناك كلها من الشّوام الذين يجري الدّم العربي في عروقهم، وأن عواطفهم وأهواءهم مع الحركة الوطنية الجديدة. لذلك أرسل لورَنس مولوداً Malud وعشرة من خيرة ضبّاطه إلى الشَّوبَك ليلاً، وأتبعهم بمئتي بدوي بقيادة الشّريف عبد المعين.

ما إن وصل الشّريف عبد المعين حتى احتشد الشّوام حوله. وفي صباح اليوم

التّالي نزلت القوات السّورية والبدوية من الجبل الكلسي ودمّروا ثلاثمئة سكّة حديدية عند خط دمشق ـ المدينة بالقرب من عنيزة Aneiza. ثم حاولوا الوصول إلى الأماكن الحصينة في نهاية الخط الحديدي، حيث كان هناك سبعمئة عامل أرمني أرادوا إنقاذهم، لكن الاستحكامات التّركية كانت قويّة في المنطقة ولم يستطع العرب الاستيلاء على المراكز الأساسية. خاف الأتراك كثيراً وأرسلوا يطلبون التّعزيزات من معان وأبو اللِّسن. وكان إضعاف الأتراك لحاميتهم في أبو اللِّسن هو ما يريده لورَنس تماماً، وما كادت الإمدادات التّركية تصل حتى أمر رجاله بالانسحاب من السّكة الحديدية إلى البتراء.

بعد إخلاء حامية الشَّوبَك وخروج لورَنس الجريء من المحطة الأخيرة للسّكة الحديدية، قرّر جمال باشا، القائد العام للجيوش التّركية في سوريا وفلسطين وجزيرة العرب، وخلافاً لنصيحة الفيلد مارشال فون فالكنهاين von Falkenhayn، الذي كان قائداً للجيوش الألمانية في الشّرق الأدنى، قرّر استرداد البتراء قبل استرجاع القويرة والعَقَبة. ولهذا سيّر جمال باشا فرقة كبيرة من الفرسان وفرقة من المشاة، وعدداً من المدفعيات الخفيفة من فلسطين عبر الخطّ الحجازي إلى معان.

كانت تلك ضربة موفقة للورَنس. فأولاً، اضطر الألمان والأتراك للتقليل من قواتهم المعارضة لآلِنبي في الأرض المقدَّسة. ثانياً، كانوا يتقدّمون نحو الفخّ الذي نُصب، لهم إذ كان لورَنس يؤمن بأنه إن كان لا بدّ من خوض قواته البدوية غير النّظامية للمعركة في الجبال النّائية لأدوم القديمة، فسوف تمكنه قابلية حركة جيشه الفائقة في النّهاية من هزيمة أيّة جيوش نظامية عالية الكفاءة والتّدريب.

أما مولود بك، فقد كان ساعد لورَنس الأيمن في معركة البتراء ومن أعجب الشّخصيات التي ظهرت في الثّورة العربيّة، بالإضافة إلى مظهره الخارجي الرّائع. كان يلبس حذاءً عالياً أرجوانياً ذا مهماز تُسمع له خشخشة موسيقية كلما حرك قدميه، كما كان يحمل سيفاً طويلاً من سيوف القرون الوسطى، وكان له شاربان يتدليان على وجهه كأحد أشرار الأفلام المثيرة. ولكن لم يكن هناك في الجيش العربي كله من

يماثله شجاعة وسحراً. إنه ابن شيخ بدوي وأمّ شركسية، وقد أظهر منذ طفولته حماساً ووطنية عربيّة. درس العلوم الحربية الحديثة دراسة واسعة على أمل أن يستخدم هذه العلوم ذات يوم في إسقاط الحكم التّركي ومساعدة بلاده على الاستقلال. وكان قد أمضى أيضاً ثلاث سنوات يدرس العلوم العصرية الحربية في جامعة تركية وقد استطاع خلال هذه المدة الطّويلة أن يخفي نزعته الوطنية إلا أن أمره افتضح أخيراً فكان نصيبه الطّرد من الجامعة والنّفي من تُركية.

عاد عندها إلى البادية حيث عُيّن سكرتيراً خاصاً لابن رشيد، أحد أمراء وسط جزيرة العرب. وجد مولود بك فرصاً سانحة كثيرة للاشتراك في حوادث النّهب والسّلب التي كانت تتكرّر يومياً، واستطاع أن يخلق لنفسه شهرة عظيمة في القتال حتى إن الأتراك رأوا من الحكمة أن يصفحوا عن ماضيه وأن يدعوه للرّجوع إلى تُركية والانضمام إلى الفرق الخيالة التّركية. وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية رُقّي مولود بك إلى درجة ضابط لكنه قُدّم لمحكمة عسكرية وسُجن بتهمة التّآمر على السّلطان العثماني. وبعد أن أُطلق سراحه اشترك في محاربة الإنكليز في بلاد الرّافدين وقُبض عليه قرب البصرة. وأخيراً انضمّ إلى جيش فيصل، وبلغ من جرأته وإقدامه أنه لم يخرج مرّة من معركة إلا جريحاً وبلغ من تهوّره أنه كان لا يتردّد في الهجوم على الجيش التّركي بمفرده.

اختار جمال باشا معان، أهم محطة على الخط الحجازي بين البحر الميت والمدينة، لتكون مركزاً لثلاث فرق تتألف من سبعة آلاف جندي وعدد من المدفعيات الخفيفة وأسطول من الطّيارات الألمانية. قصدت إحدى هذه الفرق قلعة الشَّوبَك وعسكرت فيها واتّخذتها قاعدة لها، أمّا الفرقة الثّانية فجاءت من الجنوب عن طريق «أبو اللِّسن» والبسطة، والثّالثة تحركت مباشرة من معان متجهة شرقاً. وجّه الأتراك تحرّكاتهم بحيث يتجمّعون كلهم في البتراء في الحادي والعشرين من شهر أكتوبر.

وفي الوقت ذاته كان لورَنس وجماعته في معقل حصين في عاصمة الأنباط القديمة، وراء تلك الصّخور الضّخمة، هذه الاستحكامات الطّبيعية القويّة التي استطاعت يوماً

ما أن تقف في وجه جيوش الإسكندر الأكبر. ولأول مرة بعد مرور قرون طويلة تعود الحياة إلى هذه الممرّات الصّامتة الضّيقة. أشعل البدو النّيران في مذابح الآلهة القديمة، ووقف الحراس ليل نهار فوق الأماكن الأثرية المرتفعة يراقبون مجيء الأتراك. وكنت ترى البدو في غرف القبور الواسعة يجلسون جماعات جماعات إلى ساعة متأخرة من الليل، ويقصّون قصصاً لا نهاية لها ويترنّمون بالأهازيج والأغاني الحربية الحماسية. أقام لورَنس في معبد إيزيس (أي الخزنة)، وهو القصر الوردي الواقع في مدخل الفجّ الصّخري. ولو شاء لأخذ يتخيّل وصيفات إيزيس وهن يرقصن أمام آلهتهن.

لكنه بدلاً من ذلك، أرسل إلى الشّيخ خليل إلجي Elgi في القرية المجاورة وطلب منه أن يجمع كل النّساء القادرات على الخروج لأميال حول المكان حتى يساندن فرقه الحربية. لم تنتسب النّساء العربيات إلى فرق الصّليب الأحمر أو الفيالق المتحرّكة أو خدمات المقاصف كما فعلت أخواتهن الغربيات أثناء الحرب، لكنهن طالما شجّعن رجالهن على القتال. كن يقفن في المؤخرة خلال الحروب القبلية الدّائمة يمتدحن رجالهن وينشدن أناشيد الأبطال البدويين، ويطلقن صيحات اللوم إن لم يندفع رجالهن ببسالة إلى خضم المعركة. قبل عدّة قرون كانت الفرق المتقاتلة في الصّحراء تضع بضع نساء في المقدّمة بلباسهم الزّاهي وهن يحملن رايات القتال. لكن هذه هي المرة الأولى في تاريخ العرب التي تخرج فيها النّساء في كتائب مسلّحة للاشتراك في المعركة.

هبّت النّساء البدويات اللواتي يقطن بجوار البتراء للنّجدة بشكل رائع. لقد تخلين عن صنع السّمن والغزل واحتشدن عند مسكن لورَنس بقيادة زوجة الشّيخ خليل. لم يكن هناك لباس رسمي يقدّم لتلك البدويات المقدامات، بل جئن حافيات بأثوابهن القطنية الطّويلة الزّرقاء وقد وضعن الأساور الذّهبية في أيديهن والحلق في آذانهن وأنوفهن، ثم تجمّعن من كل الجهات ليشكلن فرقة الموت. لقد استجبن لنداء لورَنس، الذي كان يعوزه بعض الرّجال، وحاربن ببسالة عظيمة كأزواجهن وإخوانهن، ولعبن دوراً مهمّاً في دحر الأتراك.

تذكّـر لورَنـس الدّفاع المنيع الـذي وضعه الملوك الأنباط القدماء وفشـل على إثره جيش الإسـكندر في الاسـتيلاء على البتراء، فقام بوضع النّسـاء البدويـات عند الممرّ الضّيق مقابل معبد إيزيس للدّفاع عن المدينة. كان حماسـهن شـديداً ولـم يكنّ بحاجة إلى أيّ تدريب ليصبحن فارسـات قديرات. لقد اختبأن خلف أعمدة المعبد، وكان مع بعضهـن أولادهن غير النّاضجين بعد، وقمن بحمل ببندقياتهن لحماية الممرّ الذي لم يكن يتسـع سـوى لبعض من الأتراك والألمان يمشـون جنباً إلى جنـب. التزم الرّجال بمواقعهـم ولـم يصبهـم الهلع حتـى عندما انقضـت الطّائـرات الألمانية علـى المعبد الحجـري وألقت بقنابلها على الشّـوارع والمسـرح والمـدرّج المائي. لكنهم تشـبّثوا ببندقياتهم بقوة لمّا سـقطت قنبلة ألمانية فوق أحد مدافعهم مباشرة فمحته وطاقمه من على وجه الأرض.

أما لورَنس فكانت مهمّته في ذلك الحين إصدار الأوامر من على المرتفع الشّمالي. كان معه خمسـون شاباً بدوياً انتقاهم بنفسه من الذين يمتازون بالرّكض والجري، وقد برهنوا في تلك الموقعة على مقدرة عجيبة في الإسراع بنقل الجرحى، وكانوا ينطلقون بسـرعة كالأرانب البرية ويتسـلقون الصّخور بخفة الظّباء ورشـاقتها. ولو شـاهد أحد الموقعة من الأماكن التي كان يعسـكر فيها العرب ورأى البدو رجالاً ونسـاءً في ثياب الصّحراء يمتطون الخيول والجمال عارية من السّـروج ويسـتعملون كل سلاح ابتكره العقل الإنسـاني منذ فجر التّاريخ، ولو غضّ المرء الطّرف عن الاستحكامات الحديثة التّركية والثّياب الرّصاصية التي كان الأتراك يرتدونها وعن سرب الطّيارات، لخيل إليه أنـه يـرى موقعة البتراء ليس بين العرب والتّرك بل بين سـكان أدوم القدماء وملوك بني إسرائيل.

لـم يكن مـع لورَنس غير أربعـة مدافع، ولكنه اسـتطاع أن يحمي مسـافة تقرب من خمسـة أميال جنوبي البتراء مدّة سـت سـاعات، قتل في أثنائها ستين تركياً دون خسائر تذكـر مـن طرفه. ولكن تطـوّرت الحالة بعد ذلـك وأظهر العدو نشـاطاً وتقدّم الأتراك والألمـان يحاولـون الوصـول إلى العرب علـى الرّغم مـن الرّصاص الـذي كان ينثره

هـؤلاء عليهـم كالرّمـال، فرأى لورَنـس أن لا مناص من إخلاء المكان وأرسـل نصف رجالـه ليحتلّـوا تلاً آخر جنـوب البتراء، والنّصـف الآخر إلى التّلّ في الجهة الشّـمالية المقابلـة. وكان بين الفريقين «وادي موسـى» الذي يبعد ميلاً واحـداً عن المنطقة التي يضيق فيها ليصبح مجرّد شق يخترق الجبال جنوبي المدينة.

ابتهـج الأتراك بالاسـتيلاء على خنـدق التّلّ الأول وكانوا متأكديـن بأنهم قد هزموا قوات لورَنس، فما كان منهم إلا أن اندفعوا من قمّة الجبل بحماسة وهبطوا إلى الوادي ظناً منهم أن العرب قد انسحبوا إلى البتراء. في تلك الأثناء كان لورَنس ورجاله مختبئين فـوق تلال البتراء. أقبل الأتراك وانتظر لورَنس حتى دخل منهم حوالي ألف جندي في المضيـق وعندئذٍ أمـر جنوده بإطلاق النّار. وعندما انحشـر الأتـراك داخل أضيق جزء مـن الممرّ بالقـرب من مدخل المدينة، أطلق أحد معاونيه صاروخاً في الهواء كإشـارة لبدء الهجوم. بعد ذلك بدقيقة واحدة عمَّ الصّخب جبال أدوم وصبَّ العرب شلالات مـن النّـاَر من كل حدب وصوب، وبدا صـوت البنادق وكأنه آتٍ مـن الصّخور. قامت البدويـات والأطفال بدحرجة الأحجـار الضّخمة من فوق الحافة على رؤوس الأتراك والألمـان الذيـن كانوا وقتها في بطن الوادي على بعد مئـات من الأقدام، بينما أطلقت النّسـاء اللاتي كن خلف أعمدة معبد إيزيس النّار بشـكل مسـتمرّ. ارتبك الجنود الغزاة وذُعروا وتفرقوا في كل الاتجاهات، واستمرّ العرب على التّلال يدمّرون ما تبقى منهم.

قبـل أن تميل الشّـمس للغـروب وراء الجبال الوردية، أرسـل لورَنـس ومولود بك إشارة ثانية لرفاقهم، وصاح مولود: «انهضوا يا أبناء الصّحراء». وظهر الرّجال من وراء الصّخـر مـن كل الجهات وعلا هتاف «اللـه! الله!» من حناجر المئـات من البدو وهم ينزلون من التّلال إلى الوادي.

استولى العرب على وسائل النّقل التّركية والمشفى المتنقّل، وأسروا مئات الجنود. تراجعـت القـوات التّركية المؤلّفة من ألـف جندي تراجعاً منتظماً إلى البسـطة Busta وشـقوا طريقهم بعد بضعة أيام إلى معان، وأبو اللِّسـن. تسلل لورَنس بعد المعركة إلى صفوف الأتراك متخفياً وعاد يحمل نسخة من التّقرير الذي يصف فيه الأتراك المعركة،

ممـا جعل العرب المنتصرين يقهقهون عالياً لدى سـماعه. جاء فـي التّقرير: «لقد قمنا باقتحام تحصينات البتراء وكانت إصاباتنا اثني عشـر جريحاً وأربعة وتسـعين جريحاً، أمّا خسائر العرب فكانت ألفاً من القتلى والجرحى، وكان هناك بين القتلى جثث سبعة عشر ضابطاً بريطانياً».

كان الضّبّـاط البريطانيـون المتواجدون في ذلك الجزء من جزيرة العرب، باسـتثناء لورَنس، في العَقَبة على بعد مئات الأميال. وكان لورَنس نفسـه يرتدي الثّياب البدوية. أمّـا خسـائره فكانـت اثنين وعشـرين قتيـلاً وجريحاً. يبـدو أن الأتراك قـد أخطأوا في تقديراتهم بتسعمئة واثنين وسبعين شخصاً فقط!



اليَشْمَق الحديث الذي ترتديه سيّدات القاهرة
يمثّل نسخة شفّافة عن النّقاب الذي ترتديه نساء جزيرة العرب



الأمير فيصل والشّريف لورَنس
يتباحثان مع بعض شيوخ البدو

الفصل العشرون

«أهلي في البيت»

قال لورَنس: «إذا كانت النّســاء لم يلعبن دوراً مهمّاً في الحرب التي اندلعت نيرانها فـي أرض «ألف ليلة وليلة» فسـبـب ذلــك أن رجـالهـن يلبســون التّنانيـر ويرفضون لبس الثّياب الدّاخلية». ثـم استطـرد قـائلاً: «وربما كان هذا أحد الأسباب التي حبّبت إلـيَّ جزيـرة العــرب، فإنـي لا أعــرف بـلاداً مثلهـا الحكم السّـائد فيهـا هو للرّجال فقط».

مع ذلك كان الكولونيل لورَنس يعارض بشدة من يقول إنّ الرّجل في جزيرة العرب هـو السّـيد المطلق وما المرأة سـوى عبدٍ لـه. على الرّغم من أنه يقـول: «إنّ المرأة هي الشّـيء الذي يسـتمتع به الرّجل، بل يعدُّهـا لعبة يتلهّى بها متى وكيف شـاء». وبالرّغم من أن «المعرفة من حقّه، ولها الجهل»، وأنّ «المجد والعُلى له، ولها الظّلام والأسر»، وأنـه «هـو الآمـر النّاهي، وهـي المطيعة طاعـة عميـاء»، فلا تـزال تمتلك تأثيـراً كبيراً غير مباشـر، لكننا لـم نسـمع أو نرَ منها سـوى القليل. لم يسـمع سـكان جزيرة العرب بآراء مسـز كات أو مسـز بانكهرسـت، وبالرّغم مـن أن ملك الحجاز يظهـر في برامج الأخبـار، فـإن جلالة الملكـة لا تُذكر أبداً. لقـد حضر الأمير فيصل مؤتمـر الصّلح في فرسـاي كرئيـس المفاوضين العرب، لكـن زوجته، التي أصبحت فيمـا بعد أول ملكة فـي بغـداد، لـم تصحبه في رحلته. وإن عاصمة حسـين بـن علي هي مدينة لا يُسـتقبل فيها الدّبلوماسيون الأميركان وزوجاتهم. وليتصوّر القارئ كم ستكون الحياة مملّة في لندن أو نيويورك لو حاول أهلها تقليد سكان مكّة في عاداتهم. سيُحرمون ولا شك من

رؤية الموظفات السّاحرات اللواتي يملأن المكاتب، كما أنه لن يكون هناك رقص في الفنادق والمطاعم أو أسواق خيرية أو حركة سياسية نسائية.

لا يقف الرّجل العربي عندما تدخل المرأة كما نفعل نحن في الغرب. وهو لا يأكل مع امرأته بل ينتظر منها أن تقوم على خدمته، وعندما يخرج بنزهة على جمله يتركها وحيدة في الدّار، وفي أكثر الأحايين تمكث نساء المدن في ديارهنّ أسبوعاً أو أكثر دون الخروج منها. في جدّة، على سبيل المثال، تتنزّه النّساء عصر يوم الخميس خارج المدينة حتى يجتمعن حول قبر أمّنا حواء. ولكن على الرّغم من حياتهن المنعزلة هذه فقد نبغ منهن في السّياسة عدد غير قليل. والواقع أنك تجد في بلاد العرب كثيرات ممن تتبّعن خطا ملكة سبأ في حكمتهن وفتنتهن، واستطعن جعل «أسيادهن» يقبّلون التّراب الذي تدوسه أرجلهن.

ومع أنه يجوز للرّجل المسلم أن يتزوج من أربع نساء في وقت واحد، فإن هذه العادة ليست متفشّية إلا بين الأغنياء عندما يكون في وسع أحدهم أن يستأجر لكل زوجة من زوجاته داراً خاصة. هذا في المدن فقط، وفي الحقيقة من الصّعب جداً أن يجمع الرّجل زوجاته الأربع تحت سقف واحد ويعيش معهنّ بسلام. إن الملك حسين والملك فيصل والأمير علي والسّلطان عبد الله ملك الأردن وغيرهم من القادة البارزين، كلهم لم يتزوّجوا سوى مرة واحدة.

والمرأة العربيّة العقيم يكون مصيرها الطّلاق في أغلب الأحيان، ولا يتحدّث العربي عن امرأته إلا في ما ندر، وإذا تحدّث عنها يقول: «أهلي في البيت» أو «أم ابني علي». والعرب لا يستقبلون المولود الأنثى بالرّضا. ولكن عندما يولد الطّفل، ذكراً كان أم أنثى، تبدأ الأم في اتخاذ التّدابير اللازمة لدرء العين الشّريرة عنه، وكثيراً ما تلجأ إلى تعليق تميمة حول عنقه. وتفضّل البدويات الشّعور المسترسلة على المجعدة ولهذا يبذلن ما بوسعهن لفك أية عقدة في خصلات شعور أطفالهن.

في بعض أجزاء الصّحراء هناك قانون غير مدوّن يقول: إذا هاجم بدوي فتاة بين شروق الشّمس والظّهر يُجلد بقسوة، أمّا إذا اعتدى الرّجل على الفتاة بين الظّهر

وغروب الشّمس يكتفون بالغرامة وحدها، وإذا اعتدى عليها ليلاً في الوقت المفروض أن تكون فيه تحت حماية أهلها فلا يلقى أية عقوبة.

والبدوي يقدم على الزّواج عادة عندما يبلغ العشرين أو الرّابعة والعشرين من عمره، أمّا الفتاة فتتزوج في أيّ وقت بعد بلوغها الثّانية عشرة. وسماسرة الزّواج الفنيون والخاطبات المحترفات لا يزاولون في بلاد العرب هذه المهمّة اللطيفة مجاناً، بل يستجدون العطايا من العريس. يقدّم العريس مالاً لعروسه حسب المتفق عليه، لكنه لا يرى خطيبته إلا بعد وقوع الفأس في الرّأس. لا تقوم أم العروس باستدعاء الجارات والخياطات المحترفات لتفصيل جهاز العروس وفق مجلات الموضة الحديثة، بل تكتفي باستعارة شال من الكشمير تضعه على كتفي ابنتها.

ومن أبشع الأعمال التي تزاولها المرأة في الشّرق الأدنى هي «الندب»، فالنّادبات يُستأجرن فيبكين الميت ثم يُختم العويل بصراخ يقطع نياط القلب.

وإنّ عادة الإسراع في دفن الموتى تؤدّي أحياناً إلى مشاكل مؤلمة. هناك رواية تروى في جدّة عن أحد الاسكتلنديين المعيّنين هناك في بداية الحرب. يروى أن الرّجل مات نتيجة مرض غامض فحُمل خارج المدينة ليدفن في رمال الشّاطئ بعد لفّه بالعلم البريطاني، وكانوا قد أرسلوا قارباً من جدّة يحمل مذكرة إلى الحكومة في لندن بنبأ وفاة الضّابط. لم تكد مراسيم الدّفن تنتهي، وبينما كان الرّجال في طريق عودتهم إلى المدينة، حتى سمعوا وراءهم صياحاً فاستداروا ورأوا الجثة تركض نحوهم ملفّعة بالعلم البريطاني. يبدو أن الضّابط الاسكتلندي كان في حالة غيبوبة فقط، وبعد دقائق من دفنه في الرّمال الرّخوة هاجمته السّرطانات وأعادته إلى الحياة. لم تنتهِ القصة بذلك فحسب، ولكن ألقي القبض على هذا الضّابط في لندن عندما أبرز هويته في البنك لصرف أحد الشّيكات.

ربما كانت الفروق بين المرأة البدوية والحضرية أعظم من الفروق بين البدوي النّحيل وقريبه الحضري البدين. فالمرأة الحضرية تكون على الغالب بدينة بيضاء، بينما ترى البدوية نحيلة سمراء. ولدى العديد من زعماء البدو أربع زوجات معاً،

وبعض الأغنياء منهم يتزوّجون خمسين امرأة لكن بجمع أربع فقط في الوقت نفسه. أحد أسباب زواج البدوي بثلاث أو أربع هو تسهيل العمل المنزلي. أمّا الزّوجات الأربع فيعشن في خيمة واحدة في سلام نسبي عجيب، ولا تنظر البدوية إلى الرّجل بأنه ملكية خاصة بها كما نفعل في الغرب.

والبدويات أكثر جهلاً من رجالهن، ويصرفن قدراً كبيراً من أوقاتهن في حضّهم على القتال، ويعزى لهن إبقاء الضّغائن ونبش الأحقاد الدّفينة.

ليس لبدو الصّحراء وسيلة لتحديد الوقت، فلا توجد لديهم أيام أحد أو اثنين، ولا عام 1925 أو 1926، وعندما يولدون فهي «مشيئة الله»، ثم يكبرون ويموتون «بمشيئة الله»، لذلك لا تجد إحراجاً عند سؤال المرأة البدوية عن عمرها إذ لا تدري شيئاً عن عدد سني حياتها.

والبدويات ثرثارات بشكل مخيف، وكلما جلسنا نتحدّث عن العادات الغربية في خيمة شيخ بدوي، ويفصلنا عن الحريم الحاجز الرّقيق الذي يقسم الخيمة إلى قسمين، حتى تطلّ نساء الشّيخ برؤوسهن من فوق الحاجز لدى سماع الحديث عن سافرات المدن اللواتي يرتدن دور السّينما وقاعات الرّقص وميادين لعب الغولف، ويصرخن بانفعال: يا للقرف! يا للابتذال! يا لقلة الأدب والأخلاق!

باستثناء الأمثلة التي كان العرب أنفسهم يذكرونها، كان لورَنس يتحاشى الحديث عن النّساء، فهو موضوع شائك كالحديث عن الدّين.

وفي ذات يوم كان لورَنس جالساً في خيمة الشّيخ عودة أبو تايه يتحدّث عن النّساء، فأخذ يروي له ما رآه من اللندنيات وكان لورَنس يكاد لا ينتهي من الجملة حتى يرى الشّيخ يضرب على ركبته بشدة ويزمجر كالأسد قائلاً: «آه، لو كنت أتمتّع يوماً واحداً بالحياة في لندن»، ثم ترى نساءه يقتحمن المكان ويوبّخنه بشدة.

تحتفظ البدويات بجمالهن عادة حتى سن الثّلاثين، وبعد ذلك...! كلهن قصيرات نحيلات، ولا يجدن المتعة إلا في خيامهن. والبدويات سافرات لا يعرفن البراقع

ولكنهن يعمدن إلى وشم وجوههن وصبغ شفاههن باللون الأزرق، ويلبسن في كل المناسبات أثواباً قطنية زرقاء غامقة لكنهن لا يكشفن شعورهن أمام الملأ.

يبتاع البدوي لامرأته حلياً من الذّهب المطروق، وقد تجد عند بعض الحريم حلياً ذهبية تقدر بألف جنيه إنكليزي أو أكثر. ومن قوانين الصّحراء أن كلّ الحلي تعد ملكاً شخصياً للمرأة، فإذا طلقها زوجها فإنها تحمل هذه الحلي معها. وإذا أراد البدوي تطليق زوجته يكفي أن يقول لها أمام الشّهود: «أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق». وهذا ما يدفع البدويات لاتخاذ الاحتياطات اللازمة وجعل كل ثروتهن في صورة حليّ خفيفة الوزن.

يبدأ تعليم النّساء في الخيام، وتمضي البدوية معظم وقتها في حلب الجمال والماعز وفي صناعة الزّبدة، فتجعل الحليب كالخثارة وتعصرها بيديها ثم تضعها على سطح الخيمة حتى تجف تماماً، وعندما تجف تصبح قاسية كقطعة من الصّخر لا تُقطع إلا بسكين، وقد تعجز السّكين أحياناً عن قطعها. وكان لورَنس يحتال على الزّبدة بسحقها بين حجرين ثم مزجها بالماء لتصبح كالحليب الرّائب.

يعتقد كثير من البدو أن المرأة مصدر كلّ شرّ، ويقولون إن جهنم مليئة بهن. والقصائد البدوية التي يتغنى بها شعراء البدو تشفّ عن بُغض للنّساء أكثر مما تعبّر عن حبّ خالص لهن. إليكم بعض الأبيات من ترجمة للسّير ريتشارد بُرتون:

قالوا تزوج،

قلت أنا حر،

لمَ أحمل على كاهلي

كيساً مليئاً بالأفاعي؟

لا بارك الله بالنّساء.

مـن الهيّن جداً على البدوية أن تنظّـف الخيمة أو تقوّضها، والقبائل تغادر مكاناً من الصّحراء حالما تنضب المراعي المجاورة. والطّبقات الأرستقراطية من البدو لا تقتني الخـراف والماعـز، بل تكتفي بالجمـال والخيول. لا يقتني البـدو ممتلكات كثيرة ولا يتقيّـدون ببقعـة واحدة من الأرض، بـل يملكون قدر حاجتهم وهم من أكثر الشّـعوب تمتعاً بالحرية.

سـأل مرة الشّـيخ نوري الشّـعلان لورَنـس أن يحدّثه عن بعض العـادات الأوروپية فقـال: «لـو زرتني يا شـيخ نوري فـي داري في إنكلتـرا لأحضرتُ لك امرأتي الشّـاي بنفسـها». لم يكد الشّـيخ نوري يسـمع هـذا الحديث حتى صفّق بيديـه وأمر زوجة من زوجاته بتحضير الشّـاي، وأبى إلا أن يتناول لورَنس الشّاي في شقة الزّوجة، وهو فعلٌ يتنافى تماماً مع قوانين البادية.

البـدو قوم لبِقـون، ومهما كان الغريب يرطـن باللغة العربيّة فإنهـم يقبلونها منه ولا يحاولـون تصحيـح أخطائـه. ولكن عندما تدخـل خيمة البدو يجـب أن تلقي فوراً كل مـا تحفظه من عبـارات مهذبة، وعندما تريد مغادرة الخيمة تسـتطيع الانسـحاب دون إلقـاء حتـى كلمة وداع. وكثيراً ما كنتُ أرى أحد البدو يدخلون خيمة لورَنس وهو يقرأ فيحيّيهـم ويجلسـون على أعقابهم بينما يسـتمرّ لورَنس في القـراءة. وبعد برهة يقفون ويغادرون الخيمة بهدوء. لكن لم يكن لورَنس ليغادر الخيمة طالما هناك ضيف عنده.

يقـول الغزالي، وهو عالم إسـلامي كبير فـي القرن الحادي عشـر: «الزّواج نوع من العبوديـة، إذ تصبـح الزّوجة ملكاً للزّوج، ومن واجبها بالطّبـع أن تطيعه في كل الأمور التي يطلبها منها سوى ما يخالف شريعة الإسلام». يباح ضرب المرأة في الإسلام، كما يباح جعل سـبايا الحرب ملـكاً للرّجل الذي يفوز بهن. ويعتقد المسـلمون أنّ الكذب محلـل في حالات ثلاث: فـي الحرب، وعند الإصلاح بين الأصدقـاء، وفي الحديث مع النّساء.

بالنسـبة للمسـلم، تُعدّ الجنة واحة فيها شـجر نخيل وينابيع متلألئة وجمال سـباق، وفيهـا يسـتطيع الرّجـل أن يتّخـذ ما شـاء مـن النّسـاء. وهذا ما يفسّـر شـجاعة العرب

والأتراك، إذ يؤمنون بأنهم إن ماتوا في معركة ضد الكفار فسيذهبون مباشرة إلى الجنة.

مع ذلك تجد العرب يحبّون النّسـاء، وتعبّر قصائدهم الشّـعرية عن افتتانهم بجمال المرأة:

إن قلبي لأشدّ من جذور الجبال،

وسمعتي طيّبة كرائحة المسك.

وأجد متعتي في صيد السّباع البرية،

والوحوش القابعة في أوكارها.

ثم تأتي ظبية لطيفة لتوقعني في حبائلها،

وهي تتهادى برقّة بين نبتات الخزامى.



الأمير فيصل ممتطياً جواده العربي المفضّل



الكولونيل جويس، قائد القوّات العربيّة النّظاميّة

الفصل الحادي والعشرون
متخفّياً بين صفوف الأتراك

يحمـل العرب كلهم تقريباً نوعاً من التّمائم التي تجلب الحظ، ولا يزال الإيمان بالجان شـائعاً بينهـم. رأيـت ذات يوم شـيئاً معلّقاً في رقبة عـودة أبو تايه، الزّعيـم البدوي، وكانت نسـخة مصغـرة من القرآن الكريم لا يزيد قياسـها عـن بوصة مربعة واحدة كان قد اشـتراها بأكثر من مئتي جنيه إنكليزي. أراني تلك النّسـخة متباهياً بها أعظم مباهاة. ولاحظ لورَنس فـوراً عندمـا وقع نظره عليها أنها قد طبعت في غلاسـغو وأن الثّمـن المكتوب على غلافها الدّاخلي هو ثمانية عشـر پنسـاً فقط. علمنا أن الشّـيء الوحيد الذي كان العرب يخشونه هو الأفاعي، ويعتقدون أن طريقة الحماية الوحيدة منها هي التّمائم التي تعلّق حول الرّقبة.

هناك آلاف من الزّواحف في أجزاء معينة من الصّحراء. وتمتدّ أخطر منطقة للأفاعي في الشّـرق الأدنى من الجوف إلى الأزرق قرب الآبار الضّحلة قليلة الغور الواقعة في شـمالي الصّحراء العربيّة، وهناك تجد، بالقرب من أماكـن تواجد المياه عادة، الكوبرا الهنديـة، والأصـلات المنتفخـة، والحيـات السّـوداء التي تشـبه السّـياط، وغيرها من الأنواع التي تعدّ في أغلبها خطرة ومميتة. ذات يوم قام لورَنس برحلة مع ثمانية عشـرة مـن رجالـه فتوفي منهم خمسـة في الطّريق بسـبب نهش الأفاعي. وبدلاً من اسـتعمال التّريـاق الكحولي المعتاد، توكّل لورَنـس، كرفاقه البدو، على الله. وفي جزيرة العرب كثيـراً ما تنسـلّ الأفاعي ليلاً إلى خيام النّائمين طلباً للـدّفء، لكنها لا تلدغ إلا إذا خان النّائـم الحـظ وأراد أن يتقلب مما يتسـبب في إخافتها. ومـع أن ضمائرهـم غير مرتاحة بشكل عام، فإنهم ينامون بعمق!

عندما كان لورَنس ورجاله يخرجون ليلاً في حملات استطلاعية في منطقة الأفاعي، كانوا يلبسون الأحذية ويحرصون على ضرب كل بقعة من الأرض قبل أن يطؤوها وكذلك كل شجيرة تعترض طريقهم. عندما كان العربي يُنهش كان رفاقه يقرؤون له بعض آيات من القرآن، فإما أن يعيش وإما أن يموت، وكلّه بمشيئة الله.

بالرّغم من أن العرب كانوا يعلمون بأن لورَنس مسيحي، فقد كسب ثقتهم لدرجة أن كانوا يدعونه أحياناً للصّلاة معهم. كان يفعل ذلك لإرضائهم فقط، لكنه كان يحفظ كل الصّلوات المهمّة لكي يكون جاهزاً في حالات الطّوارئ التي قد يكون عدم اشتراكه في الصّلاة فيها سبباً في إحراج الأمير فيصل والملك حسين في حضور أفراد من القبائل الغريبة. ولحسن الحظ لم تحدث حالة الطّوارئ تلك أبداً.

عندما كان لورَنس يصلي مع البدو في بعض المناسبات، فقط ليرضيهم، كانوا يسجدون على سجاجيد الصّلاة ميمّمين وجوههم شطر مكّة. كان أحد الشّيوخ يقوم بدور الإمام فيقومون بالاقتداء به في حركات منتظمة ويردّدون مقاطع من القرآن. هناك صلوات في الصّباح وأخرى في الظّهر ثم ثالثة عند مغيب الشّمس، لكن الكلمات المردّدة تبقى نفسها تقريباً. ولاحظت أن لورَنس ورجاله يلتفتون في نهاية الصّلاة تارة إلى اليمين، ثم إلى اليسار قبل النّهوض، ولما سألته عن السّرّ في هذه الحركة قال لي إن هناك ملكين يقفان إلى جانبي كل شخص يصلّي. يسجّل الملك الأول الأعمال الطّيّبة والملك الثّاني يسجّل الأعمال السّيئة، وإن من العادة أن يسلّم المصلي على كل منهما بعد أن يفرغ من صلاته. ومع أنه يُطلب من المسلم الحقيقي الصّلاة خمس مرات، فإن لورَنس وجماعته كانوا يكتفون بالصّلاة ثلاث مرات فقط في اليوم، وإلا لأمضى الجيش العربي في صلاتهم وقتاً أطول من الذي يمضونه في القتال.

لقد تمكن لورَنس من التّغلب على العقبتين الرّئيسيتين اللتين واجهتاه بين البدو بشكل خاص، ألا وهما كونه أجنبياً ومسيحياً. لم يقابل البدو من الأجانب إلا الأتراك، وكانوا يحتقرونهم ويعدّونهم قوماً بدائيين بينما يعدّون أنفسهم من العقلاء المتفهمين. أمّا المسيحيون الوحيدون الذين يعرفونهم فهم مسيحيو السّاحل السّوري الأصليون

والأرمن الذين اعتادوا على الخضوع والاستسلام بدلاً من إظهار الشّجاعة، وهؤلاء أيضاً يبغضهم العرب. كانوا يتجاهلون كون لورَنس مسيحياً لأنهم يرون أنه من العيب أن يتفوّق مسيحي عليهم في الأمور التي يتميّزون بها عادةً. مع ذلك كانوا في بعض الأحيان يطلبون منه تلاوة صلواته بصوت عالٍ، وكان يتلوها ببلاغة.

كان تشارلز م. داوتي Charles M. Doughty، الرّحالة والشّاعر، هو الرّجل الوحيد كما أعلم، باستثناء لورَنس، الذي تجوّل في أنحاء جزيرة العرب بحرّية كرجل مسيحي. أمّا المستكشفون الآخرون في الأرض المقدَّسة فقد تخفّوا بهيئة أشخاص مسلمين. ضرب داوتي رقماً قياسياً في الفرار من الموت، وربما يرجع الفضل في نجاته إلى أنه كان يتنقّل دائماً دون سلاح، ولم يفعل شيئاً خفية قط. لم يكن يحمل معه مالاً، وكان يقوم على مداواة المرضى بالأدوية البسيطة التي كانت معه، وبإعطاء اللقاحات للعرب. كان رجلاً مسناً مثقفاً ويعيش الآن في منطقة تقع على السّاحل الجنوبي من إنكلترا. تربطه بلورَنس أواصر الصّداقة، ويعزو الشّاب الفضل الأكبر إلى صديقه بكسر الجليد وإفساح المجال له ولرفاقه بالعمل مع البدو أثناء فترة الحرب. وفي الحقيقة فإن كتاب داوتي *Arabia Deserta* كان المعين الأكبر للورَنس في حملاته العسكرية.

لم تكن الثّياب الرّائعة التي كان لورَنس يرتديها ثياباً مسرحية، بل كانت قطعة منه وجزءاً من خطته التي أحكم وضعها. أجل، كان يريد لورَنس أن يتّخذها وسيلة للسّيطرة على العرب. بالرّغم من أنه لم يلجأ إلى إخفاء دينه أو جنسيته، فقد كان عربياً من حيث المظهر الخارجي. وإذا استثنينا أماكن معينة قليلة، كان لورَنس يرى أن التّنكر يفيده أكثر من الظّهور بصفته الضّابط البريطاني المسيحي. لو كان لورَنس يريد أن يظهر كبدوي صميم، لكان من المحتّم عليه أن يطيل لحيته، وهو أمر لم يكن ليفعله حتى لو توقف مصير الإمبراطورية البريطانية عليه. لجأ لورَنس أكثر من مرة إلى التّخفّي في زي امرأة بدوية واخترق صفوف الأتراك. لكنه كان ينصح الضّبّاط البريطانيين الذين يودّون زيارة المناطق العربيّة والاختلاط بالبدو أن يلبسوا الكوفيات العربيّة لا بهدف التّنكر

بـل من قبيـل المجاملة. يتحامـل البدو على لبس القبعـة ويعتقدون بـأنّ إصرارنا على لبسـها يسـتند إلى مبادئ لا دينية. إذا لبسـتَ القبعة الأنيقة الحديثة أو القبعة النّمساوية المخملية، فإنّ أصدقاءك وأقرباءك سيتبرؤون منك.

كان لورَنس يقول: «البس الكوفية والعقال والعباءة تكسـب ثقة العرب وصداقتهم، مما يعدّ أمراً مستحيلاً لو أنك بقيت بملابسك الأوروبية. لكن التّسربل بالثّياب البدوية له مخاطره كما أنّ له حسناته وميزاته. فالبدوي يذهب في تسامحه مع الأجنبي إلى أبعد مدى ويغتفر له خطيئاته وزلّاته مادام في ثيابه الأوروبية، ولا يفعل ذلك إن كنت مرتدياً الملابس العربيّة. وهو ينظر إليك نظرة الألمان إلى الممثل الإنكليزي الذي يظهر لأول مـرة على المسـرح الألماني. ولكـن حتى هذا التّمثيل لا ينطبق تمامـاً، فالأجنبي الذي يزور بلاد العرب لا يمكث ساعات أو أياماً بل يتعرّض للخطر ليل نهار. ويأتي النّجاح التّام عندما ينسـى العرب جنسـيتك ويتحدّث معك بشكل طبيعي». وعلى قدر علمي، فإن الكولونيل لورَنس هو الشّخص الأوروبي الوحيد الذي تقبَّل العرب وجوده بينهم كفرد منهم.

ينصـح لورَنس الأجنبي بارتداء الثّياب العربيّة ويقـول إنه في مقدوره أن يجد أفخر الثّياب التي تكسبه أجمل وأروع مظهر، وكان يقوله: «قلّد الأشراف والبس كما يلبسون إذا كانوا يسمحون لك بذلك. وإذا صمّمت على اختيار الثّياب البدوية فمن الضّروري أن تسـتمرّ فـي ذلك إلـى النّهاية. اتـركْ أصدقاءكَ الإنكليـز وعاداتـك الإنكليزية على الشّـاطئ واقتبس العادات العربيّة كاملاً. إذا استطعت التّفوق على العرب فقد تمكنت مـن بلـوغ النّجاح الباهر، لكن الجهد الذي سـتبذله فـي العيش والتّفكيـر بلغة أجنبية، والطّعام السّيئ، والملابس والطّرق الغريبة، مع الفقدان الكامل للخصوصية والهدوء، واسـتحالة إهمالك لتقليد الآخرين لأشـهر عديدة، كل ذلك يضيف عبئاً جديداً يجعل من الأمر الذي أنت مقدمٌ عليه بحاجة إلى تفكير عميق».

عندمـا لا يكـون لورَنس مشـغولاً بقيادة حملة عسـكرية أو زرع الألغام على سـكّة الحجاز الحديدية، كان يتنكّر في ثوب امرأة بدوية، ويتسـلّل إلى صفوف الأعداء. كان

ذلك هو أفضل أنواع التّنكر بهدف التجسّس، لأن الحرّاس الأتراك كانوا يرون أنه من العار عليهم أن يتعرّضوا للمرأة بالجملة المألوفة: «قف، من هناك؟». كان بين الحين والآخر يخترق مئات الأميال داخل أراضي العدو، حيث جمع الكثير من المعلومات التي ساعدت جيوش الفيلد مارشال آلِنْبي وقوات الأمير فيصل العربيّة على القضاء على الأتراك بطريقة لم يرَ التّاريخ لها مثيلاً إلى يومنا هذا.

وجد لورَنس في إحدى المرّات وقت فراغ لديه مدّته أسبوعان ينتظر فيهما أن يجمع «عودة أبو تايه» أفراد قبيلة «الحويطات»، فرأى أن يصرف هذه الأيام في مداعبة الأتراك. اصطحب بدوياً واحداً من قبيلة عنزة يسمى دغمي Dahmi وعبرا معاً خطوط الأتراك متخفيين بثياب النّساء المعتادة، وتابعا طريقهما إلى تدمر حيث كان لورَنس يأمل بالاجتماع بشيخ بدوي كان له أكبر النّفوذ على البدو، وكان على يقين من أن هذا الشّيخ يتعاطف مع الثّورة العربيّة. كان عليه أن يقطع ألف ميل للوصول إلى هذا الشّيخ على الفُرات، لذلك ركب لورَنس ودغمي ناقتيهما وسارا قاصدين بعلبك، هذه المدينة الأثرية السّورية المشهورة بمعابدها وآثارها الفخمة التي تنافس بجمالها معابد آثينا وآثارها. كان تعيش هناك قبيلة نصف بدوية من المتاولة، وكانت على صلات طيبة مع الملك حسين والأمير فيصل، مع أنهم قد أجبروا على التّعاون مع الأتراك. أراد لورَنس زيارة هؤلاء القوم ليتأكد من مساعدتهم للثّورة العربيّة بعد عدة أشهر، أي عندما تتقدّم قوات الحجاز وجيوش آلِنْبي لتبعد الأتراك شمالاً عبر الأراضي السّورية. كانت خطته تقضي بأن يثير حماس كل القبائل السّورية حتى يقضّوا مضاجع الأتراك، ويصدّوهم عن أراضيهم.

قبل وصول لورَنس إلى بعلبك بميلين، انزلق بخفة عن ناقته وخلع ثيابه العربيّة وارتدى بشجاعة ثياب ضابط إنكليزي دون أن يضع الرّموز والشّعار. كانت بعلبك لا تزال على بعد مئات الأميال على الشّمال من الخط الذي يفصل قوات آلِنْبي عن الجيوش التّركية، وكان الإنكليز على بعد بضعة أميال شمالي القدس. أمّا الفرق التّركية التي كانت تطوف شوارع بعلبك فكانت تحيي لورَنس وكأنه أحد الضّبّاط الألمان. لم يكن

هذا أمراً غير عادي، إذ لو مرّ ضابط پروسـي من الهوصار بشـارع وايتهول Whitehall في لندن أثناء الحرب، لحيّاه دون شك الحرّاس الخيّالون. كانت نظرية لورَنس هي أنه أهون للمرء أن يسير بشجاعة وحرّية في ثياب رسمية إنكليزية في الأرياف التّركية، من أن يراوغ بطرق مثيرة للرّيبة. وبعد أن ألقى نظرة سريعة على التّحصينات حول بعلبك، حـاول زيارة المدرسـة الحربية التّركيـة حيث يتمّ تدريب الآلاف من الضّبّاط الشّـبان. لكنه ما كاد يصل إلى أبواب المدرسـة حتى سـارع الحرس إلى سدّ الطّريق أمامه فرأى أنه من الأسلم له أن يرجع دون طلب التّحيّة.

عـاد لورَنـس إلى تنكّـره وذهب إلى خيـام المتاولة حيث خلع النّقاب وكشـف عن هويتـه. تجمّع الشّـيوخ حول أمير مكّة الجديد وعَلَت أصواتهـم مطالبين القيام بالثّورة العربيّة في الحال، لكن لورَنس شـرح لهم أن الوقت لم يحن بعد، وحاول حثّهم على العمل المستقبلي وروى لهم أنباء الانتصارات جنوباً في الحجاز. لقد وجدهم متشوّقين للقيـام بغزوة من أيّ نـوع، فقبل بمرافقتهم إلى ما كان يدعوه بالعرض السّـينمائي. من خـلال احتكاكه بالقبائـل البدوية اكتشـف أن الصّخب هو من أفضل أشـكال الدّعاية. لذلـك اصطحـب ليلاً كلّ رجال القبيلة ونسـائها وأطفالها إلى الخط الرّئيسـي للسّـكة الحديديـة التّركية التـي تمرّ بالقسـطنطينية وحلب عبر بعلبك إلى بيـروت. اختار أحد أقوى وأكبر الجسور في الشّرق الأدنى كهدف للهجوم الليلي. وبعد زرع ألغامه تحت نهايتي الجسر وكل المناطق المحصّنة، حمل السّلك الكهربائي والتّوصيلات إلى قمّة تـلّ قريـب كان المتاولة يتّخذون منه مكاناً للفُرجة. وفي اللحظة الحاسـمة ضغط على زر التّوصيل ونسـف الجسر في الهواء ليصبح كتلة من اللهب والدّخان. اقتنع المتاولة جميعهم بقوة الحلفاء وعاهدوا لورَنس بأن يكونوا الجند المخلصين للملك حسين.

مـن هنا انطلق لورَنس ورفيقـه البدوي الوحيد عبر الأراضي السّـورية متجهين إلى دمشـق. اجتازوا الأسـواق ليـلاً حتى وصلوا إلـى قصر علي رضا پاشـا، وكان الحاكم العسـكري للأتراك. بالرّغم من كون علي رضا ضابطاً رفيع المكانة للجيوش العثمانية في سـوريا، فقد كان يتعاطف سـرّاً مع الحركة القومية العربيّة. بعد عشـاء تلك الليلة،

وبعد شرب أكواب لا تُحصى من القهوة المحلّاة، أخبر علي رضا لورَنس أن اتّساع الخلاف بين الأتراك والألمان سيسهم في نجاح الحلفاء نجاحاً باهراً في فلسطين وجزيرة العرب. فقد أصبح الألمان متعجرفين في تصرفاتهم لدرجة أنهم كانوا يعاملون الأتراك كالكلاب. وبالتالي أصبح شعور الأتراك تجاه الألمان مريراً، وكلما أصدرت الإدارة العامة الألمانية أمراً كان الأتراك يبذلون أكبر الجهد حتى يعرقلوا تنفيذه.

وحدث أن فالكنهاين القائد الألماني العظيم قد نصح الأتراك قبل أسابيع نصيحة قيّمة، لكنهم لم يقبلوها فضلاً عن عدم تقبّلهم لفولكنهاين نفسه كقائد أعلى لهم. ونتيجة لرفض مشورته فوجئوا بعد ذلك بالقوات المتّحدة البريطانية والعربيّة، فلم يفقدوا المناطق التي نصحهم فالكنهاين بمغادرتها فحسب، بل خسروا دمشق وسوريا بأكملها التي كان بإمكانهم المحافظة عليها.

بعد تناول لورَنس للعشاء اللذيذ، والتّزوّد بالمعلومات التي يريد الوقوف عليها من قائد العثمانيين في دمشق، انسلّ مع البدوي دغمي إلى الصّحراء متجهين جنوباً إلى حوران، بلدة الدّروز، وهم قوم يقيمون في خيامهم حول جبل عالٍ اسمه جبل الدّروز. يعود انعزال قبيلة الدّروز إلى ديانتهم الغريبة، وهي عقيدة سرّية تقوم على عبادة الحاكم، وهو خليفة مصري مخبول في العصور الوسطى. ولطالما عانى الأتراك من هذه القبيلة المستقلة المشاكسة عند محاولة إخضاعها للسّلطة العثمانية أو إرغامها على دفع الضّرائب للسّلطان. وبين هذه القبيلة والقبائل العربيّة الأخرى أحقاد دموية قديمة، لكن لورَنس قام بزيارة شيوخها وأحضر لهم الهدايا الفريدة، فتمكن من كسب صداقتهم وإقناعهم بالتّحالف مع فيصل والاستعداد لمساعدة جيشه عندما يقترب من دمشق. ولو أن لورَنس ارتكب خطأً واحداً، لما كان له وجود في هذا المكان. لذلك ركب مع مرافقه دغمي وطلال، وهو شيخ بدوي مشهور في كل أنحاء جزيرة العرب، وتجوّل الثّلاثة حول دمشق ودرعا وحوران يستطلعون أماكن الدّفاع التّركية. ثم قام لورَنس باستكشاف السّكة الحديدة التّركية من جهاتها الثّلاث عند التقائها في درعا، ووضع في ذهنه ملاحظات مهمّة للخطوط الشّمالية والجنوبية والغربية، سيكون من

الضّرورة بمكان قطعها عند قيامه بالهجوم الكبير على دمشـق. بفعله هذا، كان معرّضاً لأخطـار جسـيمة، لكن إتقانـه للتنكر وإلمامه بلهجـات المنطقة قد أنقذاه من شـكوك الأتراك، وإلا لأردوه قتيلاً كأي جاسوس من الجواسيس.

حدث وأن نجا من خطر محدق، فبينما كان يطوف في أزقة درعا غير مكترث بالأخطار الجسـيمة التـي يتعرّض لهـا من وراء إقدامـه على هـذه المجازفة، وقد تنكّـر بحيث يخيل للنّاظـر أنـه ابن الشّـيخ طلال، قبـض عليه جنديـان تركيان في السّـوق على أنـه هارب من الجيـش التّركي، إذ كان يتوجّب على كل رجل عربي قادر على القتال أن ينضمّ إلى جيوش الإمبراطوريـة العثمانية. أخذوه إلى مقر القيادة وضربـوه حتى أغمي عليه، ثم رموه خارجاً بعد أشرف على الهلاك. وبعد أن استعاد وعيه زحف بمشقة وفرَّ تحت جنح الظّلام.

حتـى تجواله فـي ثوب امرأة كان يجلب عليه مصاعب كثيـرة. ففي عمّان، في تلال مـؤاب شـرقي الأردن، كان لورَنس قد اجتـاز الحدود التّركية متخفّيـاً في ثوب غجرية مـن البـدو. أمضى فترة ما بعد الظّهر يجوس خلال الأماكـن الدّفاعية المحيطة بمحطة السّـكة الحديديـة، وبعد أن قرّر أنه سـيكون مـن غير الممكن للعرب الاسـتيلاء عليها بسبب الحامية العسكرية الكبيرة وقوة المدفعية هناك، توجه عائداً نحو الصّحراء. لكن بعـض الأتـراك راقهم جمال هذه «المـرأة» البدوية فراقبوها ثم سـاروا وراءها أكثر من ميل يحاولون استمالتها والسّخرية منها، لكن لورَنس عرف كيف يصدّهم عنه.

كانت بلدة الكَرَك، الواقعة على الطّرف الجنوبي من البحر الميت، من أهمّ المواقع التّركيـة الدّفاعية على حدود الصّحـراء العربيّة. وفي إحدى الليالـي تنكر لورَنس بزي بدويّـة وتجـوّل داخل خطوط العدو مع الشّـيخ طـراد بن نويرس مـن قبيلة بني صخر، ووجـد أن هنـاك ما لا يزيد عـن ثلاثمئة تركي فقط. أقيمت وليمة عشـاء في تلك الليلة وجلس لورَنس مع الشّيخ طراد وأحد أصدقائه من الكَرَك. واحتفالاً بالزّوّار ذبح رجال القبيلة الخراف والماعز وأوقدوا ناراً عظيمة في الشّوارع ثم طفقوا يرقصون ويهزجون حول النّيران ويغنون أغانيهم الحربية حتى ساعة متأخرة من الليل. استولى الهلع على أفراد الحامية التّركية فلزموا حصنهم لم يبرحوه.

بعـد انتهـاء الاحتفـال غادر لورَنـس ومرافقـه الكَرَك عائديـن إلى العَقَبـة. وجاءت النّتيجـة كما أملها لورَنس؛ لقد طلب الجنود الأتراك النّجدة من فلسـطين فأُرسـل ألفا جندي من القوات المضادة لآلِنبي إلى الكَرَك. وبهذا حقّق لورَنس الهدفين اللذين كانا في ذهنه، فقد تجوّل في منطقة العدو بشـكل واسـع ونشـر دعاية كبيرة للحركة الوطنية العربيّـة بيـن القبائـل التي كانـت لا تزال ترزح تحت الحكـم التّركي المسـتبدّ، كما أنه حصل على معلومات كافية ليملأ بها مجلداً عن خطط القائد الأعلى للجيش الألماني. لقد قام باستكشاف ما وراء الحدود التّركية بشكل شامل ودقيق لدرجة أنه، أثناء حملته الأخيرة، كان يعرف المنطقة بنفس الدّقة التي كان عليها الأتراك أنفسهم.



سيّارات مصفّحة في جزيرة العرب المقدّسة



مدافع لورَنس الجبليّة خلال العمليّات

* * *

الفصل الثّاني والعشرون

أكبر خدعة بعد حصان طروادة

بعـد احتـلال ميناء العَقَبة القديم، اجتاحت ثورة الأشـراف كل أنحاء سـوريا، وبعد الاعتـراف نهائيـاً بأن الجيش الحجـازي هو السّـاعد الأيمن لجيش آلِنبـي، أصبح من المحتّم أن تكون حركات لورَنس ملائمة ومطابقة لخطط آلِنْبي الحربية.

وكان الجنـرال الإنكليـزي يومئـذٍ الحاكم المطلـق في جنوبي فلسـطين، من وادي الأردن إلـى شـواطئ البحر الأبيض المتوسّـط حتـى جنوب جبل الكرمـل، المعروف منـذ أقدم العصور باسـم جبل الله. لقد أسـهمت حملته الأولى فـي خريف عام 1917 فـي تحرير بئر السّـبع، الموطـن الأول للنّبيين إبراهيم ولوط، وغزّة، عاصمة فلسـطين حيث خانت دليلة شمشون، وحبرون (الخليل) Hebron، حيث دُفن إبراهيم وإسحاق وسـارة وربقة Rebecca في كهف مَكفِلاه Machpelah. كما أسفرت أيضاً عن تحرير يافـا، الميناء الرّئيسـي لفلسـطين منذ أيام النّبيين داود وسـليمان قبـل ثلاثة آلاف عام، وكذلك سـهول فلستيا Philistia وسـهول شارون Sharon، وأهم من ذلك كله تحرير المدينتين المقدَّستين بيت لحم والقدس من الاستبداد العثماني.

أما أرض السّـامرة Samaria القديمة ومدينة النّاصرة Nazareth وكل الجليل Galilee والسّـهول السّاحلية في شمال فلسطين وكل الأراضي السّورية، فلا تزال ترزح تحت وطأة الأتـراك، لذلـك لم تكتمل نتائـج الحملة تماماً. كان هناك خياران أمـام آلِنْبي: فإما أن يدفع الأتراك شـمالاً بشـكل تدريجي، وإما أن يسـحق القوات التّركية في الشّرق بضربة قاصمة. اختار القائد العام الخيار الثّاني الذي يحمل في طيّاته مخاطرة كبيرة.

لقد قرّر أن يبدأ هجومه شمالي يافا والقدس في شهر يوليو من عام 1918. لكن في شهر يونيو، عندما كان لودندورف يقوم بشن الهجوم الأخير على باريس وموانئ القناة، كان الحلفاء يعانون من الضّغوطات الشّديدة في أوروبا الغربية بحيث أرسلوا إلى آلِنْبي يطلبون منه إرسال تعزيزات إلى فرنسا.

تعارض ذلك الأمر كلياً مع خطط آلِنْبي، وأصبح من المحتم عليه الآن خلق جيش جديد. كان هذا الخبر مفاجئاً لكن إنكلترا الحديثة عمدت فوراً إلى تشكيل جيش جديد معظمه من الفرق الهندية في بلاد الرّافدين ومن فرسان القوى الأستراليّة والنّيوزلنديّة ANZAC بقيادة الجنرال الأسترالي هاري شوفيل Harry Chauvel الذي كان قائداً لأضخم فرق خيالة شاركت في الحروب على الإطلاق. وبدلاً من مهاجمة الأتراك في شمال فلسطين في يونيو أو يوليو، أصبح من العسير الآن القيام بذلك قبل شهر أكتوبر أو نوفمبر. كان لورَنس مقتنعاً بأن مثل هذا التّأخير من شأنه أن يصعّب عليه إمداد ميمنة الجيش بالمساعدة المرجوّة. عندها سيكون البدو راغبين في الارتحال بقطعانهم إلى مراعيهم الشّتوية على هضاب وسط جزيرة العرب، بالإضافة إلى خبرته بأن أمطار الخريف سوف تعيق أيّة عملية عسكرية يرجى القيام بها.

شرح كل ذلك للقائد العام الذي تفهّم الوضع فقام بتشكيل جيشه الجديد بسرعة خيالية بحيث تصبح قواته قادرة على التّحرّك خلال ثمانية أسابيع من تاريخ وصولها من بلاد الرّافدين. وفي نهاية شهر أغسطس أرسل طائرة إلى جزيرة العرب تحمل رسالة إلى لورَنس يعلن له فيها عن استعداده للانضمام إلى الهجوم في سبتمبر بدلاً من أكتوبر أو نوفمبر.

ولما كان آلِنْبي يدرك افتقار جنوده للخبرة والمراس، رأى أن السّبيل الوحيد للقضاء على الأتراك هو ألا يأخذهم بالقوة في القتال وجهاً لوجه، بل أن يعتمد على المكائد والحيل. وصمّم على إيهام الأتراك بأن جيشاً بريطانياً يتحرّك على طول نهر الأردن من البحر الميت إلى الجليل، لكن توجّب أن يكون هذا الجيش زائفاً. أثناء الإعداد لهذه الخدعة كانت خطة آلِنْبي الأولى تقضي بنقل كل المستشفيات التي تُحمل على

الجمال من جنوب فلسطين إلى وادي الأردن على بعد خمسة عشر ميلاً من خطوط النّار التّركية. ثم جاء بمئات من الخيام الممزّقة المشحونة من مصر، ونصبها على ضفاف نهر الأردن، ثم سحب كل المدافع التي كان قد غنمها من الأتراك فأوصلها إلى وادي الأردن ووجهها نحو الأتراك المعسكرين في تلال مؤاب. أتى بعد ذلك بعشرة آلاف بطّانية ونشرها على أغصان الأشجار في الوادي وربطها بطريقة يخيل لمن يراها أنها خيول مصفوفة بنظام. كما أنشأ خمسة جسور معلّقة جديدة فوق النّهر.

امتلأ وادي الأردن بكل التّجهيزات التي توهم بوقوع معركة كاذبة. والواقع أنه لم يقدم أحد قبله، منذ أن احتل اليونان طروادة بواسطة حصانهم الشّهير، على مغامرة كهذه، في مقاومة الجيوش النّظامية عن طريق التّغرير والإيهام.

وعندما حلقت طيارات الاستكشاف الألمانية فوق الأردن،عادت فوراً إلى مركز القيادة التّركية العليا بنبأ تهيئة آلِنْبي لفرقتين جديدتين في المنطقة. لقد كان الجيش الوهمي الذي أعده الجنرال بارثولوميو، وهو من ضبّاط آلِنْبي، مُحكماً بحيث لم يخطر في بال الألمان والأتراك أن يكون زائفاً. ولحسن الحظ كانت الرّقابة دقيقة وشديدة فلم يستطع معها جاسوس ألماني أو تركي الوصول إلى اكتشاف هذه المؤامرة الكبرى المدهشة. أسهم لورَنس أيضاً في خداع الأتراك، فقبل الموعد المحدّد للهجوم بقليل جاء ثلاثمئة فرد من فرق الهجّانة في فلسطين لمساندته، وكانوا بقيادة الكولونيل روبن بَكستون، وهو جندي موهوب كان يعمل قبل الحرب كموظف بارز في مصرف لومبارد ستريت Lombard Street. وبتوجيه من الميجور مارشال W. E. Marshall قامت الفرقة بمهاجمة حامية تركية مهمّة في المدوّرة حيث حدث اشتباك رائع لمدة عشرين دقيقة، وذلك في الثّامن من شهر أغسطس.

بعد معركة المدوّرة، ضم لورَنس فرقة الهجّانة إلى البدو وقادهم بالاتجاه المعاكس لعمّان، إلى شرق الأردن. كانت تلك مجرّد خدعة لكنها أثبتت للأتراك أن وادي نهر الأردن كان محتشداً بقوات آلِنْبي. أرسل لورَنس أحد أبرز شيوخ بني صخر إلى دمشق بعد أن أعطاه سبعة آلاف جنيه ذهبي وطلب منه شراء الشّعير. تجول هذا الشّيخ في

المدن والقرى على الحدود الشّرقية لسوريا يشتري الشّعير بكميات كبيرة. كان الأتراك يعلمون أن خيّالة الأمير فيصل لن تستهلك هذه الكميات الكبيرة من الحبوب، فأيقنوا أن الشّعير ذاهب إلى قوات آلِنْبي في وادي الأردن. كما أشاع لورَنس بين صفوف الجيش العربي أنّ الفرقة الرّئيسية للأمير فيصل تعتزم الهجوم على الخط الحديدي في درعا بين عمّان ودمشق.

علّق لورَنس قائلاً: «في الحقيقة كنا ننوي مهاجمة درعا، لكن الإشاعة سرت في كل مكان بحيث رفض الأتراك تصديقها. ثم أسررنا إلى بعض الأشخاص أننا كنا نركز قواتنا فعلاً نحو عمّان. لكن ذلك لم يكن صحيحاً». تسرب هذا الخبر بالطّبع إلى الأتراك الذين قاموا على الفور بنقل القسم الأكبر من قواتهم إلى ضواحي عمّان، تماماً كما خطط آلِنْبي ولورنس.

عندما بدأ تقدّم الجيش العربي، لم يكن الأمير فيصل والكولونيل جويس والكولونيل لورَنس يعلمون أن الهجوم سيتركّز في درعا. وفي أوائل شهر سبتمبر بدأ لورَنس التّحرّك شمالاً من رأس خليج العَقَبة لمساندة آلِنْبي في هجومه النّهائي. ولكن بدلاً من اصطحاب أتباعه البدو من الحجاز، باستثناء حرّاسه الخاصين، شكل لورَنس جيشاً جديداً من قبائل شمال الصّحراء العربيّة، واستمر جويس بدعمه بأعداد متزايدة من الفارّين من الجيش التّركي.

عندما انطلقت قافلة لورَنس في وادي عربة من رأس خليج العَقَبة، كانت مؤلفة من ألفي جمل تحميل، وأربعمئة وخمسين جندي نظامي عربي يركبون الجمال السّريعة، وأربعة مدافع رشاشة عربيّة، وطائرتين، وثلاث سيارات رولز رويس مصفَّحة، وفرقة من خيرة الرّجال المصريين الهجّانة، وكتيبة من هنود الغورخا Gurkhas يركبون جمالاً عالية من صحراء السِّند، وأربعة مدافع ثقيلة يقوم على تشغيلها فرنسيون من أصل جزائري. علاوة على كل ذلك، كان لديه مئة بدوي من حراسه الخاصين المتميّزين. فكانت قواته بذلك تحتوي على ألف رجل يركبون الجمال.

كان شعار لورَنس في هذه الحملة، كما في غيرها من الحملات، «لا تتفرّقوا!».

كان عليه أن يقطع خمسمئة ميل عبر صحراء مجهولة وبصعوبات تنقّل كبيرة. لقد ساروا في إحدى المراحل لمدة أربعة مرات بين حفرة ماء وأخرى وهم يحملون قراب الماء معهم ويعانون من العطش. وعندما وصلوا إلى حفرة الماء الجديدة شربوا حتى ارتووا ثم اكتشفوا أن الماء مليء بالعلقات، التي التصقت بالأغشية المخاطية لأنوفهم وتسبّبت بآلام شديدة. تمكّن الفريق من إنهاء الرّحلة في أربعة عشر يوماً، وكانوا يسرعون بجهة الشّمال حتى يقطعوا طريق السّكة الحديدية التّركية وكل خطوط التّلغراف حول درعا. كان الهدف الرّئيسي للورَنس هو منع الأتراك من الاتصال بدمشق وحلب والقسطنطينية عندما يبدأ آلِنْبي تحرّكه.

نجحت خدعة الجيش الوهمي في الأردن نجاحاً باهراً. وفي الحقيقة كان هناك، في ذلك الجزء من الأرض المقدَّسة، ثلاث فرق تتألف اثنتان منها من اليهود القادمين حديثاً من الجزر البريطانية والولايات المتحدة.

لو كان الأتراك يعلمون ذلك لأرسلوا كتيبة واحدة تأتي من وراء تشكيلات آلِنْبي لتقوم باسترجاع القدس! كان آلِنْبي يغامر مغامرة كبرى، وهكذا يفعل الرّجال العظام.

لقد زوّد القائد العام فرقه في وادي الأردن بمؤن تكفيهم ثلاثة أسابيع فقط، لكي يتمكن من استخدام كل وسائل النّقل للجيش الأساسي. اهتاج فريق التّزويد وقالوا إنه يجب إعطاء الفرق التي في الأردن مؤناً تكفي ثمانية أسابيع، لكن آلِنْبي كان يعلم أنه آمن تماماً طالما أن خطّته بالضّربة القاصمة كانت تسير على خير ما يرام.

لقد أحسّ آلِنْبي أنه لن يكون من الأمان الاشتباك في معركة مع الأتراك بهذا الجيش الصّغير غير المدرَّب، ولهذا كان هدفه الوحيد هو أن يغري كل التّعزيزات التّركية بالاتجاه إلى المكان الخاطئ، أي إلى وادي الأردن.

تم تحديد الهجوم الزّائف لآلِنْبي قرب أريحا في الثّامن عشر من سبتمبر. حرصت الاستخبارات البريطانية على تسرب هذا «السّرّ»، وبالطبع كان الأتراك جاهزين لتلقّفه. أمّا الهجوم الحقيقي فقد تم في التّاسع عشر، وعندما استفاقوا واكتشفوا الخدعة كانت

الحـرب في الشّـرق الأدنى قد انتهت، ووقع معظمهم أسـرى للعـرب أو للبريطانيين. لـم يحدث الهجوم بالطّبع في وادي الأردن بل بعيداً على الجانب الآخر من فلسـطين إلى الشّـمال من يافا على سـاحل البحر الأبيض المتوسـط. كانت معظم فرق المشـاة والخيالـة قـد نقلت إلـى هناك ليلاً، وبقـوا مختفين داخل بسـاتين البرتقال حتى صباح المعركة الحقيقية التي قصمت ظهر الإمبراطورية العثمانية.



الجنرال جعفر باشا من بغداد



«فيصل الأول، ملك بغداد»

الفصل الثّالث والعشرون

معركة الخيّالة والبحرية وآخر حملة للورَنس

كان الطّريق الوحيد لجلب كل الذخائر والمؤن التّركية من شمال سوريا هو السّكة الحديدية الواصلة بين دمشق وفلسطين وعمّان والمدينة. وكانت خطة لورَنس هي التّسلل عبر بحر الرّمال والالتفاف حول النّهاية الشّرقية للخطوط التّركية والظّهور فجأة في الصّحراء وراء الأتراك لقطع كل اتصالاتهم في المنطقة المحيطة بدرعا. لكن إحدى المصاعب الكبرى التي واجهته في إنجاز هذه المهمّة كانت تزويد فرقته بالمؤن الكافية. حتى سياراته المصفحة وطائراته لم تكن تستطيع حمل ما يكفي من الوقود لتسييرها. تبلغ المسافة من العَقَبة إلى واحات الأزرق Azarak مئتين وتسعين ميلاً داخل الصّحراء الملتهبة. لم تكن هناك آبار سوى في أمكنة ثلاثة يمكن للجمال الارتواء عندها، وكان على الفرقة الصّغيرة العيش على كميات قليلة جداً من الماء.

استراحت الفرقة في منطقة الطَّفيلة، وهي قرية ذات ستة آلاف نسمة، حدثت بالقرب منها أغرب مرحلة في الحملة كلها. سارت فرقة من الخالين البدو ليلاً بقيادة أبو ارقيق Irgeig من بئر السّبع إلى قاعدة بحرية للعدو قرب الطّرف الجنوبي للبحر الميت، غير بعيد عن مدينتي سدوم وعمورة القديمة. كان الأسطول التّركي في البحر الميت مؤلفاً من بضع سفن عتيقة، وكانت هناك مراكب آلية مسلحة بمدافع خفيفة تتجوّل على طول الشّاطئ. كان الضّبّاط يتناولون طعام الفطور في مقصف قريب دون أن يحسّوا باقتراب القوات المعادية. رأى أبو ارقيق Irgeig أن السّفن خالية سوى من بعض الحرّاس، فأمر رجاله بالتّرجّل. وبسرعة فائقة صعدوا على متن المراكب

كالقراصنة المتوحّشين وهاجموا الطّاقم وأغرقوا القوارب، ثم ركبوا خيولهم الأصيلة واختفوا داخل الصّحراء قبل أن يتسع الوقت للأتراك المذهولين لإدراك ما حدث. قد تكون هذه هي المرة الأولى في التّاريخ التي ينتصر فيها الخيالون في اشتباك بحري.

كانت خطة لورَنس الأساسية أن يضم قبيلة الرّوَلة تحت لوائه، وهي قبيلة تمتدّ إلى مساحة واسعة من الصّحراء العربيّة الشّمالية، ومن ثم النّزول من هضبة حوران للقيام بالهجوم على درعا. لم يتحقق أيّ من ذلك بسبب الخلاف البسيط غير المتوقع الذي نشأ بين الملك حسين والجنرال جعفر باشا وكبار ضبّاط الجيش الشّمالي، ممّا عكّر مزاج قسم كبير من قوات لورَنس. وفي الوقت الذي استتبّ فيه النّظام من جديد كان الأوان قد فات، ونتيجة لذلك لم تتجمّع قبائل الرّوَلة مما اضطر لورَنس إلى تغيير خططه.

قرّر في النّهاية أن ينفذ هجوماً جوياً على السّكة الحديدية في شمال وغرب وجنوب درعا بقواته النّظامية، وأيضاً بمساعدة دروز حوران وبعض من خيالة الرّوَلة بقيادة الشّيخين خالد وطراد الشّعلان. قبل البدء بالهجوم رتّب لورَنس خدعة أخرى تتمّ في الثّامن عشر من الشّهر ضد عمّان والسّلط، لذلك أرسل رسالة إلى أفراد قبيلة بني صخر كي يتجمّعوا في الصّحراء قرب عمّان. أدّى تسرّب هذه الشّائعة، بالإضافة إلى وجود جيش آلِنْبي الوهمي العظيم في وادي الأردن، أدّى ذلك إلى تركيز انتباه الأتراك على الأردن بدلاً من المنطقة السّاحلية على البحر المتوسط شمالي مدينة يافا.

اتخذ لورَنس من واحة الأزرق Azarak مقراً له لبضعة أيام، وكان فيها قلعة قديمة رائعة تعود إلى فترة ما بين القرنين الرّابع عشر والسّادس عشر، ولها أبراج وفتحات للرّمي على نمط قلاع البارونات الاسكتلنديين. لا بـدّ أنها كانت مركزاً للإمبراطورية الرّومانية، إذ وجد الكولونيل بَكستون ضمن الآثار حجراً منحوتاً عليه نقوش تدلّ على أن فرقتين من فرق أنطونيوس پيوس قد أقامتا فيها. وعلى الأغلب لم تزرها فرق أخرى حتى جاءها لورَنس ورجاله. يرفض العرب الاقتراب منها لأنهم يقولون إنها مسكونة من قبل كلاب صيد مسعورة تجوس حولها ليلاً. أمّا لورَنس فكان يحلم بأن يجعل من قلعة الأزرق Azarak بيتاً له بعد انتهاء الحرب.

في الثّالث عشـر من هذا الشّهر غادر لورَنس واحات الأزرق Azarak وسار باتجاه سـفوح هضاب السّـلط، ترافقه القوة الصّغيـرة التي نظّمها بهدف الهجـوم على درعا. وصلوا بعد يومين إلى التّايهة Umtaiye التي تبعد ثلاثة عشـر ميلاً إلى جنوب شـرقي درعـا، وحيث انضم رجال قرى حوران كلهم تقريباً إلى الجيش العربي. كان من بينهم الشّـيخ طـلال الحريدين مـن طَفَـس el Hareidhin of Tafas، وهو أفضـل مقاتل في حـوران، وكان قـد صحب لورَنس في بعض حملاته التّجسّسـية وراء الحدود التّركية. ولقـد عمل كدليل للحملة وسـاعد لورَنس في مهمّته في كل القـرى. يقول لورَنس إنه لـولا شـجاعة هذا الرّجل ونشـاطه وصدقه، لفشـلت كل خططه على يد أفـراد القبائل التي مرّوا بها والتي كانت معادية للملك حسـين والأمير فيصل. يقدّر عدد الرّجال من القرويين والبدو، الذين انضموا إلى لورَنس في حملته الأخيرة والحاسـمة في الشّـرق الأدنى، بثلاثين ألفاً.

بالإضافـة إلـى قطع خطوط الاتصال، كان في نيّة لورَنس أن يضع نفسـه وفرقته بين نقطـة اتصال السّـكة الحديديـة في درعا والجيـوش التّركية في فلسـطين ليغري العدوّ بدعم الحامية المنعزلة في درعا بفرق عسـكرية من الجبهة الفلسـطينية، التي من شأنها أن تعيـق تقـدّم آلِنبي. فـي اللحظة ذاتها، كان مـن الضّروري أيضاً بالنّسـبة للورَنس أن يقطع طريق السّـكة الحديديـة في جنوب وغرب درعا، حتى يوهـم العدو بأن الحلفاء كلهم قادمون لمواجهة الجيش التّركي في وادي الأردن.

كانـت الوسـيلة الوحيـدة المسـاعدة فـي تعطيـل السّـكة الحديدية هي السّـيارات المصفّحة. هدرت السّـيارات بقيادة لورَنس على طول الخط الحديدي وتم الاستيلاء على المركز قبل أن يتمكّن الأتراك المذهولون من إدراك الخطر الذي يحيق بهم. كان المركز يطل على جسـر مهـمّ يقع على بعد 149 كيلو جنوبي دمشـق، نُقش عليه إهداء خاص للسّلطان عبد الحميد.

قام لورَنس بزرع ألغام تحتوي على مئة وخمسين پاونداً من المتفجّرات في الطّرفين وفي المركز، وعندما أوصلهما ببعضهما تلاشـى الجسـر مع أنسام الخريف. عند إنهاء

المهمّة تابعت السّيارات سيرها بسرعة عالية لكنها علقت في الرّمال وتأخرت لبضع ساعات. وفي طريق العودة للانضمام إلى الجيش في حوران، اجتازت السّكة الحديدية الواقعة على مسافة خمسة أميال شمالي درعا، حيث استولى لورَنس على مركز آخر وهزم فرقة خيالة كردية ونسف جسراً ثانياً واقتلع ستمئة زوج من السّكك.

بعد نسف ما يكفي من السّكة الحديدية بجوار درعا لجعل نظام الإمدادات التّركي في حالة فوضى عارمة، صعد لورَنس ورجاله إلى مرتفع عالٍ يدعى بجبل عرى Tell Ara يطل على منظر شامل لدرعا على بعد أربعة أميال. وبواسطة منظاره الحربي رأى تسع طائرات على مدرج العدو. أثناء فترة الصّباح كان الطّيارون الألمان قد انطلقوا في الهواء، وكانوا يلعبون لعبة قذرة مع فرق لورَنس بإلقاء قنابلهم على العرب وقصفهم بمدافعهم الرّشاشة. حاولت قوات الأشراف الدّفاع عن نفسها من الأرض بمدفعيتها الخفيفة لكنها فشلت في ذلك إلى أن وصلت إحدى طائرات لورَنس القديمة من واحة الأزرق يقودها الكابتن جونور، واتجه مباشرة إلى وسط الكتائب الألمانية.

راقب لورَنس ورفاقه ما يحدث بمشاعر مضطربة، إذ كانت طائرات العدو متفوقة على المركبة البريطانية التّاريخية. لكن الكابتن جونور استطاع، بفضل مهارته وحظه الحسن، أن يمرّ بين الطّيارين الألمان ويقود طائرته باتجاه الغرب.

بعد عشرين دقيقة عاد جونور الشّجاع يخترق الهواء عبر أسراب طائرات العدو وأشار للورَنس في الأسفل أن الوقود قد نفد لديه. هبط على بعد خمسين ياردة من الفرقة العربيّة وانقلبت طائرته على ظهرها، فما كان من الطّائرة الألمانية إلا أن انقضت عليها وألقت قنبلة أصابتها إصابة مباشرة تحولت على إثرها إلى قطع صغيرة. لحسن الحظ كان جونور قد قفز من مقعده قبل الانفجار بلحظة واحدة، وكان الجزء الوحيد الذي لم يتحطم في الطّائرة هو مدفع لويس الرّشاش. وفي خلال نصف ساعة كان الطّيار الشّجاع قد نقله إلى شاحنة فورد وانطلق خارج درعا يمطر الأتراك برصاصه الخطاط.

في تلك الأثناء أسرع لورَنس لينضمّ إلى الفرق التي كان قد أرسلها باتجاه مزيريب،

وبعد ساعة من الوصول إليها ساعد في قطع خطوط التّلغراف التّركية بين فلسطين وسوريا. من الصّعب حقاً تقدير أهمية هذا الأمر، إذ كان يسهم في عزل الجيوش التّركية تماماً عن الإمدادات التي قد تصلها من شمال سوريا وتركية. وفي مزيريب انضمّت بضعة آلاف أخرى من السّكان إلى القوات العربيّة، وفي اليوم التّالي سار لورَنس وفرقته على طول السّكة الحديدية باتجاه فلسطين إلى قلب المنطقة الخلفيّة للأتراك. أمضوا معظم ذلك اليوم يزرعون الألغام، وبالقرب من نصيب فجر لورَنس الجسر التّاسع والسّبعين، وهو جسر كبير له ثلاث قناطر جميلة، وكان هذا العمل آخر ما قام به من الأعمال التّخريبية. ولما كان يحسّ أنها ستكون آخر عملية، فقد وضع ضعفي الكمّية المطلوبة من المتفجرات.

أمضت الفرقة في الثّامن عشر من الشّهر ليلة هادئة في نصيب بعد يوم عمل شاق. وفي الصّباح التّالي، سار لورَنس بجماله وخيوله وبدوه إلى التّايهة Umtaiye حيث انضمّت إليه السّيارات المصفحة. وأثناء النّهار حدّد موقع مطار آخر للعدو بالقرب من سكة الحديد فذهب مع سيارتين مصفحتين ليلقي نظرة قريبة. وهناك وجدوا ثلاث طيارات ألمانية أمام المبنى، ولو لم يكن هناك هذا الوادي العميق لسبقتها السّيارتان المصفحتان عندما أقلع اثنان من الطّيارين الألمان وحلقا كطائر ضخم يصبّان شلالات من الرّصاص على سيارتي الرّولز رويس. وفي الوقت نفسه كان لورَنس وطاقمه قد أجهزا على الطّائرة الثّالثة بإطلاق خمس عشرة رصاصة نحوها. عندما كانت السّيارتان المصفحتان تحاولان العودة إلى التّايهة Umtaiye انقضّ الألمان عليهما لكن قنابلهم ضاعت هباءً ونجت السّيارتان بأمان عدا شظية واحدة أصابت يد الكولونيل. وعند الحديث عن العمل الذي قامت به السّيارتان علق لورَنس قائلاً إن ذلك القتال كان متميّزاً حقاً.

في اليوم نفسه قام العرب النّظاميون بعمل رائع أيضاً يقودهم جعفر باشا بمرافقة الفصيل الفرنسي المدرّع وخيالة الرّوَلة بقيادة نوري الشّعلان.

وجعفر باشا هذا، الذي شق طريقه ببراعة في المعركة، هو من عائلة بغدادية ثرية

نبيلة، وتاريخ حياته مفعم بالمشقّات والمخاطر. ولما اندلعت الحرب كان جعفر باشا العسكري جنرالاً في الجيش التّركي، وأُرسل في غواصة من القسطنطينية إلى إفريقيا الشّمالية ليحرّض سكان الصّحراء من عرب السّنوسي على الفتنة والثّورة على الإنكليز. وقد نجح بادئ الأمر في النّصر على الإنكليز، ثم حدثت الموقعة الثّانية فكانت سجالاً بين الجيشين، ولما وقعت الموقعة الثّالثة جُرح جعفر باشا جرحاً خطيراً وهزم السّنوسيون هزيمة منكرة في Agagia قرب السّلّوم Sollum وساقه البريطانيون أسيراً، وسجنوه في قلعة القاهرة العظيمة.

حاول الهرب بعد ثلاثة أشهر، فسقط في الخندق وكسر كاحله وقُبض عليه من جديد. كان بديناً كالبرميل، مرحاً يحبّ الاستمتاع بالحياة، لكنه كان لطيفاً محبوباً فأذن له الإنكليز بالتجوّل في أنحاء القاهرة. ولما كان جعفر باشا عربياً كان من الطّبيعي أن يتعاطف مع القضية العربيّة، وذات يوم طلب من الإنكليز أن يسمحوا له بالتّطوّع في جيوش فيصل فلبّى الإنكليز طلبه، وهناك أظهر من المقدرة الحربية في شهور قليلة ما جعل الأمير فيصل يرقّيه إلى رتبة قائد عام للجيوش النّظامية التي كانت تتألف بشكل أساسي من الفارّين من الجيش التّركي، والذين كانوا يعرفون جعفر عندما كان جنرالاً في تُركية.

كان جعفر باشا قد حاز على وسام الصّليب الحديدي في الدّردنيل، كما نال وسام الهلال التّركي بعد نجاحه في حملة السّنوسيين، وبعد أن خدم مدّة من الزّمن في الجيش العربي انضمّ إلى الجيش الإنكليزي وأظهر براعة فائقة، عيّنه الإنكليز قائداً للفرقة المعروفة بفرقة «القديس ميخائيل والقديس جورج». وقلّده آلِنبي هذا الشّرف في مقره بالرّملة من أرض فلسطين. وكان الذي منحه هذا الشّرف هو البريطاني ذاته الذي كان قد أسره منذ عام، ولا تسل عن فرحة جعفر باشا وسروره لهذه اللفتة المرحة من قبل الجنرال آلِنبي.

لم يكن الدّور الذي لعبه نوري السّعيد، صهر جعفر باشا، أثناء الحرب بأقل أهمية من دور جعفر باشا نفسه. لقد بقي نوري السّعيد رئيساً لإدارة الأمير فيصل حتى تولّى

فيصل الحكم في دمشق، ثم في بغداد. ونوري السّعيد يشبه جعفر پاشا في أنه قد تلقى علومه الحربية في كلية تركية. وكان طياراً إبّان الحرب البلقانية. ثم عمل سكرتيراً للجمعية السّرّية العربيّة التي كانت تعمل على الإطاحة بالحكم التّركي. وهو رجل مغوار يحب القتال، وكلما كان القتال حماسياً حامياً تراه هادئاً رابط الجأش. وهو من سكان المدن القلائل الذين كانوا موضع احترام البدو وإعجابهم.

مضت الأمور على خير بالنّسبة للخطط المبدئية لهجوم آلِنْبي على فلسطين. ولكن لغاية الأربع وعشرين ساعة قبل بدء الهجوم في التّاسع عشر لم يكن القائد الأعلى نفسه واثقاً من النّجاح. لو اكتشف الأتراك والألمان خطته الحقيقية ولم يخدعهم أن تكون القوات العربيّة والبريطانية قد ركّزت على عمّان بهدف محاولة الاتجاه نحو وادي الأردن، ولو سحب العدو جناحه الأيمن عند منتصف الطّريق عبر فلسطين من ساحل البحر المتوسط ونهر العوجا إلى هضاب السّامرة Samaria، والذي سيكون تراجعاً بمقدار عشرة أميال عن الجبهة بأكملها، لكان الأتراك قد نجوا بأنفسهم، ولذهب هجوم آلِنْبي أدراج الرّياح، ولباءت عمليات لورَنس الباهرة قرب درعا بالفشل.

لم يكن لدى لورَنس مؤن تكفي فريقه ليومين آخرين، لذلك كان الفشل سيشكل كارثة حقيقية له. بالطّبع لم يكن آلِنْبي أو لورَنس ليعانيا من خسائر كبيرة، لكن إسدال السّتار على قضية الجزيرة وفلسطين كان سيتأخّر حتماً، وربما كانت الحرب لتستمرّ بضعة أشهر أخرى ومئات آلاف الأرواح ستزهق في الجبهة الغربية. لكن لم يكن هناك «لو»، بل سار العدو إلى الفخّ المنصوب له كما تساق الخراف إلى الذبح.

* * *

الأمير فيصل ومرؤوسوه في مؤتمر السّلام



أبولّو من جزيرة العرب

الفصل الرّابع والعشرون

انهيار الإمبراطورية العثمانية

بشـكل عامّ، كان هذا الاتحاد بين القوات البريطانية والعربيّة أحد أروع الخطط في السّـجلات الحربية. كانت لعبة شـطرنج لعبها خبراء على مسـتوى عالمي. لم تسـبقها حمـلات تشـبهها أبـداً، بـل كانت انقلابـاً على مبادئ مارشـال فـوش. لقد عـاد آلِنْبي ولورَنـس إلى حـروب ناپليون في القرن الثّامن عشـر عندما انتصـر الجنرالات بفضل التّخطيـط والتّدبير بدلاً من التّكتيكات العسـكرية (وتعني كلمـة تكتيكات العلم الذي يتضمّن تدبير المقاتلين عند خطوط النّار).

وبهـذا أصبحـت هذه العملية تعد من أبـرع وأذكى العمليات التـي جرت في تاريخ العالـم، فقد خسر آلِنْبي ولورَنس أربعمئة وخمسين رجلاً فقط على الرّغم من أنهما قد هزمـا الجيش التّركي وأسـرا ما يزيـد عن مئة ألف تركي وتقدّما لأكثـر من ثلاثمئة ميل خـلال أقلّ من شـهر وقصما ظهـر الإمبراطوريـة العثمانية. يعود جزء مـن الفضل إلى البريغاديـر بارثولوميـو. إنّ آلِنْبي رجل عظيم لكنه بحاجـة إلى رجل دقيق حادّ ليكمله. وكان هذا الرّجل هو الجنرال بارثولوميو.

وكانـت خطـة آلِنْبـي في اكتسـاح الأتراك مـن كل جانـب بضربة واحـدة لا يعرفها غيـر أربعة رجال: القائد العام نفسـه، ورئيس إدارته الميجـور ـ جنرال بولز، والجنرال بارثولوميـو، والكولونيـل لورَنس. والواقع أن الملك حسـين والأميـر فيصل لم يكونا على علم بما يجري.

وفي السّـاعة الخامسـة من صباح اليوم الثّامن عشـر من شهر سـبتمبر جاء الجنرال

بارثولوميو إلى مكتبه في الرّملة وسأل أحد الضّبّاط المسؤولين: «هل هناك أيّ تغيير؟»

أجاب الضّابط: «كلا، فالأتراك ما زالوا في أماكنهم».

قال بارثولوميو: «حسناً، لن ينتهي هذا الفصل حتى نكون قد أسرنا منهم ثلاثين ألفاً على الأقل». لم يكن يخيّل إليه بأن قوات الحلفاء ستأسر ثلاثة أضعاف الثّلاثين ألف تركي.

كان خداع العدو مثالياً بكل تفاصيله. عندما دخلت قوات آلِنبي النّاصرة، التي كانت مقراً للألمان والأتراك في فلسطين، وجدوا أوراقاً تشير إلى أن القائد الأعلى الألماني كان متأكداً بأنّ الهجوم سيتم في وادي الأردن. لقد خُدع الفيلد مارشال فون ساندرز حتى آخر لحظة.

في تلك الأثناء لم يكن لورَنس وجويس والجنرال نوري ومساعدوهم قد تلقوا أنباء عمّا يجري في فلسطين، لكنهم كانوا منهمكين ليل نهار في تدمير أجزاء من السّكة الحديدية. وفي إحدى الليالي خرج اللورد ونترتون، الذي لعب دوراً حيوياً في المرحلة الأخيرة من الحملة، خرج في مهمّة تدميرية ووضع حوالي ثلاثين لغماً على طول الخط. كان ينطلق بنفسه ليلاً من نقطة إلى أخرى داخل سيارته المصفحة. وبينما كان يسير على طول السّكة قابل جندياً سأله قائلاً: «كيف تجري الأمور؟».

أجاب ونترتون: «بشكل جيد. لقد زرعنا ثمانية وعشرين لغماً وسنفجرها خلال بضع دقائق». علّق الجندي بقوله إن هذا أمر رائع ثم اختفى. وبعد لحظات كانت المدافع الرّشاشة تنطلق من كل الجهات، وكان على الضّابط البريطاني الإسراع بالأمر. كان سائله إما ألمانياً أو تركياً، ولو حدثت القصة قبل ذلك بساعة واحدة لكانت مهمّة اللورد ونترتون قد فشلت فشلاً ذريعاً. لكن الألغام انفجرت وكان المشهد رائعاً حقاً.

في اليوم التّالي أسرع لورَنس عائداً إلى الأزرق Azarak بسيارته المصفّحة، وطار بعدها عبر الصّحراء وشمال فلسطين إلى مقر آلِنبي في الرّملة، وفي اجتماع عاجل مع القائد العام اسطاع الحصول على ثلاث مقاتلات بريستول هي من أفضل الطّائرات الحربية التي كان

البريطانيون يستخدمونها في الأرض المقدَّسة. كما عاد أيضاً بأنباء رائعة مفادها أن قوات آلِنْبي قد أسرت أكثر من عشرين ألف أسير، وأن النّاصرة ونابلس ومراكز أخرى مهمّة قد سقطت، وأن البريطانيين يتقدّمون باتجاه درعا ودمشق. يعني كل ذلك أن آلِنْبي سيستدعي الجيش العربي ليلعب دوراً مهمّاً جداً من الآن وصاعداً، لأنه كان القوة الوحيدة بين الفرق التّركية المشتتة وإقليم الأناضول الذي يجب عليهم الانسحاب إليه.

كان لورَنس قد ذهب إلى فلسطين طلباً للطّائرات، لأن الألمان كانوا يملكون تسعاً منها قرب درعا، كانوا يقصفون بها أتباع فيصل ويبيدونهم. كان أحد الطّيارين يدعى كابتن بيترز والآخر كابتن روس سميث، والذي أصبح فيما بعد مشهوراً عالمياً بطيرانه من إنكلترا إلى أستراليا. يقدّم لنا اللورد ونترتون وصفاً حياً لأحداث ذلك الصّباح في مقال رائع نشر في البلاكوودز حيث يقول: «بينما كان لورَنس والطّيارون يتناولون طعام الفطور معنا، شاهدنا طائرة تركية متجهة نحونا مباشرة. أسرع أحد الطّيارين لإنزال الطّائرة الدّخيلة، وتم له الأمر بنجاح فسقطت الطّائرة التّركية قرب السّكة الحديدية وقد اشتعلت بها النّيران. ومن ثم عاد وأكمل فطوره الذي كان لا يزال ساخناً. لكن الفطور لم يكن هادئاً أبداً في ذلك الصّباح، إذ لم يكد يصل إلى تناول المربّى حتى ظهرت طائرة تركية أخرى. أسرع الأسترالي من جديد لكن التّركي كان مراوغاً وقفل راجعاً إلى درعا فما كان من الطّيار إلا لحق به وأسقطه ككتلة من اللهب».

في تلك الليلة خسر الألمان كلّ آلياتهم المتبقية، وحلّق الطّيارون البريطانيون وحدهم في سماء الجزيرة الشّمالية وفلسطين وسوريا.

بعد الظّهر قدمت من فلسطين طائرة هاندلي بايدج Handley-Page ضخمة تقل الجنرال بُرتون، وهو قائد في سلاح آلِنْبي الجوي، وكان الذي يقود الطّائرة روس سميث. أحضرا معهما سبعاً وأربعين صفيحة من الوقود ومؤن شاي للورَنس وونترتون ورفاقهما. كانت هذه أول مرة تحلّق فيها طائرة ضخمة قاذفة للقنابل فوق خطوط العدو في وضح النّهار، وكان الهدف من وراء ذلك هو الدّعاية، وقد أعجب رجال القبائل كثيراً بهذا الطّائر الكبير الذي لم يروا أضخم منه من قبل، لدرجة أن كل

سكان حوران، الذين كانوا متردّدين في مساندة الأمير فيصل، تضامنوا فوراً مع القضية العربيّة وركبوا خيولهم مطلقين رصاص بنادقهم في الهواء ومتحمّسين للحمل على الأتراك، أو على الأقل القيام بعرض بطولي صاخب.

وفي اليوم التّالي نزلت فرقة من المشاة بقيادة جعفر باشا، القائد الأعلى لقوات الكولونيل جويس النّظامية، لإلقاء نظرة على الجسر الضّخم الأول الذي نسفه لورَنس بالدّيناميت قرب درعا. وجدوه قد أُصلح تقريباً، فشنوا هجوماً حاداً طردوا على إثره الحراس الذين كانوا من الألمان الأشداء، وخربوا معظم الخط وقاموا بإحراق الهيكل الخشبي الذي كان الأتراك والألمان قد شيّدوه خلال سبعة أيام. في هذه المواجهة العنيفة انخرط في قلب الأحداث كل من القطعة الفرنسية بقيادة الكاپيتين پيزاني، وخيّالة الرّوَلة بقيادة نوري الشّعلان.

كان نوري رجلاً هادئاً قليل الكلام كثير الأفعال. كان ذكياً جداً وواسع المعرفة وحازماً ومرحاً. أخبرني لورَنس ذات مرّة أنه لم يكن زعيم أكبر قبيلة في البادية فحسب، بل أحد أفضل الشّيوخ العرب الذين التقى بهم، وأن أفراد قبيلته كانوا كالعجينة بين يديه لأنه «كان يعرف ما الذي ينبغي فعله ويقوم بفعله».

عندما بدأ لورَنس بتنفيذ عملياته حول درعا، قام فون ساندرز تماماً بما أراد خصومه أن يقوم بفعله. لقد أرسل آخر مؤن لديه إلى درعا، وعندما اخترقت قوات آلِنْبي الخطوط الأمامية التّركية كانوا قد سبقوهم بمسافة كافية. وفي مساء اليوم التّاسع عشر قدمت الشّاحنات التّركية إلى منطقة العفّولة Afuleh طلباً للمؤن دون أن يدري راكبوها أن كل مخزونهم العظيم قد أصبح بأيدي رجال آلِنْبي. وعندما دخلوا محطة التّزويد قال ضابط بريطاني بأدب: «هل تمانعون بالذّهاب من هنا لو سمحتم؟» استغرق وصول الخبر إلى الأتراك مدّة أربع ساعات كانت قوات آلِنْبي قد استولت خلالها على العفّولة Afuleh ومنطقة التقاء السّكة الحديدية في وسط سهل جزريل[1] Esdraelon حيث تتفرّع السّكة، التي تربط بين القسطنطينية ودمشق والأرض المقدّسة، إلى فرعين يتّجه

(1) اسمه بالعربيّة: مرج ابن عامر.

الأول نحو السّامرة Samaria والآخر شرقاً إلى حيفا على البحر الأبيض المتوسط.

كانـت العفّولـة Afuleh محطّـة التّزويد الرّئيسـية للجيش التّركـي بأكمله. وبعد أن احتلّها آلِنْبي بسـت ساعات جاءت طائرة ألمانية بأوامر إلى فون ساندرز من هايدنبرغ. لم يكتشـف ركاب الطّائرة المعضلة حتى نزلوا من آليتهم ومشـوا إلى المقرّ الرّئيسـي. ولمفاجأتهم الشّديدة وجدوا أنفسهم يقدّمون الأوامر لإدارة آلِنْبي.

بحلول الرّابع والعشـرين من سـبتمبر، كانت قوات آلِنْبي قد تقدّمت مسـافة واسعة بحيث وجد الجيش التّركي الرّابع، المتمركز حول عمّان والأردن، نفسـه يهاجم خياماً وبطانيـات فارغـة، فجاءتهـم الأوامر بالعودة للدّفـاع عن درعا ودمشـق. ولقد غضب القواد الأتراك لمّا اكتشفوا أن خط السّكة الحديدية قد قُطع وراءهم وحاولوا الانسحاب شـمالاً بكل آلياتهم ومدافعهم. لم يكن في نيّة لورَنس وخيّالته فرش طريقهم بالورود، فأقام فوق التّلال ليصبّ على رؤوسـهم سـيلاً لا ينقطع مـن الرّصاص، اضطر الأتراك معه لترك مدافعهم ومركباتهم بين المفرق ونصيب.

ذُبح المئات، وتفرّقت فلول المنسـحبين إذ لم يتّسع الوقت ليعيدوا تشكيل قواتهم. وقد أضافت الطّائرات البريطانية لمسـة أخيرة على المشـهد بإلقاء القنابل على الفلول المنهزمة في كل الاتجاهات.

قرّر لورَنس البقاء بين درعا ودمشـق أملاً في الإخلاء السّـريع لدرعا وبالتالي قنص قطع الجيش التّركي المتهلهل وهي خارجة منها، وأيضاً لمضايقة بقية الجيوش التّركية في فلسـطين، والتي قد تحاول الفرار شـمالاً. لذلك سـار بسـرعة، في اليوم الخامس والعشـرين، يقـود فرقة الهجّانة باتجاه الشّـمال، وبعد ظهر اليوم السّـادس والعشـرين نزل إلى السّكة الحديدية التّركية قرب خربة غزالة Ghazale وإزرع Ezra على الطّريق الموصل إلى دمشق.

كان برفقتـه ناصـر ونوري وعودة والدّروز، وهي أسـماء قال لورَنـس عنها «إن من شـأنها أن تلجم الأطفال حتى في النّهار». فاجأ فعله السّـريع الأتراك المذعورين، فقد

كانـوا في اليوم السّـابق يعملون بحماسـة على إصلاح السّكة الحديديـة، التي خربها لورَنـس قبل أسبوع، وإعادتهـا للعمل. لكن لورَنس زرع فيها بضعـة مئات من الألغام جعلتها تتوقف عن العمل نهائياً مع حجز ستة قطارات في درعا. انتشرت تقارير الكارثة في أرجاء سوريا كما تنتشر النّار في الهشيم وبدأ الأتراك في الحال بإخلاء مدينة درعا.

وفـي فجـر اليـوم السّـابع والعشـرين كان لورَنـس وخيالته قـد اسـتطلعوا المناطق المحيطة، واسـتولوا على آليتين نمسـاويتين من المدافع الرّشاشـة كانتا قد وُضعتا في مكان مواجه للطّريق الذي قدمت منه قوات آلِنبي. صعد لورَنس إلى قمّة تلّ مرتفع في الجوار يدعى الشّـيخ سـعد؛ اسـتطاع من فوقه مسـح المنطقة بأكملها بمنظاره المكبّر. وكان كلما رأى قطعة عسكرية للعدو في الأفق كان يقفز على ظهر حصانه برفقة حوالي تسعمئة رجل من خيرة رجاله، ليقوم بدحر فلولهم. وعندما كان يرى من مكانه المرتفع فريقاً كبيراً لا يمكن القضاء عليه، كان يربض في مكانه ليتركه يمرّ بسلام.

وفي الظّهيرة جاءت طائرة إلى لورَنس برسالة تقول إنّ فرقتين تركيتين كانتا تتقدّمان منه. كانت إحداهما قادمة من درعا وقوامها ستة آلاف جندي، بينما كانت الأخرى آتية مـن مزيريب بألفي جندي. قرّر لورَنس أن يهاجم الثّانية التي تتناسـب مع حجم قواته، فأرسـل إلـى بعض القـوات النّظامية التي كانـت على بعد بضعة أميـال تحصد الأتراك كزهور الأقحوان، وأسـرع ليعترض طريق العدو قرب طَفَس. وفي الوقت ذاته أرسـل خيالـة حوران في الاتجاه الآخر للالتفاف حولهـم والمرابطة بجوار الفرقة لإزعاجها. وصل الأتراك إلى طَفَس قبل لورَنس بوقت قصير وعاملوا نسـاء وأطفال القرية معاملة وحشية إذ أمر قائدهم، شريف بك، بذبحهم جميعاً.

كان طـلال، زعيم شـيوخ قرية طَفَـس والذي كان منـذ البداية حصناً قويـاً للورَنس وأشجع خيّال في الشّرق الأدنى، كان راكباً في مقدّمة الفرقة العربيّة مع لورَنس وعودة أبو تايه عندما رأى نساء وأطفال إخوانه يسبحون في برك من الدّماء على الطّريق.

بعـد الحـرب ببضع سـنوات تـزوّج شـاعر إنكليـزي، وكان أحد أصدقـاء لورَنس، وعندمـا اعتذر لورَنس إليه لعدم امتلاكه المال الكافي لشـراء هدية زفاف لائقة، اقترح

الشّاعر أن يمنحه بدلاً من ذلك بضع صفحات من مذكراته الشّخصية. وافق لورَنس وأعدّ الشّاعر الأوراق لتنشر في أميركا. وكان الجزء المباع يتضمّن قصّة موت الشّيخ الباسل طلال الحريدين el Hareidhin.

«تركنا عبد المعين هناك وركبنا بالقرب من الجثث الأخرى، التي تبيّن بوضوح في ضوء النّهار أنها أجساد رجال ونساء وأربعة أطفال صغار، متجهين نحو القرية التي عرفنا من هدوئها أنها مليئة بالموت والرّعب. وحول المكان كانت هناك حظائر للخراف وعلى إحداها كان هناك شيء أحمر وأبيض. ألقيت نظرة عن كثب، فرأيت داخلها جثة مكومة لامرأة وجهها للأسفل ومطعونة بسكين تظهر قبضتها بشكل رهيب بين ساقيها العاريتين، فعلمنا أنها كانت حاملاً، وكان حولها آخرون من القتلى، يبلغ عددهم العشرين، مذبوحين بطرق مختلفة بما يتناسب مع النّزعات الوحشية للقتلة. انفجر الزّعاقي Zaagi بنوبة هستيرية من الضّحك ثم انضمّ إليه الآخرون. كان المشهد جنونياً بحق، فقلت: «أفضلكم من يأتيني بأكبر قتلى من الأتراك»، ثم ركبنا بسرعة باتجاه العدو المتلاشي. وفي الطّريق تصيّدنا أولئك الذين جاؤوا يستدرّون عطفنا.

زأر طلال كالحيوان الجريح وصعد بهدوء إلى الأرض المرتفعة، حيث جلس على فرسه لفترة طويلة ينتفض غضباً وينظر بعينين ثابتتين إلى الأتراك. اتجهتُ نحوه لأتحدّث إليه لكن عودة أمسك بي ومنعني من فعل ذلك. وبعد بضع دقائق وضع طلال كوفيته على وجهه ولكز بمهمازه خاصرتي فرسه ثم أسرع يعدو بتهوّر، وقد انحنى على السّرج وأخذ يتمايل كأنه سيسقط أرضاً، وقد توجه إلى قلب جيش الأعداء.

كانت المسافة كبيرة على سفح التّلّ ثم عبر الغور، وجلسنا جميعاً الأصنام بينما كان يندفع إلى الأمام بأقصى سرعته، وخُيّل إلينا أن وقع حوافر فرسه كان أعلى من المألوف. كنا قد توقفنا عن إطلاق الرّصاص، كما أن الأتراك أحجموا عن القتال وأخذوا ينتظرون ذلك البدوي الذي يقذف بنفسه في أشداق الموت. استمرّ يعدو في هدأة المساء إلى أن أصبح على مسافة قريبة من الأعداء، عندها استقام على سرجه وصرخ صرخة دوّت كالرّعد: «طلال! طلال!». وما إن سمع الأتراك هذه الصّيحة

حتى انطلقت بندقياتهم ومدافعهم الرّشاشة في آن معاً فلم يتركوا قطعة منه أو من فرسه إلا مزقوها شرّ ممزق، وسقط البطل ميتاً بين أسنة رماحهم.

«نظر عودة إليه واجماً متجهماً ثم قال: «رحمه الله، سنأخذ بثأره». حرّك لجام فرسه وتوجّه ببطء نحو الأعداء. استدعينا الفلّاحين الغارقين في الخوف والدّماء، ووجّهناهم نحو الفرقة المنسحبة، حيث قادهم عودة كأسد هصور مُسنّ. وبمناورة بارعة دفع بالأعداء إلى أرض وعرة وفرَّقهم إلى ثلاثة أقسام. كان القسم الثّالث أضعف الثّلاثة ومؤلفاً في معظمه من المدفعيين الألمان والنّمساويين، الذين تجّمعوا حول ثلاث سيارات من المفترض أنها تقل ضبّاطاً مهمّين. قاتلوا ببراعة وصدّوا هجماتنا أكثر من مرة بالرّغم من تهوّرنا. كان العرب يقاتلون كالشّياطين وكان العرق يعمي أعيننا وامتلأت حلوقنا بالرّمال وكان غضب الانتقام يغلي في عروقنا وفي أيدينا، بحيث كنا بالكاد قادرين على إطلاق الرّصاص. أمرت رجالي، لأول مرة أثناء الحرب، بأن يعملوا فيهم القتل وألا يأسروا منهم أحداً».

إن رواية موت طلال الحريدين من طَفَس بكلمات لورَنس نفسه تظهر لنا قدراته الرّائعة على الوصف، وتعطينا فكرة عن التّحفة النّادرة التي سيتلقّاها العالم يوماً ما من قلمه.

قاومت آليتان مدفعيتان ألمانيتان ببسالة ثم هربتا مع جمال باشا، القائد العام التّركي، في سيارته. وقضى العرب على القسم الثّاني نهائياً بعد قتال مواجهة مرير. لم يؤسر أحد، إذ كان العرب ممتلئين غضباً بعد مذبحة طَفَس. لكن أُسر خلال اليوم مئتان وخمسون من الألمان، ثم اكتشف العرب أنّ رجلاً من رجال لورَنس، وكان مكسور الفخذ، قد تم طعنه بسكينين ألمانيتين، أصابهم الجنون فأداروا مدافعهم نحو الأسرى وحصدوهم عن آخرهم.

بعد المواجهة جاء نوري الشّعلان على رأس خيالة من الرّوَلة راكباً عبر الطّريق الرّئيسي لدرعا. حدثت بعض الاشتباكات على الطّريق لكنهم تمكنوا من الاستيلاء على المدينة عنوة. وفي صباح اليوم التّالي عاد نوري إلى لورَنس في طَفَس بخمسمئة

أسـير من المشاة وبشـرى تحرير مدينة درعا. وقد وصلت بعض قوات آلِنْبي إلى درعا في اليوم ذاته.

أمضى لورَنس تلك الليلة الشّـاقة على تلال الشّـيخ سـعد ولم يكن واثقاً من النّصر، إذ كان على الدّوام يوجس خيفة ويخشى أن تكتسح موجة كبيرة من الأعداء المنسحبين فرقته الصّغيـرة فتمحوهـا من الوجود. وفي تلك الليلة اشـتبك خيّالو حوران مع فرقة تركية كبيرة في درعا قوامها سـتة آلاف جندي. وبدلاً من النّوم مع الجيوش النّظامية في الشّـيخ سـعد، أمضـى لورَنس جزءاً من الليل يسـاعد خيّالي حوران، وعنـد الفجر ركب باتجاه الغرب مع مجموعة من رجاله إلى أن لحق بفرقة الخيّالة الرّابعة للجيش البريطاني.

وبعد توجيههم من درعا وبدء مسيرهم شمالاً إلى دمشق عاد لورَنس بأقصى سرعة لينضـمّ إلى خيالة حوران. على الرّغم مـن أن الفرقة التّركية عند مغادرتها لدرعا كانت مؤلفـة من سـتة آلاف جنـدي، فقد بقي منهم فـي نهاية اليوم خمسـة آلاف فقط بعد أن تصيّدهم البدو. وبعد ثماني عشـرة سـاعة بقي منهم ثلاثة آلاف، وبعد منطقة الكسـوة أصبـح العـدد ألفين إذ دفعهـم لورَنس نحو إحدى فـرق الخيّالة البريطانيـة القادمة من جهة الجنوب الغربي.

علـى الإجمال، قـام لورَنس وجويس وجعفر ونـوري وقوّاتهـم المتفرّقة من البدو والجيـش النّظامـي بقتل حوالي خمسـة آلاف تركـي في المرحلة الأخيـرة من الحملة وأسروا أكثر من ثمانية آلاف، بالإضافة إلى الاستيلاء على مئة وخمسين مدفعاً رشاشاً وثلاثين مدفعاً ثقيلاً. وعلاوة على فرقة الألف رجل الذين سـاروا شمالاً من العَقَبة مع لورَنس، فقد شـارك فـي الحرب عند درعا عودة أبو تايه ومئتـان من خيرة مقاتلي قبيلة الحويطات، وألفان من بني صخر أتوا من شـرق البحر الميت، وأربعة آلاف من رجال الرّوَلـة بقيادة نوري الشّـعلان من شـمال الصّحـراء العربيّة، وألف مـن دروز حوران، وثمانية آلاف من القرويين العرب في حوران.

بعد انتهاء الحرب بعام أو أكثر كتب الكولونيل سـترلينغ، الذي لعب دوراً بارزاً في هذه الحملة الأخيرة، كتب لي رسالة تلخّص الأثر الذي قام به العرب لمساعدة آلِنْبي في التّغلب

على الأتراك: «كان ذلك مبرّراً لوجودنا، وللمال والوقت اللذين أنفقناهما على الثّورة العربيّة. كانت الحملة نفسها مشهداً مسرحياً، إذ انطلقنا بقوّة نظامية صغيرة من أربعمئة عربي، وقطعنا ستمئة ميل في ثلاثة وعشرين يوماً داخل الصّحراء العربيّة المجهولة وكان وصولنا وراء الجيوش التّركية الرّئيسية بأميال عدّة مفاجأة ما بعدها مفاجأة.

«وقبل يومين من تقدّم البريطانيين في فلسطين، كنا قد قطعنا ثلاثة خطوط للسّكة الحديدية، ولم نسمح للقطارات بالوصول إلى الجيوش التّركية لمدة خمسة أيام. كانت النّتيجة أنه لمّا بدأ انسحابهم كانت مؤنهم من الطّعام والذّخيرة قد انتهت. خلال تلك الأيام كانت إقامتنا غير ثابتة نوعاً ما، وكنا ننقل معسكرنا مرتين في الليلة حتى لا يباغتنا العدو. كنا فرقة ضعيفة آنذاك، وفي الوقت الذي تابعنا فيه المسير إلى أن وصلنا إلى دمشق كان حوالي أحد عشر ألفاً من الخيالة العرب قد انضمّوا إلينا».

سار بعض الخيالة العرب ذلك المساء إلى داخل دمشق، حيث أحالت القنابل الليل إلى نهار. ثم رجعوا إلى الكسوة، التي تقع على بعد أميال قليلة جنوبي دمشق بالقرب من المكان الذي ظهر فيه النّور المبهر لشاؤول الطّرسوسي وحوَّله إلى بولس مفسّر المسيحية، وهناك كان وهج النّيران القادم من دمشق، وهدير صدى المتفجرات يمنع لورَنس من النّوم، فبقي مستيقظاً معظم الليل. كان مُنهك القوى ومنذ الثّالث عشر من سبتمبر لم يحظَ سوى بفترات قليلة من النّوم. كان دائماً إما ممتطياً هجينه السّريع أو جواده العربي الأصيل، أو في سيارة مصفّحة أو محلقاً في الجو على متن طيارة حربية، وبعبارة موجزة كان شعلة نار متّقدة أدّى كل ما طُلب منه في الأزمة العظيمة إبّان الحرب. وها هي الحرب قد أوشكت على الانتهاء في أرض ألف ليلة وليلة، لكن النّوم ما يزال يجافي عينيه، إذ يقوم الأتراك والألمان بإفراغ ذخيرتهم ليلاً في دمشق على بعد ثمانية أميال شمالاً. مع كل انفجار كانت الأرض تهتزّ والسّماء تبيضّ ولطخٌ حمراء تمزّق سواد الليل عندما تنطلق القنابل في الهواء. قال لورَنس لسترلينغ: «إنهم يحرقون دمشق»، ثم استلقى على الرّمال واستسلم لرُقاد عميق.

* * *



المؤلف، رسم تخطيطي لجايمس مكباي الرّسام الملحق بقوى
الفيلد مارشال آلنْبي خلال «الحملة الصّليبيّة الأخيرة»



قاطع طريق من جبل الدّروز

الفصل الخامس والعشرون

حكم لورَنس في دمشق وخيانة الأمير الجزائري

وفي صباح اليوم التّالي دخل العرب والإنكليز مدينة دمشق بحدائقها الخضراء التي لا تضاهيها في جمالها أية مدينة في العالم. كان سحر المشهد وكأنه حلم يراه النّائم عندما يغفو صباحاً لكنه حلم لن يلبث أن يتلاشى. تذكّر لورَنس قصّة النّبي محمّد لمّا أتى إلى دمشق أول مرة للتّجارة، وعندما رآها من بعيد رفض دخولها قائلاً إنّ الإنسان لا يستطيع دخول الجنة مرتين. فما بالك بجنود قد جاؤوا مباشرة من الصّحراء الجرداء القاحلة؟ عندما تنظر إليها من بعيد ترى واحة خضرة محاطة ببادية صفراء، وفي الخلفية تظهر الجبال ذات القمم المكسوّة بالثّلوج، إنها حقاً جوهرة زمرّدية ومن الطّبيعي أن ينظر البدوي إليها كأنها جنّة الله في الأرض.

عندما مالت أشعة الشّمس لتلقي على المدينة الحالمة غلالة رقيقة غشيت مآذنها وقببها، دخل لورَنس وسترلينغ في سيارة الرّولز رويس الشّهيرة «الضّباب الأزرق» the Blue Mist. ذهبا إلى مقر البلدية مباشرة حيث عقدا اجتماعاً مع كل شيوخ المنطقة، واختار لورَنس شكري الأيوبي، وهو من نسل صلاح الدّين، ليكون أول حاكم عسكري للنّظام الجديد. ثم عيّن رئيساً للشّرطة، وهو مدير للنّقل الدّاخلي، وعدة ضبّاط آخرين. وبعد ترتيب الأمور سار شكري ونوري السّعيد وعودة أبو تايه ونوري الشّعلان ولورَنس في شوارع دمشق برفقة الجيش البدوي النّظامي.

دخل لورَنس دمشق، وهو بعد في التّاسعة والعشرين من عمره على رأس أكبر جيش في جزيرة العرب منذ خمسة قرون، وفي أقل من عام واحد أصبح أهم رجل في

الجزيرة منذ أيام هارون الرّشيد، وكان دخوله الرّسمي إلى عاصمة الإمبراطورية العربيّة القديمة في السّاعة السّابعة صباح يوم الحادي والثّلاثين من شهر أكتوبر. احتشد سكان المدينة وعشرات آلاف البدو الصّحراويين في الشّارع الذي يدعى بالشّارع المستقيم بينما كان لورَنس يدخل البوابة وهو يلبس لباس أمير مكّي.

ولا تسْلْ عن غبطة الجميع عندما تحرّرت دمشق العظيمة الخالدة، ولا تسلْ عن سرورهم للخلاص من النّير التّركي! وبلغ الحماس بالدّراويش أن ساروا في الطّليعة أمام لورَنس يرقصون ويلامسون أجسادهم بالسّيوف، وسار وراء لورَنس الفرسان العرب في ثيابهم البدوية الخلّابة. كانوا قد سمعوا كثيراً عن مقدرة الشّريف لورَنس وأعماله المدهشة قبل شهور، وها هم يخرجون الآن ليروا لأول مرة هذا الرّجل الإنكليزي الغامض الذي وحّد قبائل الصّحراء وطرد الأتراك من جزيرة العرب. ولما رأوه قادماً يتهادى في الأسواق على ظهر بعيره، علت الهتافات له ولفيصل بصوت واحد يملؤه الفرح. والواقع أنه ما من رجل في العالم أقيم له مثل الاستقبال الحماسي الحارّ الذي أعده الدّمشقيون للورَنس.

وصف الدّكتور جون فنلي، وهو عضو في جمعية الصّليب الأحمر الأميركية جاء مع آلِنبي إلى الشّمال، وصف هذه المناظر السّاحرة فقال: «ممّا لا ريب فيه أن السّرور الذي شعر به الدّمشقيون عند دخول لورَنس ومَن معه لا يمكن أن يتكرّر أبداً، وكانت الأسواق ممتلئة بمئات آلاف البشر، وكان الشّارع المستقيم مكتظاً بحيث لم تعد الخيول والجمال قادرة على المسير. أمّا سطوح المنازل فكانت تغصّ بالنّاس كذلك، وكان الدّمشقيون قد علّقوا ما يملكون من السّجاد الشّرقي الثّمين على شرفاتهم، وأمطروا لورَنس ومن معه بأغطية الرّأس الحريرية والأزهار البديعة وعطر الورود».

وإكراماً للعرب، كان آلِنبي قد أمر الجيش الأسترالي أن يسير في المؤخرة وأن يجعل حرس فيصل يتقدّمون الصّفوف ويدخلون المدينة أولاً، كما أنّ آلِنبي لم يتدخل في التّدابير والإجراءات التي اتخذها لورَنس وجماعته في تنظيم الحكومة المؤقتة في دمشق. وكان من فطنة لورَنس أن جعل ممثلي الجيش العربي يتقدّمون على

البريطانيين، وأعطى بذلك القيادة للأمير فيصل.

لـم يبق الكولونيل لورَنس في دمشـق إلا أربعة أيام فحسـب. ولكنـه كان في خلال هذه الأيـام، فـي الحقيقـة، الحاكـم المطلق والسّـيد المطـاع، وكان أول عمل قام بـه أن زار قبر صـلاح الدّيـن الأيوبـي، ذلك القبر الـذي وضع عليه قيصـر ألمانيا في سـنة 1898 رايةً من الأطلـس وإكليلاً من البرونز منقوشـاً عليه هذه الكلمات بالتركيـة والعربيّة: «من إمبراطور عظيـم لإمبراطـور عظيـم آخـر». وكان لورَنس قـد زار هذا القبـر لدى زيارته لدمشـق قبل الحـرب، وفـي أوائل أيام الحملة تعاهد مع فيصل، عندما كانا في الجنوب قرب «ينبُع»، ألا يمحى من ذاكرتيهما هذا القبر الذي يضمّ أعظم الملوك. هذا ويزيّن الإكليل البرونزي الآن مكتب إدارة المتحف الحربي البريطاني، بينما ذهب علم القيصر معي إلى أميركا.

أثناء الحكم المؤقت للورَنس على دمشـق كانت أسواق هذه المدينة الخالدة تضجّ بالحركة، وإن معرفته بمن أرادوا تدبير المؤامرات ضدّه جعل من الممكن السّيطرة على الأمور. وحتى في ذلك الوقت كان هناك خطرٌ كبير وخوف من حدوث الاغتيالات.

وفي الثّاني من نوڤمبر قام البعض يحاولون إحداث شغب في دمشق وفتنة من النّوع الـذي قد يـؤدّي إلى الانقلاب. أمّا المحرّك لهذه الفتنة فهـو أمير جزائري يدعى الأمير عبـد القـادر، الذي كان عدواً لدوداً للملك حسـين وأبنائه. وعبد القـادر هذا هو حفيد الأمير عبد القادر الكبير الذي حارب الفرنسيين في الجزائر، ولكنه فشل في نهاية الأمر وفـرَّ هاربـاً إلى دمشـق. أمّا حفيداه، محمّد سـعيد وعبد القادر، فقد لعبا دوراً سـيئاً في الحرب في الشّـرق الأدنـى. أمّا الأول فكان عميلاً للألمان والأتـراك في إفريقيا، وهو الذي حرّض السّنوسـيين على غزو مصر، أمّا شـقيقه الأصغر، والأكثر وحشـية، فكان جاسوساً على مستوى عالٍ لأنور باشا ولذلك انضمّ إلى الجيش العربي.

تظاهر عبد القادر أنه جاء هارباً من القسـطنطينية ولهذا اسـتقبله العرب أحسن استقبال، ولمـا وصل إلى الصّحراء قوبل برئاسـة الجيش العليا كوطنـي صميم. وقد نجح عن طريق الخطابـة، وهو خطيب قدير في التّأثير على المحيطين بـه وإقناعهم بوطنيته الحارّة المتقدة لدرجة أن جلالة الملك حسين رحّب به واستقبله في مكّة المكرمة ومنحه لقباً مشرّفاً.

ولما بدأ آلِنْبي في الهجوم الذي نجم عنه احتلال بئر السّبع وغزة والقدس وأريحا، طُلب من لورَنس أن يقدّم المساعدة عن طريق نسف جسر مهمّ للسّكة الحديدية يقع بين مكان وجود الجيش التّركي وقاعدته في دمشق. وصادف كون عبد القادر هو الإقطاعي الذي يملك الشّطر الأكبر من الأراضي المحيطة بالجسر، ولما باحثه فيصل في هذه القضية طلب أن يشارك في تلك الحملة. وبعد أن رافق لورَنس عدة أيام وأصبحت المجموعة على بعد أميال من الجسر، ما كان من عبد القادر وخيّالته إلا أن تسللوا في الصّحراء ليلاً ليخبروا الإدارة الألمانية والتّركية عن خطة لورَنس. مع ذلك، وعلى الرّغم من بقاء عدد قليل من الرّجال مع لورَنس، فقد تمكن من القيام بمحاولة غير ناجحة لنسف الجسر، وهي مغامرة كادت تودي بحياته.

في البداية، ارتاب الأتراك بجاسوسهم الجزائري وظنوا أنه يلعب على الحبلين، لكنهم بعد ذلك أطلقوا سراحه وأغدقوا عليه بالعطايا. وعندما شنَّ آلِنْبي حملته الأخيرة على دمشق، ذهب عبد القادر إلى القرى السّورية يحضّ أهلها على أن يظلوا موالين للحكام العثمانيين. ولكن لمّا رأى عبد القادر وأخوه أن الأتراك قد تقهقروا تقهقراً معيباً، نفضا أيديهما من صداقتهما لأنور وطلعت وجمال، وأسرعا إلى دمشق قبل دخول آلِنْبي ولورَنس بساعات وشكّلا حكومة وطنية عربيّة نصّبا نفسيهما على رأسها، واستعدا للتّرحيب بالجيوش البريطانية والحجازية القادمة.

ولكنهما لم يكونا بالطّبع سعيدين باكتشافهما أن المنتصرين يقودهم الكولونيل لورَنس الذي أمرهما أن يستقيلا فوراً، ثم عيَّن، بناء على اختيار الأمير فيصل، رجالاً آخرين بدلاً منهما. أثار هذا الأمر سخط الأخوين المتآمرين فجردا سلاحيهما وأرادا قتل لورَنس، لولا أن الحاضرين في المجلس أوقفوهما عند حدهما. عندها جمع الأميران الجزائريان السّاخطان حرّاسهما الشّخصيين وطافا في شوارع دمشق يلقيان الخطب المؤثرة ويدَّعيان أن الأمير فيصل والملك حسين ما هما إلا دميتين بيد لورَنس والبريطانيين. وأخذا يحرّضان الدّمشقيين على البدء بثورة جديدة.

سرعان ما سرت الفوضى، واستغرق رجال لورَنس ستّ ساعات حتى نجحوا في

تهدئـة المدينـة. تحوّلت الفوضى بعد ذلك إلى نهب وسـلب، وأصبـح من الضّروري للورَنس والجنرال نوري پاشـا وشـكري الأيوبي والقادة الآخرين في الجيش الشّريفي اللجوء إلى إطلاق الرّصاص في السّـاحة العامة في دمشـق لفرض السّـلام بالقوة بعد قتل وجرح عشرين رجلاً أو يزيد.

أما الشّـقيقان الثّائران فقد استطاعا الهرب، وتمكنا من الاختفاء شهراً كاملاً أمضياه في وضع الخطط وتنظيم الثّورة من جديد. لـم يسـتطع عبد القادر الانتظار فترة أطول، فحمل بندقيته وقد بلغ به الغضب كل مبلغ وعدا بفرسـه إلى قصر الأمير فيصل وصاح طالبـاً من فيصل الخروج ليقاتله، وبدأ يطلق العيـارات النّارية. كان مصرّاً على مطلبه، فمـا كان مـن أحد الحرّاس العـرب إلا أن صوّب النّار عليه فاخترقت الرّصاصة رأسـه وأُسدل السّتار فجأة على مغامرات الأمير الجزائري[1].

وبعد سقوط دمشق، احتلّت القوات العربيّة والإنكليزية المتحدة ميناء بيروت حيث توجد الجامعة الأميركية، التي لها أكبر الفضل في نشـر الرّوح الدّيمقراطية في الشّـرق الأدنى. وهنا حدث حادث خطير كاد يؤدي إلى مشكلة دپلوماسية. فقد كانت القوات الشّـريفيّة هـي القابضـة على ناصيـة الأمور، كما في دمشـق، وبعد عدة أيـام جاء نائب فرنسـي مع ضابـط بريطاني وطلبا إنزال العلـم العربي من مجلس البلديـة ورفع العلم الفرنسـي ثلاثي الألوان. فما كان من الحاكم العربي إلا أن وضع مسدسه على الطّاولة وقال:

«المسـدّس أمامكم وفي مقدوركم قتلي إذا أردتم، ولكني لن أنزل العلم العربي!».
وبعـد ثلاثة أيام أرسـل آلنّبـي برقية يأمر فيهـا برفع الأعلام كلها في سـماء بيروت وأن يحكـم المدينـة ضابط فرنسـي باسـم الحلفـاء جميعاً. ومنـذ ذلك الحيـن أصبح على العرب أن يناضلوا على الصّعيد الدّپلوماسـي حتى لا يخسـروا ما كسـبوه على الصّعيد الحربي. ويبرز الشّاب لورَنس بطلاً من جديد.

---

(1) المذكور هنا هو الأمير عبد القادر الصّغير، وليس الأمير عبد القادر الجزائري الشّهير الذي توفي بدمشق عام 1883.

وتقدّمت القوات العربيّة والإنكليزية المتّحدة إلى بعلبك، مدينة الشّمس، حيث تجد آثار أحد أعظم المعابد على وجه الأرض والذي ما زالت أعمدته شاهدة على أنه كان أعجوبة من أعاجيب الدّنيا.

لم تكتفِ سيارات آلِنْبي المصفحة ولا رجال فيصل الذين يمتطون الجمال السّريعة بما حققوه، بل انطلقوا بقيادة الجنرال العربي نوري السّعيد شمالاً إلى أن اكتسحوا الأتراك وطردوهم من حلب، وهي من المدن الحربية الإستراتيجية في الشّرق الأدنى أثناء فترة الحرب. ولو لم يستسلم الأتراك لظلّت الجيوش وراءهم حتى توصلهم إلى القرن الذّهبي.

وبعد أن تمكّن آلِنْبي ولورَنس من احتلال دمشق وحلب وقطع السّكة الواصلة بين برلين وبغداد، تلاشى في الهواء حلم القيصر والأرستقراطيين بتكوين إمبراطورية أوروبية ممتدّة من بحر البلطيق إلى الخليج العربي.

وعندما غامرت تُركية بالاشتراك مع ألمانيا في القتال، أكّدت أنها ستؤلف جيشاً من مليون رجل. لكن نصف الجيش كان من أصل عربي، ويمكن القول إنه منذ ابتداء الثّورة العربيّة حتى اندحار الأتراك نهائياً، هرب من الجيش التّركي حوالي أربعمئة ألف منهم! أمّا العوامل التي ساعدت على انفصال هذا العدد الضّخم عن الجيش التّركي فأهمّها ما يلي: الدّعاية الواسعة المنظّمة في الشّرق الأوسط التي قام بها لورَنس وجماعته لبثّ روح القوميّة العربيّة في النّفوس، والنّجاح الباهر للثّورة العربيّة. في الحقيقة لقد كان ترك الجنود لصفوف الجيوش التّركية مكافأةً للحلفاء على مساندتهم لقضية الأشراف.

في رحلتنا السّريعة مع لورَنس من العَقَبة إلى حلب شمالاً، لم ندخل إلى المدينة ولم نعرف ما حلّ بالحامية التّركية المهمّة هناك. على الرّغم من أن جزيرة العرب لم تعد الآن تحت الحكم التّركي، فما زالت القوات العثمانية تحتلّ المدينة لوجود قبر النّبي فيها. وكان الأمير عبد الله، أخو الأمير فيصل، قد حاصرها بجيشه، لكن ثبات الأتراك في المدينة وتمكنهم من المحافظة على وجودهم فيها كان نعمةً للعرب لأن

كل المـؤن اللازمـة للحامية شُـحنت عبـر الصّحراء من سـوريا، ومن ثـمّ ذهب الجزء الأكبر منها بدلاً من وجهتها الأساسية. في الواقع فإن زراعة لورَنس لألغامه على طول السّكة بين دمشق والمدينة عاد على العرب بمحصول وفير من المؤن التّركية والذّخائر والمواد الحربية الأخرى.

قال الكولونيل لورَنس مفسراً عدم إخراج الأتراك من المدينة: «كانت قوانا الجسدية منهكة، فلم ندع قوانا النّفسية تصاب بالضّعف. لقد ربحنا المنطقة عندما علمنا المدنيين أهمية فكرتنا عن الحرية، أمّا وجود العدو أو غيابه فقد كان مسألة ثانوية.

«أظهـرت لي هذه الأفـكار أن مهاجمة المدينة أو إخضاعها للاستسـلام لـم تكن تتوافق مع إسـتراتيجيتنا المثلى. لقد أردنا أن يبقى العدو بأعداد كبيرة في المدينة وفي كل مكان لا يُخشـى خطره. أمّا مسـألة الطّعام فهي ستقيّده في النّهاية إلى السّكة الحديدية، وكنا نترك له المجال لاسـتخدام سـكة الحجاز والأردن وفلسـطين ودمشـق وحلب حتى نهاية العرب، طالمـا أنـه تخلى لنا عن معظـم العالم العربي. لو أنـه أظهر رغبة في إخلاء المنطقة سـريعاً من أجل التّركيز بأعداد كبيرة على منطقة صغيرة، لكنّا عملنا جاهدين لاسـتعادة ثقته، ليس بالقوة، بل بتخفيف الضّغط عليه. وكانت خطتنا هي إبقاء السّكة الحديدية تعمل، ولكن مع إلحاق الخسائر بالعدو وإزعاجه». في الحقيقة لم يصل إلى الحامية سوى القليل ممّا أُرسل من سـوريا، وفي الأشـهر الأخيرة قبل الهدنة كانت القوة التّركية في هذه المنطقة المعزولة قـد خفضـت حميتها الغذائية على التّمـر فقط، وكان يُجمع من أشـجار النّخيل في الواحة. حتى سقوف المنازل هدمت لتستخدم كوقود، ومع ذلك لـم تستسلم الحامية إذ كان قائدها، فخر الدّين باشا، جنرالاً شجاعاً حازماً وعنيداً.

حتى عندما وصلته الأخبار بأن الجيوش العربيّة والبريطانية قد استولت على دمشق وحلـب، وأن القوات التّركية في سـوريا قد هُزمت تماماً وأُجبـرت على توقيع الهدنة، وبالرّغـم مـن أنه يعلم أنه مـن غير المجدي له أن يتمسّـك بالمدينة أكثـر من ذلك بعد انتهـاء الحرب وعزله مع حاميته وسـط صحـراء تبعد ألف ميل عن القسـطنطينية، فقد رفض هذا النّمر التّركي الاعتراف بالهزيمة.

مضت الأيام ثم الأسابيع، وانخفض عدد رجال الحامية من عشرين ألفاً إلى أقل من أحد عشر ألفاً. لكن فخري باشا أقسم على القرآن أنه بدلاً من الاستسلام للعرب والبريطانيين، سينسف قبر النّبي محمّد ويمحو نفسه ورجاله من على وجه الأرض. ضَمِن البريطانيون لفخري أنه وفرقته لن يُمسّوا بأذى من قِبل البدو، لكن النّمر العجوز بقي صلباً كالحجر.

لكن جيوشه لم تكن بهذا التّعصب واشتاقت للعودة إلى الوطن في الأناضول. لذلك تمرّدوا على قائدهم الباسل في النّهاية وألقوا القبض عليه، ثم سلموا المدينة للأمير عبد الله في العاشر من شهر يناير عام 1919، أي بعد انتهاء الحرب بعدّة أشهر.

لا بدّ أن اسم فخر الدّين يحتلّ مرتبة عالية في التّاريخ التّركي[1]، ولأجيال عدة ستستخدم الأمهات العربيات في المدينة هذا الاسم كوسيلة لإسكات الأطفال.

بعد استسلام المدينة لم يعد أحد يسمع عن فخري باشا في الشّرق الأدنى ويبدو أنه اختفى من الصّورة تماماً. لكن بعد فترة من الزّمان، عندما كنا نتنقّل في أجزاء من آسيا الوسطى، التقيتُ بحامي المدينة في مدينة كابُل في بلاط أمير أفغانستان. لم يكن قد فقد حماسه أبداً، وبعمله كسفير تركي في أفغانستان كان يبذل قصارى جهده لمنع الأمير من مصادقة الإنكليز في الهند.

لو أن تركية تملك مليون محارب بهذه الرّوح التي يملكها فخر الدّين، لم تكن لتستعيد كل مقاطعاتها فحسب، بل لتمكنت من الاستيلاء على الشّرق الأدنى بأكمله وتأسيس إمبراطورية تتفوّق في مجدها وعظمتها على إمبراطورية المغول القديمة.

* * *

(1) هذا صحيح، فهو القائد الذي عجز الإنكليز تماماً عن مقارعته، وهزمهم أشدّ الهزائم، واسمه في تركية يكرّم عالياً إلى اليوم، ويلقّب: Çöl Kaplanı أي: «نمر البرّ». واسمه الأصلي: عُمر فخر الدّين تُركان باشا.



الجنرال فخري باشا

النّمر الترّكي الذي دافع عن المدينة المنوّرة

الفصل السّادس والعشرون

قصص إِلفيلق السّرّي

بالرّغم من كون لورَنس الرّجل الذي لعب أروع دور في الحرب، فإن هناك ما لا يقل عن عشرين ضابطاً كان لهم دورهم المتميّز في جزيرة العرب، وينبغي تأليف مجلّد يروي قصص أعمالهم البطولية.

كان التّعاون البريطاني مع العرب منسّقاً عن طريق مكتب الاستخبارات السّرّية في الشّرق الأدنى، الذي أسّس عندما كان السّير هنري مكماهون لا يزال المفوّض السّامي في مصر. بعد تقاعده انتقل المنصب إلى خليفته السّير ريغينالد وِنغايت والسّير إدموند آلِنبي (وهو الآن فيلد مارشال ڤايكونت). وبالرّغم من أن هؤلاء الرّجال الثّلاثة المتميّزين شجّعوا العرب ولعبوا دوراً فعالاً في ثورة الأشراف، فلا أحد ممّن لم يزوروا جزيرة العرب يستحق أن يُنسب إليه الفضل في نجاح الثّورة العربيّة أكثر من السّير غِلبرت ف. كلايتون، مؤسس الفيلق السّرّي.

أثناء الأيام الأولى للعمليات في الشّرق الأدنى، جعل الجنرال كلايتون القاهرة مقرّاً له. وهناك جمع رجالاً لامعين كان كل واحد منهم خبيراً بشأن من شؤون الشّرق الأدنى، وبفئة محدّدة من الخليط الواسع لسكان المنطقة. كان من بينهم طلاب في الشّؤون السّياسية من أمثال مارك سايكس وأوبري هربرت، ثم هناك هوغارث، الجغرافي والآثاري الشّهير، وكورنواليس وجويس، الجنديان القادمان من السّودان، ووولي ولورَنس اللذان كانا مهتمّين بعلم الآثار في بلاد الرّافدين، وآخرون غيرهم بمن فيهم مهندس مغامر ذو جرأة عالية يدعى نيوكومب، وصفه لورَنس بقوله إنه «أكثر الأشخاص نشاطاً في التّدمير في العالم بأسره».

وبالرّغم من أن الكولونيل لورَنس قد دمّر من القطارات أكثر مما دمّره أيّ شخص آخر، فلم يكن أول من قام بزرع الألغام في جزيرة العرب. يعود الفضل في ذلك إلى المقدّم س. ف. نيوكومب الذي ربما كان سيتفوّق على لورَنس في تدمير القطارات وتخريب السّكك الحديدية لولا أن أدّت به جرأته وحبّه للقتال إلى قضاء آخر مراحل الحرب في السّجون التّركية.

قبل عام 1914 كان نيوكومب قد حصل على شهرة كونه أقدر مهندس في الجيش البريطاني. وقد كان من أحد إنجازاته الخط الحديدي الواصل بين وادي النّيل والبحر الأحمر مروراً بصحراء السّودان. كان رائداً دوماً، وقد قام باستطلاع مسالك في الحبشة وفارس ومناطق أخرى تبدو لنا على الخارطة مجرّد بقع مجهولة.

كان يستغرق في كل عمل إلى أقصى درجة بحيث اشتهر، إلى جانب شجاعته، بالنّسيان. بعد الاستيلاء على ميناء الوجه في الأيام الأولى لثورة الحجاز، عُيّن قائداً مؤقتاً للميناء. كان عدد من الضّبّاط يعيشون معه، لكن الكولونيل كان الوحيد الذي يملك خادماً وكان الجميع يعتمدون عليه في ترتيب الفوضى التي يحدثونها. مع ذلك كان نيوكومب لا يبالي بشؤون الحياة اليومية، فعندما كانت السّاعة تشرف على الواحدة ظهراً ويقترح أحد الموجودين الاستراحة قليلاً لتناول طعام الغداء، كانوا يكتشفون أن نيوكومب قد نسي إعطاء التّعليمات لإعداد الطّعام، وبالتالي يتوجب عليهم الانتظار حتى السّاعة الثّانية لتناول الغداء.

كان للكولونيل نيوكومب دورٌ بارز في الشّؤون العربيّة لسبعة أشهر، وهو الذي بدأ أساليب تدمير السّكك الحديدية التي استخدمها لورَنس فيما بعد بكل كفاءة. وبالرّغم من أنه كان يلبس الملابس العربيّة، فلم يكن شرقياً أبداً في تعامله وكان ينغمس ليل نهار في عمله بسرعة جنونية بحيث لا يستطيع أحد أن يجاريه. وفي نهاية الأشهر السّبعة التي أمضاها في الصّحراء التحق بالجيش البريطاني في فلسطين ونفذ أثناء الهجوم على بئر السّبع أجرأ عمليات شهدتها الحرب.

كانت فرق آلِنبي من الخيالة والمشاة تقترب من بئر السّبع من جهة الغرب والجنوب

والشّـرق، لكن كان هناك في الشّـمال طريق الخليل - القُدس Hebron-Jerusalem الذي كان في تلك الأيام الشّـريان الرّئيسـي للاتصالات التّركية. تسلل نيوكومب ومئة أسـترالي، تطوعوا بالذهاب معه، إلى الخطوط التّركية ليلاً قبل الهجوم على بئر السّـبع بقليـل. كانوا ينوون محاولة قطع الطّريق والاسـتيلاء على المـؤن والإمدادات التّركية إلـى أن يتمكّـن آلِنبي وجيشـه مـن هزيمة القـوات التّركيـة واحتلال بئر السّـبع. كانت مهمّـة صعبـة جداً لكن نيوكومـب ورفاقه الأسـتراليين بقوا مرابطين علـى الطّريق ليلاً نهاراً وهزموا ما يفوق عددهم بخمسـين مرة. وَفي النّهاية حوصروا على قمّة تلّ وأسـر المحظوظون منهم الذين بقوا على قيد الحياة.

صـادف أن كان الكولونيل نيوكومب أعلى الضّبّاط المأسـورين في فلسـطين رتبة، لذلـك حـدث الكثير من الهـرج والمرج وهـو يمرّ في شـوارع القدس فـي طريقه إلى السّجن في الأناضول.

وبعـد عـدّة أشـهرن وبعـد أن نجـا مـن الجـدري وكل متاعب حيـاة السّـجون، فرّ الكولونيـل مـن زنزانته في القسـطنطينية بمسـاعدة فتاة سـورية جميلة أخفتـه فيما بعد فـي منزلها. كان ذلك قُبيل انهيـار الإمبراطورية العثمانية وفضّل نيوكومب حياة الإثارة فـي التّخفي في القسـطنطينية على الحياة الرّتيبة التي قـد تتبع فراره من تركية، فبقي في إسـطنبول ليؤسـس مكتباً سـرّياً للدّعاية في قلـب أرض العدو. لقد نجـح نجاحاً باهراً وتمكـن في النّهاية من الاتصال بمجموعة من الأتـراك البارزين الذين كانوا يعارضون السّياسة الألمانية لطلعت وأنور وساعدهم في ترتيب أمور الهدنة التي نتج عنها هزيمة تركيـة فـي الحرب. وكنهايـة ميلودرامية متوقعـة اختتامـاً لعمله الفذ، تـزوّج من الفتاة السّورية الجميلة التي كانت قد ساعدته على الفرار من السّجن، وعاشا بسعادة.

وكان من بين الرّجال الذين اشـتركوا في ترتيب المسـاندة البريطانية للعرب بتقديم الاستشـارات الحربيـة، الكولونيـل ويلسـون والكولونيـل كورنواليس والمقدّم آلان داوني والقائد العسكري هوغارث. كان الكولونيل ويلسون حاكماً على مقاطعة البحر الأحمر في السّـودان عندما أطاح الشّريف حسـين وأبناؤه بالأتراك لأول مرة في مكّة،

وقد خطط عمليات مسلحة سرّية لإبقاء نار الثّورة مشتعلة إلى أن يحصل الحلفاء على وقت كافٍ ليقرّروا مساعدة العرب بشكل رسمي. حمّل الكولونيل ويلسون البواخر البريطانية بالذّخائر والبنادق في پورسودان ثم نقلها إلى مراكب شراعية في وسط البحر الأحمر.

ومن ثم كانت هذه المراكب تنزل المؤن سراً على السّاحل العربي حيث يتم توزيعها على البدو. لكنه بعد سقوط مكّة وجدّة ترك عمله في السّودان وانتقل إلى جدّة حيث عمل كمسؤول عن الشّؤون البريطانية في الحجاز الجنوبي وكمستشار للشّريف حسين حتى انتهاء الحرب. في الواقع كان الكولونيل ويلسون، بالإضافة إلى الجنرال كلايتون ورونالد ستورز، السّكرتير الشّرقي للمفوض السّامي في مصر، هو أول من فتح باب المفاوضات بين البريطانيين وقادة الثّورة العربيّة. وبالرّغم من اعتلال صحّته، فقد قام الكولونيل ويلسون بعمله على أكمل وجه.

أما كورنواليس وداوني وهوغارث، فقد أمضوا معظم وقتهم في مقرّ- القاهرة الذي كان يعرف باسم «المكتب العربي» Arab Bureau، والذي كان يرأسه الكولونيل كورنواليس، الذي أرسل بعد الحرب إلى بلاد الرّافدين كأحد المستشارين البريطانيين للأمير فيصل الذي أصبح ملكاً على بغداد. استلم الكولونيل الجانب السّياسي للمكتب بإدارة المفاوضات بين البريطانيين والحكومة الجديدة في مملكة الحجاز، ومساعدة الملك حسين ليتمكن من إتمام حملته. وعمل الكولونيل أيضاً في الإشراف على عمل مهمّ آخر هو كسب المتطوعين العرب في الجيش التّركي إلى صفوف الجيش العربي، وهم الذين كانوا في معسكرات السّجون في سوريا وفلسطين ومصر وبلاد الرّافدين. كان لورَنس كثيراً ما يُلمح إلى عبقرية كورنواليس ويعدّه عنصراً مهمّاً في نجاح الثّورة العربيّة.

من بين الضّبّاط اللامعين أيضاً المقدّم آلان داوني، أحد حرّاس كولدستريم، والذي أمضى وقته متنقلاً بين مكتب الشّؤون العربيّة في القاهرة، والصّحراء، ومقر آلنّبي في فلسطين. وعلاوة على عمله كمسؤول عن الحملة العربيّة من النّاحية العسكرية

والتّزويد بالمؤن، فقد كانت مهمّته الرّئيسية إبقاء الأمير فيصل والكولونيل لورَنس والقادة الآخرين في جزيرة العرب، على اتصال دائم بآلِنْبي. كان ولورَنس صديقين حميمين قاما بعملهما في انسجام تام، وكان داوني يبذل قصارى جهده ليزوّد لورَنس بكل المعدات التي يحتاجها. كما مكنته زياراته إلى جزيرة العرب من القيام بغزوة أو اثنتين إذ كان هو أيضاً يهوى زرع الألغام.

كانت طبيعة الحرب في الصّحراء غير اعتيادية، فتطلب الأمر وجود شخص عبقري على الأقل قادر على التّوسط بين الجزيرة والحكومة الملكية في لندن. أوكلت هذه المهمّة الصّعبة إلى رجل ذي شهرة عالمية لا يمكن غضّ النّظر عن مقترحاته حتى من قبل رئيس الوزراء ووزير الحربية. برهن السّير ڠيلبرت كلايتون على عبقريته في انتقاء الرّجال لاختياره د. ج. هوغارث، مدير متحف أشموليان في أوكسفورد، لهذا المنصب، فلم يقم باختيار رجل مشهور بعلم الآثار والمتاجرة بها فحسب، لكنه كان أول من سكن جزيرة العرب من رجال السّلطة. وهنا أيضاً ابتسم الحظ للورَنس بتعاونه مع مَن لا يمكن إيجاد من هو أكفأ منه إذ كان الكولونيل هوغارث يعرف لورَنس منذ طفولته وهو الذي أطلقه في مجال علم الآثار.

طوال فترة الحملة كان لورَنس وزملاؤه ينظرون إلى الكولونيل هوغارث كمستشار وفيلسوف ووسيط سلام، وكانت مهمّته التّوفيق بين الخطوات التي تجري في الجزيرة وبين الإدارة العامة لوزارة الحربية. كما أنه أصدر المنشور السّرّي في مقر القاهرة تحت عنوان «النشرة العربيّة»، وطبع منها أربع نسخ فقط واحدة للويد جورج ووزارته، وواحدة لآلِنْبي وإدارته، وواحدة للورَنس ورفاقه في الصّحراء، وواحدة لتبقى في ملف مكتب الشّؤون العربيّة.





الفيلد مارشال ڤايكونت آلِنْبي حاكم القُدس
وفيصل الأول، ملك العراق وحاكم بغداد



الفيلد مارشال ڤايكونت آلِنْبي
الخليفة المعاصر لريتشارد قلب الأسد

الفصل السّابع والعشرون

جويس ورفاقه وفرسان سماء جزيرة العرب

كانت قوات ملك الحجاز خليطاً من الجنود النّظاميين ومن البدو الذين يمتطون الجمال والخيول، والأولون يمثلون «الفارّين» من الجيش التّركي كانوا قد جُنّدوا قسراً في الجيوش العثمانية، ثم وقعوا أسرى في أيدي الإنكليز في فلسطين وبلاد الرّافدين. كان عدد الجنود النّظامية يبلغ حوالي عشرين ألفاً وقد دُرّبوا تدريباً خاصاً، كمشاة، ليهاجموا المراكز الحصينة التي يعجز البدو عن الاستيلاء عليها. كانت الفرق النّظامية تحت قيادة الكولونيل جويس، وهو كلورَنس رجل إيرلندي لعب دوراً في الحرب يفوق بأهميته كل الأدوار التي قام بها الضّبّاط الآخرون.

على عكس لورَنس، كان جويس جندياً محترفاً في فرقة «حرس كونّوت» Connaught Rangers وذا سجلّ حافل بالخدمات الرّائعة التي قدّمها في حرب البوير وفي مصر والسّودان. من النّاحية الجسدية كان هناك فرق بين الاثنين، فبينما كانت قامة لورَنس لا تتجاوز خمسة أقدام وثلاثة بوصات، كانت قامة جويس تصل إلى ستة أقدام وثلاثة بوصات. لم يكن جويس يستطيع أن يركب سوى العربات الكبيرة التي تتّسع له، وهو نادراً ما يركب الجمال هنا، لكنه عندما يقوم بذلك يبدو كجبل يركب جبلاً.

أمضى الكولونيل جويس سنة تقريباً يؤسّس جيشاً ليرسله إلى المدينة التي حُصّنت تحصيناً قوياً، وكان من المفترض أن يكون بقيادة الأمير علي. أخيراً، عندما جُهّزت الأمور كلها، وصل رسول من الأمير علي برسالة إلى جويس يطلب إليه إيصالها إلى ملك مكّة بأقصى سرعة. كانت الرّسالة تقول:

«يـا أبـا الرّحمة وملك البـلاد، إليك تحيات من ولدك. إنّ جيشـه البطل ينتظر الأمر لينطلق إلى النّصر على الأتراك، لكن يؤخره أمر واحد وهو أن ضبّاطنا الشّـجعان رأوا أنه من غير المجدي التّقدّم دون سـيوف. لذلك أرجو منك بأن ترسـل ثلاثين سيفاً من السّيوف الدّمشقية ذوات الأغماد المذهبة لكي يرضى الجميع.

«عبدك»

كان الكولونيل جويس قادراً، لحسن الحظ، على التّعامل مع كل الأمور الصّعبة، إذ بالإضافة إلى تمكنه من التّحدّث باللغة العربيّة، كانت لديه مؤهلات قيّمة أخرى. على سـبيل المثـال كان لبقاً هادئ الأعصـاب رابط الجأش لا يتهوّر مهمـا كانت الضّغوط، وكان مجتهـداً مثابـراً وصبوراً فـوق حدود الصّبـر. بينما كان لورَنـس يمضي وقته مع حشوده من البدو، كان جويس يُبرز قدرته العسكرية بتشكيل قوة نظامية احتياطية مؤلّفة من مزيج من السّوريين والفلسطينيين والبغداديين الذين انضووا تحت راية الأشراف. لكنـه كان يجد فسـحة من الوقت من حين لآخر لينضـم إلـى لورَنس في إحدى غزواته أو ليقود حملة تدمير لوحده. في إحدى المرات قام بتدمير سبعة جسور صغيرة واقتلع ألفـي سـكـة علـى الخـط الحديـدي التّركـي بين محطتـي طويـرة Toweira وهديّة Hedia.

وهنـاك عـدد آخر من الضّبّاط الذيـن قاتلوا إلى جانب العرب ولعبـوا دوراً في زرع الألغام ونسـف السّـكك التّركية. كان من بينهم المقدّم و. ف. سترلينغ، والميجور پ. ج. و. مينـارد مـن السّـلاح الإيرلنـدي والذي كان يشـغل منصب قاضٍ في السّـودان، والميجور هـ. و. يونغ، والميجور م. إ. مارشال، والكاپتن إ. سكوت هيغنز، والكاپتن هــ. س. هورنبي، والملازم هـ. غارلاند الذي كان يعلّم العرب طرق التّدمير. كان كل الضّبّاط الذين اشـتركوا في القتال تقريباً ممن نالوا أوسـمة شرف حربية قبل اختيارهم ليلعبـوا دوراً فـي الحرب علـى أرض ألف ليلة وليلة، لكن لـم يصـل أحد إلى ما وصل إليه سـترلينغ، إذ لم يكن جندياً في حرب أفريقيا الجنوبية فحسـب، لكنه خدم أيضاً في فرقـة الطّيـران الملكية قبل أن تتحطّم بـه الطّائرة ويكاد يفقد حياته في جولة اسـتطلاع

فوق أحد الأماكن النّائية من جزيرة العرب. قُدّر له أن يكمل الحرب براً واختير ليكون طرفاً مهمّاً في حرب الحجاز.

لقد انضمّ إلى العرب وهم على وشك الانقضاض على سوريا، وكان برفقة لورَنس عندما وصل إلى دمشق. أمّا يونغ، الذي كان يعمل في قسم الاستخبارات في بلاد الرّافدين، فقد كان أيضاً ممن استهوتهم المشاركة في التّدمير بالمتفجرات. أثناء المرحلة النّهائية من الحملة أخذ على عاتقه مهمّة تنظيم وسائل النّقل، ولكن من بين إنجازاته المتعددة نجح في إطالة لحيته ممّا أثار حسد زملائه، وتحول شكله إلى شيخ حقيقي.

هناك شخص أحبّه البريطانيون والعرب على حدّ سواء، ألا وهو رفيق خيمة لورَنس وصديقه الحميم، هو عضو في الفرقة الطّبية للجيش الملكي قسم وقته بين العصيات الممرضة وزرع الألغام، وكان له مساعدان طبّيان هما الكاپتن رامزي والكاپتن ماكيبين. إنه الميجور مارشال رجل العلم الهادئ الخجول الذي أمضى حياته بين أنابيب الاختبار والمجاهر والبحث عن الجراثيم الغامضة في مجاهل غابات أفريقيا، لكنه برهن على أنه جندي حقيقي وفاز بوسام صليب الحرب في معركة نهر السّوم، وحاز على أوسمة أخرى في جزيرة العرب.

عندما كان لورَنس يذهب في إحدى حملاته، كان مارشال يحوّل خيمتهما في العَقَبة إلى مهجع لعصيّات الكوليرا والطّاعون، وكان ينجح غالباً في القضاء على الأمراض وإيجاد حلول لها. وفي رحلته داخل الصّحراء كان يعمل بالمتفجّرات، وبعد الغارة يرمي ما تبقى لديه من الدّيناميت وينكبّ على علاج الجرحى. وبعد إصابة الأتراك بالجراح، كان يذهب لتضميد جراحهم، وكان ناجحاً في الجمع بين مهمّة الطّبيب والجندي فعُيّن بعد الحرب مستشاراً لملك الحجاز، ومكث في جدّة سبع سنين كمقيم بريطاني.

من بين كل زارعي الألغام لم يكن هناك من هو أشجع من هـ. س. هورنبي الذي كان مهندساً مثل نيوكومب. كان قد تلقى علومه في ساحل الذّهب Gold Coast في وسط الكونغو، وفي مناطق نائية من الكرة الأرضية، وقد بلغ به التّهور أن نظر إليه البدو على

أنه مجنون تماماً. لكن مهنته كزارع ألغام انتهت بشكل مأساوي عندما انفجر جزء من اللغم في وجهه وأصابه بعمى وصمم جزئيين. لاقى العرب الذين كانوا برفقته مشقة كبيرة في إعادته إلى العَقَبة، ومنذ ذلك الحين وهو يمضي وقته في العمل الإداري.

في المعسكر الرّئيسي في العَقَبة كان هناك ضابطان آخران هما الميجور ت. هـ. سكوت والكابتن ريموند غوسلِت. كان سكوت منغمساً في المرح والمال، بينما كان غوسلِت مستغنياً عن كل شيء. كانت خيمة سكوت مليئة بصناديق القطع الذّهبية المصادرة من كل أنحاء الإمبراطورية بهدف إثارة حماسة البدو المزاجيين كلما خبت جذوتها. وكان حارس تلك الصّناديق كلباً بحجم السّنجاب يدعوه الميجور سكوت بكلب الصّيد البلغاري. أمّا رفيقه، الكابتن غوسْلِت، فقد كان إمبراطوراً لقسم المؤن، ما عدا عندما كان عودة أبو تايه أو فريق آخر من عصابة لورَنس ينهبون المعسكر.

وكان هناك أيضاً ضبّاط السّيارات المصفّحة والمدفعيات الخفيفة؛ ومنهم الكابتن غيلمان والكابتن دوسِت والكابتن برودي، والملازم غرينهِيل والملازم ويد والملازم باسكو. ولما كانت الطّرقات تعيقهم، كانوا يسلكون الجبال الوعرة ليصلوا إلى المواقع المحدّدة، وقد شاركوا في مغامرات لا تُحصى أثناء المرحلة الأخيرة من الحرب.

ولكن كان من أمتع الأعمال على الإطلاق عمل الطّيارين الذين أرسلوا لإرضاء العرب الذين كانوا يصرون على أن جيوشهم يجب أن تحتوي، كجيوش الأتراك، على طيور ترمي بيضاً متفجراً. كانت العَقَبة مركزهم الرّئيسي وكانوا ينطلقون منها ليحدّدوا مواقع الدّوريات التّركية فيقصفوا الحاميات على طول خط دمشق - المدينة. لم يغامر الطّيارون بأرواحهم كما فعلوا هنا، اللّهم إلا في شرق أفريقيا وعلى الحدود الأفغانية. وعندما كانت الطّائرة تغادر العَقَبة كان الطّيار ومرافقه يعرفان تماماً أنهما إن واجها مشكلة في المحرّك، فالأمر منتهٍ بالنّسبة إليهما، إذ كان الطّيارون يحلقون فوق أراضٍ مجهولة جرداء كجبال القمر. في إحدى المرّات، عندما كنا نتجول في جبال أدوم في طريقنا إلى «المدينة الوردية»، سمعنا هدير طائرة حربية فوق رؤوسنا، ولما رأينا الهبوط العنيف وقد تطايرت الحمم البركانية في السّماء العربيّة الزّرقاء، ازداد إعجابنا

بهؤلاء البريطانيين المتهوّرين الذين كانوا يحلقون فوقنا على ارتفاع ألف قدم.

كان هـؤلاء الطّيـارون تحـت إمرة الكاپتـن هارولد فورنِـس وِليامز فـي البداية، ثم أصبـح قائدهم الكاپتن ڤيكتور سـيدونز. ذات مـرة كان فورنِس وِليامـز يطير من مصر إلى العَقَبة عبر صحراء سيناء، وعاد محملاً بأربع دزينات من قوارير «باس» Bass كان رفاقه العطشى قد أرسلوه لإحضارها. ولكن تحت أنظار الجميع هبط الطّيار التّعيس هبوطـاً خاطئـاً فانقلبت الطّائرة وتحطمت كل القوارير. قالوا لـه إنهم يتوقعون أن يروا قريباً دمه يسيل على رمال الصّحراء بدلاً من هذا السّائل الثّمين.

كما أمضى الكاپتن فورنِس وِليامز ورفاقه شطراً من وقتهم يأخذون الزّعماء العرب في جولات تسـلية. اصطحبوا ذات مرة الشّيخ العجوز المرح عودة أبو تايه، الذي كان قد أظهر شـجاعته بزواجه من ثماني وعشـرين امرأة، وقد أعلن بعد عودته إلى الأرض أنه ندم لعدم أخذه بندقيته معه، إذ لم تكن لتسنح له فرصة أكبر من هذه ليطلق الرّصاص على كل «أصدقائه» في العَقَبة.

ومن بين فرسان سماء جزيرة العرب أيضاً هناك الملازمون دايڤرز وماكينز وأولدفيلد وسـيفي وآخرون غيرهم، لكن الوحيد الذي ذهب في الحملة إلى دمشـق هو الملازم جونـور Junor الذي ألقى قنابله في كل معركة عربيّـة تقريباً، ونجا ليلعب دوراً مماثلاً على الحدود الأفغانية في الهند بعد الحرب الأولى بفترة طويلة.

فـي المنطقـة الجنوبية كان هناك عدد آخر مـن الضّبّاط الذين تميّز مـن بينهم الكولونيل پاركر، وهو ابن أخت كتشـنر، والذي أمضى فترة قصيرة على ساحل البحر الأحمر ثم عُيّن حاكماً على المنطقة الجبلية الصّحراوية الواسعة التي تدعى شبه جزيرة سيناء، حيث تاه بنو إسـرائيل أربعين عاماً. وهناك أيضاً الكولونيل ج. ر. باسيت الذي نقل من المكتب الحربي في لندن إلى جزيرة العرب، وكان نائب الكولونيل ويلسـون في جدّة؛ وهناك الميجور هـ. ج. غولدي، الذي وصف مقرّه في جدّة بأنه شـديد الحرارة ولا يسـتطيع العيش فيه سـوى البشـر الذين يكادون يلفظون أنفاسـهم. حول المدينة كان هناك جيش الأمير عبد الله وكان فيه خبيران بالتّدمير هما الميجور و. أ. داڤنپورت والميجور هـ. ج. غارود.

لا تكتمل قائمة الأوروپيين ممّن لعبوا دوراً في حرب الصّحراء دون ذكر الفرنسيين. ففي أوائل شهر سبتمبر من عام 1916 أظهر الفرنسيون مشاركتهم في القضية العربيّة بإرسالهم بعثة إلى جدّة بقيادة الكولونيل بيرمون Colonel Bermond. لكن حكومتهم لم تكن تساندهم بشكل كافٍ وكان البريطانيون مضطرين ليزوّدوهم بكل شيء، مما أدّى إلى صعوبة التّفوق على العرب. مع ذلك، كان للكاپيتين پيزاني، الذي قاد قطعة من الفرنسيين ذوي الأصول الجزائرية طوال فترة الحرب، خبرة لا تُضاهى في الصّحراء المغربية وقام بأعمال مهمّة فيما يخصّ السّكة الحديدية التّركية عام 1917، وكذلك في العمليات الأخيرة في ضواحي درعا عام 1918.

أمّا الأجانب الآخرون في الحجاز، فكانوا خليطاً من الفرق المصرية وفرقة من مسلمي الهند من حاملي المدافع الرّشّاشة.

ومن أظرف الأعمال التي قام بها الإنكليز أثناء الحرب في الشّرق الأدنى ما قام به جون فيلبي الذي لم يلعب أيّ دور في الحملة الحجازية، لكنه باغت ذات يوم الملك حسين في عاصمته الصّيفية، الطّائف، وهو يلبس ثياباً بدوية أنيقة. وكان فيلبي قد جاء بمهمّة سرّية ليقابل ابن سعود في وسط جزيرة العرب، وتوغل في منطقة مجهولة ممتدّة من الخليج العربي إلى البحر الأحمر. وقد أُعجب لورَنس بفيلبي إعجاباً عظيماً لقيامه بهذه الرّحلة وبمقدرته على مسايرة البدو والائتلاف معهم، وما كادت الحرب تنتهي حتى توسّط في تعيينه مستشاراً خاصّاً لسلطان الأردن.

ربما يكون أكثر الأوروپيين أصالة ممن شارك في الثّورة العربيّة هو اللورد وِنترتون، الذي كانت له لحية ضخمة ويرتدي كوفية عربيّة ويركب جملاً ذا سرج مزخرف أخاذ. في إحدى المرّات قاطعه عضو من وايتشاپل أثناء إلقائه خُطبة، فاستدار اللورد وحدج المزعج بنظرة صاعقة وصرخ بصوت ارتجت له القاعة: «صمتاً!» Silence in the Ghetto.

أمّا في الصّحراء فقد تمكن اللورد من الظّهور بشكل رجل سيئ السّمعة وكقاطع طريق من جماعة عودة أبو تايه نفسه. في أحد الأيام جاء اللورد وِنترتون بملابسه

البدويـة راكبـاً جمله مـن يافا إلى مقر آلِنْبي قـرب الرّملة. وكان هنـاك طريق بين هاتين المدينتيـن الفلسـطينيتين، لكن راكبي الجمال والحمير أو المشـاة كانـوا أثناء الحرب يسلكون طريقاً فرعياً لكي يبقى الطّريق الرّئيسي مخصّصاً لقوافل الشّاحنات وسيارات الإدارة. وفـي وسـط هذا الطّريق الرّئيسـي جاء اللورد وِنترتون يتهـادى على جمله في مهمّة من الجيش العربي إلى آلِنْبي.

رآه رقيب من الشّـرطة العسـكرية كان معيّناً في تلك المنطقة لتنظيم السّـير، فصرخ قائلاً: «ابتعد عن الطّريق أيها الأسود قليل الأدب». لكن وِنترتون تابع مسيره بهدوء فلم يكن معتاداً على أن يخاطبه أحدٌ بهذا الطّيش، وبالتالي افترض أن الرّقيب كان يتحدّث إلى رجل آخر. لكن الرّقيب صرخ مجدّداً: «ألم تسـمعني أيها المتسـوّل الأسود؟ قلت ابتعد عن هذا الطّريق وعُد من حيث أتيت».

هنـاك أوقف وِنترتون جمله وأجاب كما يجيب أيّ شـخص بمسـتواه الاجتماعي: «لا بـّد أنك لا تعرف مـن أنا أيها الغلام. أنا ميجور وعضو فـي البرلمان ولورد أيضاً». عندهـا كاد الرّقيب ينهار أرضاً، لكنه تمكن مـن أداء التّحيّة وتمتم بكلمات يُفهم منها: «تقدَّم يا سيدي، تقدَّم».

كان معظـم الضّبّاط في جزيرة العـرب يحملون إمّا رتبة كولونيل أو عقيد أو ميجور (رائد). لكن الرّتبة لم تكن لتشكل فرقاً مهمّاً وكان هناك انسجام تام بين الجميع. كانت التّحيّـة محظورة بينهم ولم يكونوا يسـتخدمون الألقاب. حتى عندما سـنحت الفرصة للورَنس بأن يصبح جنرالاً، رفض هذا الشّـرف وتعلّـل بأنه لا يريد أن يكون أعلى رتبة مـن زملائـه. كان لكل رجـل مهمّته وطريقتـه الخاصة، وكان كل واحـد منهم يتصرّف بحرّية كما كان الفرسان يفعلون قديماً.

وفـي رسـالة كُتبت من جزيرة العرب إلى الوطن أثنـاء المرحلة الأخيرة من الحرب يقـول الكولونيل ر. ف. بَكسـتون، (قائد فرقة الهجّانة الذي جاء من فلسـطين ليتعاون مع قوات الأشراف):

«إن الكولونيل لورَنس أعجبُ رجل عرفته، فهو مرشـدنا وفيلسوفنا وصديقنا. ومع أنّ ظاهـره يوحـي إليك بأنه مجرّد صبي، ومع أنك لا تشـاهده إلا خجـلاً حيياً، فإنه ما من عربي في البلد إلا ويعرفه بما أتى من الأعمال البطولية. وهو يعيش كالبدو ويلبس لباسهم ويسافر دائماً في ثياب بيضاء بسيطة، ولا يأكل إلا من طعامهم وهو يتّقد حماسة للعرب، وعملياً هو من أشعل الثّورة بأكملها».



قافلة جمال في وادي عَرَبة



طلال الحريدين من طَفَس

الفصل الثّامن والعشرون

فيصل ولورَنس في معركة باريس

بعد سقوط دمشق وإجلاء الجيوش التّركية عن البلاد العربيّة، وبعد أن نجح لورَنس في تأليف حكومة مؤقتة للأمير فيصل، خلع خنجره الذّهبي المعقوف وحزم ثيابه البيضاء النّاصعة البسيطة، وثيابه الأنيقة المزركشة التي كان تلقاها دلالة على أنه أصبح من أشراف العرب، وأسرع منطلقاً إلى لندن بعد أن شهد نهاية مرحلة مهمّة في تاريخ الشّرق الأدنى. لقد صنع المستحيل إذ نجح في توحيد القبائل التي كانت العداوة مستحكمة بينها، بل ووضعها في صف الحلفاء، وساعد اَلنبي عندما وضع حداً لأماني الألمان في السّيادة التّامة في الشّرق الأدنى.

لكنه لا يزال يعتقد أن عمله لم يبلغ تمامه، فصمّم على الذهاب إلى لندن ليطالب الحلفاء بالعهود التي قطعوها على أنفسهم للعرب، وهناك مؤتمر للسّلام لا بدّ أن يعقد، ولهذا عاد لورَنس إلى أوروپا ليهيئ الأمور لوصول المفاوضين العرب.

وقد حدثت حادثة طريفة للورَنس عندما مرّ بمرسيليا في طريقه إلى لندن. وقف لورَنس في المحطة يستفهم عن موعد القطار التّالي المغادر إلى الهافر. كانت السّماء تمطر رذاذاً خفيفاً وكان لورَنس يلبس فوق بزّته معطفاً مَطرياً داكن اللون دون أيّة علامة تدل على رتبته. ومع أن لورَنس كان يومئذٍ في رتبة كولونيل، فقد كان يخيّل لمن يراه أنه من صغار الضّبّاط. كان المسؤول هناك ضابط ضخم الجثة ذو شاربين مخيفين، وعندما اقترب منه الكولونيل وسأله بمنتهى الأدب عن موعد القطار، نظر إليه نظرة صارمة وخاطبه بلهجة متوعّدة طالباً إليه ألا يزعجه وأن يسأل مساعده. خرج لورَنس

دون أن ينبس بكلمة وخلع معطفه في الغرفة المجاورة ثم عاد إلى غرفة الضّابط من جديد يقول بصوت هادئ: «ماذا قلت عن موعد انطلاق القطار التّالي إلى الهاڤر؟».
للحظة ودَّ الضّابط لو أنّه يدق عنق لورَنس، لكنه التفت فجأة فرأى التّاج والنّجوم على كتفي محدّثه، فقفز واقفاً وحيّاه التّحيّة العسكرية ثم قال متلعثماً:

«أرجو المعذرة يا سيدي. أرجو المعذرة».

لم يكن هناك ما يدخل السّرور إلى قلب لورَنس أكثر من إذلال المتكبّرين الذين يحاولون أن يظهروا أنهم مهمّون. ليس في سلوكه تبجّح أو مباهاة، لكنه يستمتع عندما يصادف متبجّحاً يحاول المبالغة في الظّهور.

أقلّت السّفينة الملكية البريطانية «غْلوسستر» *Gloucester* الأمير فيصل ورجاله عبر البحر الأبيض المتوسط إلى لندن كضيوف للملك. انزعجت فرنسا لمّا علمت بقدوم الوفد العربي إلى مؤتمر الصّلح، ورفضت الاعتراف به. كانت فرنسا تريد سوريا لنفسها، وترى أن الأمير فيصل ومستشاريه الإنكليز سيكونون عائقاً في وجه طموحاتها. مع ذلك قصد فيصل باريس وهو يعلم أن الفرنسيين سيقابلونه بالفتور.

يحافظ الأمير فيصل محافظة دقيقة على تعاليم دينه ويأبى شرب الخمور، ولهذا حدثت إشكاليات على متن الباخرة بسبب أن أعضاء الوفد كانوا ممّن يتسامحون في شرب الخمور. وبما أنهم كانوا يخشون الشّرب علناً حتى لا يغضبوا الأمير، كانوا ينزوون قبل العشاء بنصف ساعة في غرفة الجلوس، يجرعون ما يجدونه من أنواع الخمور، وكان الجنرال نوري، وهو من أقدم ضبّاط فيصل والذي أظهر مقدرة في الحرب، قد تجرأ على إحضار كأسه إلى المائدة وكان يخفيها وراء قارورة الماء حتى لا يراها فيصل.

اصطحب الميجور مارشال، رفيق لورَنس في الخيمة، الوفد العربي من الإسكندرية حتى مرسيليا، وكان يتساءل في سرّه عن كيفية استقبال الفرنسيين لرفاقه إثر وصولهم الميناء. وعندما دخلت الغْلوسستر مرسيليا صعد إلى متنها مبعوث فرنسي دون ممثلين

بريطانيين، وقد صرح الفرنسيون لمارشال بأن اهتمام الإنكليز بفيصل لا يسرّهم، وأن كل الشّؤون المتعلقة بسوريا هي من اختصاص الفرنسيين وحدهم. وعلى هذا أرسل مارشال برقية إلى السّفارة الإنكليزية في باريس، وبعد ساعات ظهر لورَنس. تحاشى بلباقته المعهودة الاحتكاك بالفرنسيين، واستعار كوفية مارشال العربيّة ووضع نفسه بين أفراد إدارة الأمير فيصل للتّفاوض وليس كضابط بريطاني.

وأخيراً وصل الوفد إلى پاريس واختار الأمير فيصل مقراً له فندق الكونتيننتال في شارع ريڤولي. وكان الكولونيل لورَنس يذهب مع فيصل أينما سار، سواء إلى اجتماع غير رسمي أو إلى مؤتمر رسمي. قليلون فقط من أعضاء مؤتمر الصّلح هم من يعرفون أن هذا الشّاب هو قائد الجيوش العربيّة أثناء الحرب، والذي كانت شخصيّته لا تقل أهمية عن شخصية فيصل ذاته.

كان فيصل أبرز شخصية في الوفد مدّة إقامته في پاريس، وكان بزيّه العربي يثير اهتمام الفرنسيين، وبالأخص الفنّانين والمصورين والكتّاب. ولكن فيصلاً ليس من الرّجال الذين يطمعون في الشّهرة، مثله في ذلك مثل لورَنس على السّواء، ولهذا كان يستيقظ في السّاعة السّادسة صباحاً ثم يذهب إلى مكان انعقاد المؤتمر فراراً من مقابلة الصّحافيين والمصوّرين والجماهير المحتشدة التي كانت تتبعه أينما حلّ للتمتع برؤية الأمير العربي وثيابه الرّائعة.

وفيصل من الرّجال الذين يفهمون فوراً مَن يتملّقونهم. وفي ذات يوم، بعد تناول العشاء في دار البلدية، وقف مسيو دوبوست Dubost يكيل له المديح في خطبته. ولما سأل مترجم مغربي الأمير عن الأثر الذي انطبع في نفسه من هذا الخطاب أجاب: «إن للخطيب أسناناً جميلة، أليس كذلك؟»

كان الإنكليز قد أفرطوا بوعودهم للعرب إغراء لهم على القتال، فلما انتهت الحرب وجدوا أن معظم هذه الوعود غير قابل للوفاء لأن منها ما يتعارض ومصالح الفرنسيين. لكن الأمير فيصل نجح، بكياسته وحذقه، في كسب عطف عدد كبير من كبار رجال السّياسة في المؤتمر ولم يكن يجتمع بأحد إلا سحره بحديثه. وفي اجتماع

مجلس العشرة أشار مسيو پيشون Pichon إلى حق فرنسا في سوريا الذي يرجع إلى أيام الحروب الصّليبية. أصغى فيصل باحترام، وبعد أن أنهى السّياسي الفرنسي حديثه التفت فيصل نحوه وسأله بأدب: «أنا لست ضليعاً بالتاريخ، فهل تتفضّل بإخباري من الذي انتصر في الحروب الصّليبية حقيقة؟».

كان رأي لورَنس في مؤتمر الصّلح صريحاً وبسيطاً، وهو أنه إذا كانت بريطانيا العظمى لا تستطيع ضمان الاستقلال للعرب، وإذا كانت تريد أن تتركهم في أيدي الفرنسيين، فسيعمد إلى مساعدة العرب في مقاومة المطالب الفرنسية التي تعارض الأماني العربيّة، ولن يهدأ له بالٌ حتى ينال العرب الحقوق التي من أجلها استبسلوا في القتال.

في أثناء الحرب كانت بريطانيا ترعى الثّورة العربيّة لنيل الاستقلال ومكّنت الملك حسين وأبناءه من صيانة جيوشهم ضد الأتراك. أمّا الفرنسيون، فلم يرسلوا للعرب سوى قطعة عسكرية واحدة لم تكن لتنجُ لولا الإمدادات التي جاءتها من لورَنس وزملائه البريطانيين. لكن الاتفاقية المحرجة بين البريطانيين والفرنسيين كانت «أنت خذ هذه، وأنا آخذ تلك»، وبالتالي أرادت فرنسا ضم سوريا إلى دائرة نفوذها. كان الأمير فيصل ولورَنس على يقين من أنه لو نفّذت هذه الاتفاقية فإن سوريا ستصبح مستعمرة فرنسية بالرّغم من عدم رغبة معظم شعبها لا بالسّيطرة الفرنسية ولا بالتّعاون مع الفرنسيين.

وليس لورَنس بالمتطفّل عندما عرض القضية العربيّة ووجّه الأمير فيصل إلى لقاء المفاوضين على أرضهم، فقد درس جغرافية جزيرة العرب وسوريا وفلسطين دراسة دقيقة. وتحدّث باللهجات المختلفة في الشّرق الأدنى. لقد عاش بين الطّوائف المتعدّدة واختلط بها اختلاطاً لم يختلط مثله أيّ أجنبي، وشرب القهوة في دار كل شيخ من شيوخ القبائل العربيّة، ويستطيع التّحدّث لساعات عن الشّؤون السّياسية والدّينية والثّارات القبلية بين العرب وجيرانهم. كما طاف المدن السّورية وزارها مزاراً حتى أصبح يعرف عنها ما يعرفه عن لندن وأوكسفورد. وكان يتحدّث عنها إلى أصدقائه كأنه ينظر في خريطة أمامه، فيسرد المدن واحدة واحدة ويعرف مواقعها وتاريخها وتاريخ سكانها وعاداتهم.

وصرّح لورَنس أن بيروت هي النّافذة الغربية لسوريا وأنها فرنسية في مشاعر أهلها وفي لغة التّخاطب المنتشرة فيها، بالرّغم من مينائها الإغريقي وجامعاتها الأميركية الضّخمة. لكنه كان مصرّاً على أن دمشق، المدينة السّورية العريقة ومركز الحكومة والدّين، هي عربيّة صميمة، وأنّ أفكار شيوخها متشدّدة، وأنهم يرغبون بقوّة في الخلاص من الحكم الأجنبي. كما قال إنّ أعظم المدن صناعياً، حماة وحمص، هما مدينتان محليتان أكثر من غيرهما.

وكان لورَنس يقول إنّ القضية العربيّة قائمة على أربع وثائق هامة، ذكرها على النّحو التّالي: «أولاً، وعد الإنكليز الملك حسين في أكتوبر سنة 1915، شرط القيام بالثّورة العربيّة، بأن تعترف بريطانيا العظمى باستقلال العرب في الأراضي الواقعة في الصّحراء حتى جنوب الدّرجة 37 من خط العرض ماعدا بغداد والبصرة، وأن تكون بريطانيا في مركز يمهّد لها العمل الحُرّ دون أيّ تدخل في مصالح فرنسا».

«ثانياً، معاهدة سايكس - پيكو التي تمّت بين إنكلترا وفرنسا في شهر مايو سنة 1916 والتي كان من شأنها تجزئة الممالك العربيّة التي كانت تحت السّيادة التّركية إلى خمس مناطق على الوجه الآتي:

(أ) فلسطين من الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط هي منطقة دولية.

(ب) حيفا وبلاد الرّافدين من تكريت إلى الخليج هي أقاليم بريطانية.

(ج) السّاحل السّوري من صور إلى الإسكندرية وكيليكيا، وتقريباً كل المناطق الأرمينية الجنوبية من سيواس إلى ديار بكر هي مناطق فرنسية.

(د) المناطق الدّاخلية، وبالأخصّ حلب ودمشق وأورفة ودير الزّور والموصل، هي ممالك عربيّة مستقلة تحت نفوذين اثنين:

(1) المنطقة الواقعة بين العَقَبة والكويت، وحيفا وتكريت لا يتدخّل الفرنسيون فيها تدخلاً سياسياً، وأن يكون للإنكليز الأولوية الاقتصادية والسّياسية ولهم الحق في إرسال المستشارين وفقاً لرغبة العرب.

(2) المنطقة الواقعة بين حيفا ـ وتكريت والجزء الجنوبي من أرمينيا الفرنسية أو كردستان، ليس لإنكلترا الحق بأن تتدخل فيها سياسياً، وتكون فرنسا وحدها صاحبة السّيادة الاقتصادية والسّياسية، وأن يكون لها الحق في إمداد العرب بالمستشارين الفرنسيين وفقاً لما تقتضيه الحاجة».

«ثالثاً، الوثيقة التي أدلى بها البريطانيون إلى سبعة من كبار السّوريين في الحادي عشر من شهر يونيو سنة 1917 والتّأكيد لهم أن البلاد التي كانت عربيّة قبل الحرب والبلاد العربيّة التي تحرّرت من النّير التّركي عنوةً وبفضل اشتراك أهلها في القتال مع الأتراك أثناء الحرب الكبرى، تبقى مستقلة استقلالاً تاماً.

رابعاً، التّصريح الإنكليزي - الفرنسي في التّاسع من نوڤمبر سنة 1918 والذي وافقت فيه الحكومتان البريطانية والفرنسية على تشجيع إيجاد حكومات وطنية في سوريا والعراق، وأن يكون للشّعبين السّوري والعراقي الحق المطلق في اختيار شكل الحكم الذي يرضيهم ويوافق مصالحهم».

يقول لورَنس: «قُدّمت كل هذه الوثائق تحت ضغط الحاجة العسكرية الملحَّة لإغراء العرب حتى يقاتلوا إلى صفنا».

«وأنا لا أجد أيّ تضارب أو مجال للمقارنة بين هذه الوثائق الأربع، وأنا أعلم أنه ما من أحد يجد ذلك. وتبعاً لذلك قد يُطرح السّؤال التّالي: ما هو سبب المصاعب بين البريطانيين والفرنسيين والعرب؟ يعود السّبب بشكل رئيسي إلى معاهدة 1916، الوثيقة الثّانية، لأنها غير قابلة للتطبيق ولا ترضي الحكومتين البريطانية والفرنسية. تعطي هذه الوثيقة بشكلها الحالي الحق للعرب في حكم دمشق وحمص وحماة وحلب والموصل لوحدها، مع تزويدها بمستشارين وفقاً للحاجة التي يقرّرونها هم أيضاً، وإن مراجعة الوثيقة مسألة حساسة ولا يمكن جعلها مُرضية لإنكلترا وفرنسا دون حساب لرأي الطّرف الثّالث، أي العرب».

كانت المسألة حسّاسة فعلاً وصعبة الحل، والواقع أنّ بريطانيا العظمى قد أوقعت

نفسـها فـي موقف حرج جـداً، فهي فـي الوقت الذي كانـت تقطع فيه العهـود للعرب كانـت تعقد مع فرنسـا بعض الاتفاقـات الخاصة، وفي الوقت نفسـه أيضاً كانت تقطع العهـود للصّهاينـة. أمّا الأمير فيصل فقد جاهر بعدائه لفرنسـا ومقاومتـه الصّريحة لها، وطالـب بشـدة أن تكون المملكة العربيّة الجديدة شـاملة سـوريا والعراق وفلسـطين، ولكـن كان جواب فرنسـا أن لهـا حقوقاً قديمة في سـوريا ترجع إلى عهـد الصّليبيين، وأنها هي التي أسّست المعاهد الفرنسية الكبرى في كل الأنحاء السّورية، وأنها أنفقت الأموال الطّائلة على مدّ السّـكك الحديدية، ولم تترك وسيلة من وسائل الغزو السّلمي البريء إلا وقامت بها. وأكّدت فرنسا أنها حامية الشّعب المسيحي في سوريا منذ فجر التّاريـخ. وكان الصّهاينـة يتقرّبـون من بريطانيا لتسـاعدهم على إنشـاء الوطن القومي بحمايتهـا. ومـن هنا ترى أن القضية العربيّة لم تكن قضية هيّنة، وكان من الضّروري أن تتفق إنكلترا وفرنسا.

أصـرّ الأمير فيصل، يسـانده لورَنس، علـى أن تكون الدّولة العربيّة الجديدة شـاملة للحجاز والعراق وسوريا وفلسطين. وأبى بشدة أن تكون فلسطين دولة يهودية، مؤكداً أنه لا يمكن فصل فلسـطين عن المملكة العربيّة، بل يجب أن تظل جزءاً من سـوريا لا ينفصل عنها. ولمّا كان لا يوجد أيّة حدود طبيعية بين البلدين فإنّ ما يؤثر على الواحدة لا بدّ أن يؤثر على الأخرى، وإن فلسـطين وسـوريا والعراق من النّاحية الجغرافية ومن النّاحيـة العرقيـة إقليم واحـد لا ينفصم ولا يتجزأ. من جهة أخـرى، لم يعارض فيصل هجرة اليهود إلى فلسطين على أن يكون لهم الحق المطلق في الإشراف على مدارسهم بأنفسهم، وأن يؤسسوا مركزاً ثقافياً يهودياً وأن يشتركوا في حكومة فلسطين.

يقول الأمير فيصل: «إنّ اليهود كالعرب من الشّـعوب السّـاميّة، وبدلاً من أن نعتمد على دولة من الدّول الغربية في نيل حقوقنا يجب أن يتعاون العرب واليهود على إيجاد دولة سـاميّة عظيمة، وأني أقدّر أعظم تقدير الأماني الصّهيونية ولو كانت متطرّفة. إنني أعرف أن أمنية اليهود هي الحصول على وطن لهم، ولكن عندما يتعلق الأمر بفلسطين فإن الحق يرجع إلى سـاكنيها الحاليين. وإنّ فلسـطين هي في الواقع من البلاد العربيّة

ويجب أن تظل عربيّة، بل يحتّم أن تكون جزءاً لا يتجزأ من الدّولة العربيّة الكبرى».

بطبيعـة الحال كان في تصوّر فيصل حقوق إقليمية وسياسـية للعـرب، وكان مهتماً بإنشـاء دولـة عربيّـة كبرى بالرّغـم من كل الصّعوبـات التي قد تعتـرض نجاحها. لكن لورَنس، بحاسّـته السّادسـة وفهمه لنهوض وسـقوط الأمم، كان يقـدّر الأحداث على مـدى العقود وليـس السّـنوات. إن القضايـا العربيّة والفلسـطينية والسّـورية يجب أن تُمحّص وتجري التّغييرات فيها على مدى زمن طويل.

بالرّغم من كل التّملقات الدّبلوماسـية والرّوتين والإطناب التي سـادت اجتماعات باريـس، لم ينخـدع الأمير فيصل بالرّوح الحقيقية المهيمنـة على مؤتمر الصّلح، وقبل أن يبدأ ولورَنس حضور أحد الاجتماعات، كان يلهو بإخراج خنجره الذّهبي من غمده وشحذه عدة مرات على حذائه.

والأميـر فيصل حـاد البديهة، رويت قصص كثيرة عن ردوده الحادة والحاسـمة في مؤتمر باريس. وبعد أن قضى عدة أسـابيع يحضر جلسات المؤتمر طلب إليه أن يبدي رأيه في السّاسة العصريين بعد أن رأى منهم مَن رأى فأجاب بصراحته المعهودة: «إنهم أقرب ما يكون للوحة العصرية، التي ينبغي تعليقها في قاعات الفن لتُشاهد عن بُعد!».

وكانـت نتيجة معركة مؤتمر الصّلح، التي كافح فيها فيصل ولورَنس كفاح الأبطال، جزئيـة، فهمـا لـم ينالا المطالـب التي كانا جاءا من أجلها، ولـم يكونـا يتوقعان أن يُجابا إليها. وفي النّهاية كان من نصيب فرنسـا أن تأخذ بيروت والسّـاحل السّوري وأن تقبل بريطانيا العظمى الانتداب على فلسطين. أمّا العرب فقد سُمح لهم بالاحتفاظ بمناطق سوريا الدّاخلية وأن تكون دمشق، الأثيرة لديهم، عاصمة دولتهم العربيّة الجديدة.

* * *



فلّاح سوري

الفصل التّاسع والعشرون
نجاة لورَنس من الموت
ومغامرات فيصل وحسين

كان لورَنس قد ملّ حياة السّكون بسبب بقائه السّاعات الطّويلة في غرف مؤتمر الصّلح، وتاقت نفسه إلى المغامرات. واتفق أنه قد ترك مذكراته وأوراقه الهامة المتعلقة بالحرب في سرداب في القاهرة، لأن البحر الأبيض المتوسط كان لا يزال مرتعاً للغواصات الألمانية عندما وُقّعت الهدنة مع الأتراك وعندما عاد من الشّرق الأدنى. لذلك، وبعد إنجاز العمل الأولي في مؤتمر الصّلح، شعر لورَنس بأنه في حاجة لتلك الأوراق والمذكرات.

سمع أن هناك عشر طائرات بريطانية ضخمة من نوع هاندلي بايدج وبمحركات رولز رويس، والتي كانت قد أغارت عدة مرات ليلاً على ألمانيا، كانت ستغادر لندن إلى القاهرة، فاعتزم لورَنس السّفر إلى مصر دون إبطاء. لكن الطّائرات كانت قديمة للغاية وكان الطّيارون من النّوع المتهوّر الذين يحطمون طائراتهم إلى أشلاء، وفي الواقع كان بعضهم لم يقد أبداً هذا النّوع من الطّائرات. وفي الطّريق من كولوني إلى ليون اضطر الطّيار إلى الهبوط خمس مرات، ويبدو أن الطّائرات كانت بحاجة إلى إصلاح عدة مرات قبل الوصول إلى مصر.

أرشدت وزارة الطّيران في لندن سرب الطّائرات إلى مدرج للهبوط في روما، وعندما وصل الطّيارون إلى المدينة الخالدة أخذوا يجوبون المنطقة فطاروا فوق نهر التّايبر وكنيسة القديس بطرس والكولوسيوم والفوروم وصعوداً ونزولاً فوق طريق أبيان، لكنهم لم يجدوا في أيّ مكان من التّلال السّبعة مكاناً يصلح للهبوط. أخيراً رأى

قائد طائرة لورَنس ما اعتقد أنه مدرج، لكنه عندما بدأ بالهبوط تبين له أنه مقلع حجارة، ولم يكتشف خطأه إلا قبل الوصول إلى المقلع بقليل فما كان منه إلا أن أدار المحرك وحاول الصّعود من جديد. ولسوء الحظ لم يتمكن من الارتفاع بسرعة كافية فدرجت الطّائرة على الأرض ثم اصطدمت بحافة المقلع وتحطمت فوق قمّة شجرة.

كان لورَنس يجلس في الحجرة المخصّصة لإطلاق المدفع الرّشاش، ولم يشعر الرّكاب إلا وشجرة تأتي نحوهم بسرعة رهيبة، ثم سمعوا فجأة صوت انفجار. وفي لمح البصر كانت الطّائرة العظيمة قد انقلبت على مقدّمتها وجناحها الأيمن وتحولت إلى شظايا خشبية. قُتل الطّياران على الفور، أمّا الميكانيكيان، اللذان كانا يجلسان مع لورَنس في قمرة المدفع الرّشاش، فقد ألقي بهما خارجاً على رأسيهما. أصيب أحدهما بارتجاج في المخ بينما فقد الآخر الوعي، وحالما عاد إلى رشده بدأ لورَنس يخرج من بين الأنقاض. كان قد كُسر لوح كتفه وبعض عظام رقبته وثلاثة من أضلاعه، وبعد إجراء فحص للطّائرة استمرّ عشر دقائق صرح الميكانيكي بأن الطّيارة عرضة للاحتراق في أيّة دقيقة، فأجاب لورَنس: «حسناً، إذا حدث ذلك، سأشعر دون شك بالقشعريرة عندما أصل إلى العالم الآخر».

ولكن على الرّغم من خطورة هذا الحادث، فقد استطاع لورَنس أن يجد طيارة أخرى بعد أيام قليلة وأتم رحلته إلى مصر. وقد قال لي عندما اجتمعت به في باريس: «لا يمكن أن تتصوّر الشّعور الذي يستولي على الإنسان عندما يتناول طعام الإفطار في جزيرة كريت، والعشاء في اليوم عينه في القاهرة على الرّغم من أن المسافة بينهما سبعمئة ميل!». وبعد أن جمع لورَنس أوراقه عاد إلى باريس، وهو لا يزال متعباً إثر حادثة الطّائرة.

انتهت جلسات المؤتمر، فرأى فيصل أن يزور لندن وأن يطوف في الجزر البريطانية. والواقع أن لورَنس كان يشعر بسرور عظيم في تعريف أصدقائه العرب على المنطقة. كان من المنتظر أن يتأثر أعضاء الوفد العربي بالمناظر الفاتنة والمخترعات الحديثة، لكنهم اكتفوا بالابتسام. كان كبرياؤهم يمنعهم من إظهار اندهاشهم لما يرون

باستثناء مرة واحدة أثناء تواجدهم في فندق ريتز، فقد ذهلوا عندما فتحوا صنابير المياه واكتشفوا أن أحدها يضخّ ماء ساخناً بينما يضخ واحد آخر ماء بارداً.

فـي القرآن الكريـم خبرٌ عن ينابيع الجنـة التي تفيض بالحليب والعسـل، لكنهم لم يسـمعوا أبداً عن ينابيع في الأرض كتلك التي في فندق الرّيتز. ومن ثم أخبروا لورَنس أنهـم يرغبون في أخذ بعض من هـذه الصّنابير ليحملوها على جمالهم فتزوّدهم بالماء السّاخن والبارد وهم يتجوّلون في الصّحراء.

وحدث أن دُعي الأمير فيصل إلى وليمة في «غلاسغو»، وكان قد أمضى وقته يتفرّج على نهر الكلايد فلم يستعد لكلمة يرد بها على التّحيّة الخطابية. لم يكن هناك من يفهم اللغة العربيّة بين الحاضرين سـوى لورَنس، الذي كان يجلس إلى جانب الأمير فيصل ليقوم بدور المترجم، فما كان من الأمير إلا أن مال بجهة لورَنس وأسرّ له بالأمر قائلاً: «ليـس لـدي ما أقوله لذلك سـأقرأ مقطعاً من القرآن من سـورة البقـرة، وعندما تنهض لتترجم ما قُلتُ تستطيع قول ما تشاء». أخذ فيصل يتلو الآيات الكريمة بصوت جهوري رنـان وبنغمـة عذبة فلم يبقَ أحد من الحاضرين إلا تأثر بهـا أعظم التّأثر. كانت الآيات تتدفق من فم الأمير تدفق شـلالات «نياغـارا» ولـم يخطر في بال أيّ من الحاضرين أنّه كان يقرأ القرآن.

وقبـل عـودة فيصل إلى الشّـرق الأدنى بقليل دُعي إلى حفلة سـاهرة في لندن وكان اللورد بلفور من بين المدعوين. انتهز اللورد هذه الفرصة وسأل الأمير فيصل عن رأيه في الحكومة. فقال جورج واشـنطن العرب: «إنّ الحكومـة البريطانية تذكّرني بالقافلة فـي الصّحـراء.. إنـك عندمـا ترى القافلة مـن بعيد يخيّـل إليك أنك لا تـرى إلا جملاً واحـداً، ولكنك عندمـا تقترب من القافلة تشـاهد جمالاً كثيرة كل واحـد منها مربوط بذيـل الآخر، حتى تصل إلـى رأس القافلة فتجد حماراً صغيراً يقود القافلة كلها». حار بلفور ولم يدرِ من يقصد الأمير بالحمار!

وعـاد فيصل إلى سـوريا وعاد الشّـعب السّـوري إلـى التّرحيب بمحرّره مـن النّير، ولـم تمضِ بضعة أسـابيع على عودته من لندن حتى نادوا به ملكاً على سـوريا على أن

تكون دمشق عاصمة مُلكه الجديد. ولكن شاءت الظّروف أن يكون عمر هذه المملكة قصيراً، إذ لم يجد فيصل دولة أجنبية تمدّه بالمال لينظّم أموره ويدير شؤون دولته، فأصبح وضعه سيئاً. وبعد أن أنفق فيصل أمواله الخاصّة التي ادخرها لأجل انتشال البلاد من الفوضى المالية التي وقعت فيها، أُجبر على ترك دمشق واحتلّ الفرنسيون سوريا من أقصاها إلى أقصاها. كان الذي يبدو لأول وهلة في ذلك الحين، أنّ أماني فيصل وآماله قد تحطمت، ولكن لورَنس وغيره من القادة البريطانيين الذين اشتركوا في الثّورة العربيّة لم يقطعوا الأمل، وكانوا يقولون إن ورقة من أوراق اللعب ما زالت في أيديهم، ومن يدري فقد تكون الرّابحة.

وكان الملك حسين طوال المدّة التي عمَّ فيها الاضطراب سوريا يسعى سعياً حثيثاً لتقوية مركزه في الحجاز، وكثيراً ما كان البدو يرون رجلاً هزيلاً يعدو من مكّة قبل الصّباح الجميل، هذا هو جلالة الملك حسين، ملك العرب، في رحلته ليلاً إلى جدّة التي تبعد أربعين ميلاً عن مكّة. لم تكن هناك فرقة موسيقية أو أبّهة تسبق موكبه، بل كان يسافر وحده على ظهر البغل.

بقي الشّريف حسين يحكم كملك على الحجاز، ثم اتخذ لقب الخليفة، أو الزّعيم الرّوحي لما يقرب من مئتي مليون مسلم، إلى أن حلّ محلّه ابن سعود الذي قدم من وسط جزيرة العرب. كان حسين ملكاً جليلاً يميل إلى البساطة ويفضّل البغال على وسائل النّقل الأخرى، وكان خبيراً ومولعاً بها. كان يبحث عنها في أميركا الجنوبية وأستراليا والحبشة، لكنه كان يقرّ بأن أفضلها هو نوع «hard-tail» الموجود في ولاية ميزوري.

وكان شديد القسوة حين يغضب، وخصوصاً لحُرمات الدّين. ذات مرة، بعد حملة ناجحة لنسف أحد القطارات، عاد الرّجال إلى مكّة وكان من بينهم ضابطان من ضبّاط لورَنس العرب يحملان شراباً مُسكراً من أجل الاحتفال بالمناسبة. بلغ الأمر أذني الملك فأمر بضرب الضّابطين علناً. وبعدها لم يعد أحد يفكر بجعل مكّة مونتريال العرب.

وكان العرب مُغرمين بالفونوغراف، لكن الملك حسين حرَّم دخوله إلى مكّة، وكان يقول عن اختراع أديسون إنه من عمل الشّيطان. ومع أنه كان يميل إلى حياة البداوة، ومع أنه كان يتعاطف مع البدو، فقد كان أقسى عليهم منه على عرب المدن.

كان جالساً ذات يوم تحت ظلال النّخيل في واحة من الواحات وحوله جماعة من البدو يفترشون السّجاجيد الصّغيرة. رأى بطرف عينه بدوياً من هؤلاء البدو وقد دسّ كوفية جاره تحت طيّات ثوبه الفضفاض، وتطلّع البدوي فلم يجد غطاء رأسه الجميل وأنكر البدو جميعاً أنهم قد رأوا هذه الكوفية ومن بينهم المذنب طبعاً، فما كان من الحسين إلا أن وقف وقد استولى عليه الغضب الشّديد ومشى بخطوات سريعة نحو وصرخ في وجهه:

«أيها الغلام أين كوفية رفيقك؟» فتلعثم الرّجل وقد استولى عليه الفزع وقال:

«يا أبا المكرمات والمرحمة، إني لا أعرف شيئاً عن هذه الكوفية». فزمجر حسين صارخاً: «أيها الكاذب!» وضربه بعصاه الثّقيلة ضربات قويّة هشمت ضلوعه وأفقدته الحياة في اليوم التّالي.

حسين هو الثّامن والسّتون من أشراف مكّة، وهو أول ملك عربي. حاول أن يعيد لقبيلته القديمة قريش، قبيلة النّبي محمّد نفسه، مجدها السّابق وعزها القديم. وهو رجل ذكي إلى أقصى حدّ، وقد أكّد الذين اختلطوا به أنه موهوب سياسياً. لكنه نظراً لكهولته لم يكن في مقدوره أن يبسط سيطرته كخليفة على العالم الإسلامي المجزأ، كما أن من المسلمين من لم يعترفوا به خليفة. والوهابيون، وهم قوة عظيمة، أبوا الخضوع له. وأخيراً جاء ابن سعود، أمير أواسط جزيرة العرب وزعيم الوهابيين، وأطاح بحسين وأجبره على التّنازل عن مُلكه لابنه علي.

ويقول جون فيلبي: «في أوائل الحرب أرسل السّير بيرسي كوكس، الذي رافق الحملة إلى بلاد الرّافدين كقائد سياسي، أرسل الكابتن شيكسبير ليحضّ ابن سعود وحليفه ابن رشيد على الوقوف في وجه الأتراك. انطلقت الحملة في يناير سنة 1915، وإني أميل إلى الاعتقاد أنه لولا وفاة شيكسبير في أول غزوة، لما كان قُدّر للكولونيل

لورَنس أن يفوز بالشّهرة العالمية التي فاز بها، ولما استطاع دخول دمشق دخول الفاتح المنتصر على رأس أكبر جيش حجازي.

خَلَفَ مستر فيلبي الكابتن شيكسبير في الصّحراء الوسطى التي كانت تحت حكم ابن سعود، وهو يعجب إعجاباً كبيراً بهذا الملك الجبّار. ولكن شاءت الظّروف أن يقصد مستر فيلبي أواسط صحراء العرب بلاد الوهابيين، في وقت كانت الثّورة الحجازية قد وصلت إلى حدّها الأقصى من الشّدّة، وكان الكولونيل لورَنس في طريقه إلى دمشق. قام مستر فيلبي برحلة خارقة في مناطق مجهولة من قلب الصّحراء ووصل إلى عاصمة الملك حسين، الطّائف، الواقعة وسط الجبال القريبة من مكّة المكرمة، فرحّب به ملك العرب ودعاه بلورَنس نجد.

يحرّم السّلفيون التّدخين، ومن تسوّل له نفسه بأن يدخّن فهو في خطر أن يفقد رأسه. وهم يريدون إلغاء الحج إلى مكّة وهدم الأضرحة كالكعبة المقدَّسة وقبر النّبي في المدينة[1]. يترأس ابن سعود قوة عظيمة من الرّجال الأشداء، وقد استولى على حائل، عاصمة ابن رشيد، بعد الحرب وهو الآن الحاكم المُطلق على أواسط جزيرة العرب.

كان للملك حسين أعداءٌ آخرون أيضاً، فقد طالب أمير المغرب بالمنصب نظراً لانحداره من فرع من قبيلة قريش. كما طالب الأتراك بأن يصبحوا قادة للمسلمين، وعلى رأسهم غازي مصطفى كمال باشا. وتحيّرت الهند في الأمر، ولم يُدلِ علماء الأزهر بتصريح حول مسألة الخلافة.

هناك الكثير، دون ريب، ممّا يجري وراء الكواليس. ونحن في الغرب لا نميل إلى الإسلام الذي بدأ يشيع في لندن بالإضافة إلى إفريقيا.

إن هذه الأوقات عصيبة حقاً لمن سيحكم البلاد، لكن ليس هناك من يتفوّق على أحقية حسين بالسّلطة.

كان طول الملك حسين خمسة أقدام وبوصتين وكان يتمتع في السّتين من عمره

---

(1) هذا غير صحيح، ومعلومات المؤلف تعوزها الدّقة في بعض مواضع كتابه.

بالعافيـة والقـوة والطّموح، علـى نقيض ما كنا نراه مـن أبناء الصّحـراء الجنوبية الذين يقاربونـه في العمر. وكان أدلّ ما فيه على القوة واللياقة يداه الرّقيقتان الجميلتان اللتان تشبهان أيدي الفنانين الموسيقيين.

أما فيصل فهو اليوم قبلة آمال العرب، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أنّ قومه في حاجة ماسة إلـى الاسـتعانة بالأوروپيين والأميركيين فـي النّاحيتين العلمية والصّناعيـة، وكان لا يدّخر وسعاً في إدخال التّبديلات المهمّة لقلب جزيرة العرب وصبغها بالصّبغة العصرية.

وفيصل، كأبيه، صاحب شـخصية قويّة شـجاعة، لولاها لما اسـتطاع أن يوحّد بدواً يستسلمون منذ أجيال للأحقاد وتأكل الضّغائن قلوبهم وتقضي على كيانهم. وفيصل هو الذي قام بقيادة الثّورة العربيّة منذ بدايتها فكان مقاتلاً ثم مساعد قائد ثم قائداً للجيوش. كان لا يملـك رجالاً غير البدو، وكانوا يعيشـون التّجربـة البغيضة لإطلاق المدفعيات لأول مرّة في حياتهم. كان على فيصل أن يقودهم في حملات على الجمال، ويعلّمهم الانسـحاب وكان يدافع عنهم في أماكن جبلية ضيقة ببندقيته فحسب. في ذلك الوقت لـم يكونوا يملكون سـوى القليل من البنادق، ومقدار قليل مـن الذّخائر الحربية، حتى إن لورَنـس كان يحتال بوضع الأحجار في صندوقه ويحمله على أحد الجمال ليدخل الثّقة في قلوب البدو بدفعهم للاستبسال في القتال والاطمئنان لوجود الذّخيرة الكافية.

يعتقـد لورَنـس أن لدى فيصل مجموعة من الصّفات تؤهله لأن يتسـلّم قيادة الدّولة العربيّـة الجديدة التي قد تنهض من بيـن رماد الإمبراطورية العثمانية الزّائلة. كما يعتقد أن فيصل سـيحتلّ مكانة في التّاريخ مباشـرة تحت مكانة النّبـي محمّد وصلاح الدّين، كونـه أعظـم عربي عرفته البـلاد. كان ولا يزال العصب الرّئيسـي في الحركـة العربيّة، وهو لا يعيش إلا من أجل وطنه ومبادئه. كان كل تفكيره محصوراً في مسـتقبل جزيرة العرب، وكان وأبوه منفتحين لاكتساب مزايا الأوروپيين، وقد قبلا أن يكون المستشار البريطاني أشقر الشّعر أميراً عربياً وشريفاً على مكّة، وهو لقبٌ كان مقتصراً في الماضي على أحفاد النّبي فقط، ولم يُمنح لأي إنسان مسلم أو مسيحي من قبل.

* * *



الكولونيل لورَنس

الفصل الثّلاثون

لورَنس يهرب من لندن
وفيصل يغدو ملكاً في بغداد

اختفى لورَنس بعد أن انتهت جلسات مؤتمر الصّلح، وعاد فيصل إلى دمشق! وظنّ كثير من أصدقائه أنه عاد إلى جزيرة العرب ليستأنف دوراً جديداً من أدواره الغامضة. ولكني أرتاب كل الارتياب في صحّة هذا القول، ففي آخر مرة تحدّثتُ إليه في باريس سألته بصراحة إذا كان ينوي العودة إلى الشّرق ليساعد العرب في بناء دولتهم الجديدة، فكان جوابه بالنّفي إذ قال: «لا أنوي العودة إلا بعد مرور عدّة سنوات، وقد لا أعود إليها أصلاً، وإنه خير للعرب أن لا أكون في بلادهم في مثل هذا الوقت العصيب، وليست لدي أدنى فكرة عمّا سأفعله. لقد أنهكتني الحرب وقد أستغرق سنوات عدة حتى ألمَّ شتات نفسي. في الوقت نفسه آمل في إيجاد مكان منعزل في إنكلترا بعيد عن الحرب والسّياسة والدّبلوماسية، حيث يمكنني أن أقرأ عن اليونان دون أن يزعجني أحد».

كان عزمه على عدم العودة للشّرق دليلاً جديداً على بُعد نظره، فإن العرب قد انصاعوا للورَنس في إبان الحرب نظراً لشخصيته الممتازة، لكن السّبب الأقوى في انقيادهم إليه هو لأنه قدَّم لهم بديلاً عن الاضطهاد التّركي. وكان لورَنس أعلم النّاس جميعاً بهذه الحقيقة، وكان على يقين أنه متى انتهت الحرب العالمية ستتضاءل مكانته. قد يتساءل الإنسان ماذا يحدث لو عاد لورَنس إلى الشّرق الأدنى؟ وماذا ستكون النّتيجة لو أنه تبوأ منصباً سياسياً مؤقتاً معادلاً للمنصب السّياسي الذي احتلّه في جزيرة العرب؟ من المحتمل أنّ وضعه سيكون جيداً لبعض الوقت بفضل ما كان

له من نفوذ واسـع، لكن بعد بضعة أشـهر لن يستبعد سماع أحدهم يصيح: «اغرب عنا أيها الكافر!». لو أنه عاد إلى دمشـق بصفته مستشـاراً لفيصل، فمن شـأن هذا وحده أن يضعف سـيطرة فيصل على شـعبه. إن العرب غيورون ومزاجيون وشكّاكون بطبعهم، وسيتّهمون فيصلاً بأنه مجرّد ألعوبة في يد الإنكليز. ولو كان لورَنس قد اعتنق الإسلام لكان في مقدوره أن يكون ديكتاتوراً عربياً يتسلّط كما يشاء على العرب، لكن ذلك كان أبعد ممّا يخطر في باله. كان غرضه الوحيد أن يهزم الألمان والأتراك، وفي الوقت ذاته أن يساعد أصدقاءه العرب على نيل حريتهم.

وقد سمعت من كثيرين أثناء انعقاد مؤتمر الصّلح أنّ لورَنس خيرُ رجل يمكنه تمثيل بريطانيا العظمى في الشّـرق الأدنى، وأن الحكومة البريطانية لا بدّ أن تبعثه إلى سـوريا وجزيرة العرب في عمل رسمي. ولكن كانت رغبة لورَنس الوحيدة في ذلك الحين أن يخلع الرّداء الرّسـمي، وأن يترك حياته السّياسية والحربية، وأن يعود إلى أعمال الحفر والتّنقيب عن الآثار.

سـألتُ ذات يوم نوري پاشـا، وكان من رجـال الأمير فيصل في پاريـس، عن كيفية مكافـأة العرب للكولونيل لورَنس على الخدمات التي قام بها لبلادهم، فأجابني: «لقد قدَّمنـا للكولونيـل لورَنس كل ما نملك فأبى أن يقبل شـيئاً. وإننا على اسـتعداد تام، إذا قبـل، لأن نمنحـه حـق احتكار أعمـال الحفـر والتّنقيب علـى الآثار في مـدن الجزيرة والمدن السّورية كلها». ولكن لورَنس كانت له آمالٌ أخرى!

مرّت عدة شـهور بعد انتهاء جلسـات مؤتمر الصّلح، ولا يعـرف أحدٌ مقرّ لورَنس، حتى أقرب النّاس إليه. وفي تلك الأثناء كنت قد عدتُ إلى أميركا لأعرض التّسجيلات التي انتهيت من عملها بمسـاعدة مسـتر تشـايس. لكننا دُعينا، على غير المتوقع، لنقدّم عرضنـا فـي دار الأوپـرا في لنـدن، وهو أمرٌ لـم نكن لنحلم بـه أبـداً، لأن مادتنا كانت مخصّصة لأميركا فقط. كان أول شـيء سعيت إليه فور وصولي إلى إنكلترا هو البحث عن الكولونيل لورَنس. أردتُ أن أعرض عليه صورة عودة أبو تايه وغيره من الفرسـان الأبطـال ليـرى منظرهم على الشّاشـة البيضاء، فسـألت عنـه في الدّوائر الرّسـمية التي

أكّـدت جهلهـا مكان إقامته. يبدو أنـه قد اختفى في المجهول تمامـاً كما كان يفعل في الباديـة. ولكـن حدث بعد مرور أسـبوعين على عرضـي الفيلم أن تلقيت منه الرّسـالة الموجزة الآتية:

«عزيزي لويل توماس،

شاهدت العرض الليلة الفائتة، وأحمد الله لانطفاء الأنوار.

ت. إ. لورَنس».

ولكني اكتشـفتُ مكان الرّجل الذي تسـعى لندن بشـغف إلى تكريمه! إنه يقيم في غرفـة مفروشـة متواضعة في شـارع جانبي مـن دوڤر سـتريت. كانت ربّة الدّار نفسـها تجهل هويته، لكنه لم يكن يستطيع الاختفاء أكثر من ذلك. وبعد أيام قليلة جاء ليشرب الشّـاي عنـدي. وكـم كانت ارتباكـه وخجلـه عظيمين عندمـا رأى زوجتـي!. ثم أخذ يتوسـل إلـيَّ أن أكف عن تحديـث النّاس بأعمالـه البطولية وأن أعود إلـى أميركا. لقد سبّبتُ له متاعبَ لا يمكن أن يتحمّلها، فقد أصبح طريد جيوش من محرّري المجلات والمراسـلين وناشـري الكتب وطلّاب الإمضاءات، وبعدد من الفتيات والنّساء اللاتي كان يخشـاهنّ أكثر ممّا يخشى استخبارات الجيش التّركي. قال إنه، خلال الأسبوعين اللذيـن أمضيتهما أتحدّث عنه في لندن، قد تلقى حوالي ثمانية وعشـرين عرض زواج بالبريد وكان أغلبها من أوكسفورد.

عندما جاء لزيارتي لاحظت أنّه كان معه كتابان، كان أحدهما مجلد قصائد فارسية، وكان الثّانـي، كمـا هو ظاهـر من عنوانه، آخر كتاب في العالم يخطـر في بالك أن يقرأه هذا الشّـاب الذي لُقّب بملك العرب غير المتوَّج، والذي حقّق ما لا يمكن لسـلطان أو خليفة تحقيقه في أكثر من خمسمئة عام، والذي رفض أعلى التّشريفات والأوسمة من أعظـم الحكومات في العالم، والذي وُضع في مرتبة الأشـراف، والذي سـوف يخلّده التّاريخ كشـخصية من أروع الشّـخصيات في العالم بأسره. كان الكتاب يحمل عنوان: «مذكرات رجل يائس».

لكن عندما انتبه لورَنس إلى احتمال سفري الوشيك إلى أميركا، وعندما اكتشف أنه مُلاحقٌ من قبل كونتيسة إيطالية تضع ساعة معصم في كاحلها، سارع بالفرار من لندن.

لـم يمـضِ وقت طويل حتى فقد الأمير فيصل مُلكه في سـوريا، وكانت هناك دعاية كبيـرة قـام الفرنسـيون بها حتى يثنـوا الإنكليز عن مسـاندتهم للقضيـة العربيّة. لذلك، وبالرّغم من اسـتقالة لورَنس واعتزاله العمل السّياسـي، فلم يكـن بإمكانه التّخلي عن الدّفاع عن فيصل. ودون أن يظهر شـخصياً، بدأ بكتابة مقالات إلى الصّحف البريطانية مبـرزاً الجانب العربي في الصّراع. وسـوف أورد شـيئاً من هذه المقـالات علّها تعطي فكرة واضحة عن مرونة هذا الشّـاب وتمكنه من اسـتخدام القلـم ببراعة تماماً كقيادته للجيوش ببراعة.

يكتب لورَنس: «هناك شـعورٌ في إنكلترا بأنّ الاحتلالَ الفرنسـي لدمشق وإطاحتهم لفيصل من العرش الذي كان السّوريون قد سلّموه إياه بطوع إرادتهم، يُعدّ مقابلاً هزيلاً للعطايـا التي قدّمها لنا فيصل خلال الحرب، وإن فكرة خذلان صديق شـرقي لنا يترك طعماً مرّاً في أفواهنا. لقد جعلت شجاعة فيصل وقيادته الحكيمة الثّورة في مكّة تنتشر إلى ما هو أبعد من المدن المقدَّسـة، إلى أن قدّمت مسـاعدة كبرى لقوات الحلفاء في فلسطين. وإن الجيش العربي الذي أنشئ على أرض المعركة قد بدأ بجماعة من البدو وانتهى بفرق عسكرية منظمة ومسلّحة. لقد أسر العرب خمسة وثلاثين ألفاً من الأتراك، واسـتولوا على مئة وخمسـين مدفعاً ومئة ألف ميل مربع من الأراضي العُثمانية. كانت تلـك خدمـة كبيرة لنا وشـعرنا بأننا مدينون للعـرب، ومدينون لقائدهـم فيصل بالكثير لوفائه لتعليمات آلِنبي التي كان يقود جيشه العربي وفقها.

«مـع ذلك لا يمكننا أن ننتقد ما فعله الفرنسـيون، إذ اتّبعوا بأسـلوبهم الوديع المثال الذي قمنا به في بلاد الرّافدين. تسـيطر إنكلترا على تسـعة أجزاء من عشـرة من الوطن العربي، وهي التي وضعت اللّحن الذي يجب أن ترقص عليه فرنسـا. إذا اتّبعنا سياسـة عربيّة فلا بدّ لفرنسا أن تصبح عربيّة. وإذا قاتلنا العرب فلا بدّ أن يقاتلوا العرب بدورهم. وسـيبدو من قلة اللّياقة أن نوبّخهم إن هم خاضوا معركة قرب دمشـق أو نسفوا مطلب

العرب في حكم سوريا حكماً ذاتياً، بينما كنا نحن نخوض معركة قرب بغداد ونحاول منع بلاد الرّافدين من تشكيل حكومة ذاتية، وذلك بسحق أيّ رأس يرتفع من بين أبنائها».

كانت بريطانيا تمرّ بأوقات عصيبة في بلاد الرّافدين في الوقت نفسه الذي أطاح به الفرنسيون بفيصل من العرش في سوريا. وكان لورَنس يشعر بأنه لا بدّ من وضع مواهب فيصل في بغداد، وكان هذا المقال طريقة دبلوماسية لتقديم خطّة تم فيما بعد تبنّيها وتطويرها.

يتابع لورَنس: «قبل بضعة أسابيع، طُلب من رئيس إدارتنا في بغداد أن يستقبل بعض الوجهاء العرب الذين كانوا يرغبون بالاستقلال الذّاتي الجزئي، فما كان منه إلا أن رتّب المفاوضات بمرشّحين من عنده، وأخبر الوجهاء بأن الوقت لا يزال مبكراً ليتسلّموا مسؤولية كهذه. كانت كلمات جريئة، لكن العبء كان ثقيلاً على رجال مانشستر هذا الأسبوع في الحِلَّة Hillah.

«كانت الانتفاضات تحدث بشكل نظامي وبدأت بشائر نجاح عربي ثم أخذت القوات البريطانية تخرج في حملات تأديبية. كانت تخرج إلى هدفها فتفجره بالمدفعية والطّائرات أو السّفن الحربية. أخيراً تم إحراق قرية وهدأت المنطقة. من الغريب أننا لا نستخدم الغاز السّام في هذه المناسبات، وكان قصف المنازل طريقة غير منظّمة لقتل النّساء والأطفال، وكان مشاتنا يتعرّضون للموت وهم يطلقون الرّصاص على العرب. أمّا بواسطة الغاز فيمكن القضاء على كل المناطق بسهولة، ولن يكون، من النّاحية الأخلاقية، أسوأ من الأسلوب الذي نتّبعه حالياً.

«إننا ندرك العبء الذي يشكّله الجيش في بلاد الرّافدين على الخزينة الملكية، لكننا لا نرى العبء الواقع على البلاد نفسها. يجب إطعام النّاس والدّواب هناك. كان عدد القوات يبلغ ثمانية وثلاثين ألفاً، بينما تكفي الحصص لثلاثمئة ألف. كان هناك ثلاثة عمّال لكل جندي يقومون على إطعامه وخدمته. ينتمي عُشر سكان بلاد الرّافدين اليوم لجيوشنا. لقد استهلكت الأراضي الخضراء ولم تصبح الأمور في ذروتها بعد.

طُلب إلينا أن نضاعف أعداد الجنود في الحاميات، ومن شأن هذه الزّيادة، مع استنفاد الموارد المحلّية، أن تؤدّي إلى تضخم النّفقات بحسابات خيالية.

«كان الهدف من هذه القوات هو القضاء على العناصر الذين لم يكونوا يرغبون بوجودنا في بلادهم. لم يكن أحد ليتخيّل حالنا لو هاجمتنا إحدى البلدان الثّلاثة المتاخمة لبلاد الرّافدين (وكانت كلها تحيك المؤامرات ضدنا). كانت اتصالاتنا سيئة وتشتّت مواقعنا الدّفاعية ولم نعد نثق بقواتنا كما كنا نفعل أثناء الحرب.

«هناك أيضاً الأعمال العسكرية، إذ كان يتوجّب علينا إنشاء متاريس ومعسكرات وطرق عسكرية لمئات الأميال، وجسور ضخمة لتقل الشّاحنات في مناطق نائية كانت وسيلة النّقل فيها على ظهور الدّواب فقط. كانت الجسور تُصنع من مواد مؤقتة، وكانت أجور صيانتها باهظة. كانت غير ذات فائدة للحكومة المدنية التي توجب عليها تقويضها بتكاليف مرتفعة، وبهذا ستبدأ الدّولة الجديدة مهامها بديون متراكمة.

«كان رجال الدّولة البريطانيون، من رئيس الوزراء إلى أصغر الموظفين، يذرفون الدّموع على ما نتحمّله في بلاد الرّافدين. يقول اللّورد كُرزون[1]: «فقط لو نستطيع تأسيس جيش محلي، لكنهم لن يخدمونا. فقط لو نستطيع إيجاد أشخاص عرب مؤهلين لتسليمهم المناصب التّنفيذية».

«بهذه القلّة في الكفاءات المحلّية وضحت المقارنة في سوريا، فلم يكن من الصّعب على فيصل تأسيس الفرق النّظامية، على الرّغم من أنه سيواجه صعوبات في الإنفاق عليهم. على كل حال لم تكن الظّروف نفسها إذ كان قد حُرم من دخله من الجمارك. لم يجد فيصل صعوبة في تشكيل إدارته التي تكوَّن أفرادها الخمسة الرّئيسيون من سكان بغداد الأصليين. لم تكن إدارة جيدة لكن النّاس في الشّرق لم يكونوا متطلّبين كما هي الحال في بلادنا. حتى في أثينا، لم يمنح سولون الشّعب أفضل القوانين، بل منحهم ما يمكن أن يتقبّلوه.

---

(1) انظر الكتاب الذي نشرناه عنه في هذه السّلسلة: «حياة اللّورد كُرزون» تأليف إيرل رونالدشاي.

«لم يكن بمقدور البريطانيين في بلاد الرّافدين إيجاد شخص مؤهّل واحد، وإن تاريخ الشّهور القليلة الماضية قد أظهر إفلاسهم السّياسي، ورأيهم لن يهمّنا أبداً. أعرف عشرة أشخاص بريطانيين ذوي سمعة مشرّفة في السّودان وسيناء وجزيرة العرب وفلسطين ممّن يمكنهم تشكيل حكومة عربيّة موازية لحكومة فيصل الشّهر القادم في بغداد. قد لا تكون حكومة ممتازة أيضاً، لكنها ستكون أفضل من حكومة فيصل بالتأكيد، الذي حُرم من المستشارين الأجانب رغبة في إذلاله. كان يمكن للحكومة البريطانية في بلاد الرّافدين أن تستعين بشخص يدير أمور البلاد بسهولة كما أدار كرومر الأمور في مصر، ليس لأن إنكلترا منحته القوة فحسب، ولا لأن المصريين يحبّوننا، وليس لأي سبب آخر سوى أنه إنسان مؤهّل. لدى إنكلترا الكثير من رجال الطّبقة الممتازة، لكن الوضع هناك لم يكن يتطلّب عبقرياً، بل كان المطلوب هو تقويض ما قمنا به ثم البداية من جديد بتقديم المستشارين. لم يكن من الجيّد ترقيع الوضع الرّاهن، بل نحن من القوة بحيث نعترف بالخطأ ونفتح صفحة جديدة، ويجب أن يسرّنا ذلك لأنه سيوفّر علينا مليون جنيه أسبوعياً».

حتى أثناء القتال في الصّحراء كان لورنس يرى العقبات التي يمكن أن تنشأ بعد انتهاء الحرب، ولذلك كان، كما رأينا أثناء دخوله إلى دمشق، حريصاً على دخول رجال الأمير فيصل قبل البريطانيين والفرنسيين، لأنه أدرك أنّ ذلك الأمر سيجعل من الصّعب تجاهل الحلفاء لأصدقائهم العرب بعد أن تهدأ الضّوضاء وأعمال الشّغب.

كتب اللورد وِنترتون مقالاً في مجلة بلاكوود، مظهراً أن لورَنس كان دائماً يفكّر بالمشكلة التي نشأت في الوقت الحالي، إذ يقول:

«برأيي إننا مدينون بالكثير في تلك الأيام للقيادة الجيدة من قبل الجنرال نوري، مدعوماً بنصائح لورَنس وعبقرية التّفكير المستقبلي». ويضيف في موضع آخر: «لم تكن لديه النّية في أن يحتلّ العرب المركز الأخير في القضاء النّهائي على الأتراك، فقد كان العرب يعلمون أنّ هناك اعتباراتٍ سياسيةً وعسكرية يجب أن تؤخذ بالحسبان، لكن لورَنس كان يعزف على الوتر الحساس. لقد نقل إلينا جميعاً عدوى حماسته،

وبدأت أشعر، بالرّغم من عدم ميلي للمغامرة، أنه من الوحشيّة بعد سقوط الأتراك أن تحصل بريطانيا على الجسم والرّأس والذيل، بينما يحصل العرب، الذين ساندوهم لمدّة ثلاث سنوات ونصف، على جزء صغير من القدم. لو كنا موجودين أثناء النّهاية العسكرية لتركية، لكان من الأصعب رفض إعطاء العرب حصّة كبيرة من غنائم النّصر».

خلال سبع سنوات قضاها توماس إدوارد لورَنس متجولاً في البادية تجرَّع حكمة العرب وتشرَّب روح البدو، وذلك بلبسه للباسهم والعيش معهم في خيامهم ومراقبة عاداتهم والتحدّث بلهجاتهم وامتطاء جمله عبر مساحة واسعة من الأراضي المقفرة التي لا يغيّر لونها سوى خط الأفق الأرجواني الطّويل، وهي تقبع في العتمة تحت قبّة صامتة من نجوم السّماء. لم يكن سوى لقلّة من الغربيين تأثير عظيم على الشّعوب الشّرقية، أمّا لورَنس فقد وحَّد القبائل المتفرّقة في جزيرة العرب ودفع بزعماء تلك القبائل إلى نسيان الأحقاد، والقتال بعضهم إلى جانب البعض من أجل قضيّتهم المشتركة. لقد أتته أسراب البدو من مناطق نائية من الجزيرة وتجمّعت حوله كأنه نبي، وبفضل عبقريته تمكن فيصل وأتباعه من تطهير بلادهم من جور الأتراك. لقد شارك لورَنس بحياته وروحه في الحركة التي سعت إلى استقلال البلاد، وقُدر لنتائج حملته النّاجحة أن تلعب دوراً مهمّاً في التّعديل النّهائي لشؤون الشّرق الأدنى.

ومن خلال اتصاله بالصّحافة، عندما كان يحاول قولبة الرّأي العام لصالح العرب، نلمح وجهات نظر أبعد، إذ يقول في رسالة إلى التّايمز:

«لقد تمرّد العرب على الأتراك ليس لأن الحكومة التّركية سيئة فحسب، بل لأنهم أرادوا الاستقلال. إنهم لم يغامروا بحياتهم في القتال ليغيّروا أسيادهم، وليصبحوا تابعين للبريطانيين أو للفرنسيين، ولكن ليربحوا معركتهم الخاصة.

«سواء أكانوا ملائمين للاستقلال أم لا فذلك أمرٌ يستحق المحاولة، والحرّية لا تستوجب وجود المؤهلات، ويملكها البلغاريون والأفغان والتّاهيتيون. إنك ستستمتع بالحرية فعلاً عندما تكون مسلحاً أو مشاغباً أو تسكن في بلد بائس، بحيث تكون نفقات احتلاله من قبل الجوار أكبر من عائدات الفوائد المرجوّة».

لم يكن الكولونيل لورَنس يتوهّم قدرة العرب على التّنظيم والإدارة. لقد كان يعلم أن تلك الأمور ليست من نقاط القوة لديهم، لكنه يملك إيماناً عميقاً بهم وبقدرتهم على إيصال رسالتهم للغرب.

قال لي ذات مرة عندما كنا في جزيرة العرب: «إنّ التّاريخ يعاكس إمكانية إنشاء إمبراطورية عربيّة، والفكر السّاميّ لا يميل إلى النّظام أو التّنظيم. ومن المستحيل صهر العناصر المختلفة للسّاميين في دولة حديثة منسوجة بعناية. ومن جهة ثانية فإن للسّاميين خصوبة فكرية تفوق الشّعوب الأخرى، وقد تمثّلت لي الحركة العربيّة كشكل من أشكال نفوذ الصّحراء على المتمدّنين؛ أي أنّ الرّوح السّاميّة قد مارست نفوذها من جديد على شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط. يُعدُّ الأمير فيصل آخر نسل للأنبياء السّاميين، وإنّ حملته من أجل الاستقلال، التي جعلت أكثر من خمسة ملايين عربي في الشّرق الأدنى ينضمّون إليه، ما هي إلا كالإلهامات التي أثر السّاميون بها على العالم الغربي.

«لا يتصف السّاميون ببراعتهم في الفنون أو الهندسة المعمارية أو الفلسفة. يوجد بعض الفنانين أو الفلاسفة اليهود، لكننا نجد خصوبة بين السّاميين في العقائد والأديان. لقد أصبحت ثلاث من هذه العقائد، وهي اليهودية والمسيحية والإسلام، حركات عالمية. وهناك عقائد أخرى أقلّ أهمية منتشرة في أطراف البادية.

«في الصّحراء تسود فكرة واحدة وهي عالمية الإله. وعندما أتينا لنستكشف الصّحراء لم نجد سوى الرّمال والرّياح والتّراب والفراغ. يترك البدو كلّ وسائل الرّاحة ويذهبون للعيش في البادية، وسط الجوع والحرية. تطلب البادية ثمناً مقابل الحصول على أسرارها، وهي تجعل البدو عديمي القيمة بنظر سكّان المدن. لم يخرج من البادية نبيّ قط بينما لم يكن بين السّاميين نبي إلا وذهب، قبل تبليغ رسالته، إلى البادية ليلتقط من سكّانها بعض القيم. إنّ تفاهة الحياة الدّنيا المذكورة في الأديان هي من ضمن مفاهيم الصّحراء، تشرَّبها البدو قبل أن تصبح مقبولةً لدى سكان المدن».

كانت مخيّلة لورَنس الواسعة ورؤيته لقرون مضت تسهّل عليه زجّ نفسه قلباً وقالباً

فـي الثّـورة العربيّة. لقد تذكّر الأيام التي سـادت فيهـا الإمبراطوريـة العربيّة على دول البحر الأبيض المتوسـط، وأثرى فلاسفتُها وشـعراؤها وعلماؤها حضارة أوروبا. قال لي مرة عندما كنا في لندن: «هناك بعض النّاس الذين يحلمون ليلاً وعندما يسـتيقظون يجـدون أحلامهـم قد ذهبـت هباءً، وهنـاك أنـاسٌ يحلمون نهـاراً وتتحقّـق أحلامهم أحيانـاً». ولا يـزال لورَنس مقتنعاً بأنّ لدى العرب شـيئاً يقدّمونه للعالم، شـيئاً يحتاجه العالـم وبالأخـص العالم الغربي المـادّي. لقد كان من حظّ العـرب أن امتلك لورَنس المقدرة على تحقيق أحلامه.

أودّ أن أستعمل كلمات لورَنس نفسها في تعريف الحركة العربيّة حين يقول: «ليس هناك سببٌ للتوقع من الحركة العربيّة أية تطورات في القانون أو الاقتصاد، لكن فيصلاً نجح في اسـتعادة مبادئ السّاميين الحيوية، وسـتترك أفكارُه أثراً عميقاً على الحركات القومية المتنامية في سـوريا وبلاد الرّافدين والجزيرة وفلسطين، وهي الموطن الحالي للحياة السّياسية السّاميّة.

«يشـبه ذلك مشـاهدة أمواج المحيط الأطلسـي وهي تتقدّم ثم تتكسّر على جروف السّـاحل الغربـي لإيرلندا. عندما تنظـر إليها تقول إن الجروف قاسـية جـداً والأمواج عديمـة النّفـع، لكنك عندما تدرس الخارطة ترى السّـاحل كله وقـد تجوّف بفعل مياه البحر وتُدرك أنها مسـألة وقت فقط. بالطّريقة ذاتها فإن احتجاجات السّاميين المتتابعة ضد العالـم المادّي تبدو مضيعة للوقت، لكن الأوضاع قد تنقلب يوماً ما.

«إننـي أصنّف حـركات فيصل كاحتجاج على عدم جدوى الأشـياء المادّية، وكنت أحـاول قلب الموجة التـي وصلت إلى ذروتهـا وانقلبت عند دخولنا إلى دمشـق. لقد كانت تقلب العرب بجهد كبير ثم تنضمّ إلى الأمة ككل في سباقها إلى شيء مثالي ليس له شكلٌ أو قيمة. كنا نعبّر عن احتقارنا الكامل للسّعي وراء الأمور المادّية الذي يكرسه الآخرون من خلال جمع الأموال وتشييد التّماثيل».

عبّـر لورَنس عـن اعتقاده بأنّ الحركة العربيّة لـم تكن سـوى احتجـاج على التّدخل الخارجـي، وفي هذه المـرة كان الاحتجاج موجّهـاً ضد تركية، وفي المـرّة القادمة قد

يتجه نحو فرنسا وإيطاليا وبريطانيا أو أيّة أمة غربية تميل لأن تزدري مشاعر الشّعوب الأخرى.

قال لي لورَنس عندما كنا في البادية: «عندما تتمكّن من فهم وجهة نظر عِرق آخر، فإنك إنسان متحضر، وأعتقد أن إنكلترا لم تتورّط كغيرها من الأمم. إننا لا نريد للشّعوب الأخرى أن يصبحوا مثلنا أو يطبقوا عاداتنا، لأننا ننظر إلى هذا التّقليد على أنه عمل شائن».

ولما كنا في باريس، لخّص لي لورَنس الوضع في الشّرق الأدنى كله ببضع كلمات. كان يرى أن فرنسا، بتسلّمها الوصاية على سوريا، إنما تسيطر على مرحلة مؤقتة من مراحل الحركة العربيّة.

«سينضمّ الحجاز خلال بضع سنين إلى دولة عربيّة ستقوم إلى الشّمال منه. لطالما كانت دمشق قبلة أنظار صنّاع القرار العربي، لكن سوريا صغيرة فقيرة ولا يُنتظر أن تكون في المستقبل دولة زراعية أو صناعية عظيمة. يتجلّى دورها في كونها مفتاح كردستان وأرمينيا والعراق، وعندما تعيد رؤوس الأموال الغربية آشور وبابل إلى مجدهما القديم ورخائهما الزّراعي السّابق وعندما تُستغلّ خيرات أرمينيا المعدنية ويُنتفع بنفط العراق رخيص الثّمن، عندئذٍ يتحول مركز العرب من دمشق في الشّرق إلى الموصل أو بغداد أو أيّة عاصمة أخرى. في العراق ثلاثة أضعاف الأراضي القابلة للزّراعة مقارنةً بمصر، وفي مصر اليوم أكثر من ثلاثة عشر مليون نسمة، بينما يوجد في العراق خمسة ملايين فقط. وفي المستقبل القريب سيزداد عدد سكان العراق إلى أربعين مليوناً، أمّا سوريا التي يبلغ عدد سكانها الآن ثلاثة ملايين وخمسمئة ألف فربما يكون فيها في المستقبل خمسة ملايين فقط. يبدو أن المستقبل المُشرق لن يكون من نصيب سوريا، ولكن مهما تكن عاصمة الدّولة العربيّة فلن تتغيّر الصّحراء العربيّة بعقلية سكانها أو مُثُلهم العليا».

بالرّغم من رغبة لورَنس في التّقاعد، برفقة كتبه فقط، فلن يرضى مواطنوه بذلك. عندما احتلّ وِنستون تشرتشل منصب رئيس الوزراء، كان أول ما فعله هو إجبار

لورَنس على مساعدة الحكومة في حلّ مشكلات الشّرق، فرضي بالعمل لمدة سنة واحدة كمستشار للشّؤون الشّرقية. وفي أثناء هذه السّنة حُلّت معضلة العراق وفق الطّريقة التي كان لورَنس قد اقترحها، فاستدعي فيصل إلى بغداد ونُصّب ملكاً على العراق ليكون خليفة حديثاً للخليفة المشهور هارون الرّشيد. وعليه، قد يكون فيصل فقد عرش سوريا لكنه فاز بعرش بغداد، وأصبح مؤسّساً لمُلك جديد في العراق وملكاً لدولة أهمّ بكثير من سوريا. وبذلك نجح لورَنس في تحقيق طموحه برؤية الأمير فيصل يكافأ على دوره الذي قام به في هزيمة تركية وألمانيا.



«الشّريف» لورَنس

الفصل الحادي والثّلاثون

سرّ نجاح لورَنس

مـن بين مئات الأسـئلة التي كانت الصّحافـة وعامة النّاس في كل مـكان من العالم يسـألوننا إياها، تكرّرت كثيراً الأسـئلة التّالية: «ما هي الجائزة التي تلقاها لورَنس؟ هل ينوي تأليف كتاب؟ أين هو الآن؟ كيف يكسب لقمة العيش؟ ماذا سيحصل له؟ ما هي هواياتـه؟ هل سـيفكر بالزّواج؟ هل هو إنسـان عادي ولديه حـسّ الفكاهة؟ في الواقع هناك سـؤال أهم ألا وهو: ما سـرّ نجاح لورَنس، وكيف استطاع مسيحي أوروبي أن يمتلك هذا النّفوذ الكبير على المسلمين المتشدّدين؟»

بالطبـع هنـاك الكثير مـن العوامل التـي تضافرت في نجاحه وأكسـبته هـذا النّفوذ، ومكّنته من كسب احترام العرب وإعجابهم وتقديرهم بل وولائهم أيضاً. لقد احترموه لأنه كان، بالرّغم من صغر سنه، ممتلئاً حكمة، وأعجبوا به بسبب شهامته وقدرته على التّفوق عليهم في أمور يتميّزون بها كركوب الجمال والرّماية، وأيضاً بسـبب شـجاعته وتواضعـه. كان يقودهـم غالبـاً فـي المعـارك وكان يُظهر شـجاعة فائقة عندمـا يحتدم القتـال. لقد أصيب بعدّة جراح لكنها لحسـن الحظ لم تكن من الخطورة بحيث تقعده عـن العمـل. في كثير من الأحيان كان بعيداً جداً عن القاعدة ليتلقى عناية طبية، فكانت جروحه تشـفى من تلقـاء ذاتها. أصبح العـرب مخلصين له لأنه أكسـبهم الانتصارات ثم عزا الفضل كلّه إلى رفاقه. لقد أسـفوا لكونه مسـيحياً وقالوا إنها «مشـيئة الله»، لكن البعض يعتقدون أنه أُرسل إليهم من السّماء حتى يساعدهم في التّحرّر من نير الأتراك.

اختلط الغرب بالشّرق بشكل ودّي، لكن دون انسجام، في معظم مدن الجزيرة وسوريا،

الغـرب بماله الذي ينفقه، والشّـرق بحبّه لاختزان المال. لكـن الأمر كان مختلفاً في البادية والمناطق النّائية، فإنّ البدو، الذين تجوّل أجدادهم في الصّحراء لأكثر من أربعة آلاف عام، قاومـوا الأجانب الفضوليين الذين لم يثبتوا أنهـم أصدقاء لهم، وهم ما يزالون ينظرون إلى الأوروبييـن الضّالين بشـك عدائـي، وبحقّهم في نهبهـم. أمّا لورَنس فقد كانـت لديه دراية دقيقـة بعاداتهـم المعقـدة ومعرفـة كاملـة بالقـرآن وتعاليم الدّين الإسـلامي، ممـا جعلهم يعاملونه بتسامح واحترام قلّما يصدران عن الشّعوب المتعصّبة في الشّرق الأدنى. وبالطبع فإنّ درايته بعاداتهم وقوانينهم كانت لها أهمية كبرى في حلّ نزاعات الفرق المتخاصمة.

للوصـول إلى أهدافه، كان لا بدّ للورَنس أن يكون ممثـلاً بارعاً، فقد اضطرّ إلى التّخلي عن أسـلوب العيش الأوروبي بشـكل كامل، ولو أدّى ذلك إلى انتقاد مواطنيه وسخريتهم، وكان يظهر في المدن الكبرى التي يلتقي فيها الشّرق بالغرب، كالقاهرة، وهو يرتدي لباسه الشّرقي. سخر النّقاد منه وقالوا إنه فعل ذلك لينال السّمعة فقط، لكن كان هناك سبب أقوى من ذلك. كان لورَنس يعلم أنه مُراقبٌ بشـكل مسـتمرٌ من قِبل الأشـراف والشّـيوخ ورجال القبائـل، وكان يعلـم أنهم سـيعدّون تجوّلـه، حتى بين مواطنيـه، بلباس الصّحـراء مجاملة عظيمـة لهـم. أثناء الأيـام الأولى التي قضيتُها مـع لورَنس في القدس كان لا يرتدي سـوى العبـاءة البدويـة، ولـم يكن يأبه لغرابة منظره داخل المدينة المقدّسـة إذ كان دائماً مسـتغرقاً في تأملاته التي تبعد مئات الأميال وترجع إلى مئات القرون. وعندما يزور فلسطين ومصر أحياناً وهو باللباس العربي، يكون قادماً إلى الرّملة أو القاهرة بعد إحدى حملاته مباشـرة، فكان يأتي إلى المقر الرّئيسي بملابسه نفسها حتى لا يضيع الوقت في العودة إلى الجنوب، حيث القاعدة في العَقَبة، لجلب زيه الرّسمي.

أما في الصّحراء فلم يكن يلبس سـوى العباءة العربيّة، ولـم يكن لينجح في أسـلوبه المدهـش لـو أنّـه ضايق العرب بلبسـه اللباس الأوروبـي. لـم يكن من السّـهل عليه أن يحمـل معه ملابـس عندما ينطلق في الصّحـراء على جملـه، إذ كان مضطراً للانطلاق بخفّـة وسـرعة. فـي الحقيقـة لـم يكـن يحمل معـه سـوى كمّية مـن الخبـز وقليل من الشّـوكولاتة وقربـة مـاء وحبـوب الكلور وفرشـاة أسـنان وبندقية ومسـدس وذخيرة،

ومجلد أريستوفانِس الصّغير. كان للبندقية التي حملها في كل غزواته تاريخٌ حافل، فقد كانت من الأسلحة البريطانية العادية التي استولى عليها الأتراك في الدّردنيل، ثم قام أنور باشا بتزيينها بصفيحة معدنية مشغولة بالذّهب ونقش عليها: «إلى فيصل، مع تحيّات أنور». أعطاها أنور للأمير فيصل في بداية عام 1916، أي قبل اندلاع ثورة الأشراف، كدليل على أن الأتراك قد ربحوا المعركة. وأعطاها الأمير فيصل فيما بعد للورَنس فحملها في كل جولاته. كان يحز ثلماً فيها عن كل تركي يقتله، بحيث يكون الثّلم كبيراً للضّباط وصغيراً للجنود. والبندقية الآن بحوزة الملك في لندن.

لم يكن لورَنس متحدّثاً، ونادراً ما كان يتكلم إلا في حالات الضّرورة كإعطاء التّعليمات أو لطلب المشورة أو للإجابة على سؤال. حتى في حمأة القتال كان ينشد العُزلة، وكثيراً ما كنت أجده في خيمته يقرأ في مجلة للآثار بينما يضجّ المخيم بالحركة والحماسة. كان شديد الخجل لدرجة أنه عندما كان الجنرال كلايتون أو أيّ ضابط آخر يمتدحه، كان وجهه يحمرّ كالفتيات ويخفض رأسه ناظراً على قدميه.

قبل بضع سنين في كالكوتا، قال لي الكولونيل الطّيار لورين: «ولكن إن كان لورَنس متواضعاً وخجولاً، فكيف تمكنت من التقاط كل هذه الصّور له؟» أجبتُه قائلاً: «يجب أن أفسر الأمر إنصافاً للورَنس، فبالرّغم من أنه سهّل لنا مهمّة التقاط صور ثابتة ومتحركة للأمير فيصل وعودة أبو تايه وغيرهم من القادة العرب، فقد كان يدير وجهه عندما يرى العدسة متجهة نحوه. لقد التقطنا له صوراً كثيرة من الخلف، لكن بعد استخدام كل الحيل الممكنة أقنعتُ لورَنس أخيراً بأن يدع تشايس بأن يلتقط له صورة في وضعية الجلوس في مناسبتين. بعد ذلك، كنت أعمد إلى لفت انتباه الكولونيل بأسئلة تخصّ رحلتنا إلى المدينة المفقودة، والتي صدّق أنها هدفنا الرّئيسي في زيارتنا إلى جزيرة العرب، فيقوم تشايس بسرعة بالتقاط عشرات الصّور من زوايا مختلفة. كان لورَنس من أهم شخصيات الحرب لذلك صمّمتُ على ألا أغادر الجزيرة إلا وقد حصلت على الصّور التي أريدها. كثيراً ما كان تشايس يلتقط الصّور دون أن يدري لورَنس بذلك، وحتى عندما كان يستدير ليجد نفسه أمام العدسة ويكتشف الخدعة التي قمنا بها، يكون الأوان قد فات وانتهى الأمر.

لنعد الآن إلى سرّ نجاح لورَنس في اكتساب تلك السّيطرة الكبيرة على العرب بلبسه للباسهم وإتقانه لأدقّ تفاصيل حياتهم اليومية، وشجاعته وتواضعه وبراعته وحكمته، ومن المسلّم به أنّ اكتسابه لثقة أحفاد النّبي والقبائل البدوية سيكون في نظر مؤرّخي المستقبل إحدى أروع إنجازات هذا العصر.

وإنّ إنجازات لورَنس جديرة بالتّقدير إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّه منذ ألف وثلاثمئة عام، أي منذ أيام النّبي محمّد، لم يدخل جزيرة العرب من المستكشفين الأوروپيين سوى القلائل، بينما اتّجه معظمهم إلى استكشاف أواسط أفريقيا. كان المسلمون القاطنون في مكّة والمدينة وما حولهما يمنعان المسيحيين واليهود وغير المسلمين من تدنيس التّراب المقدّس، وإنّ من يجرؤ على دخول هذا الجزء من الجزيرة يكون سعيد الحظ إن خرج حيّاً. لذلك تعدّ إنجازات لورَنس أمراً خارقاً للطّبيعة عندما نتذكّر أنه أقرّ بمسيحيته علناً. ومع أنه كان يلبس ملابس أشراف مكّة، فلم يظهر بملابس الشّرقيين إلا عندما كان يخترق صفوف الأتراك متنكّراً في زي امرأة محلّية منقّبة.

بالطبع كان الذّهب الذي يدفعه لأفراد جيشه ذا أهمية كبيرة، ومع أنّ الأتراك والألمان حاولوا استخدام الذّهب أيضاً، فقد فشلوا إذ لم يكن بينهم «من هو مثل لورَنس»، هذا ما صرح به مستر فيلبي الذي كان ممثلاً للبريطانيين في الصّحراء الوسطى.

لعب الكولونيل لورَنس دور الرّجل الغامض الذي بمقدوره أن يفعل كل شيء بمهارة عالية، والتّفوق على العرب في كل الأمور من الكفاءة السّياسية إلى ركوب الجمال، وحتى استخدام الفروق البسيطة في لغتهم الأم. في الواقع كان تعلّم اللغات سهلاً بالنّسبة إليه، فإلى جانب لغته الأم كان يتحدّث الفرنسية والإيطالية والإسپانية والألمانية وبعض الهولندية والنّرويجية والهندوستانية، واللغات المشتقة من اللاتينية واليونانية، وبالتالي كان بإمكانه التّعامل مع اللّهجات العربيّة في الشّرق الأدنى.

كان لورَنس يحرص على ألا يدخل منافسة مع البدو إلا إذا كان متأكداً من التّفوق عليهم. لقد كسب أيضاً سمعة طيبة بأنه يفعل أكثر ممّا يقول، ممّا أثّر في أهل البادية الذين كانوا يتحدّثون دون توقف كغربان الهند. ولمّا كان لورَنس يتكلّم كان لديه شيء مهمّ ليقوله

وكان يعرف تماماً عن أيّ شيء يتحدّث. نادراً ما كان يرتكب أخطاء، وعندما كان يفعل ذلك كان يحرص على أن يعدّها العرب في النّهاية من أسباب النّجاح. كان يعمل دون كلل وبكرم فائق، وكان يمضي الليل أحياناً في العمل بينما ينام رفاقه من العرب. كان كثيراً ما يتجوّل في الصّحراء على جمله أثناء الليل المظلم حيث يضع مخططاته السّياسية واستراتيجياته الدّپلوماسية المستقبلية. كان قصيراً ونحيلاً لكنه يبدو وكأنه مصنوعٌ من الفولاذ، ومع ذلك فقد تركتْ حرب الصّحراء فيه آثاراً لا تمحى منها ما أسرَّ لي به أحد إخوته أنه مُذ عاد من جزيرة العرب وهو يعاني من اعتلال قلبي حاد.

قال لي مرة عودة أبو تايه، وهو من أكفأ النّاس في حكمه على البشر:

«لم أرَ في حياتي رجلاً ينكبّ على العمل انكباب لورَنس، ولم ترَ الصّحراء رجلاً يحسن ركوب الجمال مثله، وإني أُقسم لك أنه لرجلٌ فوق البشر!».



لورَنس يتباحث مع زعيم الوطنيين

في بغداد ودمشق

الفصل الثّاني والثّلاثون

فنّ التّعامل مع العرب

كان الكولونيل لورَنس يؤمن بالعرب وكان العرب يؤمنون به، لكنهم لم يكونوا ليثقوا به ثقة عمياء لو لم يكن يتقن عاداتهم والمظاهر الخارجية لطبيعة حياتهم العربيّة. سألته ذات مرة عندما كنا نسير في الصّحراء عن أفضل طريقة للتّعامل مع البدو في هذا الجزء من العالم. كان هدفي من السّؤال أن أسمع منه بكلماته الخاصة السّرّ في تمكنه من فعل ما عجز عنه إلا قلة من الرّجال. كنت واثقاً بأنه فهم أنني أحتاج إلى المعلومات من أجل تعاملي الحالي مع البدو، ولو أنه شكّ لحظة واحدة في أنني أدفعه للكلام عن نفسه لغيّر مجرى الحديث فوراً.

قال لي: «قد يُعدّ التّعامل مع العرب فنّاً وليس علماً، مع بعض الاستثناءات التي ليس لها قاعدة ثابتة. يطلق العرب أحكامهم وفق الأمور الظّاهرية التي لا نبالي نحن بها، لذلك من المهمّ للغريب أن يراقب كلّ حركة يتحرّكها وكل كلمة يقولها أثناء الأسابيع الأولى من مرافقته لقبيلة ما. لا يمكنك أبداً أن تبدأ بداية سيئة بين البدو، لكنك عندما تنجح في الدّخول إلى دائرتهم وتكسب ثقتهم فعلياً بإمكانك عندها فعل ما يرضيهم وما يرضيك في الوقت نفسه دون أن يعدُّوك دخيلاً عليهم. إنّ أهم نقطة في التّعامل مع العرب هي دراستهم بشكل متواصل، وضَعْ في حسبانك دائماً ألا تتفوّه بكلمة غير ضرورية، وعليك بمراقبة نفسك ورفاقك بشكل دائم والاستماع إلى كل ما يدور واستنتاج كل ما يحدث، عليك أن تدرس شخصياتهم وتكتشف أذواقهم ونقاط ضعفهم، واحتفظ بكل ما تكتشفه لنفسك. اختلط معهم وأبقِ اهتمامك منصباً على

العمل الذي تقوم به كي تتمكّن من إتقان دورك تماماً حتى تتجنّب أيّة هفوات قد تُبطل عمل أسابيع كاملة. ونجاحك يكون بمقدار ما تبذله من جهد فكري».

وليصوّر لي الأهمية التي يوليها البدو للمظاهر الخارجية، أخبرني أنه في إحدى المرات جاء إلى المنطقة ضابطٌ بريطاني ونزل ضيفاً على شيخ قبيلة الحويطات، وفي الليلة الأولى جلس على البساط وقد مدّ ساقيه إلى الأمام بدلاً من أن يطويهما تحته على عادة البدو. ولهذا لم يلاقِ الضّابط قبولاً بين الحويطات، إذ يعدّ البدو إظهار أطراف الأقدام بشكل علني من الأشياء القبيحة كما هو الأمر بالنّسبة لوضع الأقدام على الطّاولة أثناء حفل العشاء في بلادنا. انظر إلى ذاك البدوي ذي النّدبة الكبيرة في وجهه الذي يسير وراءنا، إنه زعيم قبيلة شمّر. غصّ الشّيخ بالطّعام وهو يتعشّى مع ابن رشيد، حاكم شمالي الجزيرة الوسطى، فشعر بالخزي لدرجة أنه استلّ مديته وشقّ فمه بجهة الشّريان السّباتي في وجنته، فقط ليري مضيفه أن قطعة من اللحم قد علقت في أضراسه».

من سوء التّربية عند العرب أن يغصّ الإنسان بالطّعام، فذلك لا يظهر شراهته فحسب بل يُعتقد أنه من عمل الشّيطان. ومن الأمور المستحسنة لدى البدو ألا يستعملوا الشّوكة والسّكين أبداً بل يتناولون أنواع الطّعام المختلفة بأيديهم، ومن سوء الأدب أن يأكل الإنسان بيده اليسرى.

لا يسمح البدوي الأصيل بأية تجاوزات أو إهمال لعادات الصّحراء عند حكمه على الغريب. إذا لم تتقن الآداب البدوية، فأنت غريب وقد تكون دخيلاً من الأعداء. كان تفهّم لورَنس للعرب ومقدرته على فعل الأمر المناسب في الوقت المناسب، شيئاً غير عادي. بالطّبع لم يكن ليتمكّن من العيش كعربي في جزيرة العرب لو لم يدرس تاريخ أسرة جميع الأشخاص المرموقين في البادية، بالإضافة إلى القائمة الكاملة لأصدقائهم وأعدائهم. كان يفترض به أن يعرف أن والد هذا الرّجل قد شُنق أو أن والدته هي مطلّقة شيخ مشهور. وكان من الغرابة أن يستفسر عن والد رجل ما إن كان محارباً مشهوراً، وكذلك أن ينسب امرأة مطلّقة إلى زوجها الأسبق. عندما كان لورَنس

يبغي الحصول على أية معلومات كان يسلك الطّريق غير المباشر، وكان يحوم حول الموضوع دون أن يسأل أسئلة مباشرة. لحسن الحظ لم يرتكب لورَنس أيّة أخطاء قبل الحرب بالنّسبة للحركة القومية العربيّة أو للحلفاء، وفي إحدى المرات نُصّب شيخاً على قبيلة في بلاد الرّافدين.

قال لورَنس: «من المهمّ جداً لمن يريد التّعامل مع العرب أن يتحدّث بلهجتهم المحلية، لا بالعربيّة الدّارجة في بعض أنحاء الجزء الشّرقي من البلاد. وإنّ أضمن خطة هي أن تكون رسمياً في البداية لكي تتجنّب التّورط في الحديث». يتحدّث معظم الضّبّاط الذين يتعاونون مع العرب في الثّورة باللهجة المصرية، لكن البدو يزدرون المصريين ويعدّونهم ذوي قرابة بعيدة، لذلك وجد الضّبّاط، المرسلون من قبل الحلفاء للتّعاون مع أهل الحجاز، أنفسهم يُعامَلون بفتور. لقد نجح الحلفاء في كسب تأييد العرب لأن لورَنس استطاع أن يبلور فكرة نيل الاستقلال عن الأتراك بشكل محدّد، ولأنه تمتّع بتميّز استثنائي أهّله للقبول بين معظم القبائل.

كان لورَنس هو المسؤول الرّئيسي عن وصول حسين وابنيه فيصل وعبد الله إلى المُلك. كان يؤمن بأن أفضل طريقة لتقوية قبائل الصّحراء والقضاء على أحقادها الدّموية هو تأسيس حكومة من الطّبقة الرّاقية. لم يكن هناك شيء كهذا في جزيرة العرب من قبل، لأن بدو الشّرق الأدنى يتمتعون بحرية مطلقة ويرفضون الاعتراف بسلطة تفوق سلطتهم. لكن العرب كلهم يكنّون احتراماً خاصاً، وعلى مدى قرون، لأحفاد النّبي، فحاول لورَنس إقناع العرب بالاعتراف بحكم الأشراف واستغلّ بذكاء أنّ عائلة حسين تصل في نسبها إلى النّبي محمّد نفسه.

منذ الأزل، لم يكن لشيوخ القبائل سلطةٌ على أفراد القبائل الأخرى. أمّا الأشراف، الذين لا ينتمون إلى أية قبيلة، فكانوا قادة لسكان مكّة والمدينة والمدن الكبرى فقط. ينبغي على الشّريف أن يكون رجلاً متحلّياً بالشّرف، بحسب معنى هذه الكلمة في اللغة، ولطالما قدّر سكان مكّة والمدينة الشّريفين حسين وفيصل عالياً وكانوا يدعونهما بـ «سيدي»، أمّا بدو الصّحراء فقد كانوا يدعونهما ببساطة بـ «حسين، وفيصل» دون

أيّة ألقاب. لكن لورَنس تمكن من إقناعهم بأسلوبه الخاص باستخدام لفظة «سيدي» للأشراف. لقد نجح في ذلك نجاحاً باهراً بحيث أطلق عليه البدو اللقب نفسه بعد بضعة أسابيع لعميق وصدق تقديرهم له بالرّغم من كونه غريباً ومسيحياً.

يعطينا المقدّم ڤيكِري، أحد قوّاد الجيش النّظامي والذي لعب دوراً مهمّاً في الحملة وأصبح بعدها العميل البريطاني في جدّة، يعطينا لمحة حيّة عن الحياة اليومية للشّريف. كان ڤيكِري أحد القلائل من الأوروپيين الذين زاروا الطّائف، العاصمة الصّيفيّة للحجاز، وهي مدينة ليست بقداسة مكّة أو المدينة، لكنها مكان لا يعرف النّاس عنه الشّيء الكثير.

يقول: «كان الظّلام قد حلّ لمّا وصلنا وكان الطّقس شديد البرودة. دخلنا غرفة الضّيوف، وهي شقّة جميلة أرضها مغطاة بسجاد عجمي فاخر، ووسادات كبيرة. جاء مضيفنا وبكل لباقة قبّل كل واحد منا على وجنتيه ودعا الله أن يباركنا، ورجانا بأن نعدّ أنفسنا في منازلنا. جلسنا ساعة من الزّمان نشرب القهوة والشّاي المحلّى والسّجائر، ونحن نشاهد منظراً شرقياً لم تغيّره القرون. لم يكن الشّريف قد تغيّب سوى يوم واحد، لكن جرت العادة بأن يهنّئه الجميع بعودته من رحلته سالماً. كان الأقرباء والأصدقاء والخدم يدخلون الغرفة بين الفينة والأخرى بعد خلع أحذيتهم عند الباب. أمّا الخدم فكانوا يدخلون بسرعة فينحنون ويقبّلون يد الشّريف ثم يخرجون بسرعة. أمّا الأتباع فكانوا يدخلون على مهل فيقبّلون ظهر يد الشّريف ثم يديرونها ليقبّلوا ما بين الإبهام والسّبابة ويخرجون بهدوء.

«ولما دخل الأصدقاء نهض الشّريف وأظهر تمنعاً خفيفاً لتقبيلهم يده ثم قبّل وجناتهم مع التّلفظ بالتّحية. أمّا بالنّسبة للأقارب فكان ينهض أيضاً فيقبّلهم ويقبّلون يده ثم يضمّهم إلى صدره بحرارة داعياً لهم بطول العمر والسّعادة».

لقد أدّى احترام سكان المدن والقرى للأشراف إلى إحساس خاص لدى عرب المدن بالمسؤولية والتّشريف، وهذا بالطّبع ساعد لورَنس كثيراً في تأسيس حكومة للطّبقة الرّاقية في الحجاز. وبفضل حس المسؤولية هذا تمكّن وأصدقاؤه من توحيد

القبائل المتخاصمة وإيجاد رجال يمكن أن يكونوا قادةً تابعين للملك حسين والأمير فيصل وإخوته. ومن أجل تنفيذ هذا الأمر كان على لورَنس أن يكسب أولاً ثقة كل القبائل المتخاصمة، ثم، وبهدوء، يجعلهم يعتقدون أنّ الفكرة فكرتهم ويحثّهم على نسيان خلافاتهم السّابقة والاتحاد تحت قيادة حسين وأبنائه والأشراف الآخرين، لطرد الأتراك ومساعدة الحلفاء على الانتصار في الحرب، أملاً في استرجاع الخلافة ومجد إمبراطوريتهم القديمة.

كان على الملك حسين الاعتماد كلّياً على ولاء القبائل في قوته الحربية. أما أتباعه الخاصّون من البدو فكانوا من قبيلتي حرب وعتيبة، وقبيلة أخرى أقلّ شأناً هي جهينة. كانت هذه القبائل الثّلاث تحتلّ أرضاً واسعة تشمل ثلاثة أرباع الحجاز وطرفاً من غرب نجد. وداخل حدود الحجاز إلى الجنوب والغرب كانت هناك ست قبائل صغيرة هي هذيل وبني سعد والبقوم Buqum ومطير وثقيف والجحادلة Juhadlah. وإلى أقصى الجنوب هناك مجموعة من القبائل القويّة هي الظهور Dhaur وحسن Hasan وغامِد Ghamid وزهران Zahran وشهران Shahran، التي تشكل بالتحامها أفضل قوة قتالية ممّا في الحجاز نفسها. وقد أرسلت كلها فرقاً لمساندة الملك حسين.

أما من الجهة الشّمالية للبلاد فقد أتى بتعزيزات من ثلاث قبائل تابعة للعنزة. انضمت قبيلة بليّ Billi أولاً، الواقعة إلى الشّمال من جهينة، ثم تبعتها العطيّة والحويطات. كان لقبيلة الحويطات، التي تجوب المناطق الواقعة بين رأس خليج العَقَبة والطّرف السّفلي للبحر الميت والجزيرة الوسطى، أعداءٌ كُثر وأحقاد دموية وخلافات أكثر من غيرها، وأفرادها عنيدون مشاكسون لا ينقادون بسهولة ولا يهابون شيئاً. وكانوا لا يتّحدون فيما بينهم، فما بالك مع غيرهم؟ والشّيء الوحيد المشترك بينهم هو الجراح ونفس العلامات القبليّة عل جمالهم. ولهذه القبيلة فرعان هما ابن جازي وأبو تايه، التي شيخها هو عودة أبو تايه، روبن هود البدوي. لكن عودة زعيم بفضل شجاعته وإقدامه فقط ولا يوجد فرد من القبيلة يهتم للخضوع إلى أيّة سلطة.

كانت هناك حرب مستمرة بين فرعي القبيلة لمدة خمسة عشر عاماً إلى أن نجح

الشّريف لورَنس في توحيدهما تحت راية حسين وفيصل بهدف طرد الأتراك من البلاد. مع ذلك رأى لورَنس أنه من الأفضل إبقاء كل فرع في جزء مختلف من الجيش حتى لا ينقضّوا على رقاب بعضهم البعض. وكان الفريقان مستعدّين لإطاعة أوامر لورَنس طالما أنهما منفصلان، وعندما كانا يلتقيان كانت كلمة الشّرف تمنعهما من البدء بالشّجار. يعدّ عودة أبو تايه وقومُه أنّ الدّروزَ، الذين يشنّون أقسى حرب في الصّحراء، من الدّ أعدائهم، وكان لورَنس يضطر في كثير من الأحيان إلى استخدام القوة لمنعهم من قتل بعضهم البعض بدلاً من قتل الأتراك. في عام 1912، أسر خمسون من هجّانة عودة ثمانين خيّالاً درزياً في المعركة، وهذا دليل واضح على كفاءة رجال الحويطات القتالية، إذ يكون الخيّال في العادة معادلاً لرجلين على الجمال في القتال، لأنّ الحصان يستطيع المناورة بسرعة أكبر. منذ تلك الحادثة والدّروز متحفّزون أملاً في مباغتة الحويطات وهزيمتهم. وبالرّغم من تمرّد قبيلة الحويطات، فقد غدا أفرادها بقيادة عودة أبو تايه من أفضل القوات المقاتلة في غرب جزيرة العرب، وكان الكولونيل لورَنس يعدّهم العمود الفقري لجيشه الصّحراوي.

ربما كان نسف القطارات هو أروع عمل أمضى به لورَنس وقته، لكن أياً من أعماله لا يفوق توحيد القبائل العربيّة أهمّية. بالنّسبة إليهم كانت الغارات على القبيلة المعادية هي شغلهم الشّاغل وتسليتهم الوحيدة. وكم كان صعباً أن تأتي بزعيمين متخاصمين إلى خيمة الأمير فيصل ليعلنا صداقتهما ووفاءهما، ويشبه ذلك أن تطلب من أحد أثرياء وول ستريت التّخلي عن ثروته للشّيوعيين.

لتصوير دقة المشكلة إليكم المثال الآتي: في شهر يونيو من عام 1917، كنا نحضر اجتماعاً في باحة قصر الأمير فيصل في العَقَبة، وهو بناء ذو طابق واحد يشبه المباني الإسپانية. كان واقعاً في بلدة صغيرة تحدّها أشجار النّخيل، وهي البقعة الخضراء الوحيدة وسط بحر من الرّمال، حيث كان في القديم ميناء الملك سليمان العظيم. كان ثلاثون من الأشراف والشّيوخ جالسين في دائرة حول الأمير، كلهم من زعماء القبائل البارزين، ومن بينهم ستة من شيوخ ابن جازي الحويطات. وفجأة لمحتُ تغيراً في

وجه الشّاب الإنكليزي لورَنس الذي وقف على قدميه وانسلّ بهدوء من باب الباحة. رأيته يتحدّث مع جماعة من العرب كانوا في طريقهم إلى الدّخول ثم قادهم في اتجاه آخر. وعندما سألته لاحقاً عن سبب خروجه السّريع أخبرني بأن المحاربين الذين كانوا عند الباب هم عودة وابن عمه محمّد وبعض من رجال أبو تايه، ثم أضاف قائلاً إنه لو دخل عودة وصحبه إلى باحة القصر فإنّ معركةً دامية كانت ستدور أمام عيني الأمير وقد ينتج عنها تقويض القوّات العربيّة برمتها.

إلى أن أصبح لورَنس قائداً مسلّماً به، بقي على اتصال دائم بملك الحجاز وأبنائه الأربعة وبالأخص الأمير فيصل. لقد عاش مع الزّعماء وأكل الطّعام معهم واشترك في أحاديثهم داخل الخيام، وكان يرى أنّ إسداء النّصح بشكل مباشر ليس له التّأثير المرجوّ، بل من الأفضل تمرير الأفكار خلال المحادثات اليومية. يكون العربي عل سجيته أثناء تناوله لوجباته ويخوض في أحاديث ودّية عامة، وكلّما كان لورَنس يرغب في القيام بحركة جديدة أو شنّ غارة أو الاستيلاء على بلدة ما كان يطرح الفكرة عرضاً وبشكل غير مباشر، وقبل مضي نصف ساعة كان ينجح في إلهام أحد الشّيوخ البارزين ليقترح الخطة ذاتها، وعندها يتمسّك لورَنس بالفكرة ويدفع الشّيخ إلى تنفيذها قبل أن يخبو حماسه.

في إحدى المرّات، كان لورَنس يتعشى مع الأمير فيصل وبعض القادة في مكان قريب من العَقَبة. كان الزّعماء العرب يعتقدون أنه من الأفضل الاستيلاء على درعا، الواقعة عند التقاء السّكة الحديدية على بعد مئات الأميال بجهة الشّمال، جنوبي دمشق. كان لورَنس يعلم أنه من الممكن الاستيلاء على درعا، لكنها لا يمكن أن تصمد لمدة طويلة من الزّمن، لذلك قال: «إنها فكرة رائعة حقاً، لكن دعونا أولاً نناقش التّفاصيل». ومن ثم عقد مجلس شورى، وكلما استمرّ النّقاش في المسألة كانت الحماسة لها تخبو. وفي الحقيقة فقد ثبطت عزيمة القادة العرب، حتى إنهم اقترحوا الانسحاب من المركز الذي كانوا يحتلّونه آنذاك. اقترح لورَنس بلطف أن انسحاباً كهذا قد يغضب الملك حسين كثيراً، وشيئاً فشيئاً أوحى إليهم بالمضي في الخطّة الأصلية بالاستيلاء على العَقَبة، وهي هدفه الحقيقي.

كمـا أسـرَّ لي لورَنس عندمـا كنا نحضر استشـارة للزّعماء العرب، فقـال: «الجميع جنـرالات في الجيـش العربي، بينما يُسـمح للجنرال فـي الجيش البريطانـي بأن يقرّر الأمـور وفق هـواه، أمّا هنا، في جزيـرة العرب، فكل رجل يرغب في المشـاركة بصنع القرار».

إنّ الأشـراف والشّـيوخ العرب أناس عنيدون ولا يزعجهم أكثر من أن يشير أحدٌ ما إلـى أخطائهـم. إذا قلت: «هذا هراء»، يدير العربي ظهره لك ويحجم عن مسـاعدتك، ولهـذا لـم يرفض لورَنـس أيّ مخطط يقدَّم إليه، مع أنه كانت لديه السّـلطة لفعل ذلك، لكنـه كان يوافـق على الخطة المقترحة ثـم يوجّه الحديث ببراعة بحيـث يعدّل العربي نفسـه الخطّـة وفقاً لمـا يريد لورَنس الذي يعلنهـا فوراً أمام القادة العرب قبل أن يتّسـع المجال لصاحبها بأن يغيّر رأيه. كان يقوم بذلك بطريقة دقيقة دون أن يشـعر الشّـخص للحظة واحدة بأنه قد ضُغط عليه.

لـو أنّ لورَنس وزملاؤه عملوا وحدهم دون مشـورة الأشـراف لكانـوا ربما حققوا أهدافهم في نصف المدة، لكن لورَنس حرص على عدم إصدار أوامر مباشـرة، إلى أن أصبح قائداً أعلى برغبة العرب أنفسـهم الذين أخـذوا ينظرون إليه وكأنه رجل خارق. حتـى اقتراحاته ونصائحـه للأمير فيصل، فكان يحتفظ بها إلـى أن يخلو به. ومنذ بداية الحملة ولورَنس يتبنّى سياسـة عدم محاولة فعل الكثير بنفسه، متذكّراً دائماً أنها حربٌ عربيّـة، بل كان فـي بعض الأحيان، عندما تقتضي الضّرورة، يعـزّز أهمية القادة العرب لدى أتباعهم على حسـاب مركزه هو. من ناحية أخرى، تُعزى هزيمة الأتراك والألـمان إلى محاولتهم التّعامل مع العرب بطريقة مباشرة قاسية.

كلّما كان شـريفٌ أو شـيخ يأتي للمرة الأولى ليضع نفسـه في خدمة الملك حسين، كان لورَنـس والضّبـاط البريطانيون الحاضرون يخرجون من خيمـة الأمير حتى انتهاء شـكليات أداء قَسَم التّحالف. كانوا يفعلون ذلك لأنّ الشّيخ القادم قد يرتاب بالأمر إذا وجد أن الأمير يولي بعض الأجانب ثقته. وفي الوقت نفسه كان لورَنس يسعى لاقتران اسـمه بأسـماء الأشـراف، وحيثما كان يذهب كان يُنظر إليه على أنه المتحدّث بلسـان

فيصـل. كان يقول: «ضع الأمير أمامك كالرّاية وأخفِ شـخصيتك وأفكارك وراءها».
لكـن لورَنس كان يحـرص على عدم البقاء عند قبيلة واحدة مـدّة طويلة لأنه لم يرغب فـي أن يقترن اسـمه بقبيلة معيّنة وأحقادهـا الدّفينة. والبدو أناسٌ غيـورون، لذلك كان لورَنـس، أثنـاء الغزوات، يسـير إلى جانب كل واحد منهم حتى لا يُشـاع عنـه أنه يميّز البعض على الآخرين.

لقد اسـتخدم لورَنس معرفته بنفسـيّات وطبائع رجال الصّحراء كأفضل ما يستطيع. على سـبيل المثـال كان يحتـاج دائماً إلى معلومـات مفصلة عن تضاريـس البلاد التي ترتادهـا القوات العربيّة في حملاتها، لكن البدو كانوا يتردّدون في إطلاعه على أمكان وجود الآبار والينابيع والأماكن الإسـتراتيجية. لكن لورَنـس أقنعهم أن صنع الخرائط ضرورة لكل رجل مثقف، وأصبح عودة أبو تايه والكثير من الشّيوخ مهتمّين بالخرائط، لدرجة أنهم كانوا يبقون لورَنس مسـتيقظاً طوال الليل وهو يسـاعدهم في رسم خرائط لم تكن لها أية قيمة حربية ولم تكن تثير اهتمامه بحال من الأحوال.



صانع الملوك

الفصل الثّالث والثّلاثون

لورَنس الإنسان

على الرّغم من أن لورَنس كان يُدعى لنيل كل وسام تقدّمه الحكومتان البريطانية والفرنسية، فإنه كان يفرّ منها على جَمَله أو بالطّائرة أو بأيّة وسيلة نقل سريعة متوفرة.

أرسلت الحكومة الفرنسية رسالة إلى مندوبها في جزيرة العرب تطلب إليه تسليم الكولونيل لورَنس وسام صليب الحرب باليد. كان الكابِيتين پيزاني Pisani، قائد القوات الفرنسية في العَقَبة، متلهفاً على جعل المراسيم ذات طابع مهيب، وأراد أن يُخرج الفرق البريطانية والفرنسية والعربيّة في عرض عسكري حتى يتمكن من إلقاء خطاب مديح ملائم، ثم يقدّم الوسام للورَنس ويقبّله في وجنتيه. فلمّا سمع لورَنس بذلك ولّى هارباً إلى البادية، وفرّ بعدها عدة مرات من الكاپتن الدّؤوب، الذي ذهب يائساً إلى الميجور مارشال، رفيق لورَنس في الخيمة، فما كان منه إلا أن نصحه بتطويق المخيم ذات صباح عندما يكون لورَنس في العَقَبة، وأخذه على حين غرّة. انتظر پيزاني وفرقته إلى حين عودة لورَنس، ثم ظهر أمامه بكامل مظهره الرّسمي وحاصره ثم تلا وثيقة مؤثرة، تروي كيف أمضى لورَنس أياماً دون طعام أو ماء وكيف تفوّق على الأتراك وهزمهم.

في نهاية الحملة، عندما رجع لورَنس إلى أوروپا مخلّفاً مارشال في الجزيرة، أرسل إلى شريك خيمته يطلب منه شحن أغراضه من العَقَبة إلى القاهرة. لم يكن لورَنس يشرب الكحول أو يدخّن، لكنه كان مغرماً بالشّوكولاتة، وكان هناك عشرات من العلب الفارغة المكوّمة في زاوية الخيمة مع كتبه، بالإضافة إلى أجهزة قياس الزّوايا

وشِداد جمل وبراميل ذخيرة وبقايا مدافع رشّاشة. وفي إحدى علب الشّوكولاتة الفارغة وجد الميجور الوسام الذي أعطاه إياه الكاپيتين پيزاني، فوضعه في حقيبته، وعندما جاء لورَنس لمقابلة الأمير فيصل والمفاوضين العرب في مرسيليا، أحرجه الميجور مارشال بإلقاء خطاب يذكّر بأعمال الكولونيل الرّائعة في فرنسا ثم قلّده وسام صليب الحرب.

عندما زار دوق كونّوت فلسطين ليمنح الجنرال آلِنْبي وسام صليب فرسان القديس جون، كان ينوي منح وسام آخر للورَنس، لكن القائد الشّاب اختفى فجأة وذهب ليفجّر قطارات الأتراك. أُرسلت الطّائرات للبحث عنه كما أُرسلت رسائل إلى مختلف المضارب البدوية تسأل إذا كان أحدٌ ما قد رأى الشّريف لورَنس فليخبره بضرورة الحضور إلى القدس. وذات يوم، بينما كان لورَنس يتمشّى عند حدود الأتراك غير مبالٍ بالعدو، كان الاحتفال في القدس قد انتهى وغادر دوق كونّوت إلى مصر. كان زملاؤه في إدارة الاستخبارات يعلمون رفضه الغريب لأيّ نوع من الميداليات أو الأوسمة الحربيّة، فأغروه بالحضور إلى القاهرة وفق حجّة مقنعة. وحال وصوله قام ملازمٌ بكشف السّر وإطلاعه على الأمر، فما كان من لورَنس إلا أن توجّه فوراً إلى شركة طيران هليوپوليس، دون أن ينتظر لأخذ بزّته وأغراضه من فندق شيفرد، واستقلّ أول طائرة عادت به إلى جزيرة العرب.

لم يكن لورَنس يكره الأوسمة فحسب، بل كان يتجنّب لبس الأشرطة التي يملكها. يقول عنه الكاپتن فرديناند توهي عندما كتب عن «الفيلق السّرّي»: «لقد مُنح الكولونيل لورَنس وسام Companionship of the Bath لقاء خدماته. كان مرشحاً لنيل وسام صليب ڤيكتوريا، لكنه لم يحصل عليه بسبب عدم وجود ضابط أعلى رتبة منه يشهد على أعماله البطولية، وهي ذريعة واهية إذ كانت هناك عشرات الطّرق لكشف أعماله البطولية». وفي الواقع، لم يحضر لورَنس أبداً لتسلّم الوسام كما طلب من زملائه التّجاوز عن المطالبة بوسام صليب ڤيكتوريا. ولا ننسى أنه كان قد تنحّى عن رتبة الجنرال عندما كانت قواته الجناح الأيمن في جيش آلِنْبي، أي عندما كان برتبة عقيد.

لقد رفض أيضاً لقب الفارس، ولما سـألتُه عن السّبب قال: «لو أنني أصبحتُ من طبقة الفرسـان لسـمع خيّاطي بذلك وضاعف فاتورتي. يكفيني عناء تسديد ما عليّ تسديده الآن».

حسب علمي كان هناك شيء واحد يبغيه لورَنس من الحرب، وهو شيءٌ لم يحصل عليه أبداً. سـألته مرّة عن شـيء يشتهيه يمكن أن يُشترى بالمال لكنه لم يتمكن من فعل ذلـك، فأجاب بـلا تردّد جواباً يظهر بسـاطته وإنسـانيته: «كنت أتمنّى لـو أحصل على سـيارة مـن نـوع «رولز رويس» شـريطة أن تكون مـزوّدة بإطارات ووقـود يكفيني بقية عمري». كانت تلك السّـيارة التـي يحلم بها تدعى (الضّبـاب الأزرق) "Blue Mist" كان يسـتخدمها أثناء غاراته لتخريب السّـكك الحديدية حول دمشـق، لكنها أُصلحت بعد الحرب وغدت للاستخدام الخاص للجنرال آلِنبي في مقره بالقاهرة.

كان البعـض ينتقـدون لورَنـس لرفضه تسلّم أوسـمة الشّـرف الممنوحة لـه، لكن الحقيقة هي أنه لم يرفضها لمجرّد أن يبدو غريب الأطوار. مُنح قبل الحرب مثلاً وسام المجيديّـة من قِبل السّـلطان التّركي، لأنه كان قد أنقذ حيـاة بعض الألمان أثناء عملهم فـي السّـكة الحديديـة الواصلة بيـن برلين وبغـداد عندما كان سـكان المنطقـة يهمّون بالفتـك بهـم. وبعد قيام الثّـورة العربيّة بقليل، بينما كان لا يزال فـي القاهرة، تلقّى عدة أوسمة حربية من بينها وسام جوقة الشّرف فقبلها. لكنه كان يرفض الجوائز التي كانت تمنح له لقاء أعماله في جزيرة العرب، لأنه كان يعلـم أن الحلفاء سيجدون من الصّعب تلبية مطالب العرب بعد انتهاء الحرب وتحقيق النّصر، ولن يفوا بالتزاماتهم أيضاً تجاه زعماء الحجاز. كان يدرك جيداً أن الفرنسـيين مصمّمون على الاسـتيلاء على سوريا، وعـرف أنهم لن يسـمحوا للعرب بالاحتفاظ بدمشـق. ولهذا لـم يكـن يبالي بقبول أيّ مقابـل علـى قيادتـه لحملة مبنية علـى وعود لن يسـتطيع الحلفاء الوفاء بهـا. ربما كان سـيغيّر رأيـه لو علم أن الأمير فيصل سـيصبح ملـكاً على بغداد بعـد فقدانه العرش في سـوريا، ولكـن في نهاية الحرب لـم يكن أحد يحلم بأن يكون فيصل مؤسّسـاً لمملكة جديدة في مدينة هارون الرّشيد بعد إجلاء الفرنسيين له من دمشق.

أمـا الشّـرف الوحيد الذي قبله لورَنس وسُـرّ به كثيـراً فهو منح زمالة «كلّيّة أول سـولز» All Souls' College في أوكسـفورد. تُمنح هذه الزّمالة للأشخاص المتميّزين بإنجازاتهم العلمية، ولم يكن عددهم يتجاوز العشرين، يكونون عادة من الشّبان الذين ينجزون أعمالاً علميـة أو أدبيّـة، نذكـر منهم على سـبيل المثال اللورد كُـرزون. كان هذا اللقـب متميّزاً، إذ يترافـق بمنحة فخرية ومسـكن في الكليّة يشـكل مكاناً مبهجاً للتّقاعـد. لم يكن هناك عمل خـاص يُطلـب من صاحب اللقب لكـن يجب أن تتوفّر فيه أمورٌ ثلاثـة: أولها أن يكون أنيقاً فاخـر الثّيـاب، وثانيها أن يكـون متحدّثاً لبقاً، أمّا ثالثها فأن يكون مـن ذوّاقي خمر الپورت. عندها أضاف لورَنس قائلاً: «أمّا ثيابي فهي بغيضة، وأما الطّلاقة في الحديث فأنا أقلّ النّاس شأناً فيها، وأما الخمور فلم أذقها في حياتي، ولا أدري كيف تمكنتُ من نيل هذا الشّرف!».

بعد انتخابه في All Souls، قسم لورَنس وقته بين الكلية وزيارة منزل أحد أصدقائه فـي وستمنسـتر يعرف بـ«المنزل ذو البـاب الأخضر»، وهـو نُزلٌ صغير بنـاه في غابة إپينـغ Epping. قـال بوّاب الكلية إنهم لم يكونوا يعلمون متى يحضر، ولم يكن يتناول الطّعـام مع الزّملاء الآخرين وكان النّور يبقى مضاء في غرفته طوال الليل. كان منهمكاً فـي كتابه عـن جزيرة العرب دون شـك، لكنه كان ينجـز معظم كتاباته فـي المنزل ذي الباب الأخضر حيث شـغل غرفة كانت فيما مضـى مكتب مهندس معماري. كان أحد أصدقائه قد أعطاه لباس طيار له أطراف من الفرو كان يلبسـه في أيام الشّـتاء حيث برد إنكلترا القارس، ويجلس في الغرفة الكئيبة يدوّن قصة تجاربه في جزيرة العرب.

أثناء رحلاته إلى أوكسـفورد كان يحمل مخطوطته في حقيبة سـوداء صغيرة كتلك التـي يسـتعملها موفدو البنك في لندن. ذات مرة، بعد أن اجتـاز البوابة إلى المنصّة في محطة پادنغتون، وضع الحقيبة على الأرض للحظة وذهب لشراء جريدة، وعندما عاد كانت الحقيبة قد اختفت. لم تكن تحتوي على النّسـخة الوحيدة من مخطوطته الثّمينة فحسـب، بـل كان فيها دفتـر مذكراته الذي صحبه طـوال حملته في الصّحـراء ووثائق تاريخية مهمّة لا يمكن تعويضها. رأيته بعد عدة أيام وأخبرني بقصة الحقيبة، لكنه كان يضحـك وهو يقول: «لقد وفّر علي السّـارق عناءً كبيراً، وإن سـرقة الحقيبة أمرٌ جيد إذ

وفّر على العالم كتاب حرب إضافي». لم نرَ الحقيبة أو نسمع بها أبداً بعد ذلك، وكان لورَنس يعتقد أن السّارق قد رمى الأوراق في نهر التّايمز، الذي خاب أمله بعد أن كان يحلم بغنيمة أفضل. لكن أصدقاءه أقنعوه بكتابة الكتاب من جديد، ومن أجل أن ينعم بالوحدة هذه المرة، بعيداً عن أعين المعجبين في الكلية، تطوّع في القوات الجوية الملكية تحت اسم «المجنّد (پرايڤت) روس». ولكن حتى هناك لم يتمكّن من إخفاء شخصيته الحقيقية وأفشى أحدهم السّرّ في صحيفة لندن، ووجد نفسه محطّ الأنظار من جديد. كان قبل أسابيع قليلة قد وافق على بيع حقوق النّشر مقابل مبلغ كبير من المال، لكن عندما ذاع أمره رفض العقد وترك القوّات الجوية واتّصل بكل المحرّرين راجياً منهم أن يتركوه ليعيش بسلام، ومن بعد ذلك اختفى ثانية.

كانت إحدى هوايات الكولونيل لورَنس هي طباعة الكتب بنفسه، وكان يحبّ الكتب الجذابة كما كان لديه مكتبة من المجلدات المخطوطة النّادرة. وفي أطراف غابة إيينغ Epping، على بعد عشرة أميال تقريباً من لندن، بنى كوخاً صغيراً له واجهة تشبه الكنيسة حيث وضع آلة طباعة يدوية، وعندما أنهى كتابه عن جزيرة العرب قام بعمل ست نسخ منه قدّم بعضها لأصدقائه وبقيت نسخة واحدة في مكتبة المتحف البريطاني داخل القبو لمدة أربعين عاماً، ولم يستطع أحد إقناعه بنشرها. كان من بين من قرأها من أصدقاء لورَنس الأدباء رَديارد كيپلنغ وجورج برنارد شو وآخرون، وأعلن أحد الكتّاب المشهورين أنه يعدُّها «هرم الأدب الإنكليزي».

كان لورَنس يتمتّع بموهبة في الكتابة وأسلوب خاص به، وكان متفرّداً في كتابته ككل شيء يقوم به. منذ أن وضعت الحرب أوزارها وهو يكتب مقالات رائعة وكتب مقدّمة لنسخة جديدة من كتاب "Arabia Deserta" وأجمع الكل على أنها أضافت قيمة حقيقية لهذا العمل الأدبي. لكن العمل الأكثر تميّزاً كان كتاب "Travels in Arabia Deserta" لتشارلز داوتي وعنه يقول لورَنس: «إن في كل كتب رحلات المشرق نقصاً ما، أمّا كتاب داوتي فهو الكمال بعينه؛ بدايته قويّة وأسلوبه رائع، لكنه يتطلب قارئاً متمكّناً حتى يستطيع استيعاب كلماته وعباراته».

لكـن كتاب داوتي نفد من المطبعة لعدة سـنوات، وكان من العسـير الحصول على نسخ منه. يضيف لورَنس: «إنّ كتاب داوتي صافٍ وبسيط لأنه عملٌ أدبي، وإنّ شخصية مستر داوتي لا تقبل الجدل، ويفاجأ المرء عندما يعلم أنه رجلٌ حقيقي. إن هذا الكتاب لا يمكن أن يحمل تاريخاً ما، وهو لا يبلى أبداً ولا يمكن الاسـتغناء عنه للاطلاع على أحوال العرب في البادية، لكنه نادرٌ جداً ولهذا لم يقرأه كثير من النّاس».

ولهذا اقترح إصدار نسـخة جديدة من مجلّدين على أن تباع بتسـعة جنيهات، وهي نصـف المبلغ الـذي يطلبه التّجار مقابل نسـخ عن الطّبعة الأصليـة. كان داوتي، الذي أصبح مسـنّاً الآن، قد كرّس سـنوات من حياته لكتابة الشّـعر لقاء مرتّب ضئيل، لذلك كان لـدى لورَنـس ثلاثة أسـباب علـى الأقل ليرى نسـخة جديدة قد نُشـرت وهي: أن يتعرّف العامة على الأدب القديم، وزيادة دخل صديق له وسَـلَف لامع، وليقدّم خدمة شخصية لإنسان يشعر بأنه مدين له بالكثير.

يقـول داوتـي في مقدّمـة الطّبعة الجديدة: «لقـد تمّ طلب إعادة طبـع الكتاب، ونُفّذ هـذا الأمـر بناء على اقتـراح من صديقي المتميّـز توماس إدوارد لورَنـس، قائد القبائل البدوية تحت لواء فيصل، أمير مكّة، وقد فعل ما لـم يتمكّن من فعله سواه إذ سار بجيشه من جدّة، ميناء مكّة، واسـتطاع إنهاء النّزاعات القبليـة والعداوات الدّفينة لتلك القبائل لتتّحـد ضمـن جيش النّصر ضـد الحكم التّركي المسـتبدّ في تلك البقـاع، كما أنه قدّم خدمة جليلة لبلاده وحلفائها وأنجز المشـروع العظيم من بلاد المشـرق مجتازاً مناطقَ شاسعة من الصّحراء العربيّة».

لـم تكد النّسخة الجديدة تغادر المطبعة حتى نفدت كلها، وتمّت طباعة نسخ أخرى وتحقق طموح لورَنس بتقديم شـيء لداوتي وضمان تـداولٍ أفضل لعمله الأدبي. ولا ننسـى أنّ مبيعـات الكتاب قـد ازدادت بفعل كتابـة لورَنس مقدّمة خاصة لـه يعزو فيها كبيـر الفضـل للرّحالة العظيم الذي مهّـد الطّريق لمن خلفوه في ارتيـاد الصّحراء. وإنّ هـذه المقدّمـة تعطينا فكرة واضحة عـن مهارة لورَنس الأدبيّة، ولقـد كتب ما يلي: «إن الواقعية هي من أهمّ ما يميّز الكتاب، فقد حاول داوتي أن يخبرنا بحقيقة ما شاهده. لقد

أحبّ العربّ كثيراً وتأثر بجاذبيتهم وانعزالهم واستقلاليتهم، وحاول إبراز فضائلهم لكن دون إخفاء أخطائهم. إذا عاش المرء مع الأعراب، فسيمتلك شعوراً بالبادية لا يزول أبداً. لقد اختبر حياة البداوة بنفسه وصوَّر لنا الحقيقة بالألوان. لقد روى لنا كل الحوادث والعقبات والمشاعر التي واجهها ووصف السّاميّين بقوتهم وضعفهم والتّناقضات في أفكارهم، التي تثير فضولنا في أول لقاء لنا معهم.

«إذا حاولنا سبر غور هذا الشّعب، فعلينا أن نعيش في مجتمعه ونرى صلابة معتقداته التي تنفّرنا أحياناً. ليس لدى السّاميين أنصاف حلول في تصوّراتهم وهم شعب بألوان أولية، بالأخص الأبيض والأسود، وهم لا يفهمون تعقيداتنا الميتافيزيقية، ولكن هناك حقيقة أو لا حقيقة، اعتقاد أو لا اعتقاد، دون وجود درجات بينها.

«بالإضافة إلى التّصوّر الأسود والأبيض لدى الشّعب السّاميّ، فإنّ تكوينهم الدّاخلي هو كذلك أيضاً. كما أنّ أفكارهم تتجه نحو طرفي نقيض ويبدو أحياناً أنهم جميعاً متنافرون، فهم يرفضون المصالحة ويمضون في أفكارهم إلى نهاياتها اللامنطقية دون أن يلتفتوا إلى التّضارب في نتائجها. تجدهم يتأرجحون في أحكامهم وآرائهم بهدوء ورباطة جأش، وكأنهم لا يدركون طيش ما يقومون به».

إن طلاقة لورَنس في اللغة الإنكليزية أمرٌ يثير الإعجاب، ويعود السّبب حتماً إلى قراءته للأعمال الأدبية ومعرفته باللغات القديمة والحديثة. تجد مفرداته أكثر غنى من مفردات أيّ أستاذ مثقف ولديه قدرة وصفية فائقة كما لاحظنا عند وصفه لموت صديقه طلال الحريدين في طَفَس.

ولورَنس رجلٌ يحتقر المال ويعيش عيشة الفقر، مع أنه عندما كان في الصّحراء كان له رصيدٌ غير محدود، وكان بإمكانه أن يسحب من الحكومة البريطانية مئات الألوف من الجنيهات. وكان من المألوف أن تراه يحشو عشرة آلاف جنيه ذهبي في كل جهة من الخُرج المحمول على بعيره وهو يسير بهذا المبلغ الضّخم وليس معه في الصّحراء كلها سوى نحو عشرة من البدو! وفي ذات يوم سحب لورَنس من الميجور سكوت ستمئة ليرة إنكليزية «لشراء بعض الأشياء». كان الميجور سكوت يضع صناديق الذّهب

في خيمته بمركز رئاسة الجيش في العَقَبة، وسمع الميجور مينارد الذي كان يتولى الأعمال بالنّيابة عن الميجور سكوت وطلب وصلاً بالمبلغ. فلما سمع لورَنس بهذا الخبر استغرق في الضّحك ثم قال: «سأكتب له وصلاً»، وربما كان هذا هو الوصل الوحيد الذي وقّعه. أمّا الرّسائل التي كانت تأتيه إلى الصّحراء فكان يقرأها عادة ثم يحرقها دون أن يكلّف نفسه عناء الرّد عليها.

كانت رحلة لورنس إلى الشّرق غريبة ومليئة بالتّجارب، وكان مولعاً بالسّجاد الشّرقي لدرجة أنه اشترى بعضاً منه أثناء تجواله. تجد على أرض خيمته في العَقَبة قطعتين جميلتين كان ينام على واحدة بينما كان رفيقه، الميجور مارشال يستخدم سرير التّخييم. إحدى السّجادتين موجودة الآن في منزل السّيدة آلِنْبي والأخرى لدى مارشال. ذات يوم، في سوق جدّة، رأى لورَنس حلّاقاً جالساً على سجّادة صلاة أعجبته وكان فيها ثقبان بقطر ثلاثة أو أربعة بوصات، لذلك قدّمها الحلاق له مقابل جنيهين وقبل لورَنس بشرائها. ولمّا أخذها معه إلى القاهرة قيّمها لدى تاجر سجاد مصري مشهور فقال إنها تساوي سبعين جنيهاً بعد ترميمها، فأرسل لورَنس إلى الحلاق ورقة نقدية بقيمة خمسة جنيهات. وفي منزل والدته في أوكسفورد كان لديه كومة من السّجاد والبسط الشّرقية لا تزال مغطاة بتراب الشّرق. وصادف أن تزوّج صديق للعائلة أثناء غياب لورَنس فأرسلت والدته إحدى السّجاجيد كهدية زفاف، وعندما عاد الكولونيل أخبرته بالقصّة وتعللت بأنها اعتقدت أنها لا تساوي الكثير. فقال لورَنس: «إن تلك السّجادة التي أهديتيها كلّفتني مئة وسبعة وأربعين جنيهاً». لكنه لم ينزعج كثيراً ونسي أمرها فوراً.

بعد انتهاء السّنة التي عمل خلالها لورَنس كمستشار للشّرق الأدنى في مكتب الكولونيل، غادر العمل ووجد لنفسه منفذاً آخر لطاقته الزّائدة. لقد التقى بضابط عسكري لديه دراجة نارية لم يكن يستطيع التّحكم بقيادتها، فاشتراها لورَنس وأخذ يجوب عليها أنحاء إنكلترا كما كان في السّابق يقود سيارة البلو مِست "Blue Mist" في الصّحراء العربيّة.

عندما كان لورَنس طالباً في جامعة أوكسفورد، قطع عهداً مع صديق له بأن يتّصل أحدهما بالآخر إن حصل لهما أمر مهمّ ليحتفلا بـه معاً. وفي عام 1920 أبرق لورَنس إلى صديقه قائلاً: «تعال على الفور، لقد فعلتُ شيئاً». كانت تلك أول رسالة يتبادلها الاثنان منذ أيام الجامعة، ولما وصل الصّديق أطلعه لورَنس على الإنجاز الذي يستحق الاحتفال، إذ كان قد أنهى بناء كوخه الصّغير في طرف غابة إيبنغ Epping واشترى بضع بقرات.

تُعد غابة إيبنغ نوعاً من المحميات الطّبيعية، وفيها قانون يحظر تشييد الأبنية الثّابتة. وبعد أن أنهى لورَنس بناء كوخه أتى رجال البوليس وأخبروه بأنه قد انتهك القانون لأن منزله كان بناءً ثابتاً. فما كان من لورَنس إلا أن اشترى بعض الطّلاء ورسم أربعة دواليب تمويهية على جوانب الكوخ. لم تعد السّلطات تزعجه بعدها، لكن حدث حريق بعد مدّة أتى تقريباً على كل ما يملك.

أما مصير لورَنس في المستقبل فالعلم عند الله وحده(1)، لكنّ هناك أمراً مؤكداً واحد هو أنه لن يسمح لبلاده بأن تبرزه كبطل، لكنه قد يعيش ليرى الأثر الذي أحدثه هناك في الصّحراء بشكل قوة جديدة مهمّة في الشّرق. نتيجةً لحرب التّحرير العربيّة، التي لم تكن حبراً على ورق، ونتيجةً لحملة آلِنبي في فلسطين وسوريا، نشأت ثلاث دول عربيّة جديدة هي مملكة الحجاز تحت سلطة الملك حُسين، ودولة الأردنّ المستقلة بزعامة الابن الثّاني لحُسين، السّلطان عبد الله، ومملكة العراق في بلاد الرّافدين حيث اعتلى عرشها الابن الثّالث لحُسين، الملك فيصل. لقد كان حلماً للثّلاثة بمساندة من الابن الأكبر لحُسين، الملك علي الذي ورث عرش أبيه في مكّة ليؤسّس ذات يوم المملكة العربيّة المتّحدة.

كانت الأمورُ معوّلة على الملك فيصل، وكان الكولونيل لورَنس قد لعب دوراً بارزاً في جعله أعظم زعيم عربي في زمانه، لكن مهام فيصل جسيمة، وهو المثل الأعلى في نظر شعبه. هل سيكون من القوة بحيث يحافظ على مركزه في بغداد ويبقى الشّخصية

(1) كانت وفاته في أوكسفورد بحادث درّاجة آلية في 19 مايو من عام 1935.

القياديـة في العالـم العربي؟ إنّ الأحداث تتحرّك بسـرعة الآن في الشّـرق الأدنى، وإذا تمكن الملك فيصل بقوة شـخصيته المتّزنة أن يسـتمرّ في محـو النّزاعات القديمة بين قبائـل ومـدن الصّحـراء، وقد سـاعده لورَنـس في ذلك بشـكل كبيـر، وإذا كانت دول الغرب مسـتعدّة لإرسال مهندسي السّـكك الحديدية والتّمديدات الصّحية وتمديدات الرّي والمستشـارين السّياسـيين والعسـكريين النّزيهين، والمسـاهمة بإنشاء المدارس وتقديم الدّعم المالي، عندها سيعود مجدُ بابل إلى بلاد الرّافدين، وسـيكون مسـتقبل فيصل وإخوته هو مستقبل جزيرة العرب. ولا يستطيع أحدٌ معرفة نهاية القصة[1].

مع ذلك هناك أمرٌ مؤكد هو أن فيصل، كسلفه هارون الرّشيد، هو ملكٌ عادل ورحيم، لكن لولا مسـاعدة الشّـاب لورَنس لما كان يحكم بغداد اليوم، ولما أصبح شـقيقه عبد الله سـلطاناً على الأردن، ولما سـنحت الفرصة للعرب ليطالبوا بالملك حسين خليفة لهم. كان هذا الشّاب هو الذي قضى على الأحقاد الدّموية التي يرجع تاريخها إلى ألف سنة، وهو الذي أسّس الجيش العربي، ونظّم الحملة من الوجهة الحربية وقاد الجيوش العربيّة، واكتسح الأتراك وردَّهم ألف ميل عن مكّة ودمشق، وكان الدّماغ المفكّر للثّورة العربيّة، ودخل أسواق دمشق دخول الظّافر المنتصر، وأسّس حكومة للأمير فيصل في عاصمـة عُمر وصلاح الدّيـن، أقدم مدينة في العالم. ولـم يكـن لورَنس ليوفّق إلى هذه الأشـياء وغيرها لو لم يُخلص للشّرق وللشّرقيين، ولو لـم يحبّ سكان الصّحراء محبّة أتاحت له الفوز التّام في السّياسة الشّرقية ومكّنته من إحراز ثقة الشّعوب العربيّة.

لم يكن في مخيّلة لورَنس، عندما كان يدرس آثار الحثّيين، أن يلعب يوماً ما دوراً رئيسياً في بناء إمبراطورية جديدة بدلاً من تجميع قطع متناثرة لمملكة بائدة مدفونة تحت الأرض. كتب الكابتن توهي Tuohy في مذكرته الموجزة عن «الفيلق السّرّي» يقول: «ربما لم يسبق لمهمّته المليئة بالمغامرات مثيلٌ في هذه الحرب ولا في أية حرب أخرى».

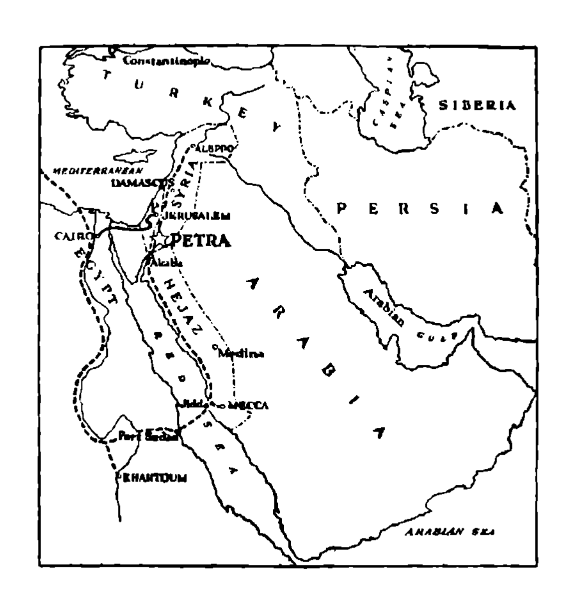
---

(1) زالت مملكة الشّريف حسين بتولّي آل سعود السّلطة في الجزيرة، وزال مُلك الملك فيصل في سوريا (1918-1920)، ثم انتهى حكم أسرته في العراق (بعد حكم دام 37 سنة) بمقتل حفيده الملك فيصل الثّاني بن غازي في بغداد عام 1958. ولم يبق من أعقاب الشّريف حسين في الحكم اليوم سوى أحفاد الشّريف عبد الله في المملكة الأردنيّة الهاشميّة.

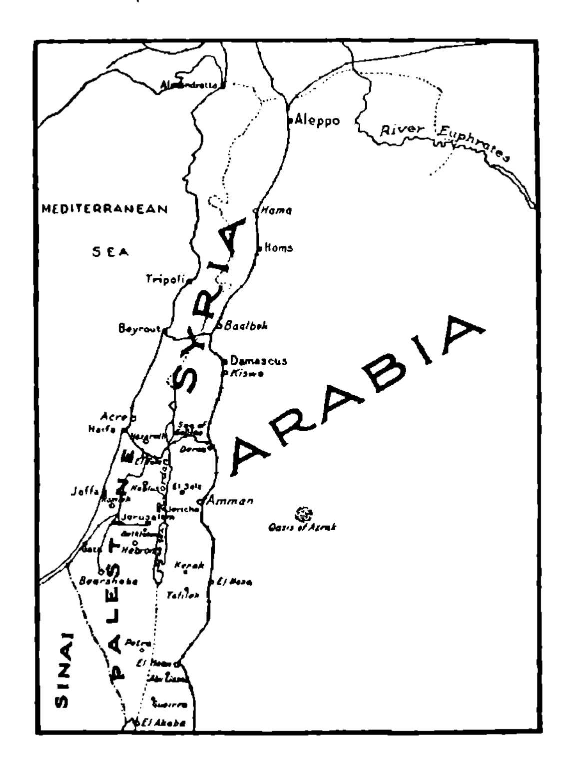
هـذه صفحة خالدة من تاريخ شـاعر ومفكـر في الثّامنة والعشـرين من عمره وصل إلى الصّحراء العربيّة في فبراير سـنة 1916 لينظّم جيشـاً بصحبة ثلاثة مرافقين فقط. لا أستطيع تصور مهمّة أشق من مهمّتهم، فلم يكونوا يملكون المال ولا وسائل نقل سوى بعض الجمال ولا وسـائل اتصال سـوى راكبي الجمال. كانوا يحاولون إنشاء وتجهيز جيـش فـي بلد ليس فيـه صناعة، بل ينتج القليل مـن الغذاء والأقلّ مـن الماء. في بقاع عديدة من جزيرة العرب كانت أماكن وجود المياه تبعد عن بعضها مسـافة خمسـة أيام على ظهر الجمال، ولم يكن هناك قوانين تساعدهم، وكانوا يحاولون أن يخلقوا جيشاً من رجال القبائل البدوية الذين امتلأت قلوبهم بالأحقاد منذ مئات السّنوات، من البدو الذين يتقاتلون في سـبيل الحصول على مياه الشّـرب وفي سـبيل التّسابق إلى المراعي وسـلب الجمال، هم قوم عندمـا يلتقون في الصّحراء يتبادلـون إطلاق الرّصاص وفق مبادئ الكياسة الشّرقية.

تختلـف أوروبـا تماماً عن آسـيا في العـادات وطريقـة التّفكير، وربما تمرّ مئة سـنة أخـرى قبل أن تنجب أوروبا رجالاً آخرين يسـتطيعون فهم العـرب واتّباع عاداتهم من أمثال ماركو پولو البندقي، والجنرال تشارلز غوردون، وبالطبع توماس إدوارد لورَنس الفارس العربي الحديث.

* * *



خريطة تمثّل جزيرة العرب وبلاد الشّام وتركية



خريطة تفصيليّة لبلاد الشّام

فهرس الكتاب



مغامرات مع لورَنس في جزيرة العرب

لويل توماس كاتب وصحافي ومذيع ومؤلف أميركي شهير. ولد في وودينغتون بولاية أوهايو عام 1892 ومنذ كان في العشرينات من عمره عمل مراسلاً حربياً في أوروبا والشّرق الأوسط، إبّان الحرب العالميّة الأولى وحروبها الطّاحنة. يعود إليه السّبق في تكريس أسطورة توماس إدوارد لورَنس كبطل جماهيري، باعتماد المبالغة والرّوايات الخياليّة والحبكات الدّراميّة التي يخالط الكثير منها بُعدٌ شاعري. وبعد ذلك اشتهر لويل توماس بأحاديثه الإذاعيّة على راديو CBS وبرامجه التلفزيونيّة التي بدأت منذ عام 1930 ودامت لجيلين كاملين منذ بداية عصر التلفزيون، وعدا ذلك صدر له أكثر من 50 كتاباً حول رحلاته ومغامراته القيّمة.

بعدما كنا نشرنا في هذه السّلسلة كتاب لورَنس "ثورة في الصّحراء"، يسرّنا أن نردفه بهذا الكتاب الشّائق والممتع، الذي لم يطّلع عليه قرّاء العربيّة حتى الآن. فيه يروي الكاتب بقالب شائق ولغة ممتعة سلسلة كيفية التقائه بلورنس في القُدس. بعدما سمع عنه الكثير من الأقوال التي غدت بمثابة الأساطير، فقرّر أن يرافقه في الكثير من حملاته لنسف القطارات وقتال الجيش التّركي في شمالي جزيرة العرب وجنوبي سوريا، وكان يروي وقائع ما يراه بأمّ العين ويدوّن الحدث وكأنّك تراه بعينك. ولا يفوته أن يسبغ على النّص مسحة من الطرافة والفكاهة. وقد اعتمدنا على الطّبعة الأولى التي صدرت في لندن عام 1924 وكذلك على طبعة أخرى مماثلة صدرت في نيويورك بالعام ذاته. ولقد طُبع الكتاب في العشرينيات مراراً وحقّق مبيعات هائلة.

السعر 55 درهماً





